

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

مخبر بحث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر



أطروحة دكتوراه

مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث (LMD)

الشعبة: تاريخ

التخصص: تاريخ حديث

القبيلة والسلطة في بايلك الغرب خلال عهد الدايات (1831-1671)

إعداد الطالب: جيرب هشام

إشراف: بالعجال أحمد

نوقشت أمام لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
لزهر بديدة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	رئيساً
أحمد بالعجال	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	مشرفاً
نجوى طوبال	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	مناقشاً
عبد الكامل عطية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	مناقشاً
كمال بيرم	أستاذ التعليم العالي	جامعة المسيلة	مناقشاً
ودان بوغفالة	أستاذ التعليم العالي	جامعة معسكر	مناقشاً

السنة الجامعية: 1446-1447 هـ / 2024-2025 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

و الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا

وَ حَبِيبِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ

سَلَام

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، و بفضلله و توفيقه أجزنت

هذا العمل المتواضع ، بعد رحلة بحث طويلة ،ساد فيها التحدي و

الإصرار ، لا يسعني في ختام هذه الأطروحة، إلا أن أعبر عن

امتناني لأستاذي المشرف الدكتور أحمد بلعجال، الذي لم يدخر جهدا

في توجيهي طوال فترة إنجاز هذه الأطروحة، كما أشكر أعضاء لجنة

المناقشة على قبول مناقشة أطروحتي، كما أتقدم بالشكر لكل من

ساهم في دعمي و مساعدتي، سواء بالمعلومة أو بالتشجيع، كما أشكر

موظفي الإدارة بقسم التاريخ بجامعة الوادي على تقديم كل

التسهيلات، التي كانت بلا شك مساهما فاعلا في خلق فضاء محفز

على البحث العلمي.

إهداء

إلى الوالدين الكريمين، حفظهما الله و رعاهما، وإلى جميع أفراد
أسرتي، وإلى كل من قاموا بتشجيعي طوال حياتي الدراسية ،
فكانوا دوما مصدر دعم روحي و معنوي.
إليكم جميعا أهدي ثمرة هذا الجهد ، عرفانا ومحبة.

قائمة المختصرات

ج : جزء

ص: صفحة

ط: طبعة

م: ميلادي

هـ: هجري

مج: مجلد

ع: عدد

تح: تحقيق

تق: تقديم

د.ت : دون تاريخ

د.ط: دون طبعة

Ibid : المرجع نفسه

Op Cit : المرجع السابق

P : page : صفحة

مقدمة

تعتبر فترة حكم الدايات في الجزائر، من الفترات التاريخية المحورية، التي شهدت تحولات عميقة، في البنية السياسية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، حيث تداخلت فيها عناصر السلطة العثمانية المركزية مع تأثيرات العوامل المحلية وكان بايلك الغرب أحد هذه الأقاليم الأكثر تأثرا في هذا العهد، حيث كانت القبائل تلعب دورا محوريا، في تشكيل المعالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمنطقة.

لقد شكل التفاعل بين السلطة المركزية والقبائل المكونة لهذا الإقليم، محورا من محاور استقرار النظام العثماني أو اهتزازه، فالتعاون بين السلطة الحاكمة وقادة القبائل، كان أحيانا عاملا في تعزيز النفوذ العثماني، فيما كان التوتر والصراع بين الطرفين في أحيان أخرى يؤدي إلى تغييرات جذرية في نظام الحكم وفي الواقع السياسي للبايلك، وبذلك فإن دراسة هذا التفاعل يبرز العديد من الأبعاد السياسية والاجتماعية، التي تساهم في تفسير التحولات، التي شهدتها الجزائر خلال فترات هذا العهد.

من جهة أخرى، كانت العلاقات بين القوى السياسية الداخلية والخارجية، تترك آثارها الواضحة على حياة المجتمع الجزائري، خاصة في ظل التنافس على النفوذ الإقليمي، فكانت هذه التحولات تشكل تحديا حقيقيا للسلطة العثمانية، التي سعت إلى تدعيم سيطرتها عبر آليات محلية تعتمد في جزء كبير منها على العلاقات مع القبائل المنتشرة في مختلف أرجاء البايك.

يتناول هذا الموضوع، المؤتمر تحت عنوان "القبيلة والسلطة في بايلك الغرب خلال عهد الدايات (1671-1831)"، والذي نبرز فيه العلاقات العامة والتفاعلات المعقدة، التي شكلت الأبعاد السياسية والاجتماعية لبايلك الغرب، خلال عهد الدايات من خلال تحليل طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية المحلية والقبائل، ويسعى البحث إلى فهم وإحتواء المجريات التاريخية

،وكيف أثرت هذه الكيانات على استقرار النظام السياسي في المنطقة، كما يتناول دور قبائل البايك في دعم أو تحدي الهيكل الإداري والعسكري للسلطات، مع تسليط الضوء على تأثير هذه العلاقات على الوضعين الاقتصادي والاجتماعي، كما تركز الدراسة على كيفية تشكيل هذه العلاقة للتوازنات السياسية والإدارية، في فترة تاريخية هامة من تاريخ الجزائر.

-دوافع إختيار الموضوع:

تم اختيار هذا الموضوع لأسباب عديدة هي كالاتي:

- أهمية دراسة العلاقات بين قبائل باييك الغرب والسلطة العثمانية،خلال عهد الدايات لفهم كيفية تشكيل النظام السياسي والإداري في الجزائر.
- إبراز أهمية التركيز على العلاقة بين السلطة والقبائل، في تلك الفترة التاريخية لتسليط الضوء على كيفية تأثير هذه القبائل، في استقرار النظام العثماني.
- ندرة الدراسات الأكاديمية التي تتناول هذا الموضوع بشكل شامل.
- تناول دور قبائل المخزن في الحفاظ على الاستقرار العسكري والإداري في باييك الغرب، لفهم طبيعة الحكم العثماني وأدواته المستعملة في ذلك.
- يعتبر فرصة لإعادة دراسة تاريخ المنطقة الغربية للجزائر، مع تحديد العلاقات الداخلية التي بلورت لنا أهم أحداث الحقبة العثمانية.

-أهمية الموضوع:

يكتسي هذا الموضوع أهمية بالغة كونه:

-الموضوع يدخل ضمن البحوث السياسية الاجتماعية، حيث ينطلق من اعتبار القبيلة من الثوابت الأساسية في بناء السلطة السياسية لحكم العثمانيين في الجزائر، وبالتالي يمكن الإعتماد على التفاعل بين القبيلة والسلطة، وهذا ما يؤدي إلى معرفة الدور الذي تلعبه القبيلة في الاستقرار السياسي.

-يغطي فترة زمنية من تاريخ الجزائر،وهي فترة حكم الدايات،حيث شهدت تحولات كبرى كالتحرير النهائي لوهـران من الإسبان، كما شهدت قيام العديد من الثورات، التي كادت أن تعصف بالوجود العثماني في البايك خاصة والجزائر عامة مثل: الثورة الدرقاوية والثورة التيجانية.

-الموضوع يعطي تصورات إيجابية وأخرى سلبية،ما يؤدي إلى البحث أكثر في موضوع القبائل ومدى تفاعلها، ودورها في رسم الحياة العامة في الجزائر خلال هذا العهد.

-أهداف الموضوع:

لهذه الدراسة أهداف هي كالآتي:

- دراسة طبيعة العلاقة بين قبائل بايـك الغرب والسلطة العثمانية،خلال عهد الدايات وإبراز دورها في تحقيق الإستقرار السياسي في المنطقة.

- فهم دور القبائل خاصة المخزنية منها، في دعم الهيكل الإداري والعسكري للبايـك،وما مدى دعمها للسلطة.

-دراسة وضعية سائر القبائل في البايـك،وتحديد علاقتها العامة مع السلطة ومدى خضوعها لها.

- كيفية توظيف السلطات للآليات السياسية وتوجهاتها، التي بدورها تمخضت عنها العلاقات بين السلطة والقبائل خلال هذا العهد، بما يبرز إزدواجية الخضوع والتمرد وانعكاسها في تحديد العلاقات بين الأطراف.

الدراسات السابقة:

-مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث بعنوان **القوى المحلية في بايلك الغرب الجزائري آواخر العهد العثماني(1206-1246هـ-1792-1831م)**، تقديم سميرة طالي معمر وتحت إشراف الأستاذ عمار بن خروف والتي تمت مناقشتها بقسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الجزائر، سنة 2010.

-مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث بعنوان **الحياة الحضرية في بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر**، تقديم الواليش فتيحة وتحت إشراف الأستاذ مولاي بلحميسي، والتي تمت مناقشتها بمعهد التاريخ في جامعة الجزائر سنة 1994.

لتحقيق هذه الأهداف إعتمدنا في دراستنا على إشكالية رئيسية هي كالاتي:

كيف تفاعلت القبائل مع السلطة العثمانية في بايلك الغرب؟ وما تأثير هذا التفاعل على البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية على البايك خلال عهد الدايات؟.

إندرج تحت هذه الإشكالية العديد من التساؤلات الفرعية:

- كيف ساهمت القبائل في دعم السلطة وتنظيم المجال الإداري في البايك؟

- ما هي أبرز الأنشطة الاقتصادية لقبائل بايلك الغرب وما موقف السلطة منها؟

- إلى أي مدى ساهمت الكوارث الطبيعية والأوضاع الصحية، في رسم العلاقة بين القبائل والسلطة؟

- كيف كانت الأوضاع الثقافية لقبائل البايك وما موقف السلطة منها؟

- ما مدى تأثير الثورات الصوفية في تحديد التفاعل بين السلطة والقبائل؟

- إلى أي مدى أثرت التوجهات القبلية في الصراع العثماني الإسباني على وهران؟

كما أننا في دراساتنا هذه من أجل تنظيم المادة العلمية والحفاظ على سلاسة المعلومات المتناولة وترتيبها إعتدنا على منهجين أساسيين يخدمان الموضوع هما:

أ. **المنهج الوصفي التاريخي:** باعتباره المنهج المناسب في وصف الأحداث والوقائع التاريخية، بما يتناسب مع طبيعة الموضوع الاجتماعية والسياسية، بحيث تم من خلاله وصف طبيعة العلاقة بين القبائل والسلطة العثمانية، في بايلك الغرب مبرزا من خلاله أبرز مظاهر الخضوع والتبعية وأيضا مظاهر العصيان والتمرد.

ب. **المنهج التحليلي:** باعتباره المنهج الأنسب في تفكيك وتفسير الأوضاع العامة لقبائل بايلك الغرب وعلاقتها مع السلطة العثمانية، بإتخاذ جميع التدابير اللازمة من أجل تحليل الوقائع وأسبابها والمظاهر التي ساهمت في تحديد العلاقة بين الطرفين.

اعتمدنا في دراسة هذا الموضوع على خمسة فصول، تناولنا فيها مختلف الجوانب المتعلقة بموضوع الأطروحة، بما يتماشى مع متطلبات البحث الأكاديمي وإخراجه في قالب علمي مكتمل الجوانب.

جاء الفصل الأول بعنوان: **بايلك الغرب خلال عهد الدايات 1671-1830 "المجال وتنظيمه"** وتناولنا فيه الإطارين الجغرافي والتاريخي للبايلك، كما تطرقنا إلى أشكال التنظيم

الإداري والهرم السلطوي خلال عهد الدايات، مع عرض لأهم المدن في البايك كما تناولنا فيه البايات الذين تداولوا على الحكم فيه طيلة تلك الحقبة.

أما الفصل الثاني، فكان بعنوان "قبائل بايك الغرب وعلاقتها العامة بالسلطة خلال عهد الدايات"، وتناولنا فيه النظرة العامة إلى القبائل، من حيث المفهوم ومناطق الانتشار، ثم قمنا بالتفصيل في تصنيف القبائل وفق علاقتها بالسلطة، فبدأنا بقبائل المخزن، ثم قبائل الرعية، فالقبائل الحليفة، وأخيرًا القبائل المستقلة، مع مراعاة التوزيع الجغرافي والتعامل الإداري معها.

الفصل الثالث جاء بعنوان "النشاط الاقتصادي لقبائل بايك الغرب وانعكاسه في تحديد العلاقة مع السلطة"، وتناولنا فيه ملكية القبائل للأراضي، وأنواع هذه الأراضي وموقف السلطة منها، كما عرضنا النشاط الزراعي وأدواته، ثم الصناعات والحرف التقليدية ومراكز انتشارها، وأخيرًا النشاط التجاري والطرق الرئيسية والثانوية في البايك والأسواق والمبادلات التجارية.

الفصل الرابع بعنوان "الأوضاع الاجتماعية والثقافية لقبائل بايك الغرب وموقف السلطة منها"، تناولنا فيه الكوارث الطبيعية كالقحط، الجراد، المجاعات، الفيضانات والزلازل، إضافة إلى الأوبئة والأمراض المنتشرة التي ضربت أغلبها البايك أواخر العهد المدروس، أما من الناحية الثقافية تم تناول المؤسسات التعليمية، من مساجد وزوايا ومدارس وكتاتيب ورباطات، كما تناولنا علاقة العلماء بالسلطة، وأبرز الشخصيات العلمية والأسر، التي تقلدت مناصب عليا، ثم تناولنا مرحلة التوتر بين العلماء والسلطة في أواخر عهد الدايات.

أما الفصل الخامس والأخير، فكان بعنوان "دور القبائل في رسم الخارطة السياسية لبايك الغرب خلال عهد الدايات"، وناقشنا فيه دور قبائل المخزن في الجباية، ودعم خزينة البايك، ومشاركتها الجهادية في تحرير وهران الأول والثاني من الاحتلال الإسباني، كما تطرقنا إلى الثورات الصوفية، مركزين على نموذجين: الثورة الدرقاوية والثورة التيجانية، مع إبراز مواقف

القبائل منها ورد فعل السلطة، كما تناولنا القبائل المتعاونة مع الاحتلال الإسباني، وعلاقاتها مع السلطة والقبائل الأخرى في البايك، كما تطرقنا إلى أشكال دعمها للاحتلال الإسباني.

لقد اعتمدنا من أجل إنجاز هذا البحث العلمي على العديد من المصادر والمراجع المحلية والأجنبية، بالإضافة إلى الدراسات الأكاديمية، وأبرزها:

- **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر** -
للآغا بن عودة المزاري، الذي تناول فيه العديد من محطات تاريخ البايك في عهد الدايات خاصة أواخره، فذكر فيه الكثير من البايات وفترة حكمهم، كما تناول الحياة القبلية في البايك، بتناوله مختلف القبائل وعلاقاتها بالسلطة كقبائل المخزن وعلى رأسها قبائل الدواير والزمالة والغرابة والبرجية، مع العلم أنه ينتسب لأحد العائلات المخزنية المعروفة وهي قبيلة البحايشية أحد عشائر قبيلة الدواير المشهورة و إسمه الكامل أبو إسماعيل بن عودة بن الحاج محمد المزاري البحتاوي كما تحدث على أنساب الكثير من القبائل، خاصة قبائل بني عامر ومجاهر العربيتين، وقام بالتأريخ للكثير من الحوادث والوقائع مثل الثورة الدرقاوية والثورة التيجانية، وتمرد الباي بوكابوس رفقة قبيلة الأمحال على سلطة الداوي، ومراوحة قبيلة الحشم بين الطاعة والتمرد، كما أنه كان ملازماً وتلميذاً للشيخ محمد بن يوسف الزياني صاحب كتاب دليل الحيران وأنيس السهران.

- **أنيس الغريب والمسافر لمسلم بن عبد القادر الوهراني**، تناول فيه أحداثاً هامة من تاريخ باييك الغرب، كما أنه كان شاهداً على الكثير من الأحداث، بالإضافة إلى كونه شغل منصب باش دفتر باي وهران، وقد ساعده منصبه هذا في كتابة العديد من المحطات التاريخية للباييك أواخر العهد العثماني، خصوصاً أن منصبه تقلده الكثير من العلماء والمؤرخين قبله، مثل مصطفى بن عبدالله بن زرفة صاحب كتاب الرحلة القمرية، وابن سحنون الراشدي صاحب

كتاب الثغر الجماني... وابن هطال التلمساني صاحب كتاب رحلة الباي محمد الكبير...، وهذا ما جعله يتطرق إلى القبائل بمختلف تصنيفاتها وعلاقاتها المباشرة مع السلطة، بالإضافة الى تناوله ابرز الثورات والتمردات خلال تلك الفترة.

- **بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر لعبد القادر المشرفي،** وتناول فيه مختلف قبائل البايك، وكذلك الاحتلال الإسباني ومن كان تحت سلطتهم من القبائل، وتناول أيضا أنساب العديد من هذه القبائل خاصة قبيلة بني عامر الهلالية العربية، وتناول فيه العلاقة الودية لهذه القبائل مع الإسبان، وعلاقتهم التي كانت تتميز بالعداء مع السلطة العثمانية وقوات المخزن وسائر القبائل الأخرى في البايك .

- **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون الراشدي،** وكان شاهداً على الأحداث، بالإضافة إلى قربيه من البايات، كما أنه تقلد العديد من المناصب، واشتغل مؤدباً لولد الباي محمد الكبير "عثمان"، هذا ما جعله قريب من مصنع القرارات ما ساعده في الكتابة والتأريخ لهذه الفترة، بتناوله مختلف جوانب الحياة السياسية في البايك والتطرق إلى أهم الحوادث التاريخية التي جرت بين السلطة والعديد من القبائل.

أبرز المراجع التي تم الإعتماد عليها:

- **مدينة وهران عبر التاريخ ليحيى بوعزيز،** وتناول في جزء كبير منه تاريخ وهران خلال الاحتلال الإسباني والحقبة العثمانية، كما ذكر أهم البايات في أواخر العهد العثماني، وأهم الثورات والتمردات القبلية وكيفية تعامل السلطات معها، كما تناول في طيات كتابه مختلف الجوانب الاقتصادية والثقافية في بايلك الغرب خلال العهد المدروس.

- **ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني لناصر الدين سعيدوني،** تناول فيه مواضيع عديدة تمس جوانب من الحياة الاجتماعية في بايلك الغرب خلال

عهد الدايات، بالإضافة إلى تناوله الجانب الاقتصادي في الجزائر خلال هذا العهد مبرزاً فيه بدرجة أكبر جانب الضرائب المفروضة من قبل السلطات على القبائل ودور قبائل المخزن في تحصيلها والمساهمة في إستمرارية الحكم العثماني في البلاد، بالإضافة إلى خدمة مصالحها وتحسين علاقتها بالسلطات.

كما إعتدنا على العديد من المصادر الأجنبية أبرزها:

- كتاب لصاحبه **لوجي دي تاسي** و الذي كتب فيه على العديد من الجوانب الاجتماعية عن الجزائر خلال العهد العثماني، وقد تطرق فيه إلى القبائل المخزنية ودورها في دعم السلطة العثمانية في الجزائر، وقد ألف كتابه هذا خلال زيارته الجزائر سنة 1725م بعنوان

(Histoire du royaume d'Alger)

- كتاب لصاحبه **توماس شو** وقد تناول فيه، الحياة بصفة عامة خاصة الجوانب السياسية والاجتماعية في الجزائر خلال عهد الدايات، وقد عاش في الجزائر خلال القرن 18م بعنوان

(Voyage dans la régence d'Alger)

كما إعتدنا على العديد من المراجع الأجنبية أبرزها:

- كتاب **لولسن إسترهازي** و الذي تحدث فيه كثيرا و معمقا عن تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، وقد تناول فيه الحياة العامة لقبائل البايك وعلاقتهم بالسلطة العثمانية، وكانت كتابته تتعلق بشكل كبير بقبائل المخزن ودورها في الجباية وقمع الثورات والحفاظ على الإستقرار، بعنوان

(De la Domination turque dans l'anciennerégence d'Alger)

كما إعتدنا أيضا على مقال نشر في المجلة الإفريقية **للويس رين**، الذي قدم فيه إحصائيات مهمة حول القبائل في الجزائر بصفة عامة وعلاقتهم بالسلطة في أواخر عهد الدايات، فقد قدم

لنا عدد القبائل في بايلك الغرب، بالإضافة أنه قام بتصنيفها حسب علاقتها مع السلطة، فهناك منها المخزنية والتي قسمها بدورها إلى قسمين: الأول قبائل مخزنية محاربة والثاني قبائل مخزنية تمتنهن الزراعة، وأيضا تناول قبائل الرعية و القبائل المتحالفة والقبائل المستقلة بعنوان

(Le Royaume d'Alger sous le dernier dey)

كما إعتدنا على جملة من الدراسات الأكاديمية المتمثلة خصوصا في أطاريح الدكتوراه المناقشة أبرزها:

-أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني لكمال بن صراوي، المناقشة بقسم التاريخ بجامعة وهران التي تمت مناقشتها سنة 2013، الذي تطرق فيها حول الحياة الاقتصادية للقبائل في بايلك الغرب وعلاقتها العامة بالسلطة، بالإضافة لنتاوله الثورات الصوفية في البايك.

- السلطة والمجتمع في بايلك الغرب الجزائري (1792-1830) لدغموش كاميلية، المناقشة بقسم التاريخ بجامعة وهران التي تمت مناقشتها سنة 2020، وقد تناولت فيها التنظيمات الإدارية في بايلك الغرب بداية من تنظيم الجهاز الإداري مرورا بالتنظيم الإداري في الأرياف و القرى في البايك، كما أنها تناولت تحرير وهران الأول والثاني من الاحتلال الإسباني.

- الصعوبات:

إلا أن خلال دراستنا وبحثنا في هذا الموضوع واجهتنا العديد من الصعوبات هي كالاتي:

- ندرة المصادر المحلية والوثائق الأرشيفية التي تتطرق إلى الجوانب العامة من حياة قبائل بايلك الغرب، وإكتفت أغلبها في تناول الأوضاع في المدن.

- قلة الدراسات الأكاديمية التي تتناول موضوع القبائل بصفة عامة، وبإيالك الغرب بصفة خاصة، الأمر الذي تطلب منا البحث على المادة الأولية، من أجل إخراج البحث في قالب علمي متكامل الجوانب، بالإستعانة بمختلف المصادر رغم تشتت المادة العلمية فيها.

- تناول بعض المصادر المهمة للأحداث بتحيز لأحد الطرفين، خصوصا فيما يتعلق بالسياسات العثمانية ومدى خضوع القبائل أوتمردها، ما أدى بنا إلى فرز المعلومات ومحاولة إستنباط المواقف الأقرب للحقيقة دون التحيز لأي طرف، مستخدمين في ذلك المنهج التحليلي لتفكيك النصوص وإستنباط الحقائق.

- الإمتداد الزمني الطويل للفترة المدروسة، ما جعل منا خلال دراستنا نتوخى الحذر، خشية السقوط في الهفوات، نتيجة تغير هذه العلاقات بين السلطة ومختلف القبائل عبر مراحل عهد الدايات في البايك، خصوصا مع تغير الظروف بداية بتغير البايات المستمر، وتغير الأسباب المحددة للعلاقات أيضا.

وأخيرا في ختام هذا التمهيد، أقدم بأسمى عبارات الشكر والإمتنان والعرفان للأستاذ المشرف: أحمد بلعجال، الذي ظل حريصا على سيرورة البحث من أجل إخراجها في قالب علمي متكامل الجوانب، كما أنه لم يبخل علي بتوجيهاته وإرشاداته وملاحظاته الدقيقة، التي كان لها الدور الكبير في ترتيب الأفكار وسلامة تسلسلها و الوصول إلى هذه النتيجة البحثية، كما أتوجه بالشكر وخالص التقدير أيضا لأعضاء هيئة المناقشة الذين تكلفوا قراءة أطروحتي وتمحيصها ومناقشتها.

وأخيرا أرجوا من الله عز وجل أن أكون قد وفقت في بحثي المتواضع هذا، الذي لا أدعي فيه الإحاطة بكل حيثياته وجوانبه، إنما هو محاولة متواضعة، بذلت فيها قدر إستطاعتي من

أجل دراسة جزء من تاريخ بلادي، وإقليماً من أقاليمها العطرة المباركة، كما أتقدم بالإعتذار عن أي تقصير غير مقصود.

الفصل الأول: بايلك الغرب خلال عهد الدايات "المجال وتنظيمه"

المبحث الأول: الإطار التاريخي و الجغرافي لبايلك الغرب

المبحث الثاني: التنظيم الإداري لبايلك الغرب خلال عهد الدايات

المبحث الثالث: المدن الكبرى في بايلك الغرب خلال عهد الدايات

المبحث الرابع: بايات بايلك الغرب خلال عهد الدايات

الفصل الأول: بايلك الغرب خلال عهد الدايات "المجال وتنظيمه"

تمهيد:

لقد اشتهر بايلك الغرب بمساحته الواسعة، ما جعلت حدوده السياسية كبيرة، وتجاور العديد من الأقاليم والدول، ما جعله يشكل حلقة وصل بين هذه الأقاليم، وهذا الموقع الإستراتيجي ساهم بشكل كبير في تحديد العلاقات السائدة بينه وبين الأقاليم المجاورة، وهذا ما جعل منه محط إهتمام السلطة المركزية والدايات خلال هذا العهد، فحرص العثمانيون على تنظيمه إداريا، بما يمكنه من مواجهة مختلف الصعاب والمخاطر، خاصة وأنه يقع بجوار الإسبان والمغرب الأقصى الذين طالما كانت لهما أطماع توسعية على حساب أراضيهم، علما بأن وهران التي تعد جزءا من البايك كانت تحت الاحتلال الإسباني في أغلب فترات العهد العثماني، فسعت السلطات إلى دعمه عسكريا وماديا بالجيش، بالإضافة إلى توظيف الرجال الأكفاء فيه، بداية من منصب الباي الذي يعتبر المسؤول الأول في البايك، إنتقاء موظفين مخلصين للسلطة على رأس المناصب المهمة في البايك، كما عملت السلطة أيضا على تقسيمه إداريا، في المدن والأرياف بما يتناسب مع تركيبته الاجتماعية.

المبحث الأول : الإطار التاريخي والجغرافي لبايلك الغرب خلال عهد الدايات

أولاً: الإطار التاريخي لبايلك الغرب

تعتبر كلمة البايك، كلمة تركية قديمة، وفي الأصل هذه الكلمة من لغة المغول والسلاجقة، أخذها الأتراك عنهم، ومصطلح بايلك مركب من كلمتين وهي بك، التي تعني وتلفظ في الأصل باي، الذي هو لقب خاص بأبناء السلاطين والحاصلين على لقب الباشا، ومع مرور الزمن أصبح هذا اللقب خاصا لكبار القادة والموظفين في الدولة، والذين يحكمون المقاطعات في مختلف أرجاء الدولة العثمانية، ويطلق عليهم أيضا لقب وزراء الخارج، وكلمة لك وتعني المنطقة أو المقاطعة¹.

لقد اعتمد العثمانيون على هذا اللقب للإشارة إلى عمالهم على الولايات والمقاطعات، ومن لفظ البايك اشتق لقب بيكلربك، التي بدورها تعني أمير الأمراء، وهي رتبة تعد أقل بدرجة من الباشا، ويلفظ هذا اللقب بايلرباي، بذلك أصبح مصطلح البايك يشير إلى كل ما هو ملك للسلطة، فأصبح شائعا بين الناس مثل أرض البايك، وحصون البايك، وخيل البايك، وغيرها مما يشير إلى الممتلكات².

كما يعد البايك، النظام السياسي المعتمد من طرف السلطة العثمانية في الجزائر، وقد شمل أيضا على غرار النظام السياسي الجوانب الإدارية والإقتصادية والاجتماعية، بما يتوافق مع مجتمع القبيلة الإسلامي، كما كان يمثل الباي رأس السلطة في البايك³.

¹ فارس كعوان ، المصطلحات الإدارية العثمانية في الجزائر: مصطلحات الباشا ، الدنوش ، البايك ، كنماذج ، مدارات تاريخية ، دورية دولية محكمة ربع سنوية ، مج 1، عدد خاص، جامعة سطيف 2، 2019، ص 132.

² نفسه، ص 132.

³ نفسه ، ص 133.

لقد أستخدم لفظ البايك في الجزائر للإشارة على المقاطعات التي تدفع الضرائب للحكام ،ومن بعد ذلك أصبح هذا اللفظ يدل على التقسيم الإداري للجزائر خلال العهد العثماني، الذي كان بدوره ينقسم إلى أربع بايلكات، بما فيها دار السلطان(مقر الحكم).¹

كما كان للبايلكات، سجلات مركزية بالجزائر العاصمة والإدارات والدواوين التابعة للسلطة ، وهذا ما يظهر تبعية البايك والباي للإدارة المركزية بمدينة الجزائر بصفة عامة²، مع بداية القرن السادس عشر، تأسست سلطة جديدة بمدينة الجزائر على يد عروج و خير الدين بربروس، وبدأ مع هذا التأسيس إنطلاق مشروع بناء الدولة الجزائرية الحديثة تحت راية الدولة العثمانية³.

في منتصف القرن السادس عشر، أصبحت الخريطة الإدارية للجزائر أكثر وضوحا وقسمت البلاد إلى أربع مقاطعات كبرى⁴، يحكم في كل مقاطعة بايا يتبع مباشرة إلى الإدارة المركزية بالجزائر، من بين هذه البايكات بايلك الغرب، الذي تأسس في عهد حسن بن خير الدين (1540-1552) و في سنة 1563م عين أول باي لبايك الغرب وهو الباي بن خديجة⁵، الذي بدوره أخذ من مدينة مازونة في نفس السنة من توليه الحكم عاصمة للبايلك ، ذلك لبعدها

¹ كمال بن صحراري ، أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد بالعثماني ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث ، قسم التاريخ ، جامعة وهران ، 2012-2013 ، ص19.

² المنور مروش ، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني ، العملة ، الأسعار والمداخيل ، ج1 ، دار القصبة للنشر ، ط1 ، 2009، الجزائر ، ص418.

³ دغموش كاميلية ، السلطة و المجتمع في بايلك الغرب الجزائري (1792-1830) ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث ، قسم التاريخ ، جامعة وهران ، 2019-2020 ، ص76.

⁴ انظر الملحق رقم3.

⁵ يعرف أيضا بلقب أبو خديجة يعد أول باي لبايك الغرب بعد تعيينه من طرف حسن بن خير الدين ، إتخذ من مازونة عاصمة للبايلك ، عرف عنه الشدة و الحزم في تسيير شؤون البايك خاصة في إستخلاص الضرائب ، ينظر: محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تق و تع المهدي البوعبدلي ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، ط2، الجزائر ، 2007، ص192.

عن الخطر الإسباني، ومكانها الذي يتوسط مناطق إستقرار القبائل، بهذا التدبير يمكن أن يواجه الخطر الإسباني والتصدي لغاراتهم¹.

يرى المزاري بأن بايلك الغرب، قام بتنظيمه العثمانيين وعينوا فيه بايا لهم قبل بايلك الشرق، وقد كان له عاصمتان الأولى مازونة وأول باياتها حسن بن خير الدين باشا، وقد قام فيما بعد بتسليمها للباي بن خديجة، كما يذكر المزاري أنه كان يحفظ عشر بايات، إتخذوا من مازونة عاصمة لهم، فيما نسي الباقيين ومن بين هؤلاء البايات الذين ذكرهم الباي السايح الذي حكم زهاء إحدى عشرة سنة، الباي شعبان الزناقي الذي أستشهد على أسوار وهران، في جهاده من أجل تحريرها من الإسبان، الباي محمد بن عيسى الذي يعتبر الباي السادس عشر للبايك، أما العاصمة الثانية فهي تلمسان وحسب المزاري أنه لم يبق في ذاكرته خلال بحثه عن تاريخ بايات الغرب من بايات تلمسان سوى إثنين منهما هما عصمان و يوسف المسراتي، وفي سنة 1686م، أصبحت قلعة بني راشد² هي عاصمة بايلك الغرب الموحدة، وتحت حكم باي واحد، ولم تدم طويلا كونها عاصمة للبايك، بعد أن تم نقل العاصمة مجددا إلى معسكر سنة 1701م، وبقيت معسكر عاصمة للبايك لمدة سبع سنوات أي لغاية سنة 1708م، وهي سنة تحرير وهران الأول من قبضة الإسبان، على يد الباي مصطفى بوشلاغم المسراتي، الذي بدوره قام بنقل العاصمة إلى وهران فور تحريرها، لم يطل أيضا مقام الباي بوشلاغم في وهران، بعد أن عاد الإسبان واحتلوها من جديد سنة 1732، وفي هذه الظروف غير المستقرة قام الباي بنقل عاصمة

¹ محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تح و تق محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط2 ، الجزائر ، 1981 ، ص36

² قلعة بني راشد: أسسها بنو راشد بن محمد ، أحد فروع قبيلة مغراوة خلال القرن السادس هجري ، سكنتها لاقبائل فليطة وبني غدو و قبائل هواره وسجراة خلال العهد العثماني، ينظر: محمد بوركية ، جوانب من مخطوط قلعة بني راشد للشيخ أبي عمران القلعي ، المجلة الجزائرية للمخطوطات ، ع 1 ، مكتبة رشاد للطباعة والنشر ، سيدي بلعباس ، 2003 ، ص ص 110-

البايلك إلى مدينة مستغانم (1732-1837)، ومن بعد ذلك العودة إلى معسكر عاصمة البايلك قبل تحرير وهران وبقي الحال كما هو إلى غاية سنة 1792م، وهو عام تحرير وهران الثاني والأخير على يد الباي محمد الكبير والذي بدوره نقل العاصمة إلى وهران، وبقيت كذلك إلى غاية الاحتلال الفرنسي لها في 4 جانفي 1831م و سقوط النهائي للحكم العثماني¹.

كما كان للعثمانيين توجه واضح، في تحديد سياستهم إتجاه الإيالة، فتيقنوا بعد معاينتهم للأوضاع السياسية، في البلاد بأن الجزائر يستحيل أن تبقى في ظل حكم رجل واحد، ذلك لإتساع الرقعة الجغرافية، وصعوبة تضاريسها وإنتشار قبائلها بالإضافة إلى عدم السيطرة التامة على المناطق الجبلية والصحراوية².

يرى إسترهازي، أن للعثمانيين وجهة نظر صائبة في إختيار عاصمة البايلك في الغرب، بداية أمرهم في الجزائر، بإختيارهم للمدن الداخلية وتجنب المدن الساحلية، التي كانت عرضة للغارات الإسبانية والتي تأخذ من وهران منطلقا لها، هذا ما جعل من مازونة، الإختيار الأفضل لكونها مدينة داخلية بعيدة عن غارات الإسبان وتهديداتهم، بالإضافة الى قربها من مواطن القبائل المحلية، ما يتيح للسلطات تجنيد أبناء القبائل، والإستفادة من الضرائب المستخلصة منهم، مع إمكانية عدم السماح بقيام ثورات أو حركات عصيان وتمرد، بما يعود سلبا على استقرار حكمهم وإستمراره³.

كما أن بايلك الغرب، منذ تأسيسه يتميز بكثرة الصراعات بين العديد من القوى الإقليمية، فكانت أرضه مسرحا للعديد من الحروب، فكانت المعارك فيه مستمرة، وتعتبر الصراعات فيه

¹ بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، تح يحيى بوعزيز ، ج 1 ، دار البصائر للنشر والتوزيع ، طبعة خاصة ، الجزائر ، 2009 ، ص ص 270-271.

² محمد بن ميمون الجزائري ، المصدر السابق ، ص 35.

³ Walsin Esterhazy , De la domination turque dans l'ancienne regence D'Alger , Librairie de charles Golsslin , Paris , 1840 , p 163.

ثلاثية، الجانب الأول يمثل السلطة العثمانية بالبايلك و دفاعها عن أراضي البايلك و مصالحه، اما الجانب الثاني تمثل في الاحتلال الإسباني المتواجد في وهران والمرسى الكبير الذي كان دائم السعي وراء التوسع على حساب أراضي البايلك، أما الجانب الثالث فتمثل في ملوك المغرب الأقصى الطامعين في إقتطاع أراض لهم في البايلك، فسخرُوا ما أُتيح لهم من قوة عسكرية وأموال من أجل ذلك، في الكثير من الفترات وبإختلاف ملوكهم، بل بلغ بهم الأمر إلى إستمالة بعض شيوخ القبائل في البايلك، لإعلان التمرد على السلطة العثمانية، إلا أن مشاريعهم باءت كلها بالفشل ، ونتيجة لهذه الحروب والصراعات الدائمة وعدم الاستقرار، خاصة قبل تحرير وهران الثاني وطرده الإسبان سنة 1792م، جعل البايلك أسهل تنظيمًا لسرعة الأحداث، وتقسيم المهام بين مكونات البايلك من سلطة و قبائل، فزادت بذلك قوته وقدرته على رد المكائد ومواجهة الصعوبات، من خلال تمرسه على الحروب والأزمات، التي جعلته يتعامل معها من خلال تجاربه السابقة¹.

ثانيا: الإطار الجغرافي لبايلك الغرب

إن بايلك الغرب يتربع على مساحة واسعة ما جعلته يعرف تنوعا من حيث التضاريس، بإختلاف المناخ أيضا، الذي يعد عاملا أساسيا في تحديد البيئة الطبيعية للبايلك، ويمكننا أن نحدده جغرافيا، فيحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء الكبرى، وما بينهما تنوع تضاريسي يختلف من منطقة إلى أخرى، حيث نجد الجبال والإنشقاكات والوديان، بالإضافة الى السهول والهضاب التي يتخللها الكثير من الأراضي القاحلة، بسبب وجود الملح بكميات كبيرة في أراضيها، ما يجعل بعض المناطق غير قابلة للعيش أو الإستغلال الزراعي،

¹ سميرة طالي معمر ، القوى المحلية في بايلك الغرب آواخر العهد العثماني (1206هـ-1246هـ/1792م-1830م) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، 2009-2010 ، ص 43.

خاصة المناطق القريبة من المرسى الكبير، التي كانت تتميز بإرتفاع نسبة الملح فيها وتعتبر في الوقت نفسه المزود للبايلك بالملح، كما تصدر كميات كبيرة من هذه المادة الى الخارج¹.

كما نلاحظ بوضوح إمتداد الجبال إلى الغرب، حيث نجد الجبال والسهول والهضاب، التي تمتد نحو الغرب متجهة نحو أربعة إتجاهات، الأول نحو الجنوب والإتجاه الثاني نحو الجنوب الغربي والإتجاه الثالث نحو الشمال والإتجاه الرابع نحو الشمال الشرقي، كما تشكل الهضاب مكونا بارزا في التكوين الجيولوجي للبايلك، فهي تشكل ما مقداره حوالي 17 بالمئة أي السدس من المساحة الإجمالية للبايلك، بينما تشكل السهول أكبر مكون طبيعي، حيث تشكل ما نسبته الثلثين من إجمالي مساحة البايلك، هذا ما يوفر مساحات زراعية هائلة وسهلة الإستغلال لإنبساطها، كما أن البايلك تتخله الكثير من الأودية، التي تساهم في تخصيب الأراضي، ما يجعل من هذه السهول أراضي زراعية و رعوية غنية، هذا ما يفسر وفرة المحاصيل والمنتجات الزراعية وكثرة المواشي ببايلك الغرب، الأمر الذي جعله ممونا رئيسيا للبلاد بمختلف المنتجات الزراعية².

من ناحية المساحة والتحديد الجغرافي، فيعادل بايلك الغرب خلال العهد العثماني بما يعرف بالقطاع الوهراني خلال حقبة الإستعمار الفرنسي أوبما يعرف اليوم بالغرب الجزائري، يتميز بموقع إستراتيجي هام، فهو يطل من ناحية الشمال على البحر الأبيض المتوسط، بمقابلة شبه الجزيرة الإيبيرية ويحده من الغرب المغرب الأقصى³، أما من ناحية الشرق، فيحده بايلك

¹ الواليش فتيحة ، الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1993م-1994م ، ص36.

² قراوي نادية ، دور الريف في الغرب الجزائري في مسار الثورة التحريرية 1954م-1958م ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، قسم التاريخ ، جامعة وهران ، 2010م-2011م ، ص13.

³ Tinthoin Robert , L'oranie seographie ,son histoire , ses centres vitaux ed :Robert ,Oran,1952

التيطري ومن الجنوب تحده الصحراء، ولهذا الإتساع في المساحة والموقع الإستراتيجي الهام، تنوع جيولوجي في البنية التضاريسية، يجعل منه غني من الناحية الاقتصادية¹.

كما يمكننا أن نعطي لبايلك الغرب حدودا أدق، فيحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب الصحراء ومن الشرق وادي الشلف²، ومن الغرب وادي ملوية³، فيما يذكر الزهار أن حكم باي الغرب يصل إلى بوحلوان⁴، فتحاذاي بذلك حدوده بايلك التيطري وكان للباي في هذه المناطق، خلفاء وآغوات يأترون بأمره، نستنتج من ذلك أن بايلك الغرب يصل في عمقه إلى وسط البلاد⁶.

بينما يرى بعض الباحثين أن بايلك الغرب، يتغير مجاله الجغرافي السياسي من فترة إلى أخرى، فتتغير معها حدوده السياسية والإقليمية، فمثلا خلال القرنين 16م و17م كانت مليانة

¹Louis Rinn , Le royaume d'Alger sous le dernier dey , Adolphe Jourdan , Imprimeur libraire editeur , Alger , 1990 , p51.

² وادي الشلف: يعد أطول وادي في الجزائر بطول 700 كم ينبع من من جبال الأطلس الصحراوي بالقرب من أفلو وله إسم آخر هو الوادي الطويل يطلقه عليه سكان الجنوب ويعبر على منطقة الشلف ويصب بالقرب من مستغانم في البحر الأبيض المتوسط ، ينظر: نور الدين حاروش ، إستراتيجية إدارة المياه في الجزائر ، دفاثر السياسة والقانون ، ع07 ، 2012 ، ص63.

³ وادي ملوية: ينبع من جبال الأطلس المتوسط جنوبا ويقطع مسافة تزيد عن 500 كم نحو الشمال ليصب في البحر الأبيض المتوسط ، يعتبر الحد الفاصل بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال العهد العثماني وقد ورث العثمانيون هذه الحدود من الزيانيين وقد عقد حكام الجزائر وملوك المغرب الأقصى إتفاقيات عديدة تقرر بأن وادي ملوية هي الحدود الفاصلة بين البلدين ، ينظر: قادة دين ، الحدود الجزائرية المغربية عبر التاريخ ، مجلة عصور جديدة ، مج 7، ع 27 ، 2018 ، ص ص 207-211.

⁴ الواليش فتيحة ، المرجع السابق ، ص36.

⁵ بوحلوان: تقع بالقرب من عين الدفلى و تعرف الآن بالحسينية تميزت خلال العهد العثماني بأراضيها الخصبة وإنتاجها الوفير ، بالإضافة إلى تمركز الكثير من القبائل المخزنية فيها ، ينظر: كمال بن صحراوي ، المرجع السابق، ص21.

⁶ الحاج أحمد الشريف الزهار ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر ، تح أحمد توفيق المدني ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط1، الجزائر، 1972، ص47.

تابعة لسلطة باي الغرب، لكن في القرن 18م أصبحت تابعة لسلطة الدايات، لتعود من جديد مع أواخر القرن نفسه إلى سلطة باي الغرب¹.

فيما يخص الأنهار في بايلك الغرب، فيرى الباحث في جغرافية البلدان المغاربية موسى هوارى، أن الأنهار في بلدان المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، تمتاز بقصرها فهي إما أن تصل إلى البحر أو تختفي وتضمحل في أحواض مغلقة، ويكون إختفاؤها سريعا فالوديان ببائلك الغرب صغيرة، كما أنها تمتاز بالجفاف وعدم الجريان أغلب أيام السنة، وتعتمد في أيام جريانها على هطول الأمطار، أو جريان العيون أو المجاري التي منبعها قمم الجبال، أما الوديان الطويلة التي يتجاوز طولها 500 كم فهي قليلة أو بالأحرى تقتصر على وادي واحد هو وادي الشلف²، الذي ينبع من سلسلة جبال الأطلس الصحراوي، بالقرب من أفلو جنوب وسط الجزائر، ويطلق عليه في الجنوب الوادي الطويل، ومساره يكون من الجنوب إلى الشمال، يعد أطول وادي في المغرب العربي، إذ يبلغ طوله طوله 800 كم، وفي مسيره باتجاه الشمال يصطدم بجبال زكار، ليحول إتجاهه من الشرق إلى الغرب، فيتخلل جبال الونشريس في الجنوب ويفصلها عن جبال الظهرة في الشمال، إلى غاية وصوله إلى محطته الأخيرة، ليصب في البحر الأبيض المتوسط شرقي مدينة مستغانم³.

لبايلك الغرب سهول عديدة، تمتاز بخصوبتها وأهمها السهول القريبة من وهران، والمعروفة بالسهول الوهرانية مثل سهول المقطع وأرزو وتليلات والكرمة ومسرغين وبوتليليس، كل هذه السهول تمتد إلى غاية سهل العامرية بضواحي عين تموشنت، كما أن هذه السهول يتخللها

¹ ودان بوغفالة ، الأوقاف بالناحية الوهرانية: أوقاف مليانة نموذجا ، دراسات إنسانية ، عدد خاص ، ماي 2001م، ص 220.

² موسى هوارى ، بلدان المغرب العربي ، دراسة جغرافية ، مجلة رؤى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطية ، مج 1، ع 3، جوان 2021، ص 5.

³ نور الدين حاروش ، المرجع السابق ، ص 63.

المستقعات غير الصالحة للزراعة أو الرعي، ويقتصر إستغلالها في إستخراج مادة الملح، يعد صب بعض الأودية الداخلية في المناطق المغلقة سبب تكوين هذه المستقعات¹.

أما أهم السهول في بايلك الغرب فهو سهل غريس²، الذي يقع ضمن النطاق الجغرافي لمعسكر، وتعتمد السلطة العثمانية عليه كثيرا، من خلال محاصيله ومنتوجاته الوفيرة ويصل في إمتداده إلى سهول وهران، وتكثر فيه زراعة الحبوب والزيتون أيضا، كما يعتبر منطقة رعية ممتازة، ويتواجد أيضا في بايلك الغرب سهول مهمة أيضا، كسهول تلمسان وسهل السرسو وسهول اليعقوبية³،⁴ كما أن سهل الشلف يعد الأكبر مساحة بين سهول البايك، وتستغل أراضيه في الزراعة ورعي المواشي وتعتبر منتوجاته الزراعية من أجود المنتوجات، وقد حرصت السلطة العثمانية في البايك على منح الكثير من أراضيه للقبائل المخزنية⁵.

لم تخل جغرافية بايلك الغرب من وجود الجبال، إلا أنها قليلة الإرتفاع فالدارس لجغرافية بلدان المغرب العربي، يلاحظ أن الجبال يقل إرتفاعها كلما توجهنا من الغرب بداية من المحيط الأطلسي إلى غاية الشرق وصولا إلى تونس، فنجد جبل جبل تنشفي بتلمسان الذي يصل إرتفاعه عن سطح البحر إلى 1843 متر، ثم جبال تاسالا التي ترتفع عن سطح البحر بحوالي

¹ يحيى بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، طبعة خاصة ، 2009م ، الجزائر ، ص 20.

² سهل غريس: سهل غني يعرف بإنتاجه الوفير من الحبوب بالإضافة إلى الزيتون ومختلف الحمضيات والكروم ، يقع بمعسكر وهو سهل كبير طوله من الشرق إلى الغرب 50 كم وعرضه من الشمال إلى الجنوب 20 كم ، ينظر: بن داهة عدة معسكر عبر التاريخ ، ط1 ، دار الخلدونية ، الجزائر ، 2005، ص 8.

³ اليعقوبية: تقع في جنوب معسكر تمتد أراضيها إلى ما يعرف الآن بمنطقة سعيدة سميت بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة بني يعقوب ، كانت مقسمة خلال العهد العثماني إلى منطقتين غربية تحت حكم آغا الدواير ، شرقية تحت حكم آغا الزمالة ، من قبائلها الجعافرة ، حميان ، المهايا. ينظر: دغموش كاميلية ، المرجع السابق ، ص 245.

⁴ حمدان خوجة ، المرأة ، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط2، الجزائر، 1982، ص 93.

⁵ أرزقي شويتم ، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، 1519-1830 ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص 187.

1061 متر¹، كما أن سلسلة جبال الونشريس، التي تقع شمال غرب الجزائر وبها أعلى قمة في هذه السلسلة قمة سيدي عمر 1985 متر، وتمتد هذه السلسلة من شرقي وادي الشلف و وادي مينا إلى غاية هضبة السرسو، بإضافة إلى جبال بني شقران في معسكر وجبل مرجاجو بوهرا².

أما من الناحية التضارسية و المناخ، يمكن تقسيم البايك إلى ثلاثة مناطق متباينة، من حيث جيولوجية الأرض والغطاء النباتي والمناخ وهي كالآتي:

1. الإقليم الساحلي:

هو المنطقة التي تطل على البحر الأبيض المتوسط ، تتميز بضيق مساحتها إذ يحدها من الجنوب الجبال، ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط ، تعرف هذه المنطقة بأنها أكثر خصوبة، ويحد هذه المنطقة العديد من السلاسل الجبلية، أهمها جبال وهران وجبال ترارة وجبال أرزيو وجبال تلمسان، التي تعتبر إمتدادا لجبال الريف بالمغرب الأقصى، أيضا نجد جبال تسالة جنوب وهران، أما جنوبا فيحدها جبال اليعقوبية، التي تتصل ببعضها إلى جبال فرندة بمنطقة تيهرت و جبال الونشريس، وأخيرا إلى الشرق من البايك جبال الظهرة³، تتميز هذه المنطقة بمناخ البحر الأبيض المتوسط ، الذي تكثر فيه الغابات خاصة من أشجار البلوط والسرو والصنوبر⁴.

¹ حليمي عبد القادر ، جغرافية الجزائر (طبيعية ، بشرية ، إقتصادية) ، المطبعة العربية ، ط 1 ، 1968 ، الجزائر ، ص 40.

² بن علي أبو بكر ، الثورة التحريرية في منطقة الساور 1954-1962 ، مذكرة ماجستير ، قسم التاريخ ، المركز الجامعي بشار ، 2006-2007 ، ص 2.

³ كمال بن صحراوي ، المرجع السابق ، ص 22.

⁴ Tinthoin, Le tapis vegetal du tell oranais: sa modification par l'homme , Revue Africaine , vol N 79/1 , 1936 , p 233.

تمتاز أيضا بهطول الأمطار بكميات معتبرة، تعتبر جيدة إذا ما تم مقارنتها بنسبة الأمطار التي تكاد تنعدم في المناطق الداخلية، وتعتمد المنطقة الساحلية في الزراعة على الآبار بصفة عامة، تزدهر في سهولها زراعة الأشجار المثمرة كالحمضيات و اللوز و الكروم والزيتون، كما تزدهر فيها أيضا زراعة الخضروات والحبوب، بالإضافة فيها الى السهول الرعوية مما يعكس كثرة المواشي و الأبقار والخيول¹

2. إقليم الهضاب العليا:

يشغل هذا الإقليم مساحة واسعة من مساحة البايك، ويعتبر الإقليم الأكثر سكانا، بحكم إستقرار أكثر القبائل المحلية به، يقع بين جبال الأطلس التلي وجبال الأطلس الصحراوي جنوبا، على مسافة 180 كم من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وتضيق المسافة بين الأطلسين كلما إتجهنا شرقا، ويتخلل هذا الإقليم شطوط مالحة، كما تتخلله العديد من الأودية أهمها وادي الشلف، وادي مينا، وادي سيق².

3. الإقليم الجنوبي:

أغلب مساحته أراضي قاحلة وصحراء، يقل فيه عدد السكان، تقتصر حواضره على تجمعات سكانية حول الواحات، ويعتمد أغلب سكانه على تربية المواشي والتنقل والترحال إلى الشمال، خاصة في فصل الصيف طلبا للماء و الكلاً لهم ولمواشيهم، تقع أراضي جنوب جبال الأطلس الصحراوي، يمتاز مناخه بالجفاف طيلة أيام السنة لقلة الأمطار³.

¹ يحيى بوعزيز ، المرجع السابق ، ص ص 20-21

² دغموش كاميلية ، المرجع السابق ، ص ص 74-75.

³ كمال بن صحراوي ، المرجع السابق ، ص 23.

المبحث الثاني: التنظيم الإداري لبايك الغرب خلال عهد الدايات

لطالما كانت العلاقة الإدارية بين البايك والسلطة المركزية، تبرز خضوع البايات للسلطة في الجزائر، بداية من تعيين الداى واختياره إذ يحكم البايات باسمه في البايك، ولقد تميزت المراحل الثلاث الأولى (البايكبايات، الباشاوات، الآغوات)، بقدر من الاستقلالية عن السلطة المركزية، في تسيير شؤون البايك حتى إن البايات في كثير من الأحيان، كانوا ينصبون أنفسهم، ويفرضون على السلطة المركزية في الجزائر العاصمة الاعتراف بهم وبسلطتهم على البايك، ما أسفر عن اضطرابات إدارية وسياسية في البلاد¹.

غير أن دخول الجزائر في مرحلة حكم الدايات، غيّر كل الموازين المتعارف عليها سابقاً، فابتداءً من سنة 1671، أصبح الباى يخضع خضوعاً تاماً للداى وللسلطة المركزية، في الجزائر، يتجلى هذا الخضوع في أن تعيين الباى وخليفته الكبير أصبح يصدر بأمر من الداى، كما أن آغا الدواير يخضع مباشرة لسلطة الداى، أما الضرائب التي يؤديها الباى وسلطاته فقد أصبحت تُدفع في أوقاتها المحددة، وتُعرف بـ "الدنوش" بنوعيتها: الدنوش الكبير والدنوش الصغير، هذا الإجراء جعل من الدايات أكثر تحكماً في بايلك الغرب وبباياته، بالإضافة الى الولاء المطلق الذي يعطيه الباى ورجال سلطته للداى والسلطة المركزية، كما توجد مظاهر عديدة تؤكد هذا الولاء، أبرزها تنفيذ الباى لجميع الأوامر الصادرة من دار السلطان دون تردد وبقائه دائماً على هو ورجاله على أهبة الإستعداد لأي امر يصدر من الداى بغية تنفيذه

¹مسلم بن عبد القادر الوهراني، أنيس الغريب والمسافر، تح وتق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص

وإرضاء السلطة المركزية، بالإضافة ينفذ الباى الأوامر العسكرية، بمحاربة المتمردين أو العصاة في أي منطقة من البلاد، حتى وإن كانت خارج نطاق بايلك الغرب¹.

لقد تجلى هذا الأمر بوضوح عندما أمر الداى في الجزائر، الباى بوكابوس بالتوجه فورا بجيشه إلى بايلك التيطري وبايلك الشرق من أجل تأديب قبائل عريب المتمردة، وإخضاعها من جديد لسلطة الداى، واستخلاص الضرائب منها بالقوة، وهو ما يثبت خضوع الباى لأوامر الداى، حتى وإن تعلق الأمر بتنفيذ المهام خارج مناطق سلطته².

من مظاهر التبعية الإدارية أيضًا، ولربط التواصل بين دار السلطان وبايلك الغرب، خصص له ديوان خاص بقصر الداى، يقوم عليه وكيل كاتب، فإذا جاء أي رسول برسالة من الباى إلى الداى، نزل أولاً عند الوكيل بالديوان الخاص لرسائل وشؤون بايلك الغرب، فيطلع على مضمون الرسالة وفحواها، وبهذا الإجراء يتم فهم المقصود من الرسالة، ليتم عرضها مباشرة في وقت يحدده الداى، فيحضر له الديوان الخاص بالمقابلة مع الداى، ويدخلان معًا إلى مجلس الحكومة حيث يطرحان سويًا فحوى الرسالة ومضمونها.

إذا كانت الرسالة مهمة جدًا وسرية، فيتحدثون بشأنها على الفور، أما إذا كانت ضمن مجال العمل المعتاد، فتسلم إلى ديوان خاص بالداى ليتم مراجعتها لاحقًا، ونظرًا لهذه التبعية والولاء، فإن الداى بالمقابل يكافئ هذا الباى بتوفير كل ما يلزمه من العتاد العسكري، والإمكانات المادية من أجل تسيير البايلك، والمحافظة على أمنه وإستقراره، كما يقدم المساعدات المالية والغذائية عند وقوع الكوارث الطبيعية، مثل المجاعة والجفاف والزلازل والفيضانات³.

¹ نفسه، ص 54-55.

² نفسه، ص 51-55.

³ أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، نقيب أشرف الجزائر

إضافة إلى ذلك، تولى الداى ورجاله فى دار السلطان، فى العديد من الحالات مسؤولية التفاوض والتواصل الإقليمى مع الدول المجاورة لبايك الغرب، كالمفاوضات مع ملوك المغرب الأقصى، الذين كانوا يسعون باستمرار إلى اختراق الحدود الغربية للجزائر، وهو ما اضطر الباي إلى إعلان الحرب عليهم، وبناءً على ذلك يقود الداى المفاوضات معهم، وإجبارهم على احترام الحدود بعد توقيع المعاهدات والاتفاقيات، كما يتولى أيضاً المفاوضات مع إسبانيا، التى تعتبر جارا لبايك الغرب بحكم احتلالها لمدينة وهران ومجاورة الباي فى أراضيها، وهذا ما أدى فى الكثير من الأحيان، إلى توقيع معاهدات واتفاقيات مع ملوك إسبانيا، كما حدث عندما فاض الداى محمد بن عثمان باشا السفراء الإسبان، وتم الاتفاق معهم على وضع الصلح بينهم وبين الباي محمد الكبير، بالإضافة إلى مفاوضة الداى حسن لهم خلال تحرير وهران الثانى وعقد اتفاقيات ومعاهدات سياسية وتجارية، يقوم بتنفيذها نيابة عنه الباي محمد الكبير¹.

إلا أن التبعية لدار السلطان لم تكن مطلقة فالباي كان يرى نفسه الحاكم الفعلى للبايك، فقد كان على علاقة وطيدة مع الكثير من القبائل خاصة قبائل المخزن، التى كان يعتبرها جيشه وسنده الذى يمكن الإعتماد عليه، ومثال ذلك ما فعله الباي محمد الكبير عندما أعلن الحرب على الإسبان وجند معه الكثير من أبناء القبائل، ولم يأخذ الإذن من الداى إلا بعد أن قرر مهاجمة وهران، وقد اعتبر الكثيرون أن الإذن ما هو إلا احتراماً لمكانة الداى، لأن الباي ورجاله قرروا مهاجمة وهران وانتهى الأمر، حتى ولو رفض الداى مقترحهم، لكنوا استمروا فى مساعدهم دون الأخذ بهذا الرفض².

كما أن البايك كان يتكون من تركيبة سياسية وإدارية، تعمل على الارتباط بالمجتمع، وتتفاعل معه بنظام محكم ودقيق، باعتبار أن الإدارة فى الجزائر خلال عهد الدايات، لم تكن

¹ كمال بن صحراوي ، المرجع السابق ، ص 40.

² مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق، ص ص 99-101.

مركزية إلا في الحرب واقتطاع نصيب مالي على كل بايلك دفعه في آجال محددة، هذا ما جعل البايات أحرار في تسيير شؤون البايلك الداخلية، وبدوره كان منقسماً إلى العديد من الأوطان، كل وطن يحكمه قائد، في البداية كان يجب أن يكون القائد تركياً، لكن في عهد الدايات، أصبح للكراغلة وأبناء القبائل إمكانية أن يحكم أحد أفرادهم وطناً، كما أن الوطن بدوره ينقسم إلى عدة قبائل، وكان على رأس كل قبيلة شيخ، يقوم الباى بتنصيبه بحضور كبار الموظفين والآغاوات، ويهدي له خاتماً وبرنساً أحمر، كما انه في بعض الحالات يكون الوطن يضم قبيلة واحدة وكبيرة، فيعين شيخها على رأسها ويلقب بلقبين، الأول شيخ القبيلة والثاني قائد الوطن، إضافة فإنه إذا أظهر حنكة وحسن تسيير للوطن، الذي هو على رأسه يسمح له بترأس العديد من الأوطان، لقاء ولائه التام للباى ورجال سلطته¹.

لتسيير شؤون البايلك اعتمد العثمانيون، على هرم سلطوي هو كالاتي:

أولاً: الباى:

هو لقب يطلق على الحاكم أو الوالي لقطر من أقطار البلاد، ويطلق على الذي يكون تحت أمره البايلك، ويُعتبر نائباً للداى يتم اختياره بعناية شديدة، ويجب أن يكون ذا خبرة في المجالات السياسية والإدارية، ومعنى "الباى" هو قائد القادة ويجب أن يكون قد شغل مناصب عديدة قبل تسلمه للسلطة، وأن يكون قد أثبت جدارته في المناصب التي أوكلت له سابقاً، عادة ما يكون من كبار الموظفين في دار السلطان أو خليفة للباى الذي سبقه، وفي حالات قليلة يكون قد تسلم منصب قائد وطن، مثل الباى محمد الكبير الذي كان قائداً على فليطة، التي تعتبر المنطقة الأهم ببايلك الغرب². كما يعتبر الداى هو صاحب الصلاحيات الواسعة، في تعيين البايات أو

¹ دباب بومدين ، الأوضاع الإدارية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18م، مجلة النص ، مستغانم ، طبعة خاصة ،

جامعة عبد الحميد بن باديس ، سبتمبر 2016، ص 347.

² Goguos,M Notice sur le bey d',Mohammed El kebir,In R.A.1856,Vol N1,Alger,p406.

عزلهم، لذلك كان الدايات ينصبون من يثقون بولائهم لهم، ما يضمن للداي الحصول على الاستقرار في مختلف البايكات¹.

كما أن جل البايات في بداية أمرهم، كانوا جنودا إما في البحرية أو القوات الانكشارية، ثم تمت ترقيةهم نظير أعمالهم وإنجازاتهم، وهناك بعض البايات من عُيِّن لعلاقاته الاجتماعية الجيدة خصوصا مع القبائل، وهذا ما جعل منهم جديرين بمنصب الباي، لقدرتهم على درء الفتن وإخمادها بفضل علاقاتهم وحكمتهم².

لقد كان للبايات شبه سلطة مستقلة في تسيير شؤون البايك الداخلية، كما كانوا يُعاملون معاملة الملوك، وكان لهم حرس خاص وقصور، وكانوا يتحكمون في خزينة البايك ويصرفون أموالها في العديد من المشاريع، دون الرجوع الى السلطة المركزية، كما كانوا أقل عرضة للخطر والقتل، عكس الدايات بدار السلطان الذين كانوا يتعرضون للعديد من عمليات الاغتيال³.

لقد كان للبايات مهام رئيسية هي كالاتي:

- تسيير شؤون البايك، والعمل على إنجاز المشاريع.
- متابعة الجيش النظامي المتمثل في القوات التركية، والإشراف على تدريباتها والتأكد من جاهزيتها، بالإضافة الى تفقد مصانع الأسلحة بين الفينة والأخرى.
- التأكد من جاهزية القوات المحلية المتمثلة في قبائل المخزن، والحرص على تأمين الطرقات السلطانية، وحراسة الحصون والمصانع.

¹ Laugier De Tassy, Histoire du Royaume d'Alger, Amsterdam, Henri du Sauzet, Sans date, p139.

² دغموش كاميلية ، المرجع السابق ، ص101.

³ Laugier De Tassy, Op cit, p 140.

- السهر من أجل استتباب الأمن والاستقرار، ومنع قيام الثورات والانتفاضات بإصدار القرارات الصائبة، التي تعمل على ضبط النفس وتحقيق أكبر قدر من العدالة بين فئات المجتمع، وإن كان الأمر خطيرا وينذر بفتنة كبيرة، يقرر استعمال القوة العسكرية للحفاظ على سيرورة الاستقرار وتجنب البايك النزاعات.
- إقامة تحالفات جديدة مع العديد من القبائل، وضمها إلى قوات المخزن والحرص على توطيد العلاقة مع القبائل المخزنية القديمة¹.
- امتلاك الباي لصلاحيات، تسمح له بمصادرة الأراضي والممتلكات، من القبائل المتمردة التي تشكل خطراً على السلطة العثمانية في البايك خاصة والإيالة عامة².
- يحرص الباي على تحصيل الضرائب، وجمعها من الرعية لدعم خزينة البايك، واقتطاع جزء منها لإرساله إلى خزينة الإيالة بمدينة الجزائر، وهو ما يُعرف بـ"الدنوش الكبرى" ،التي يحملها بنفسه مرة واحدة كل ثلاث سنوات، بالإضافة إلى "الدنوش الصغيرة"، التي يحملها خليفته إلى دار السلطان كل ستة أشهر، هذا ما يربط الصلة مع الداوي ويدعمها ويُبرز ولاء الباي له، فالدنوش تعتبر هي الاختبار الرئيسي الذي يواجهه الباي في ولايته، حيث يُفرض عليه دفع الدنوش دون تأخير، وإن عجز عن أدائها، فأقل العقوبات أن يتم عزله وأكبرها أن يتم قتله³.

¹ ناصرالدين سعيدوني والمهمدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1984، ص20.

² Thomas Shaw , Voyage dans la regence d'Alger , traad :Mac Carthy , Paris , 1830, p130.

³ سفيان صغيري ، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر (1671-1830) مذكرة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر باتنة ، 2011-2012، ص66.

ثانيا: ديوان البايلك

هذا الديوان بمثابة الجهاز التنفيذي للبايلك، فهو يتقاسم المهام فيما بينه، كل حسب عمله وما يحدده له الباي من صلاحيات وسلطة وهو كالاتي:

1. خليفة الشرق:

ينوب الباي في الخروج وتفقد الرعية، ويجمع ما استوجب من ضرائب، كما أن هذا الخليفة هو الذي يحمل الدنوش الصغيرة إلى الدايت مرتين في السنة، الأولى في الربيع والثانية في الخريف¹.

يعتبر الرجل الثاني في البايلك بعد الباي، كما يتم تعيينه مباشرة من الدايت نفسه، وهذا ما يجعل منه مرشحاً قوياً لمنصب الباي، في حالة تم عزل الباي أو وافته المنية، كما أنه يقوم بنفسه بقيادة المحلات العسكرية، من أجل تأديب القبائل المتمردة والخارجة عن سلطة الباي، يُلقب أيضاً بخليفة الشرق، وذلك لأن نفوذه يعم شرق البايلك، فيضم سهول الشلف وكل المناطق التي تقع شرق مازونة، كانت تحت سلطته ثلاث وعشرون قبيلة بسهول الشلف، واثنان عشرة قبيلة بنتس، وهي قبائل جبلية على خلاف قبائل سهول الشلف التي تعتبر قبائل سهلية، ومن أشهر القبائل السهلية:

قبائل عياشة، بني زروال، أولاد بورحمة، أولاد خلوف، عشعاشة، أولاد يونس، بني زنطيس، بني مديونة، بني مدون، صبيح، أولاد فارس.

¹ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 271.

من القبائل الجبلية:

قبائل بنو وراغ، بنو مسلم، مطامطة، شكلة، حلوية، وأيضًا قبائل الونشريس، أولاد عياد، ابسناس، بنو بدوان¹.

2. خليفة الكرسي:

يُعتبر الرجل الثالث في البايك، وتعيينه من صلاحيات الباي، لذلك أغلب من شغل هذا المنصب، كانوا على علاقة وطيدة بالباي، وذلك لمركزهم الحساس والمهم، يعتمد عليه الباي لخلافته في كرسيه، ويمكنه الجلوس عليه في حالة غياب الباي لدفع الدنوش الكبيرة مثلًا، فذلك يستغرق وقتًا طويلًا يتعدى الشهر، أو عندما يخرج الباي على رأس المحلة بنفسه لتأديب المتمردين، أو استخلاص الضرائب من الرعية، كما يمكن لخليفة الكرسي أن يرافق الباي في حملته للدنوش الكبيرة في بعض الحالات².

3. خوجة الخيل:

يُعتبر من رجال البايك المهمين، وهو المسؤول المباشر عن أملاك الدولة، فيسهر على صونها وحفظها وتفقدتها من حين لآخر، ويقوم أيضًا بتموين رجال البايك بمختلف المواد الغذائية³، يُعتبر أيضًا من قادة قوات المخزن، ومنصبه يفرض عليه التعامل مع الرعية، ما يجعله محل استشارة للباي⁴ في الشؤون الاجتماعية، كما أنه يُعتبر من المساعدين المباشرين

¹ دحمانى توفيق ، دراسة إجتماعية لتيهرت في أواخر العهد العثماني ، مجلة الخلدونية ، عدد خاص ، 2009، ص153.

² Esterhazy , De la domination turque dans l'ancienne regence d'Alger , Paris , Librairie de charles Gosselin, 1840, p220 .

³ مخفي مختار ، السلطات المركزية بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني ، المجلة الجزائرية للبحوث و الدراسات التاريخية المتوسطة ، مج 8، ع3، ديسمبر 2022، ص65.

⁴ قدور بوجلال ، العلم والعلماء في بايلك الغرب ، مذكرة ماجستير ، قسم التاريخ ، جامعة وهران، 2008-2009، ص11.

للداي في البايك، ينقل له الأخبار، ولذلك فإن الكثير من البايات، يتجنبون مخاصمته ويستعطفونه، لكي لا يشوه سمعتهم أمام الداى فيعزلهم¹.

4. الخزندار (الباش خزناجي):

هو صاحب خزينة البايك والمسؤول عنها، وهو المخول بتعداد ما تملكه الخزينة، وإبلاغ الباى بذلك من فترة لأخرى. يُعتبر المسؤول الأول على تصريف نفقة البايك، وهو الذي يحدد عادةً قيمة الضرائب المراد استخلاصها من القبائل، من مهامه أيضاً إحصاء أموال الدنوش الكبيرة والصغيرة، ويعمل عنده العديد من الموظفين، أهمهم الباش دفتر (دفتردار) الكبير والصغير².

5. شيخ البلد:

يُعتبر المسؤول الأول عن المدينة والمتكفل بشؤونها، وينوب عن الباى في تسييرها، في حالة غيابه أو سفره، كما يُعد مركزه حساساً ومهماً، فمن مهامه أيضاً الحرص على الأمن والاستقرار، كما أنه المسؤول عن حرس البوابات، والمتتبع والمراقب للوافدين الغرباء عن المدينة، ويقوم أيضاً بصرف رواتب الجند في المدينة، ويراقب أعمالهم كما يقع على عاتقه تهيئة المدينة عمرانياً والحرص على نظافتها، من مهامه أيضاً أنه المتوكل على الأمور السرية والحساسة، فمثلاً النساء اللواتي يكن من عائلات عريقة، ويرتكبن مخالفات تستوجب العقاب، يقوم بسجنهن في منزله ويعاقبهن سرياً عنده³.

¹ مخفي مختار، المرجع السابق، ص 65.

² دباب بومدين، المرجع السابق، ص 349.

³ Lougier de Tassy, Op cit, p236.

6.الباش كاتب:

يعتبر أمين سر الباي، ويوكل له الباي مهام عديدة، للباي صلاحيات واسعة في تعيينه، فأغلب من شغلوا هذا المنصب، كانوا على علاقة بالباي، وقريبين منه وتربطهم به علاقات وطيدة كصلة الدم أو المصاهرة أو الصداقة المتينة، له مهمتان أساسيتان، الأولى أن يحفظ رسائل الباي الخاصة، والثانية تتعلق بحفظ السجلات العقارية الخاصة بالباي، كما تعتبر أموال الباي الشخصية مخزنة عنده، ويراجعه الباي في أمرها من حين لآخر¹.

7.آغا الزمالة:

يعرف أيضا بلقب الباش سايس، وهو المتكفل برعاية اصطبل الباي، والسهر على الاعتناء بحيواناته، وقد عرف عن البايات، انهم اهتموا كثيرا بإقتناء الخيول العربية الاصيلية، ومختلف الطيور والصقور النادرة².

8.رئيس حرس الباي الخاص:

يلقب بالتركية باش المكاحلية، وهو المكلف بحمل أسلحة الباي، في مختلف المناسبات المدنية أو خلال حملاته العسكرية، يعمل تحت إمرته 15 رجلا، يختارهم الباي بعناية لحمل السلاح والبنادق، ينسقون عملهم مع الشواش الذين بدورهم يقومون بحمل وحراسة خيمة الباي، كما أن باش المكاحلية وعناصره، مكلفون أيضا بحراسة خزينة الباي³.

¹ ناصر الدين سعيدوني، رقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر ، الجزائر، 2009، ص244.

² يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص49.

³ نفسه، ص 50.

9. قائد المدينة:

يُعين من طرف الباي على إحدى المدن الهامة في البايك، ومن الأعراف المتبعة في تعيينه، أن يكون ذا مساهمات وإنجازات، وأن يكون قد تقلد مناصب قبل هذا المنصب، وأن يكون تركياً. مهمته في قيادة المدينة التي نُصّب فيها محدودة، وللباي الحق في تمديدتها أو عزله، يعتبر هذا المنصب حساساً ومهما بالنسبة للعثمانيين، من أجل بسط نفوذهم في أرجاء البايك إنطلاقاً من المدن، وهو حكراً على الأتراك فقط، ويُعتبر صاحب هذا المنصب في الوقت نفسه قائداً على فرق الإنكشارية بالمدينة¹.

يذكر بن عودة المزاري في كتابه طلوع سعد السعود عن موظفين أقل درجة من الذين تم ذكرهم، مثل الأعوان 8 الذين يسيرون حوله ويقومون بحمايته، ويجب أن يكون نصفهم من الأتراك، أما لباسهم فكان مثل لباس العسكر الإنكشاري، بالإضافة أن حاشية الباي تضم سبعة طبول أيضاً، وعلى كل طبل رجل².

ثالثاً: التنظيم الإداري في الأرياف:

يُعتبر الآغا هو أعلى منصب إداري في بايلك الغرب، لا يتولى هذا المنصب، إلا من كان من أسرة رفيعة وقبيلة كبيرة ومعروفة، بالإضافة أن هذا المنصب يُشترى، فيذكر أن السلطات تتبعه بمبلغ عشرة آلاف فرنك أو ريال تُدفع للباي مباشرة³.

¹ محفوظ سماتي، الأمة الجزائرية، نشأتها وتطورها، تر محمد الصغير بناني وعبدالعزیز بوشعيب ، منشورات دار حلب ، د ط 2007، ص 64.

² بن عودة المزاري، المرجع السابق، ص 272.

³ نفسه، ص 273.

1. قائد آغا:

من كبار رجال قبيلة الدواير، يضم تحت قيادته قبائل كثيرة وأراضي واسعة تشمل قبيلة الغرابة، قبيلة بني عامر، قبيلة الجعافرة، قبيلة الحشم، قبائل اليعقوبية، أرزيو، أولاد لكرد، أولاد خليف، أولاد عياد بن مديان، قبيلة سويد (الأمحال)، بالإضافة إلى قبائل رعية خليفة الشرق، وقبيلة البرجية، قبائل فرندة، قبيلة الأحرار، أولاد الشريف، والعديد من القبائل، ويصل نفوذه إلى أحواز تلمسان، وفي أواخر العهد العثماني، أصبح يُدفع مقابل هذا المنصب أربعون ألف ريال بوجو، وهذا المبلغ يُعد ضخماً جداً، لكن الباي حدده لحساسية المنصب وأهميته¹.

2. قائد كبير:

يتولى هذا المنصب، أحد الأعيان الكبار من قبيلة الزمالة، ويكون تحت إمرته خمس قبائل كبيرة هي: الزمالة، مجاهر، حميان، اليعقوبية، الغرابة، ومهمتهم استخلاص الضرائب من قبائل الرعية وحراسة الحصون وتكنات العساكر، والطرق السلطانية. ويُعتبر هذا المنصب مهماً بعد منصب قائد آغا، وكان يُشترى بنصف سعره، أي بمبلغ عشرين ألف ريال بوجو².

3. القائد:

تُعتبر مهامه حساسة ومهمة، يُعين من طرف الباي أو قائد آغا، ومهمته الإشراف وتسيير شؤون مجموعة من القبائل والقرى وتُعرف بـ "الوطن"، ويكون بذلك مسؤولاً ومراقباً لأعمال شيوخ القبائل، من مهامه أيضاً تقسيم الأراضي وتوزيعها على أبناء القبائل، وحل المشاكل والنزاعات بين أفرادها، كما يتولى مراقبة الطرقات والأسواق، والتقبض على المخالفين لقوانين البايلك³.

¹ نفسه، ص 272.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص ص 271-272.

³ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 93.

4. شيخ القبيلة:

يُعتبر منصبه مهماً جداً، لأنه ابن القبيلة التي يُعين على رأسها، ويقوم الباى بتعيينه أمام كبار الموظفين، وينتقيه بعد أن يضمن ولاءه له ويقدم له خدمات ملموسة تؤهله لشغل هذا المنصب، ويُعتبر هذا المنصب مهماً جداً ذلك لتعامله المباشر مع أبناء قبيلته، فيعمل على تنظيم القبيلة، وحل نزاعاتها وخلافاتها الداخلية، كما يعمل على استخلاص الضرائب وجمعها وتسليمها، لأحد رجال الباى الأعلى سلطة منه، بالرغم من كل هذه الخدمات التي يقدمها شيخ القبيلة، فإن الباى يبقى في تعامله معه خذراً، خشية أن يعلن التمرد والعصيان، فقد كانت أغلب التمردات والثورات تكون نتيجة تمرد شيوخ القبائل ولحاق أفراد القبيلة به¹.

لقد شهدت الأرياف في البايلك، تنظيماً إدارياً عثمانياً خاصاً بها، إلا أن هذا التنظيم كان شكلياً فقط، ولا يرقى إلى التنظيم في المدن، لأن القبائل كانت أكثر استقلالية في أمورها الداخلية، ولا تتأثر بقرارات الباى ورجاله مباشرة، فلم تكن من مظاهر التبعية للسلطة، سوى أنها تدفع الضرائب في آجالها المحددة، أو تشارك في التعبئة العسكرية ضد العدوان الخارجي، كما أن أغلب هذه القبائل كانت تتحين الفرص، وإنشغال البايات بالمشاكل الداخلية حتى تسارع إلى التمرد وإعلان العصيان².

¹ توفيق دحمانى، النظام الضريبي ببايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص 41.

² نفسه، ص-ص 41-42.

المبحث الثالث: المدن الكبرى في بايلك الغرب.

1.مازونة:

من أهم مدن بايلك الغرب، يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، وغرباً يحدها سهل الشلف، وشرقاً يحدها جبال زكار، ومن الجنوب سهل الشلف أيضاً. يصفها الوكيل يوسف بأنها إقليم جبلي تتخلله المجاري المائية، لكنها لا تصل إلى درجة وصفها وديان، وبأن وجهها الذي يطل على سهل الشلف، خالي من الأشجار والغطاء النباتي، أما من جهة البحر فيتميز بكثرة الأشجار والغابات، وبها مساحات مزروعة بمختلف الزراعات¹.

أما تأسيس المدينة، ففيه اختلاف كبير بين المؤرخين، وذلك للافتقار إلى وثائق ومخطوطات تحدد فترة تأسيسها، فمنهم من يرى أنها تأسست خلال الحقبة الرومانية، ومنهم من يرى أن قبيلة مغراوة الأمازيغية هي من أسستها، أما البعض الآخر، فيرى أنها أسست في أواخر عهد الموحدين². في بداية العهد العثماني، اختارها حسن بن خير الدين عاصمة لبايلك الغرب، وكانت مستقرًا للباي ابن خديجة، الباي الأول لبايلك الغرب وكان ذلك سنة 1563³. كانت مازونة خلال عهد الدايات، تعتبر منطلق الجيوش لمحاربة الإسبان في وهران، ففي سنة 1679، تولى حكمها الباي شعبان الزناقي، الذي استمر حكمه فيها ثماني سنوات، قضاها

¹ Youcef Loukil, Mazouna ancienne capitale du dahra Alger : imprimerie algerienne, 1912, p11.

² أحمد بحري ، حاضرة مازونة ، دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث 1500-1900، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة وهران، 2012-2013، ص ص 16-17

³ نفسه، ص 36.

كلها في محاربة الإسبان، وتضييق الخناق عليهم¹، وقد كتب الله له الشهادة تحت أسوار وهران، على يد أحد رجال المغاطيس².³

كما أن مدينة مازونة، كانت ضمن أطماع ملوك المغرب الأقصى، ومثال ذلك ما حدث عندما حاول سلطان المغرب المولى إسماعيل، السيطرة على بايلك الغرب وعاصمته مازونة سنة 1701م، بتوجيه حملة عسكرية صوبها، لكن حملته باءت بالفشل، وقفل راجعاً إلى بلده بعد إنهزامه⁴.

في نفس السنة قرر الباي مصطفى بوشلاغم، نقل عاصمة البايك إلى معسكر، بعد أن تيقن بأن مازونة، أصبحت هدفاً معلناً من قبل الإسبان وملوك المغرب الأقصى معا، لتصبح بعد هذا القرار مدينة مهمة في البايك، لكنها لم تصبح بتلك الأهمية التي كانت عليها، عندما كانت مقر إقامة البايات، وعين على رأسها قائد تركي من طرف الباي⁵.

2. معسكر:

تُعتبر مدينة معسكر العاصمة الثانية لبايك الغرب، بعد أن نقل الباي بوشلاغم العاصمة من مازونة إليها سنة 1701م، وظل ينتقل بين المدينتين إلى غاية 1706، حيث استقر أخيراً

¹ ابن سحنون الراشدي، الثغر الجمانى في إبتسام الثغر الوهراني، تح وتق المهدي البوعدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص108.

² المغاطيس: هو لقب أطلق على بعض أفراد من القبائل التي تخضع لسلطة الاحتلال الإسباني في وهران و المرسى الكبير، كانت تمدّه أيضا بالمعلومات وتسانده في حروبه مع البايات والقبائل بالرجال و أبرز هذه القبائل بني عامر، شافع، قيزة، حميان، كرشتل، بني شقران. ينظر: بن إبراهيم هاشمي، القبائل المتعاونة مع الاحتلال الإسباني، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج8، ع1، جامعة معسكر، الجزائر، 2017، ص189.

³ عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسمانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تح وتق محمد بن عبد الكريم، دار مكتبة الحياة، د.ط، د.ت، بيروت، ص30.

⁴ Mercier Ernest, La propriete foncier chez les musulmans d'algerie, Edition leroux, Paris, 1891, p322.

⁵ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ج3، الجزائر، 1994، ص210.

بمعسكر، وقد أولاهما البايات اهتمامًا خاصًا، فاهتموا بمرافقها وعمرانها، خاصة الباي محمد الكبير، الذي ساهم في بناء الكثير من المساجد والمدارس والمكتبات والزوايا، بالإضافة إلى معسكرات الجند وحصونهم، كما قرّب علماء البايلك إليه وأظهر لهم الود والاحترام¹.

يرى حمدان خوجة أن معسكر، أكثر تنظيمًا وأغنى من تلمسان لكنها أقل أهمية منها، كما أن سكان معسكر كانوا مختلفي الأجناس، فقد كانوا من عرب وبربر وأتراك وكراغلة، فكانت بذلك تشبه في تركيبها الاجتماعية مدينة الجزائر حاضرة الإيالة، أما من الناحية الاقتصادية، فقد كانت التجارة فيها رائجة، خصوصًا المنسوجات لدرجة أنها كانت تصدر، منسوجاتها إلى مصر والأناضول، خاصة البرنس الأسود الذي امتازت بصناعاته الرائعة، أما من الناحية الزراعية، فقد كانت تعتبر أغنى مناطق البايلك بمنتجاتها المختلفة، حيث اشتهرت بإنتاج الزيتون والخضر والفواكه والحوامض، وبالإنتاج الوفير للحبوب، خاصة القمح وذلك من خلال استغلال أراضي سهل غريس الخصبة².

3. وهران:

تقع وهران على السفح الشرقي لجبل المائدة، أو ما يُعرف أيضًا بجبل مرجاجو، وكانت تُسمى قديمًا "إيفري"، وأول من سكنها البربر من قبيلتي مغراوة ونفزاوة، ومع مرور الزمن وفي سنة 902م، تطورت عمارتها وزاد نشاطها الاقتصادي، بعد أن استقر بها العديد من المهاجرين الأندلسيين³، ونزل معهم محمد بن عون ومحمد بن عبدون، فقاما مع من جاء معهما من

¹ عدة بن داهة، معسكر عبر التاريخ، دار الخلدونية، ط1، الجزائر، 2005، ص ص53-54.

² حمدان خوجة، المصدر السابق، ص97.

³ يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص ص22-23.

الأندلس، ببناء الأسس الأولى للمدينة¹، بينما يرى كثير من المؤرخين أن الذي أسسها، هو خزر بن حفظ صولات المغراوي².

في عام 1509 استطاع الإسبان احتلالها، بقيادة الكاردينال كيمينيس والقائد بيدرو نافارو، بعد أن جهزوا حملة مكونة من 15 ألف جندي، ونزلوا بداية في المرسى الكبير وسيطروا عليه، ثم توجهوا إلى وهران، التي لا تبعد سوى سبعة كيلومترات، وعند دخولهم بمساعدة الخونة أمثال عيسى العري والقايد بن قانص والمكاس اليهودي ستورا، الذين فتحوا لهم أبواب المدينة مع معاونيهم، دخلها الإسبان وارتكبوا مجزرة كبيرة، حيث قتلوا أربعة آلاف رجل وأسروا ثمانية آلاف آخرين، كما قام الإسبان بتحويل كل المساجد إلى كنائس، وبنوا العديد من الحصون والأبراج تحسباً لأي ردة فعل من الأهالي³.

في سنة 1708 تمكن العثمانيون من تحرير وهران، بعد أن جهزوا حملة عسكرية بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، وقام بنقل عاصمة البايك إليها، نظراً لموقعها الإستراتيجي الهام⁴، لكن لم يلبث العثمانيون طويلاً، حتى عاد الإسبان لاحتلالها من جديد، في عهد نفس الباي سنة 1732م. ورغم مصاهرة الباي لأحد شيوخ القبائل المتاخمة، إلا أن القبائل لم تتحرك أمام الحملة الإسبانية، ما دفع بالباي إلى الفرار مع عائلته، وفر السكان كذلك، بينما قامت قبيلة بني عامر بمساعدة الإسبان، ولم يبق في المدينة سوى حامية من الإنكشارية، سلموا أمرهم للقائد

¹مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص46.

² انظر الملحق رقم12.

³ يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص ص41-42.

⁴ بن حليلة حدي، العمارة الدفاعية بمدينة وهران خلال الحكم الإسباني والعثماني، مجلة العلوم الإنسانية، مج21، ع2، 2021، ص359.

الإسباني، بعد أن منحهم الأمان وتوجهوا إلى تلمسان¹، إلا أن العثمانيين عادوا إلى وهران ثانية، وتم فتحها على يد الباي محمد الكبير سنة 1792م، وتم نقل عاصمة البايلك إليها².

بعد فتح وهران الثاني، سار الناس إليها من كل مكان وسكنوها، وكان من جملةهم أناس من معسكر، والبربر والمغاربة وبني ميزاب وحتى اليهود، فامتحن أهلها التجارة لموقعها الإستراتيجي، فأصبحت سوقاً رائجاً، يأتيه التجار من كل حذب وصوب³.

بينما يصفها الزياتي بأنها مدينة مهيبة، كثيرة العمران، بها زراعات كثيرة وبساتين وآبار مياه، وبها قصور عديدة وأسواق وفنادق وحمامات، يحيط بها سور عظيم، وبها حصون قوية كما قام العثمانيون بنصب الكتي من المدافع على أسوارها وحصونها وأبراجها، ما زاد من هيبتها وقوتها، بالإضافة يعد هذا الإجراء إحترازياً وتنبيهاً للإسبان إذا حاولوا الرجوع مرة أخرى⁴.

4. تلمسان:

لقد كانت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط قبل مجيء العثمانيين، وكانت تعتبر حاضرة البلاد الأولى، ومقصدا للناس كل حسب أهوائه، للتجارة كانت أو طلب العلم أو الإستقرار، تقع في أقصى غرب البايلك، وهي تعتبر قريبة من الحدود المغربية⁵.

¹ يعقوب خديجة، مدينة وهران في القرن الثامن عشر من خلال كتابات المؤرخ التونسي محمد الصغير بن يوسف، مجلة عصور جديدة، مج8، ع2، ديسمبر 2018، ص154.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص260.

³ حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص96-97.

⁴ محمد بن يوسف الزياتي، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح وتقا المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013، ص208.

⁵ وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب و تقا إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982، ص35.

إلا أن تلمسان في العهد العثماني، فقدت مكانتها السابقة كعاصمة للمغرب الأوسط، و أصبحت مدينة عادية كباقي مدن البايك، إلا أن هذا التدهور، سبق مجيء العثمانيين أيضا، عندما احتل الإسبان المرسى الكبير في 1505م، و وهران 1509م، فأصبحت معزولة و تحت ضغط الإسبان، وفي العهد العثماني تدهورت أكثر، بسبب النزاع العثماني الإسباني، الذي استمر حوالي ثلاثة قرون¹.

لقد كانت خلال العهد العثماني، غنية بمنتجاتها الزراعية كالحبوب والخضر والفواكه،بالإضافة أنها اشتهرت بصناعة المنسوجات، والأحذية ذات الجودة الرفيعة، واشتهرت أيضا بصناعة الزيوت ومستخلصاتها²، ويتواجد بها أيضا معامل لصناعة الألبسة العسكرية³.

5. مستغانم:

تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وتقع على ارتفاع 100 متر عن سطح البحر، أما حدودها فيحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب ما يعرف الآن بمنطقة غليزان، ومن الشرق يحدها سهل الشلف، ومن الغرب تحدها معسكر ووهران⁴. تقع ضمن إقليم التل الغربي جغرافياً، ولها امتداد كبير على سهل واسع سُمي باسمها "سهل مستغانم"، الذي يتربع على مساحة إجمالية قدرها 1400 كم².

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري (16م-20م)، ج1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982، ص172.

² شارل موريس شربل، الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، ط1، دار الجبل، بيروت، 1998، ص130.

³ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص34.

⁴ بلجوزي بوعبدالله، المراحل التاريخية لمدينة مستغانم من الفتح الإسلامي إلى القرن 9هـ/15م، مجلة منبر التراث الأثري، مج 1، ع1، 2012، ص191.

تُعتبر مدينة مستغانم، من أهم مدن البايك في عهد الدايات، إذ كانت قريبة من مختلف عواصم البايك خلال مراحل الحكم العثماني، لذلك أولى لها البايات إهتماما خاصا واعتنوا بها عمرانيا وإداريا، وكان سهلها من أهم السهول في البايك لخصوبته ووفرة منتوجاته الزراعية، كالحبوب والخضر والفواكه، كما كانت فيه مساحات رعوية غنية¹.

في آخر العهد الزياني، شهدت منطقة مستغانم تغيرا جذريا في طبيعة ساكنيها، إذ استولت قبيلة سويد العربية الهلالية، على المدينة بعد أن طردت قبيلة مغراوة منها². وظلت مستغانم تحت سلطة قبيلة سويد، إلى أن جاء الأتراك وطردوها منها، فأضطرت إلى النزوح نحو المناطق الداخلية، وقد علل العثمانيون هذا الطرد، بأن قبيلة سويد منعتهم من محاربة الإسبان، فما كان منهم سوى أن يضموا مدينة تنس ثم مستغانم سنة 1517م³.

في عهد الدايات شهدت مستغانم تطورا عمرانيا ملحوظا، وأصبحت من المدن الرئيسية في البايك، وكان يقيم بها قائد تركي في قصر يقع بوسط المدينة، وأنشئت بها عدة أسواق تجارية، وفنادق، ومساجد، وكانت تركيبتها الاجتماعية متنوعة تضم العرب، الترك، الأندلسيين واليهود⁴.

عرفت المدينة ازدهارا في الصناعات التقليدية، مثل المنسوجات والجلود وصناعة الأحذية، وصياغة الذهب والمجوهرات، وكانت تتواجد بأحوازها سبعة مطاحن تقع على ضفاف وادي عين الصفراء⁵.

¹ Molay Belhamissi, Histoire de Mostaganem (des origines à l'occupation française), S.N.F.D, Alger, 1976, p18.

² بلجوزي بوعبدالله، المرجع السابق، ص ص 196-197.

³ Haido (F.D), Histoire des rois d'Alger, traduite et annotée par, De Grammont (M), Alger, 1881, pp26-28.

⁴ Bodin Marcel, Traditions indigènes de Mostaganem itinéraire Historique et légendaire de Mostaganem et de sa région, Oran, (S.D), p17.

⁵ الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص 142.

6. تيهرت:

تُعد من أقدم المدن في الجزائر، وتنقسم إلى مدينتين، الأولى قديمة تعود لما قبل الإسلام، وفتحتها القائد عقبة بن نافع الفهري، والثانية "تيهت الجديدة" بُنيت على بعد 7 كم من الأولى، وشيدها عبد الرحمن بن رستم، مؤسس الدولة الرستمية، وجعلها عاصمة لدولته¹.

تشغل تيهت وأحوازا، مساحات واسعة وتحتوي على سهول كثيرة، مما جعل الزراعة والرعي أساس الاقتصاد المحلي، وقد أصبحت مركزا اقتصاديا يصدر الحبوب والخضر والفواكه والمواشي للمدن المجاورة، وهي منطقة غنية بالمياهاذ يتواجد بها العديد من الوديان والآبار التي تُستعمل في السقي، غير أن مناخها يتميز بالبرد والأمطار شتاءا، ما يصعب التنقل منها وإليها².

جغرافيا تقع ضمن نطاق سهل السرسو، المعروف بغزارته المطرية وخصوبته، رغم قلة الأشجار فيه³، وتقدر مساحته بحوالي 80 ألف هكتار ويصل إلى تخوم شمال المناطق الصحراوية التي تحده جنوبا⁴.

في العهد العثماني، اعتمدت السلطة على توطيد علاقتها بالقبائل لتأمين السيطرة، لا سيما مع قبيلة أولاد خليف، التي ألحقت بالمخزن لأداء مهام مثل جباية الضرائب، ومراقبة حركة

¹ كمال بن صراوي، المرجع السابق، ص34.

² محمد عيسى الحيري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها و علاقتها الخارجية بالمغرب و الأندلس، دار القلم للنشر والتوزيع، ط3، الكويت، 1987، ص96.

³ Richard Lawless, L'evolution du peuplement, de l'habitat et des paysages agraires du Maghreb, Annales de geographie, N446, T81, 1972, p459.

⁴ Guy Duval, L'evolution de la sedentarisation dans les hautes plaines de l'ouest algerien, Revue de l'occident musulman et de la Mediteranee, N45, 1987, p80.

القبائل، كما استعان العثمانيون بشيوخ الطرق الصوفية، لقاء صلاحيات وامتيازات تقدمها السلطة لهؤلاء الشيوخ¹.

7. ندرومة:

تقع في أقصى غرب البايك، قرب الحدود المغربية، وتتموضع في منطقة جبلية على سفح جبل فلاوسن، على بعد 60 كم من تلمسان، ولا تبعد سوى 6 كم عن البحر الأبيض المتوسط².

في عهد الدايات كانت ندرومة مدينة متنوعة السكان، فبلغ عدد سكانها نحو 6000 مسلم، و750 أوروبياً، و500 يهودياً، وكانت محاطة بسور كبير ويتواجد بها الكثير من المساجد والزوايا مثل مسجد سيدي أبي طالب والمسجد الأعظم³.

عرف سكان ندرومة بالتعدد المهني، فمارسوا الزراعة والصناعة والتجارة، كما أن موقعها الجغرافي ساعدها لتكون مركزاً للتجار، من مختلف أنحاء البايك والمغرب الأقصى، اشتهرت بصناعة المنسوجات، الفخار، الأواني النحاسية، صياغة الذهب، صناعة الأحذية وحتى الأسلحة⁴.

في القرن السادس عشر عرفت المدينة صراعاً بين العثمانيين وملوك المغرب ففي سنة 1650م، شن ملك المغرب محمد حملة على ندرومة، ارتكب فيها جنوده تجاوزات، لكن السكان والحامية التركية تصدوا لهذا العدوان، وتم رد الحملة المغربية على أعقابها، ثم في 1679م أرسل

¹ الحاج صادق، الزعامات القبلية في منطقة تيارت و فعاليتها مع الوجود العثماني، مجلة العبر للدراسات التاريخية و الأثرية في شمال إفريقيا، ع2، ص ص249-251.

² Stephane Gselle, Atlas, archeologique de l'algerie, Tome 1,2 editions, Alger, 1997,p88.

³ بوحوص شهنار ، مدينة ندرومة الجزائرية دراسة تاريخية ، المجلة الجزائرية للبحوث و الدراسات التاريخية والمتوسطية، مج9، ع1، جويلية 2023، ص75.

⁴ Octave Teissier,Algerie , geographie,Histoire , statique,des criptiondes villages et hameaux,Organisation des tribus, nomenclature des khalifliks,aghaliks et kaidats,Paris,Hachette et cie,1864,p35.

المولى إسماعيل، جيشاً لمهاجمتها لكنه فشل أمام مقاومة أهل المدينة، منذ تلك الأحداث، اعتُبرت ندرومة قلعة عسكرية لبايلك الغرب، فعزز الباي عدد الجنود فيها، وزودهم بالسلاح لحماية المدينة وسواحلها من الاعتداءات الخارجية¹.

8. هنين:

تُعتبر من أهم المدن، بحكم موقعها الاستراتيجي الهام، فهي تقع بين جبال ترارة وتطل على البحر الأبيض المتوسط. تبعد عن مدينة تلمسان بحوالي 19 كم، وتقع على سفح جبل المنزل، ويتخللها وادي هنين شرقا ووادي ريغو غربا².

كانت أراضي هنين خصبة وغنية، وكانت تنتج كميات كبيرة من القمح والشعير والقطن والحنطة والكتان والذرة³. بالإضافة كانت أيضاً كثيرة البساتين، خاصة بساتين الزيتون والحمضيات، فكانت منتوجاتها تصل إلى مختلف الأسواق في البايلك لجودتها⁴. فكانت تعتبر منطقة صناعية بامتياز، فقد كان بها الكثير من الصناع والحرفيين، مما جعلها قطباً صناعياً، وجعل من سكانها من أغنى سكان البايلك، بالإضافة فقد ازدهرت فيها صناعة المنسوجات مثل الزرابي والسروج والأحزمة والعمائم، كما كانت تجارة الصوف والقطن رائجة فيها⁵، وكان لمينائها دور كبير في ازدهارها، فكانت تصدر وتستورد منه مختلف السلع والبضائع، وكانت تأتيه السفن من مختلف بلدان أوروبا، خاصة القادمة من البندقية، التي كان تجارها يبيعون

¹ يحيى بوعزيز ، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، عالم المعرفة للنشر، الجزائر، 2009، ص 177.

² زيرار رضوان وبن داود نصرالدين، الدور الاقتصادي لمدينة هنين خلال العهد الزياني، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، مج 8، ع 3، ديسمبر 2022، ص 24.

³ حسن الوزان، المصدر السابق، ص 33.

⁴ مرمول كاربخال ، إفريقيا، ج 2، تر محمد حجي و آخرون، الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ، 1989، ص 296،

⁵ George Marcais, Recherche d'archéologie musulmane Honaine alfricaine , Volume 69, Arnolet Imprimerie Librairie (constantine) 1928, p14.

مختلف بضائعهم في أسواق تلمسان، وعند عودتهم إلى بلادهم يحملون معهم القطن وأنواع القماش¹.

كانت هنين أيام الزيانيين، تعيش أعظم فترة في تاريخها حيث أصبحت قطبًا اقتصاديًا بامتياز، ومركزًا للمبادلات التجارية، فكانت هي همزة الوصل بين شمال إفريقيا وجنوب أوروبا، وكانت تأتيها السفن من غرناطة وبرشلونة والبندقية ومرسية وفلورنسا والعديد من مدن جنوب أوروبا².

في أوت 1531م انطلقت حملة إسبانية من مدينة مالقة، بها الآلاف من الجنود الإسبان تحملهم 13 سفينة، وكان هدفها احتلال هنين ومينائها، ورغم مقاومة الأهالي لهم تمكن الإسبان من احتلال الميناء، والسيطرة على المدينة وقتل الكثير من الأبرياء ونهبها بالكامل، بينما فر السكان إلى المدن المجاورة ليحتموا بها³، وفي سنة 1534م جهز الزيانيون حملة عسكرية لتحرير هنين من الاحتلال الإسباني، وفعلا نجحت الحملة في تحريرها، وساعد سكان المدينة قوات الزيانيين في حربهم على الإسبان واقتحامها، فخرج الإسبان منها في ديسمبر 1534م، ومن ثم ضمت إلى تحت لواء السلطة العثمانية، لكنها لم تصبح في عهدها العثماني، كما كانت في عهد الزيانيين، تم تعيين قائد تركي تابع للقائد بتلمسان للإشراف على المدينة، وبقيت تحت سلطة العثمانيين حتى الاحتلال الفرنسي⁴.

¹ حسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص15.

² عبد العزيز محمود لعرج، مدينة هنين تاريخها وآثارها، الملتقى الدولي السادس حول التراث العالمي و الثقافي لمدينة ندرومة وضواحيها، 2006، ص135.

³ عبد القادر فكايير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره، 1505-1792، دار هومه، ط1، الجزائر، 2012، ص67-68.

⁴ عبد العزيز محمود لعرج، المرجع السابق، ص140.

9. مليانة:

تُعد من أهم مدن بايلك الغرب، تقع على الحدود بين بايلك الغرب ودار السلطان، ولقد كانت تابعة لسلطة باي الغرب خلال القرنين 16م و17م، عندما كانت مازونة عاصمة البايك، وفي القرن 18م أصبحت تابعة لدار السلطان، وتآتمر بأمر الدايات مباشرة، لكن مع مطلع القرن 19م عادت لسلطة بايلك الغرب مجدداً¹.

جغرافياً تقع في منطقة جبلية فوق جبل مرتفع، يتخللها الكثير من الوديان والينابيع المائية، كما أنها محصنة جداً، فسورها كبير ومتين²، ضُمت إلى السلطة العثمانية، على يد عروج في بداية الحكم العثماني بالجزائر³، أبدى البايات والدايات اهتماماً خاصاً بها، فنظموا حاميتها ورمّموا أسوارها وحصونها، وجعلوا على رأسها قائداً تركياً يُشرف على أعمالها⁴.

اهتم بها الباي محمد الكبير، اهتماماً خاصاً فشهدت ازدهاراً في مختلف المجالات كما عامل الباي شيوخها معاملة جميلة، وبنى فيها ضريحاً على قبر الولي الصالح أحمد بن يوسف الملياني، ويعود ذلك إلى أن محمد الكبير، عاش طفولته وريعان شبابه فيها، كما أن أحد شيوخ مليانة وهو إبراهيم الملياني الذي قام بالإعتناء بمحمد الكبير وأخيه محمد الرقيق المدعو بوكابوس، عندما توفي والدهما الباي عثمان، كما زوج إبراهيم ابنته لمحمد الكبير، ليصبح صهراً له⁵، وأصبحت مليانة أكثر اهتماماً من طرف البايات بعد محمد الكبير، وكانت بها حامية

¹ ودان بوغفالة، المرجع السابق، ص220.

² مازمول كاربخال، المصدر السابق، ص359.

³ أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الحياة، الدولة والحياة

العامّة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، الجزائر، ص24.

⁴ محمد بن حمو، تاريخ مدينة مليانة وحمامها العثماني، مجلة منبر التراث الأثري، مج10، ع2021، ص171.

⁵ أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الجزائري، تح وتو محمد بن عبد

الكريم، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص ص15-16.

عسكرية من الجند التركي وكان عددها كبيراً، لكن خلال عهد الباي قارة باغلي، شهدت مليانة ثورة تعرف بثورة بني مناد سنة 1813م، ثم بعد فترة وجيزة أعلنت قبائل العطاف العصيان والتمرد بقيادة شيخهم البغدادي، ثم برزت ثورة براز بقيادة جلول بن عبد السلام، فكانت السنوات الأخيرة للعثمانيين، في مليانة مليئة بالثورات والتمردات، بالإضافة إلى إنعدام الأمن والاستقرار فيها¹.

¹ محمد الحاج صادق، مليانة و وليها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1964، ص32.

المبحث الرابع: بايات بايلك الغرب خلال عهد الدايات

إن عدد البايات الذين حكموا بايلك الغرب، منذ دخول العثمانيين للجزائر مختلف فيه ، فهناك من يرى أن عدد البايات هم ثلاث و ثلاثون بايا، و للعلم فإن محمد العجمي ليس من بينهم، أما إذا اوردناه مع البايات فيكون بذلك عددهم 34 بايا، مع العلم أنه يوجد عشر بايات مجهولين، حكموا بايلك الغرب خلال حقبتى الباشوات و الآغوات¹. للعلم فإن هناك إختلاف أيضا، يكمن فيمن تولى منصب أول باي ، هناك من يرى أن حسن بن خيرالدين هو أول باي ، وهناك من يرى أنه اعطى هذا المنصب لابن خديجة، لأنه لم يرض به ، ويراه مجحفا بحقه ، كما أن الباى ابن خديجة، يعتبر أول من وضع أسسا و قوانين ليسيير عليها البايك، كما أنه جعل من مازونة أول عاصمة للبايلك سنة 1563²، أما خلال عهد الدايات فقد كان البايات معلومين، كما أن فترات حكمهم أيضا كانت معروفة، وعددهم عشرون بايا.

1.الباي محمد بن عيسى:

لم تذكر له اعمال و إنجازات، سوى أنه حكم الباى بعد الباى ساعد ، لم تكن فترة حكمه طويلة، وخلفه في منصبه الباى شعبان الزناقي³.

¹ Auguste Moulieras,Txte arabe et traduction francais d'une lettre ecrite par HASEN,33eme et dernier bey d'oran a Ali , Caid de Miliana,Bulletin de la societe de geographie et d'archeologie de la province d'oran,1893,pp149-150.

²Esterhazy.Op cit,p164.

³ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص56.

2.الباي شعبان الزناقي:

يعتبر هذا الباي من أكثر البايات جهادا، كما أنه ألحق بالإسبان خسائر كبيرة و جسيمة، فكان حسب المزاري كثير الغارات على الإسبان، فأصبحوا خلال فترة حكمه، يلتزمون حصونهم وأسوارهم خشية منه، بالإضافة كانت له معركة كبيرة ضدهم في كدية الأخيار، حيث سار بجيشه، الذي تعدده أربعة آلاف جندي (ثلاثة آلاف من الفرسان و ألف من المشاة)،وفي المقابل خرج الإسبان وحلفائهم من قبائل المغاطيس العميلة، بتعداد ثلاثة آلاف جندي (الفان من الفرسان و ألف من المشاة)، إلا أن ابو راس الناصري يذكر، أن تعداد جيش الباي يزيد بقليل على الألف فارس، إلا أن المعركة سارت في صالح الباي وجنوده، ما دفع بالإسبان وحلفائهم إلى الفرار من ساحة المعركة إلى وهران، وقد قتل الباي منهم أكثر من ألف و مائة رجل¹.

لكن الباي و جيشه لم يكتفوا بتحقيق النصر في كدية الأخيار، بل سارعوا إلى مطاردة الإسبان وحلفائهم، حيث دارت معركة ثانية، ببرج العين عند اسوار وهران ،ودار قتال شديد بين الطرفين، أستشهد على إثره الباي شعبان الزناقي، بعد أن كرس حياته في الجهاد، والسعي من أجل تحرير وهران، كان استشهاده سنة 1098هـ، الموافق ل 1686 م، كما أن جثته استولى عليها الأعداء، فقطعوا رأسه و علقوه بباب وهران ،وتمكن جند الباي من انقاذ جثته،وفي نفس الليلة رأى الإسبان و عملائهم نور يسطع على رأسه، فتمالكهم الخوف، فلم يلبثوا حتى ارجعوا الرأس إلى جنوده، فجعلوه مع جسده ودفنوه خارج وهران، ويعرف قبره إلى يومنا هذا، بقبر سيدي شعبان².

¹ بن عودة المزاري ، المصدر السابق، ص229.

² نفسه، ص ص229-230.

3. الباي مصطفى بوشلاغم المسراتي:

اسمه الكامل مصطفى بن يوسف بن محمد بن اسحاق المسراتي، يعتبر جده محمد بن إسحاق، الذي قام ببناء قسبة القلعة المشهورة بإسم قلعة بني راشد، إشتغل ابوه يوسف في عدة مناصب مهمة في الدولة، مثل اشتغاله في منصب خليفة باي قسنطينة ، و خليفة على قلعة بني راشد بباليك الغرب¹، تولى مصطفى بوشلاغم قيادة البايلك سنة 1686م، خلفا للباي الشهيد شعبان الزناقي، بذلك يكون قد خلف حكما قد ارساه الباي شعبان، على الجهاد و تحرير وهران و المرسى الكبير من قبضة الإسبان ، في بداية حكمه ابقى مركز البايلك في مازونة ، لكنه فيما بعد تيقن من أن مازونة بعيدة على مناطق نفوذه، أين يستطيع تجنيد القبائل الواقعة في الجنوب، فقرر نقل العاصمة إلى قلعة بني راشد²، ثم اختار منطقة الكرط لتكون عاصمة للبايلك فعمل على إعمارها، وإستقدم الجند إليها حتى أصبحت تلقب بأَم العساكر، ومع مرور الزمن وبشيء من التحوير اللغوي، أصبحت تلفظ معسكر³، ولقد تمكن الباي بوشلاغم من تحرير وهران سنة 1708م، وأول قرار اتخذه بعد تحريرها هو نقل عاصمة البايلك إليها، ذلك لموقعها الإستراتيجي، إذ تتوسط سواحل بايلك الغرب، وتقع بالقرب منها مواطن الكثير من القبائل⁴.

كما أن بايلك الغرب خلال فترة حكمه، شهد استقرارا كبيرا من الناحية السياسية، وزاد هذا الاستقرار بعد استرجاع وهران من الإسبان، فإزدهرت الحياة بكل مجالاتها ، و أصبحت وهران مقصدا للتجار و الزوار، كما عمل على ترميم مدينة وهران واصلاح طرقها، فأصبحت تضاهي

¹ العيايدة آمنة فاطمة الزهراء و بوحمشوش نعيمة، المشروع الجهادي لبايات بايلك الغرب في تحرير وهران-الباي مصطفى بوشلاغم أنموذجا-مجلة البحوث التاريخية، مج 8، ع1، جوان 2024، ص345.

² بن يوسف الزيناني، المصدر السابق، ص253.

³ Esterhazy, Op cit, p170.

⁴ Sandoval, Les inscription d'oran et de Mers-Elkbir, Revue Africaine, N16, 1872, p89.

مدينة الجزائر في جمالها و هيبة عمرانها¹، وفي سنة 1732م، جهز الإسبان حملة من أجل احتلال وهران من جديد، ولما وصلوا إلى وهران خرج اليهم الباي بجيشه، وقام بمناورتهم و مناوشتهم، إلا أنه لم يستطع مواجهة أعدادهم الكبيرة، وقتل عدد من رجاله من بينهم علي بن مسعود الحشمي أعظم قادة قوات المخزن، فتقهقر جيش الباي فاستجد بقبائل بني عامر، إلا أنهم لم ينصروه، وعندما تأكد من هزيمته حمل اهله و من تبعه و فر إلى مستغانم، وتحصن بها ، ثم جعلها عاصمة البايلك الجديدة، وبقي بمستغانم يسير شؤون البايلك حتى وافته المنية²، و كان ذلك سنة 1737 م، ودفن بمنطقة المطمر القريبة من مستغانم، وبقبة جلييلة شيدها بنفسه وأوصى بأن يدفن فيها³.

4. الباي يوسف بن مصطفى المسراتي:

يختلف الكثير من المؤرخين، في تحديد صلة قرابته بالباي مصطفى بوشلاغم، فالمزاري يرى بأنه أخ مصطفى بوشلاغم المسراتي، بينما يرى مؤرخون آخرون بأنه ولده⁴، وقد نصبه الداوي خلفا لبوشلاغم، كما اصدر قرار ينفذ في الحال بإرجاع عاصمة البايلك إلى معسكر، و هو ما حدث فعلا ، إلا أن يوسف لم يمتلك خبرة و حنكة الباي السابق، في تسيير شؤون البايلك و غلب على قراراته التردد و الارتباك، ما جعل رجال سلطته يتصرفون دون الرجوع إليه ، مما خلق نوعا من الفوضى و عدم الاستقرار⁵، ومن نتائجها ثورة الكراغلة و اهالي مدينة تلمسان سنة 1738م، الذين سئموا من ظلم و تعسف القادة الأتراك، ما دفع بهم الامر إلى أن طردوا القائد

¹ أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص465.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص257.

³ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص19.

⁴ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص278.

⁵ Esterhazy, Op cit, pp174-175.

المعين من طرف الباي، كما أن خليفة الباي و أمين سره محيي الدين المسراتي، انقلب عليه و أخذ السلطة لنفسه، ما إظطر الباي إلى الهروب إلى تلمسان، وتوفي بها موبوءا بالطاعون¹.

5.الباي مصطفى الأحمر المسراتي:

أحد إخوة الباي مصطفى بوشلاغم ، خلف يوسف المسراتي في الحكم مباشرة، و بدأ بترتيب الأمور السياسية في البايلك، بعد أن تخللتها الكثير من الفوضى و المشاكل في عهد سابقه، عرف عنه الشجاعة و القوة و كان صيته يملأ الأرجاء، و كلمته مسموعة عند الدايات بالجزائر²، من أعماله أنه قام ببناء سور لمدينة معسكر، وهو سور قوي و عظيم، ذلك من أجل تحصينها و منعها على الاعداء³، و كانت نهايته مقتولا بالسم ، دفن بمنطقة المطمر و بني له ضريح⁴.

6.الباي محمد بوطالب المجاجي المسراتي:

خلف أخاه مصطفى الأحمر في حكم البايلك، شهدت فترة حكمه نوعا من الاستقرار السياسي، وازدهارا في الحياة الاقتصادية، كما أن الثورات و التمردات وحركات العصيان أصبحت منعدمة خلال فترة حكمه، وامتدت فترة حكمه تسع سنوات⁵، إلا أن نهايته كانت مأساوية، فقتل من طرف رجال الدولة في ظروف غامضة⁶.

¹ يحي بوعزيز ، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص56.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص278.

³ بلجوزي بوعبدالله، ضريح الباي مصطفى لحمر بمستغانم، مجلة منبر التراث الأثري ، مج3، ع1، 2014، ص199.

⁴ Bodin Marcel, OP cit,P53.

⁵ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص279.

⁶ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص20.

7. الباي مصطفى الملقب بقائد الذهب المسراتي:

حكم البايلك بعد مقتل الباي السابق محمد بوطالب المجاجي، حكم لمدة ست سنوات ولقب بقائد الذهب لكرمه وأعطياته لطالبيه والسائلين، خلال فترة حكمه ثار عليه صهره عثمان بن إبراهيم، فاضطر الباي إلى الهروب منه، فلجأ إلى الإسبان في وهران وأقام عندهم فترة من الزمن، وسبب ثوران صهره عليه كان سبباً عائلياً، وعندما فر إلى وهران، لحقه أتباعه الأوفياء من قبيلة الأمحال التي كان يعتمد عليها في كل شيء، ونزلوا بالقرب من وهران، بعد أن فروا من صهره عثمان "عصمان"، لكنهم سرعان ما تصالحوا مع عصمان ورجعوا إلى موطنهم بين الشلف ووادي مينا، بينما فر الباي قائد الذهب مجدداً إلى تونس، وبقي بها إلى أن وافته المنية ودفن بها¹.

8. الباي محمد العجمي:

كلفه الداوي بإدارة بايلك الغرب، والقيام بأمره بعد فرار الباي قائد الذهب المسراتي، لكن الأسرة المسراتية التي ألقت حكم البايلك منذ عهد مصطفى بوشلاغم لم ترض بهذا التعيين، وأخذت في نصب المكائد والتدبير على الباي الجديد، وفعلاً استطاعوا تدبير مكيدة لقتله، وهو ما تم لهم فعلاً سنة 1752م، وكانت فترة حكم محمد العجمي سوى تسعة أشهر، كانت كلها مكائد من قبل المسراتيين، ولم يتسن له عمل إنجازات مهمة تخلد ذكره².

9. الباي عثمان بن إبراهيم "عصمان":

تولى حكم تلمسان عندما كانت عاصمة رفقة مازونة لبايلك الغرب، وكان ذلك عندما قام بثورة بمساعدة ساكنة تلمسان على الباي يوسف المسراتي، كما تعرض هو أيضاً للعديد من

¹ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص ص 280-281.

² كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 59.

المؤامرات من طرف المسراتيين وأتباعهم، وقد حاولوا اغتياله إلا أنهم فشلوا في ذلك، وقُتل الكثير منهم، وقد دامت فترة حكمه تسع سنوات¹، ويعتبر عصمان هو الرجل الذي كسر نفوذ الأسرة المسراتية، بداية عندما استولى على تلمسان بالقوة، ثم عندما أصبح باياً على كل بايلك الغرب، وعندما وطد أركان سلطته، انتقم من سكان تلمسان وقبيلة الأمحال وقتل الكثير منهم، لما لاقاه من سوء معاملة منهم²، ومن أعماله أنه قام بمحاولات عديدة لتحرير وهران، فجهز الحملة تلو الأخرى، إلا أن الإسبان وعملاءهم استطاعوا صدّه وتحصنوا بأسوارها المنيعة، كما كانت له لمسته العمرانية بمدينة معسكر، فهو الذي أمر ببناء الجامع الأعظم بمعسكر، وقام بافتتاحه للصلاة فيه في شهر شعبان من سنة 1169هـ الموافق لـ 1755م، كما بنى الدار والقبة المتلاصقتين مع الجامع، وقد عُرفت فيما بعد بقبة الباي عثمان بن إبراهيم، وقد دُفن فيه، وكانت وفاته سنة 1756م³.

10. الباي حسن:

تولى حكم البايلك خلفاً للباي عصمان، بعد وفاته مباشرة سنة 1756م⁴، إلا أن فترة حكمه لم تدم سوى ثلاث سنوات، وسبب قصرها فراره من الحكم، بسبب تلقيه الإهانات من الدايات وخليفته، وكان ذلك حين التقاهم بعد أن حمل الدنوش إليهم بدار السلطان، وعندما أحس بأنهم يرونه مقصراً في عمله، آثر الفرار على البقاء في كرسيه قد يكون سبباً في مقتله، فسارع

¹ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 20.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 283.

³ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 20-21.

⁴ نفسه، ص 21.

بالعودة إلى وهران، ومن ثم دبر أمر فراره إلى إسطنبول، ولم يمكث بها طويلاً وتوجه إلى القاهرة، وأكمل بقية حياته فيها إلى أن وافته المنية¹.

11. الباي إبراهيم الملياني:

يكنى بأبي إسحاق وتولى الحكم بعد فرار الباي حسن مباشرة، كان مهتماً ومحباً للعلم، كما أنه كان يقرب منه العلماء والفقهاء، كانت له آثار عمرانية، فهو الذي أمر ببناء برج للجيش بمدينة معسكر²، وقد انتهى من بنائه في شهر رمضان 1762م، وكُتبت في جداره لافتة تحمل اسمه وتاريخ بناء البرج، وقد حكم زهاء أربعة عشر سنة، شهد خلالها البايلك استقراراً سياسياً وازدهاراً ثقافياً وعلمياً، وتوفي سنة 1771م³.

12. الباي الحاج خليل:

خلف الباي إبراهيم الملياني، في منصبه سنة 1171هـ. كانت طباعه سيئة وأخلاقه ضيقة، سياسته كانت عكس سياسة سلفه، فقد كان يكره العلماء والفقهاء ويبغضهم⁴، ووصل به الأمر أن اعتدى عليهم وآذاهم، وعلى رأسهم الشيخ أبي الترفاس، الذي غزاه بجنده وهو في زاويته، فخرّبها وأراد أن يقتل الشيخ إلا أنه لم يفعل، وقد أهان طلبته أيضاً وصرفهم عنه بالقوة⁵، خلال فترة حكمه أصاب بايلك الغرب جفاف وقحط كبيرين، ما أدى إلى انتشار المجاعة، التي حصدت الكثير من الأرواح، وكان ذلك سنة 1777م، إلا أن هذه المحنة زالت وأغاث الله

¹ كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص 60.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 285.

³ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 21.

⁴ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 287.

⁵ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 22.

عباده بأمطار الخير وأخصبت الأرض من جديد¹. كما شهد عهده العديد من التمردات والثورات، ولعل أشهرها وأكبرها ثورة محمد بن علي الدرقاوي بأحواز تلمسان، واستمالت ثورته الكثير من الناس، بعد أن رأوا ظلم وجور الباي خليل، فرأوا في هذه الثورة الخلاص منه ومن ظلمه، إلا أن الباي لم يبق مكتوف اليد اتجاه هذه الثورة، فجهز جيشه بكل ما يلزم من سلاح ومؤن، وسار على رأسه إلى تلمسان وأحوازها، وضرب معسكره بالقرب من المدينة، وبينما هو مرابض على حصارها ومراقبة تحركات أعدائه، وُجد بإحدى الليالي من سنة 1778م، مقتولاً داخل خيمته، ولم تُعرف كيفية مقتله وبقيت غامضة، وجعل الكثير من الناس يرون، أن مقتله كان عقاباً من الله عز وجل، وتجنبياً لعباده من شر هذا الباي الظالم، بعدما كانت نيته قتل الكثير من أهل تلمسان².

13. الباي محمد بن عثمان الكبير (الكل):

يعد أعظم باي في تاريخ بايلك الغرب، حكم البايلك لمدة 18 سنة، من سنة 1779م إلى غاية سنة 1797م، كان محباً للعلم والعلماء، كما كان رجلاً صالحاً يحب الصالحين، شهدت فترة حكمه قفزة نوعية بالنسبة لبايلك الغرب في جميع مجالات الحياة، وشهد خلالها البايلك تطوراً واضحاً وملحوظاً وحركة عمرانية متسارعة³.

كان أول منصب شغله، هو قائد فليقة لمدة أربع سنوات، من 1765م إلى 1769م، لقد ساعده في تولي هذا المنصب صهره الباي سالف الذكر إبراهيم الملياني، ثم أصبح محمد الكبير خليفة للقطاع الشرقي من البايلك، والذي مقر قيادته مدينة مليانة، وبقي في هذا المنصب بعد أن أقره الباي حسن عليه، ونظراً لحزمه وعزمه وحسن تسييره لشؤون الرعية

¹ نفسه، ص 22.

² Esterhazy, Op cit, PP188-189.

³ بلبروات بن عتو، الباي محمد الكبير باي وهران 1779-1797 حياته وسيرته، مجلة عصور، ع3، جوان 2003، ص 1.

والسلطة، فقد ضمه الباي حسن إلى حكومته وجعله مقرباً منه، وقام بترقيته من خلال تنصيبه على كل القطاع الشرقي، وبقي في هذا المنصب إلى غاية سنة 1779م¹.

عندما تسلم قيادة البايلك، أبرز قوة وحنكة سياسية وإدارية لم تسبق أن ظهرت فيمن سبقه من البايات، ومن إنجازاته تحرير وهران والمرسى الكبير من الإسبان، بعد أن كرس وقته وجهده، منذ بداية حكمه من أجل هذا المسعى الجليل، وقد دخلها يوم 27 فيفري 1792م، في أجواء احتفالية رفقة عائلته ورجال دولته والكثير من رعيته².

كما خلفت فترة حكمه إنجازات عمرانية كبيرة، على رأسها بناؤه للجامع الأعظم بمعسكر، حاضرة البايلك قبل نقلها إلى وهران، وقد بناه من ماله الخاص، وافتتحه للصلاة في الأول من ذي القعدة سنة 1195هـ الموافق لشهر نوفمبر 1781م³.

كما أعاد بناء الجامع العتيق، وقام بتوسيع مساحته وتغيير منبره، وهذا ما يبرز اهتمام الباي بالمساجد وأئمتها، كما كانت في عهده تُعد بمثابة مدارس قرآنية، تُدرّس فيها مختلف العلوم الدينية كتحفيظ القرآن والفقه وعلم الحديث⁴.

أسس مسجداً بوسط وهران، في منطقة خنق النطاح وقد تم بناؤه سنة 1793م، ومع دخول الاحتلال الفرنسي إلى وهران، بنوا حوله الكثير من البنايات والمساكن، من أجل إخفائه وتمهيداً

¹ أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص 140.

² بلبروات بن عتو، التحرير الثاني لوهران والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م، مجلة عصور، ع 4 و 5، ديسمبر 2003، جوان 2004، ص 269.

³ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 154.

⁴ بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص 267.

لنسيانه ومن ثم تهديمه أو تحويله إلى كنيسة، لكن الجزائريين ظلوا يراقبونه، وافتُتح قبل اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954م¹.

تولى الباي محمد الكبير بنفسه الإشراف على بناء الجامع الأعظم بوهران، وتم افتتاحه للصلاة فيه سنة 1796م، وكان أمر بنائه قد صدر من الدايا بابا حسن، في خطوة منه لتخليد ذكره في مساعيه ومساعي نائبه الباي محمد الكبير في تحرير وهران، وقد تم وقف عدد كبير من المحلات والحمامات لهذا الجامع².

كما أن فترة حكم الباي محمد الكبير، شهدت تطوراً علمياً واضحاً، فقد قرب منه العلماء وطلبته، كما أنه كان يقتني الكتب النادرة بأثمان باهظة بغية نسخها والحفاظ عليها، وكان له مكتبة يطالع فيها أوقات راحته، كما أسس مكتبة بمعسكر، حملت اسمه وتُسمى المكتبة المحمدية، إن استمالته للعلماء والفقهاء، وضمهم إلى مجلسه أعطاه نفوذاً واسعاً ومحبة خاصة من الرعية، كما أعطاه نفوذاً سياسياً وعسكرياً، استغله في توطيد الأمن والاستقرار وتحقيق الرفاه الاقتصادي، وقد استطاع جمع كلمة القبائل خلفه، من أجل مسعاه في تحرير وهران والمرسى الكبير، وبناء قوة يكون لها وزنها في المنطقة³.

توفي الباي محمد الكبير يوم 15 نوفمبر 1797م، كان ذلك خلال عودته من مدينة الجزائر، بعد أن حمل الدنوش الكبيرة إليها⁴، وحسب الزهار فإن الباي محمد الكبير عندما

¹ عبد القادر بكاري، الإسهامات الثقافية والكتابات التاريخية لعلماء الجزائر العثمانية، أبوراس الناصري أنموذجاً، المجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع6، جامعة ابن خلدون تيارت، 2013، ص94.

² زيوش إسماعيل، جوانب من السياسة الدينية للباي محمد الكبير بببايك الغرب 1779-1797، مجلة دراسات وأبحاث، ع1، مج12، جانفي 2020، ص383.

³ رياض بن عراج، المشروع الثقافي والديني للباي محمد بن عثمان الكبير في ضوء الكتابات المحلية (1779-1797)، مجلة أنثروبولوجية الأديان، مج19، ع2، جوان 2023، صص206-207.

⁴ Feraud Charles, "Ephémérides d'un secretaire officiel sous la domination turque à Alger de 1775 à 1805" in Revue Africaine, 1874, P313 .

وصل بالقرب من مازونة وافته المنية، وهو عند شيخ قبيلة أولاد قصير الشيخ سايح بن خضرة، فحملوه وواصلوا طريقهم إلى وهران¹، وعندما وصلوا إلى وهران، دفنوه بالقرب من المدرسة الجلية بمنطقة خنق النطاح، بوسط مدينة وهران، وبها ضريحه إلى يومنا هذا².

14. الباي عثمان بن محمد الكبير:

تولى حكم البايك عقب وفاة أبيه الباي محمد الكبير، وقد عينه الداى في منصبه وأقره عليه مطلع سنة 1798م، لم يبق في الحكم سوى ثلاث سنوات، لم تكن له قوة أبيه ولا حزمه ولا ورعه، فنقل مقر حكمه من البرج الأحمر في وهران إلى القصبه بناحية جبل مرجاجو، فأنشغل عن الحكم باللهو والمجون، وفوض لنوابه ورجال سلطته بتسيير شؤونها، وقام بتشييد القصور واهتم بعمارة قصره، وأرسل رجاله إلى تونس لجلب مغنيتين لتسليته، وقضى معهما أيامًا كثيرة، أما انصرافه عن الحكم والإدارة فقد خلق نوعًا من الفوضى، فاستغل نوابه تفويضه لهم بتسيير الشؤون الإدارية، فعملوا من أجل مصالحهم، وجمع الثروات لأنفسهم، ومما زاد الطين بلة أن في عهده أصاب البايك الطاعون، الذي هلك به كثير من الناس³.

بسبب إهماله واستهتاره انتشرت الفوضى، واندلعت الثورات والتمردات، في العديد من المناطق التي كانت خلال عهد أبيه، تتسابق في الجهاد، فامتعت الكثير من القبائل على أداء الضرائب التي كانت تؤديها لخزينة البايك، ووصل بها الأمر إلى رفضها تدخل السلطة في شؤونها الداخلية⁴.

¹ الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 63.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 24.

³ نفسه، ص 26.

⁴ توفيق دحمانى، النظام الضريبي، المرجع السابق، ص 153.

كان شراؤه للجاريتين من تونس، سبباً مباشراً في عزله من منصبه، فبعدما سمع الداى مصطفى ببذخه ولهوه وبعده عن مجلس الحكم، غضب غضباً شديداً، و ما زاد في انفعاله أنه سمع عن استقدامه لجاريتين، فأمر بعزله ونكته، ومصادرة كل أمواله وممتلكاته، وأن يقيد ويُنقل إلى مدينة البليدة¹.

لكن الباى عثمان أصر على الفرار، فتعاون مع القنصل الإنجليزي بوهران، وطلب منه أن يزوده بسفينة ليهرب بها، لكنه فشل في ذلك، بعدما كشف أمر تدبيره وُقْبض عليه، ونفذ فيه أمر الداى².

بذلك انتهت مسيرة الباى عثمان في بايلك الغرب، واستقر في مدينة البليدة لمدة سنتين. ثم أرجعه الداى ونصبه باياً على بايلك الشرق، لكن من سوء حظه أنه لم يستمر طويلاً في منصبه حتى قامت ثورة ابن الأحرش الدرقاوي، واستفحل أمرها فخرج بجيشه للقائهم بمنطقة وادي الزهور، غير أنه هزم هو وجيشه هزيمة عظيمة، ولم يتبق معه من رجاله إلا القليل الذين أشاروا عليه بالفرار، لكنه عند هروبه سقط من حصانه وأسر، ثم قُتل على يد الثوار الدرقاويين³.

15. الباى مصطفى المنزالي: اسمه الكامل مصطفى بن عبد الله العجمي المنزالي، تولى حكم البايك سنة 1800م، خلفاً للباى عثمان بن محمد الكبير، الذي عزله الداى من منصبه، كان رجلاً عاقلاً يستميل إلى السلم والموادعة⁴، في فترة حكمه تزعزعت أوضاع قوات المخزن، وظهر

¹ بن يوسف الزياتي، المصدر السابق، ص206.

² الشريف الزهار، المصدر السابق، ص83.

³ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص301.

⁴ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص27.

فيها الفساد والرشوة، وأصبحت المناصب تباع وتُشتري، وقد وصفه المزاري بأنه رغم أخلاقه الحميدة، كان يتسم بالجبن والخوف، وهو ما أثر سلباً في رجاله وسلطته¹.

في عهده قامت الثورة الدرقاوية، التي تبعها الكثير من القبائل حتى المخزنية منها، واستقل أمرها، فرأى الباي مصطفى أن يخرج إليهم على رأس جيشه، مدعوماً بأعداد كبيرة من قوات المخزن، فالتقى الطرفان في موقع اسمه "قرطاسة"²، وقد هُزم فيها الباي وقتل من جنده الكثير، كما أن أغلب قادة قوات المخزن قُتلوا وأسروا، وفر الباي مع بعض من حرسه إلى وهران، بعد أن طارده خيالة الدرقاويين، واستطاع النجاة بنفسه والدخول إليها والتحصن بأسوارها، بقي في الحكم إلى غاية 1805م، بينما استقل أمر الدرقاويين، وأصبحوا يشكلون خطراً على السلطة العثمانية، فأمر الداى بعزله، وتصيب محمد المقلش بن الباي السابق محمد الكبير في مكانه³.

16. الباي محمد المقلش:

ولي أمر البايك بعد أن فشل سابقه، الباي مصطفى المنزالي في القضاء على الثورة الدرقاوية، وكان محمد المقلش برفقة أخيه الباي عثمان سالف الذكر، عندما قيده الداى وأنزله بالبلدية، وهو أحد أبناء الباي محمد الكبير، ويذكر المزاري أنه تسلّم مقاليد حكم البايك وهو في عمر 18، وذلك لما رآه الداى ورجال دولته من شجاعته وإقدامه، وفيهم من شبه حزمه بحزم أبيه، وسار من مدينة الجزائر إلى وهران عبر السفينة، ولم يقطع الطريق براً، لأن الأرض كانت قد زلزلت بالتمردين والثوار، وأصبح أغلب قبائل البايك حلفاء لابن الشريف الدرقاوي⁴.

¹ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 301.

² نفسه، ص 304.

³ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 65.

⁴ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 308-309.

لقد أثبت الباي الجديد، جدارته وقوته ولم يخيب ظن الداى مصطفى بن إبراهيم فيه، فعمل على تحصين المدينة، ونصب المدافع وشحن الأبراج والحصون بالجنود، فاستعصت على ابن الشريف الذي آثر الانسحاب.

لكن الباى استغل انسحابهم، وأمر المدفعية بقصف مؤخرة جيش الدرقاويين، فأوقع بهم خسائر معتبرة، ثم سارع في مراسلة قبائل المخزن التي حالفت ابن الشريف فاستمالها إليه، وأصدر عفواً شاملاً عن كل الذين حالقوا الدرقاويين، وبهذه الخطوة نجح في عزل أعدائه، وأصبحت قبائل المخزن في صف الباى، ولم ينتظر الباى حتى خرج بجيشه لحرب الدرقاويين، وهزمهم في عدة مواقع مثل معركة وادي المالح، ومعركة قرية سيدي محمد بن عودة، ومعركة تسالة جنوبي وهران، ومعركة وادي الرمان¹، كل هذه المعارك سببت الضعف للدرقاويين وحلفائهم، وكانت معركته الأخيرة معهم بتافنة، وفي هذه المعركة كسر شوكتهم وفرّق جموعهم².

رغم جهود محمد المقلش في محاربة الدرقاويين وكسر شوكتهم، فقد أمر الداى أحمد الذي خلف الداى مصطفى في منصبه، بقتل محمد المقلش سنة 1807م، وذلك لأن الباى بعد أن لم تكفِ عدد البغال المخصصة لنقل الغنائم والأموال إلى مدينة الجزائر، استعمل في ذلك البقر أيضاً، ما أغضب الداى أحمد، إلا أن الكثير من الباحثين يرون أنه كان حاقداً عليه، وكان من معارضي تسلّم محمد المقلش أمر البايك، أيام الداى السابق مصطفى بن إبراهيم باشا، وهناك من يرى أنه كان يحسده لما فعله في مدة قصيرة، وهناك من يرى أنه خاف من قوته، وأنه قادر على إعلان الاستقلال وإقامة دولة له غرب الإيالة³.

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص ص 204-205.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 55.

³ يحيى بوعزيز، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص 71.

17. الباى مصطفى المنزالي (عهدة ثانية):

رجع إلى حكم البايك، بعد مقتل الباى محمد المقلش سنة 1807، وكان العثمانيون ما زالوا في حربهم مع ابن الشريف، وإن كانت شوكتهم قد ضعفت، فتسلّم منذ بداية عهده الجيش، وأبقاه على أهبة الاستعداد، لأي خطر قد يصدر من الدرقاوي وحلفائه¹.

لم ينتظر كثيرًا حتى انتقض الدرقاويين، وجّهّزوا أنفسهم بأراضي فليقة، فتوجه إليهم على رأس جيشه، وحاربهم في عقر دارهم، وهزمهم هزيمة نكراء، وقتل الكثير من رجالهم، ثم انتفضوا ثانية في منطقة مدغوسة، فقام إليهم ودارت معركة طاحنة أصبحت تُسمّى بـ"معركة مدغوسة"، حيث سحق الباى وجنوده الدرقاويين في وقت قصير، كما أن ابن الشريف الدرقاوي فقد أغلب رجاله في هذه المعركة². لم يبقَ في منصب الباى سوى تسعة أشهر، وقد رقّاه الداى أحمد إلى رتبة "خزناجي" بدار السلطان³.

18. الباى بوكابوس:

هو الأخ الأصغر للباى محمد الكبير، لذلك يُلقَّب بـ"محمد الصغير" للتفريق بينهما، يُلقَّب أيضًا بـ"محمد الرقيق" لأنه كان رقيق الجسم، أما لقبه "بوكابوس" فلأنه كان دائمًا يحمل معه مسدسًا، كما يُلقَّب أيضًا بـ"المشتمل"، لأن لباسه كان كاملاً وعربيًا، فتشبهه بالعرب في لباسهم جعل الأتراك يلقبونه بهذا اللقب، ومن ألقابه بعد موته "المسلوخ"، وذلك بعد أن سلخ الآغا عمر رأسه، بعد أن ثار بوكابوس على السلطة⁴.

¹ نفسه، ص 72.

² بن يوسف الزيانى، المصدر السابق، ص 225.

³ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 28.

⁴ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 328.

تولّى حكم البايالك خلفاً لمصطفى المنزالي سنة 1807م، وورث عنه الحرب ضد الدرقاويين، الذين أصبحت انتفاضتهم تشمل كل أرجاء البايالك، ورغم سعي البايات السابقين إلى القضاء عليها نهائياً، إلا أنهم لم يفلحوا، فما أن يقضوا على انتفاضة في منطقة حتى تقوم أخرى، فأصبحت بذلك تشكّل بالنسبة لرجال الدولة "مرضاً مزمنًا" أثقل كاهلها¹. حارب بوكابوس الدرقاويين بشدة، وكسر شوكتهم، وقضى على خطرهم نهائياً، وآخر ما فعله بهم، عندما وصلته أخبار بأن ابن الشريف الدرقاوي مختبئ عند صهره أبي الترفاس في بني يزناسن، فسار إليه على رأس جنده، وخرب قرية وزاوية أبي الترفاس².

إلا أن ابن الشريف الدرقاوي تمكن من الفرار، فقفّل الباى راجعاً إلى وهران، وبمجرد وصوله إليها، أتاح أمر من الداى بجمع جيشه وتجهيزه، من أجل المسير إلى تونس للمشاركة في الحملة عليها، فانصاع للأمر وجّهز جيشه وسار به، وعندما وصل إلى يلى، حدثته نفسه بعصيان الداى ومبايعة سلطان المغرب الأقصى المولى سليمان، فدبرّ مكيده لقتل الجنود الأتراك المتواجدين في الجيش، وقد تمكن من قتل جلّهم، بينما فرّ بعضهم، ثم راسل قبيلة بني عامر، وحثّها على قتل الجنود الأتراك المتواجدين ضمن المحلة الرابضة عندهم، وقد فعلوا ما أمرهم. ثم عاد إلى وهران وتحصّن بها، لكن علماءها وقادة مخزنها أقنعوه بالاستسلام فسلم نفسه، وقُيّد وأُرسل إلى قائد الأسطول الآغا عمر، الذي أمر بسجنه، ثم قتله لاحقاً³.

¹ Lapéne M, Tableau historique de la province d'oran de ppuis le départ des Espagnols En1792 jusqu'à L'élévation D'ABD EL KADER en1831, p302.

² يحيى بوعزيز، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص73.

³ نفسه، ص ص72-73.

19. الباي علي قارة باغلي:

خلف الباي بوكابوس في حكم البايك، وهو صهره ولم يتآمر معه ضد الداى، بل ساهم في إنقاذ الجند التركي من أن يقتلهم بوكابوس، وسارع بهم إلى مازونة، وتحصّنوا بها معه إلى أن انقضى أمر بوكابوس، ونظير هذا العمل وضعه الداى في منصب صهره بايّا على الغرب¹. رافق الآغا عمر في تفقد أحوال المنطقة، خاصة بعد أن سمعوا أن ابن الأحرش الدرقاوي يتردد على جبل ترارة، فصعدا إليها وهدما الدار التي كان يختبئ فيها، وتفقدا أحوال تلمسان أيضًا، ثم رجعا إلى وهران، وأمر الآغا عمر بإخراج بوكابوس من سجنه، فقتله ببشاعة وسلخ رأسه، وبعث به إلى الداى في مدينة الجزائر، كما قتل خدامه وأعوانه ونكبهم²، ثم قتل جميع أولاد بوكابوس الصغار بدون رحمة، وكان ذلك سنة 1812م³. خلال حكم قارة باغلي، أصلح الكثير من الأمور السياسية والإدارية والاجتماعية، وحاول بسياساته إرساء قواعد الأمن والاستقرار، خصوصًا بعد الفوضى التي أحدثتها الثورة الدرقاوية وانشقاق بوكابوس⁴.

كما أخضع الكثير من القبائل، وأرغمها على دفع الضرائب مثل قبيلة بني زروال، بالإضافة إلى إخضاعه لقبيلة صبيحة، التي أخذت من اللصوصية سبيلًا لعيشها، وأصبحت تقطع طرق القوافل وتتهبها، لكنه أرغمها على وقف لصوصيتها، ودفع الضرائب في الوقت المحدد⁵. نظيرًا لخدماته، شهد البايك خلال عهده تحسنًا ملحوظًا، عن عهد البايات السابقين، وأحس الناس بالأمن والاطمئنان، رغم كل هذه الخدمات، إلا أن الداى قد جرّده من تعيين خليفة شرق

¹ نفسه، ص ص73-74.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص ص336-337.

³ يحيى بوعزيز، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص69.

⁴ نفسه، ص75.

⁵ كمال بن صحراوي، الرجوع السابق، ص69.

البايلك، وخليفة غرب البايلك أيضا، وأضافهما إلى صلاحياته، كما أن الداى عتب عليه لتغاضيه عن بعض الأتراك، الذين لجأوا إلى وهران فرارًا من الداى، الذي ألح على طلبهم وقتلهم، فانتظر الداى فرصة للثأر منه، وكان ذلك عندما أتى الباى قارة باغلي بـ"الدنوش الكبيرة"، فأمر بقتله¹، وكان ذلك سنة 1817م، كما أصدر الداى أوامر، تقضي بمصادرة منزله، وسجن أبنائه، وتجريد نسائه من الحلي والألبسة الثمينة².

20. الباى حسن بن موسى الباهي:

تولّى أمر البايلك خلفًا للباى علي قارة باغلي، وعيّنه الداى علي خوجة بايّا سنة 1817م. كانت بداية أمره أنه كان طبّاخًا لأربعين عسكريًا تركيًّا، ثم أصبح يمتهن بيع التبغ، وفي يوم من الأيام، مرّ الباى بوكابوس بجوار محله، فأعجبه نظافته وترتيبه³، فقرّبه منه وزوّجه ابنته، وأعطاه منصبًا رفيعًا بتوليته خليفة للناحية الشرقية من البايلك⁴.

كما أنه لقد سحب الباى قارة باغلي عندما حمل "الدنوش الكبيرة" إلى مدينة الجزائر، وحدث قبل وصولهم أن تم عزل الباى من منصبه، ثم قُتل وأكمل حسن الباهي طريقه إلى قصر الداى محمّلًا بالدنوش، وقد ولاه الداى منصب الباى فور وصوله، وعندما عاد إلى وهران قام بإرتداء اللباس الخاص بمنصب الباى "القولية"، وكان ذلك سنة 1817م⁵.

امتدت فترة حكمه حوالي أربعة عشر سنة، من سنة 1817م إلى غاية الاحتلال الفرنسي لوهران في 4 جانفي 1831م، كانت بداية حكمه تتسم بالرفق واللين، وكانت الضرائب التي

¹ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 69.

² بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص 237.

³ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 347-348.

⁴ Fey Henri Leon, Histoire D'Oran avant, Pendant et après la domination espagnol, Typographie Adolphe Perrie Editeur, Oran, 1858, P307.

⁵ Derrien L, Les Français a Oran depuis 1830 jusqu'à Nos Jours, Imprimerie T. Nicot, AIX, 1886, P14.

يفرضها تُعد قليلة، مقارنة بما كان يفرضه البايات السابقون، كما قَرَّب العلماء منه، وكانوا يحضرون مجلسه، غير أن هذه السياسة سرعان ما تخطى عنها، وأصبح كل همّه، جمع الثروات والأموال لنفسه كما اعتدى على الكثير من العلماء، وحطّ من شأنهم، من أمثلة ذلك أنه في سنة 1825م، قام بغزو واحة عين ماضي بالجنوب، بعد أن اتهم شيخ التيجانيين أحمد بن سالم التيجاني، بأنه يدبّر التمرد وإعلان الثورة على السلطة العثمانية، وفرض عليهم غرامات وضرائب ثقيلة، أيضًا من أعماله السيئة ما فعله مع وجهاء قبيلة الحشم، حين دعا اثني عشر وجهيًا منهم إلى وليمة، فقطع رؤوس أحد عشر منهم وفرض على قبيلتهم ضرائب كبيرة، لكنهم امتنعوا عن دفعها¹.

كما قام بقتل العالم الجليل محمد بن قريد الغربي في منزله، بخنق "النطاح" في وهران سنة 1828م، كما قام بتخريب زاوية بن قندوز التيجاني، وأمر بتقييده وأخذه إلى وادي رهيو، حيث أمر بقتله هناك خنقًا، كما أنه قتل الكثير من العلماء والفقهاء والمشايخ، دون مراعاة للعواقب، ومن خلال سياسته الظالمة، شهد البابلك ثورات وتمردات أبرزها ثورة التيجانيين سنة 1826م، الذين استقروهم فقاتلوه لكنه هزمهم، وحافظ على سلطانه بعد معارك عديدة راح ضحيتها الكثيرون².

بقي في منصبه إلى غاية الاحتلال الفرنسي لوهران، وحكم باسم الفرنسيين لمدة سبعة أشهر، ثم خاف على ماله من طمعهم، فسافر إلى الإسكندرية، واستقر بها زمنًا ويُقال إنه توجه بعدها إلى مكة وأكمل بقية حياته فيها³.

¹ يحيى بوعزيز، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص76.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص32.

³ صافي مجدوب ومواسيم يونس، دراسة لرسالة الباي حسن لقائد قلعة بني راشد (1238هـ/1823م)، مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مج10، ع1، 2024، ص84.

-خلاصة الفصل:

من خلال ما تم التطرق إليه نستنتج أن بايلك الغرب، يتربع على مساحة واسعة، ويشغل موقعا إستراتيجيا بتوسطه للعديد من القوى المحلية والدولية، ما جعله عرضة لأطماع الكثيرين، خاصة الإسبان الذين كانوا يحتلون جزءا إستراتيجيا منه وهي وهران، بالإضافة إلى أطماع المغرب الأقصى، وهذا ما دفع السلطات العثمانية في الجزائر إلى إتخاذ جملة من التدابير على رأسها الحرص الشديد في إنتقاء الباي لهذا الإقليم، ليكون في خدمة الإيالة ومحافظة على البايلك وإستقراره، كما أنهم إعتدوا على تقسيم إداري يبدأ من خلال تنصيب قائد تركي على أحد المدن الرئيسية في البايلك، ويتحكم أيضا في كل المناطق المجاورة لها من قرى مداشر ومواطن القبائل التي تتبع إقليميا لهذه المدينة، كما عمل الأتراك على شحن هذه المدن والحصون والأبراج القريبة منها بحاميات عسكرية من الجند التركي، بالإضافة إلى قوات المخزن الرابضة في كل مناطق البايلك.

كما إعتد العثمانيون على تقسيم إداري يشمل الأرياف في البايلك، وإستحداث مناصب لهذا الغرض، ومن أهم المناصب التي تتحكم في القبائل: قائد آغا، قائد كبير، القائد، شيخ القبيلة، وهذا التقسيم ساعد السلطة في فرض سيطرتها على القبائل، خاصة أن الذين يتولون هذه المناصب هم من أبناء القبائل أيضا، وبالرغم من أن هذا التنظيم لم يرق إلى التنظيم الإداري الذي شهدته المدن، إلا أنه ساهم بشكل كبير في السيطرة على الكتلة الاجتماعية الأكبر في البايلك، ويعد مساهما في إستمرار الحكم العثماني في الجزائر لمدة طويلة، دامت حوالي ثلاثة قرون.

الفصل الثاني: القبائل وعلاقتها العامة بالسلطة في بايلك الغرب خلال
عهد الدايات

المبحث الأول: نظرة عامة على قبائل بايلك الغرب

المبحث الثاني : قبائل المخزن وعلاقتها بالسلطة

المبحث الثالث : قبائل الرعية وعلاقتها بالسلطة

المبحث الرابع : القبائل المتحالفة و القبائل المستقلة وعلاقتها بالسلطة

الفصل الثاني: القبائل وعلاقتها العامة بالسلطة في بايلك الغرب خلال عهد الدايات

-تمهيد:

لقد تميز بايلك الغرب خلال عهد الدايات بتركز أغلب سكانه في الأرياف، كما كان أفرادهم يعتمدون على سلطة القبيلة التي ينتمون إليها، عكس المدن التي إستقر بها نسبة قليلة من السكان، فنجد أكبر مدن البايك خلال هذا العهد تلمسان التي كان عدد سكانها آواخر العهد العثماني حوالي 14 ألف نسمة، وتليها مدينتا معسكر و وهران بعشرة آلاف نسمة لكل منهما، بينما المدن الأخرى فهي أقل من حيث تعدادها السكاني، والملاحظ أن بايلك الغرب تميز بكثرة القبائل وأنها تشكل البنية الاجتماعية الأكبر في البايك، كما أن إنتشارها كان يعم أرجاء البايك ومن ضمنها كانت هناك قبائل قوية وكثيرة العدد وتسيطر على مساحات واسعة من الأراضي وهذا ما دفع بالسلطة الى محاولة السيطرة عليها وإخضاعها من خلال عدة تدابير، كما أن علاقتها بها لم تكن على صعيد واحد، بل كانت مختلفة حسب الظروف، كخضوع القبائل أو رفضها للانضمام تحت جناح السلطة، أو تدخلها في شؤونها الداخلية، وهو ما رسم وجهها سياسيا يحدد فيه طبيعة العلاقات بين هذه الكيانات.

المبحث الأول : التشكيلات القبلية في بايلك الغرب

أولاً: مفهوم القبيلة:

تُعتبر القبيلة مصطلحاً يُطلق على مجموعة من العشائر أو الجماعات، التي لها أرض مخصصة، وتجمع أفرادها علاقات خاصة، ويشاركون في ثقافة واحدة، وقد تكون قيادتها تحت رجل واحد، يُتفق على تنصيبه من طرف جميع أفراد القبيلة، وقد تكون الزعامة منوطة بعدة رجال، يُعتبرون وجهاء وكبار القبيلة، يشترك كل أفراد القبيلة في الدفاع عن قبيلتهم وأرضهم ووجودهم بصفة عامة، ويكون تضامنهم هذا لا شعورياً تمليه روابط الدم والرحم¹.

تُعرّف القبيلة في الدراسات الأنثروبولوجية، بأنها شكل من أشكال التجمعات البدائية، وتُعتبر الأصل في تشكيل الجماعات البشرية، كما تُعد المظهر الأول للتطور الإنساني².

في تعريف آخر، تُعتبر القبيلة تجمعاً بشرياً مهماً كان حجمه، يستحوذ على حيز جغرافي يُعد ملكاً له، ويتواصل أفرادها بنفس اللغة، ويلبسون لباساً موحداً، ولا يقبلون اندماج أي غريب ضمن أفرادهم، ولهم عادات وتقاليد تميزهم³.

في تعريف ثالث، القبيلة هي مجموعة بشرية يجمعها أصل واحد، ويُعتبر الجد المؤسس، الفاصل بينها وبين التجمعات الأخرى، وتعتمد في تكوينها على عناصر أساسية مثل الحيز

¹ محمد صبح، مفهوم القبيلة في النظرية العالمية الثالثة، المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ط1، طرابلس- ليبيا، جانفي 1989، ص82.

² فايد العليوي، القبيلة التكوين في سياق سياسي، المركز الثقافي للكتاب، ط1، المغرب الأقصى، 2018، ص19.

³ محمد نجيب طالب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2002، ص55.

الجغرافي ولغة واحدة، يتميز أفرادها بالتعاون والتماسك الاجتماعي فيما بينهم، كالدفاع عنها ضد الغزاة وخدمتها كأولوية يتسابق إليها الجميع¹.

تتميز القبيلة بتعصب أفرادها لها، ما يفسر تعلقهم بحاضنتهم الاجتماعية، ويرون فيها الحامي لهم ولأهلهم وممتلكاتهم، ويزداد هذا التعصب عند الاعتداء عليها أو على أحد أفرادها، وينجم عن هذا التعصب تعالي القبيلة على القبائل المجاورة، فتنتشر العصبية القبلية ومظاهر التسلط، وتسعى كل قبيلة لفرض قوتها وبسط نفوذها، من خلال حيازة الأراضي، ومحاولة التوسع على حساب القبائل الأخرى، وهذا الوضع كثيراً ما يؤدي إلى صراعات وحروب قد تمتد لسنوات، وتُرافقها أحياناً هجرات حفاظاً على وجود القبيلة².

تتبع القبيلة أعرافاً وقوانين متعارفاً عليها، تُعتبر خطوطاً حمراء لا يُسمح بتجاوزها، يتفق عليها جميع الأفراد، أول هذه القوانين هو الثأر، فإذا قُتل رجل من أبناء القبيلة تسعى للثأر له بقتل الجاني أو أحد أقاربه، إذ يُعتبر التقاعس في هذا الأمر انتقاصاً من شأن القبيلة وكرامتها أمام القبائل الأخرى³.

أما العرف الثاني فهو الدية، وهي مقابل مادي تُقدمه قبيلة القاتل لقبيلة المقتول، ولا تُدفع إلا بعد مصالحة الطرفين⁴، وتختلف قيمة الدية حسب نوع القتل، فإن كان غير مقصود كانت

¹ علي جبلي، القبيلة والمجتمع، مركز الفكر الإستراتيجي للدراسات السعودية، ص 8-9.

² علي الحربي، العصبية القبلية سلوك فردي أم ظاهرة إجتماعية سياسية، قسم التاريخ و الحضارة، أكاديمية الدراسات الإسلامية، ماليزيا، ص 6.

³ محمد عبده محبوب، الضبط الاجتماعي في المجتمعات القبلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1973، ص 225.

⁴ نفسه، ص 212.

قيمتها أقل، ويُساهم فيها كل أبناء القبيلة، أما إن كان عمداً فتكون أغلى ويدفعها أهل القاتل وحدهم، ويُراد من قيمتها المرتفعة ردع الآخرين عن القتل¹.

العرف الثالث هو الحماية، إذ يمكن للقاتل أو مرتكب الجرم، أن يحتمي عند وجيه أو شيخ قبيلة معروف، يضمن سلامته تمهيداً لمفاوضات الصلح ودفع الدية. ويُسهم ذلك في تهدئة النفوس وتقادي الثأر، وتُعتبر هذه الوساطة أداة فعالة، في تحقيق الصلح وحقق الدماء².

لا يختلف مفهوم القبيلة في الجزائر، عن سائر البلدان العربية، فهي تتكوّن من أفراد ينتسبون إلى نسب واحد أو إلى جد واحد، غير أن بعض القبائل الجزائرية لم تتحدر من جد مشترك، بل نشأت من اندماج عشائر مختلفة أو نتيجة تحالفات عائلية، كما شهدت الجزائر اندماج عشائر عربية مع أخرى أمازيغية، ما أدى إلى ظهور كيانات قبلية واجتماعية جديدة، تعود جذورها إلى الفتح الإسلامي في بلاد المغرب العربي³.

كما أن طول المعاشرة وتقاسم المصالح والعيش في منطقة واحدة بين الأفراد، يُؤلّد روابط قوية خاصة عند وجود المصاهرة، مما يُفضي إلى نوع من التكافل والتآزر والوحدة، وهكذا أصبح مفهوم القبيلة في بلاد المغرب العربي أوسع وأشمل⁴.

¹ سهيل حمود، الأعراف العشائرية في البقاع اللبنانية، بحث جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة اللبنانية، 1969، ص88.

² محمد صبح، المرجع السابق، ص 106-107.

³ منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في الجزائر، بحث أنثروبولوجي في المجال السياسي التيهري، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2009-2010، ص58.

⁴ إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1997، ص224.

ثانيا: نظرة عامة حول قبائل بابلوك الغرب

لقد اتخذت القبائل في بابلوك الغرب، من الأرياف موطناً لها، فسكنته واستفادت من خيراته، وعاشت فيه بما يناسب عملها وطريقة عيشها، وكانوا يشكلون أغلب ساكنة البابلوك، إذ تصل نسبتهم إلى 92% من مجموع سكان البابلوك¹، أما البقية من السكان أي 8% فقد استقروا في المدن. وقد قدر عدد سكان البابلوك أواخر العهد العثماني، بأكثر من ستمائة ألف نسمة، لم يكن بينهم سوى 70 ألف يسكنون المدن، خاصة تلمسان التي تعتبر أكبر مدينة بالبابلوك من حيث التعداد السكاني، إذ وصل عدد سكانها إلى 14 ألف نسمة، ثم تليها وهران ومعسكر بعشرة آلاف نسمة في كل مدينة منهما، أما العدد الباقي من السكان فقد تركز في الأرياف ويقدر بأكثر من نصف مليون نسمة، موزعة على 275 قبيلة، كانت منها أكثر من 202 قبيلة تحت سلطة البابلوك مباشرة، ولها علاقات مباشرة بها، وتسكن في مناطق إجمالي مساحتها أكثر من مائة ألف كم²، بينما هناك 73 قبيلة تعتبر خارجة عن سلطة البابلوك، وهي إما مستقلة أو متحالفة أو متمردة ولا تعترف بالسلطة².

كما كانت التركيبة الاجتماعية لقبائل البابلوك، بسيطة في تركيبها عكس المدن، فكانت كلها عربية أو بربرية أما الأجناس الأخرى كالأتراك والأندلسيين والكراغلة واليهود، فقد سكنوا المدن واشتغلوا بما يناسب المدن من أعمال³.

أما من ناحية انتشار القبائل في البابلوك، فلم يكن منظماً، فهناك مناطق أكثر من مناطق من الناحية الديمغرافية، فنظراً للتحركات الإسبانية وحلفائها من القبائل، فإن الكثير من القبائل ارتحلت، منذ الاحتلال الإسباني لوهـران سنة 1509م، فبقيت أحواز وهران شبه خالية، كما أن

¹ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 111.

² توفيق دحماني، النظام الضريبي....، المرجع السابق، ص 27.

³ أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 66.

قبائل المخزن استولت على كل الأراضي الواقعة في السهول الخصبة، وخصوصاً التي تقع بين وادي المالح بضواحي عين تموشنت غرباً، ووادي مينا ووادي الشلف شرقاً¹، فكانت تحكم سيطرتها على هذه الأراضي، وتمنع أي قبيلة من استغلالها للزراعة كانت أو للرعي، وكان أكبر هذه القبائل المخزنية التي تمتلك أراضي شاسعة، هي قبيلتا الدواير والزمالة، فمثلاً قبيلة الدواير وحدها تستحوذ على مائة ألف هكتار من الأراضي الخصبة، ونظراً لهذا التقسيم المجحف اضطرت قبائل الرعية وغيرها من القبائل أن تسكن في المناطق الجبلية أو تنزح إلى الجنوب، حيث سلطة المخزن تقل قوتها².

كما أن هذا التوزيع للأراضي نتج عنه تقسيم اجتماعي من الناحية الاقتصادية، وحدد بذلك الممتلكات والمالكين لها، فأصبح بذلك هناك تراتب اجتماعي، يحدد طبيعة عمل الأفراد حسب ملكياتهم، فنجد العائلات الكبرى والغنية تملك أراضي واسعة³.

بسبب هذا التقسيم غير العادل، فإن أرياف البايك لم تشهد استقراراً واضحاً للقبائل في أراضيها، كما أن قبائل الجنوب في فصل الصيف، تهاجر إلى المناطق الشمالية من أجل الحصول على الأراضي الخصبة، والانتفاع من المراعي المتواجدة في سهولها، ما نجم عن اصطدام القبائل ببعضها، كما أن هناك أسر وعائلات هاجرت من الجنوب إلى الشمال، بسبب فقرها فانتشرت بذلك ملامح الفقر والبؤس في أرجاء البايك⁴.

¹ أنظر الملحق رقم 4.

² قدور بوجلال، المرجع السابق، ص ص 51-52.

³ Marcel Emerit, « Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié XIX siècle », Annales Economies sociétés civilisation, 21^e année, N1, 1966, P44.

⁴ Jean Depois, « La réparation de la population en Algérie », Annales sociétés, civilisation, 15^e année, N5, 1960, P925.

فقد شهدت الجزائر عامة خلال هذه الفترة هجرة داخلية كبيرة، فأصبحت هناك قبائل تهاجر من بايلك إلى بايلك آخر بمحض إرادتها، أو فراراً من الحروب أو بحثاً عن العيش لها ولقطعانها، كما كان للسلطات يد في نقل بعضها وترحيله، ومن أسباب هذا القرار معاقبتها ومصادرة أراضيها، وتقسيمها على القبائل المخزنية كالزماله والدواير، وبذلك تضمن ولاء المخزن لها، أما القبيلة المهجرة فتتجه للجبال أو المناطق الصحراوية القاحلة¹.

مع استمرار هذا النظام الذي يعطي ويمنح قبائل المخزن كل الأراضي والسهول والامتيازات الواسعة، أصبحت القبائل الأخرى تعيش في فقر شديد، حتى وصل بهم الأمر إلى التكتاف في أعمالهم، وانتشرت خدمة التعاون المعروفة بالتوزيع، وذلك لنقص العمل وانتشر هذا الشكل من الخدمة للحفاظ على كيان القبائل، التي لا صلاحيات لها عند السلطة، إلا دفع الضرائب والخضوع لأوامر الباي ورجاله².

يذكر لويس رين بأن عدد قبائل بايلك الغرب أواخر العهد العثماني سنة 1830 بلغ 157 قبيلة، تتعامل مع السلطة من قريب أو بعيد، مع وجود قبائل لا علاقة لها إطلاقاً بالسلطة لم يتم إحصاؤها، وتُصنّف القبائل التي لها علاقة بالسلطة حسب طبيعة العلاقة، فكانت 56 قبيلة تعتبر من قبائل الرعية، وهي خاضعة للسلطات ولا تعصي لها أمراً، وتدفع الضرائب بشكل منتظم، وهي قليلة التمردات والعصيان، كما توجد 29 قبيلة متحالفة مع السلطة وتتمتع باستقلال شبه تام عنها، وتسير شؤونها الداخلية بدون إملاءات من أي جهة، إلا أنها تدفع الضرائب وتشارك إلى جانب السلطات في حالة الحرب، بالإضافة إلى تواجد 26 قبيلة مستقلة تماماً عن البايلك، وأغلب هذه القبائل تقع أراضيها بعيدة عن مراكز السلطات، كما أنها لا تعترف بحكم

¹ Julienne(M), « Les RIR'A de la subdivision de Miliana »,Revue Africaine,vol N 1,1856,pp284-285.

² Tayeb Chantouf, « Cultures,techniques et sociétés en Algérie(XIXe–Xxe siècles),Analyse du changement historique »,Tiers-Monde,tome21,N 83,1980,p581.

الباي ولا رجاله، ولا تدفع الضرائب نهائياً، وقد وجّه البايات العديد من الحملات ضدها لاستخلاص الضرائب وضمها إلى حمى الدولة، لكنها تدفع مجبرة، ثم تعود إلى سيرتها الأولى، أما القسم الأساسي من القبائل، فهي قبائل المخزن والتي عددها 46 قبيلة، تعتمد عليها السلطات وتعتبرها قوة أساسية في دعم سلطة الباي، وبدورها تنقسم إلى قسمين:

- القسم الأول: القبائل المخزنية المحاربة وعددها 36 قبيلة، ومهمتها استخلاص الضرائب من قبائل الرعية، وحراسة مراكز السلطة من حصون ومصانع وطرق سلطانية، وإخماد الثورات والتمردات، وتأديب القبائل العاصية لأوامر الباي، والمشاركة أيضاً في الحروب الخارجية للدولة.

- القسم الثاني: وعددها عشر قبائل، وهي فلاحية تستغل الأراضي التي أعطيت لها، فتزرعها وترعى مواشيتها فيها، وتُعتبر مورداً أساسياً لخزينة البايك¹.

¹ Louis Rinn, Le Royaume d'Alger sous le dernier dey, Revue Africaine, N 43, 1899, p122.

المبحث الثاني: قبائل المخزن ومناطق انتشارها

أولاً: مفهوم القبيلة المخزنية

هي قبائل قريبة في علاقتها بالسلطة العثمانية في البايك، وهي تنتشر في مختلف مناطقه الشرقية والغربية والساحلية والجنوبية، عُرف عنها تحالفها وخدمتها للسلطة في شتى المجالات، تعمل على إرساء الأمن والاستقرار داخل البايك، كما أنها المُكَلَّف الأول بتحصيل الضرائب واستخلاصها من قبائل الرعية، ومن مختلف القبائل في أرجاء البايك، تقوم أيضاً بحراسة ممتلكات السلطة وتسهر على حمايتها، وفي المقابل فإن الباي ورجال سلطته يُكرمونها، ويُقدِّمون شيوخها في مجالسهم، علاوة على إعطائها صلاحيات وامتيازات واسعة، كاستغلال الأراضي في السهول الخصبة وإعفاءات ضريبية¹.

يعرفها ناصر الدين سعيدوني بأنها مجموعات سكانية اصطناعية، لا يجمعها أصل واحد ولا تنتسب إلى جد واحد، كما هو المتعارف عليه، أن القبيلة تنتسب إلى جد واحد وتتعصب لرابطة الدم والقربة، إلا أن بعضها له أصل واحد، وورثوا الأرض التي هم عليها من أجدادهم قبل دخول العثمانيين إلى الجزائر، بالمقابل فإن السلطة العثمانية في البايك أقرتها على الأراضي التي بحوزتها، وأعطتها امتيازات وصلاحيات واسعة في تسيير شؤونها، وقربت شيوخها إليها، وأعفتها من الكثير من الضرائب المفروضة على غيرها من القبائل، مقابل أن تقدم خدمات للسلطة، من قبائل المخزن من اصطنعها العثمانيون، ومنحتها أراضي واسعة لاستغلالها وللعلم فإن أغلب أفرادها، استقدموا كمتطوعين أو مغامرين وأصولهم مختلفة، وحتى المناطق التي أتوا

¹ بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص70.

منها مختلفة أيضاً، وكان هدف السلطات من اصطناع هذه القبائل هي تشكيل كيان شبه عسكري، يكون مخلصاً للسلطة وليس للقبيلة، فيخدم بذلك مصالحها ويحافظ عليها¹.

أما من الناحية الخدماتية والوظيفية، فقبائل المخزن تُعرف بأنها الخادم المخلص والوفي للباي ورجاله، كما تعتبر نفسها المسؤول الأول في الحفاظ على استقرار البايك، لأنها تعد خط الدفاع الأول للدولة، ويعتبرها الباي المسؤول المباشر على مختلف القبائل في البايك، لذلك فهي تتحمل الصعاب وتواجهها بكل حزم وقوة، كما أن البايات يحرصون على أن تكون على قدر من الجاهزية لأي طارئ، فيدعمونها بين الفينة والأخرى بالسلاح والخيل، لقاء تحملها للأعمال الشاقة والدخول في حروب مع القبائل الثائرة والمتمردة، إلى غاية إخضاعها وإرجاعها إلى حمى السلطان، وهذا ما يعزز مكانتها عند رجال السلطة فيزيدون في عطائهم لها².

تنقسم قبائل المخزن بدورها في البايك إلى ثلاثة أقسام، ويعود هذا التقسيم إلى طبيعة العلاقة مع السلطة العثمانية في بداية أمرها، والسبب الثاني إلى أصولها:

النوع الأول: قبائل أصيلة في المنطقة، وهي معروفة بثرائها ونسبها العريق، وكان هذا النوع كثير الانتشار حول السهول المحيطة بالمدن، وفي الأراضي الخصبة ذات الإنتاج الوفير، وكانت السلطة العثمانية تكن لها الكثير من الاحترام، بسبب ثرائها وشساعة أراضيها وكثرة رجالها وخيلها، كما أن نسبها العريق وشهرتها جعل لها علاقات كثيرة مع مختلف

¹ ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص258.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص30.

القبائل في البايك، مما دفع بالسلطة إلى منحها حق استخلاص الضرائب من قبائل الرعية، وجعل نصيب من هذه الضرائب لها لقاء خدماتها أيضاً¹.

النوع الثاني: قبائل اصطنعها العثمانيون من المغامرين والفارين من قبائلهم والعيبد، إلا أن هذه القبائل زاد اهتمام السلطة بها، حتى أصبحت قوتها تضاهي وتفوق قوة العسكر التركي، وما أن انقضى العهد العثماني بالجزائر، حتى أصبحت هذه القبائل القوة الرئيسية الأولى في البايك، وأصبحت تتدخل في شؤون السلطة نفسها، وأبرز هذه القبائل قبيلتا الدواير والزماله اللتان أصبحتا أكبر قبيلتين في البايك، سلاحاً ورجالاً، كما دعمتا بالكثير من العناصر التركية والكرغلية².

النوع الثالث: هي القبائل التي فرضت عليها السلطة الدخول ضمن قوات المخزن، إلا أن علاقتها بالسلطة كانت دائماً تتسم بالحيطة والحذر، وقد كان هذا النوع يتحىن الفرص دائماً لإعلان الانشقاق والتمرد، كما كان لها تحالفات كثيرة، مع الثورات التي قامت ضد السلطة العثمانية، مثل الثورة الدرقاوية والثورة التيجانية³.

لقد وصف المزارى قبائل المخزن بأنهم أقوىاء وشجعان، خاصة القبائل الخمسة الرابضة حول مدينة وهران، وهي قبائل الدواير، الزماله، الغرابه، البرجية، والمكاحلية، وقد وصفهم أيضاً بالجرأة في الحرب، وأنهم شديداً البأس، وأن فرسانهم مقدمون لا يهابون الموت، كما أن ولاءهم للسلطة غير محدود، وأنهم مجربون في حرب المتمردين، أو الحرب ضد الإسبان و في مواجهة اعتداءات ملوك المغرب الأقصى، وكان البايات يُقدّمونهم على رأس الجيش، ليرهبوا بهم

¹ محمد السعيد عقيب وعمر مقدم، قبائل المخزن ودورها في علاقة السلطة العثمانية بالسكان (إيالة الجزائر)، مج9، ع2، مجلة الباحث، الجزائر، 2018، ص ص 108-109.

² نفسه، ص ص 108-109.

³ نفسه، ص ص 108-109.

أعداءهم، ويرى المزاري أن صفاتهم عكس صفات قبائل الحشم وبني عامر ومجاهر... من قبائل الرعية وغيرها، ويعتبرهم جناء، وليسوا بمقدامين في الحرب رغم أعدادهم الكبيرة¹.

كما يُقدّر عدد قوات المخزن في بايلك الغرب بثلاثين ألف فارس أواخر العهد العثماني، ينتشرون في مختلف أرجاء البايك، ويُعتبر هذا العدد أضعاف عدد القوات التركية المتواجدة في البايك، لذلك فإن البايات كانوا يعتبرون أن قوام جيشهم وقوتهم مستمدة من قبائل المخزن، فهي الكفيل الوحيد بضمان أمن واستقرار البايك، وهي الوحيدة القادرة على قمع الثورات والتمردات وحركات العصيان، وتُعد الرادع لأي اعتداء خارجي، خاصة من القوات الإسبانية الرابضة في وهران والمرسى الكبير، التي كثيرا ما تطمع في التوسع على حساب أراضي البايك، وأيضًا تجاوزات ملوك المغرب الأقصى، على الحدود الغربية للبايك².

ثانيا: أبرز القبائل المخزنية في بايلك الغرب

يبلغ عدد قبائل المخزن في بايلك الغرب 46 قبيلة، إلا أن أقواها وأهمها كالاتي:

1. قبيلة الدواير:

تُعتبر أكبر وأقوى قبيلة مخزنية في بايلك الغرب، تقع أراضيها بالقرب من المدن الرئيسية في البايك، وقد استحوذت على أراضٍ شاسعة، بالقرب من وهران واستقرت بهذه الأراضي سنة 1750م، وتُقدّر مساحتها بحوالي 140 ألف هكتار، وهي أراضٍ خصبة وذات إنتاج وفير، تعاملها السلطة معاملة خاصة، ودائمًا تقدم وتُقرّب شيوخها في مجلس الباي، وتُعتبر رأس الحربة في قوات المخزن، وكاهله الذي تستقيم به، وقد قام البايات المتتابعون بتزويدها بالسلاح بين فترة وأخرى، كما أنها لا تدفع الضرائب للخزينة، بل تأخذ قسطًا من الضرائب التي

¹ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 31.

² ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية....، المرجع السابق، ص 258.

تستخلصها من القبائل الأخرى، كما كانت قريبة دائماً من مقر إقامة الباي، ففرسانها دائماً مرابطون خارج أسوار عاصمة البايك، سواء معسكر أو وهران خلال عهد الدايات، وعندما كانت معسكر عاصمة للبايك، قدّمت السلطات لقبيلة الدواير أراضي واسعة في سهل غريس الخصب والغني، كما قام الباي محمد الكبير بمنح بعض فرقها امتيازات وأراضٍ حول أسوار وهران، وبقوا بها إلى غاية الاحتلال الفرنسي¹.

كان شيخ قبيلة الدواير يحمل لقب "آغا الدواير"، وكانت تحت سلطته العديد من القبائل المخزنية التي تأتمر بأمره. ومن القبائل التي كانت تحت سلطته أواخر عهد الدايات، قبائل البرجية، وقبيلة الحشم التي تنقسم إلى أربعة عشائر وهي حشم أولاد عيسى، حشم غريس، حشم الشراقة، حشم الغرابية، كما كانت تحت سلطته الكثير من قبائل الرعية، وهي قبائل أولاد بالغ، المهاية، بني مطهر، قبيلة الأحرار الغرابية، وتصل سطوة آغا الدواير إلى واحة عين ماضي نواحي الأغواط في الجنوب².

لقد كانت قيادة الدواير بالتناوب بين الفرق الثلاث للقبيلة، وهي:

أ. البهايشية:

يُطلق عليهم هذا اللقب نسبة إلى جدّهم البشير البحتاوي³، إلا أن فيهم الكثير ممن دخلوا في هذا النسب وليسوا أصليين، وينقسمون بدورهم إلى سبعة عشائر وهي: الحضري، مصطفى بن إسماعيل، قدور بن إسماعيل، الكواحلية، القرايدية، الزوابرية⁴.

¹ رفاف شهرزاد، القبيلة خلال العهد العثماني "ديناميكية الخضوع والتمرد، نموذج قبائل الغرب الجزائري"، مجلة المعيار، مج25، ع53، الجزائر، 2021، ص978.

² Esterhazy, Op cit, p268.

³ انظر الملحق رقم 15.

⁴ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص ص275-279.

المزرازي والذين يعتبرون أهم عشيرة في هذه القبيلة، كما أنها أكثر القبائل تقلداً للمناصب خلال هذا العهد وقد سكنوا بمنطقة العامرية غرب وهران¹.

ب. الكراطة:

يعود هذا اللقب إلى مدينة "الكرط"، التي بُنيت بالقرب منها مدينة معسكر لتصبح عاصمة البايك، بأمر من الباي مصطفى بوشلاغم، وينقسمون إلى سبعة دواوير وينسبون أنفسهم لبني تالة أحد أشرف بني راشد، وهم: أغواط بوحجر، فراطسة، أولاد بن ساعد، أولاد سيدي البشير، كراطة، كراتسة، شرايفة.

ج. البناعدية:

كانت قيادتهم بيد أولاد بن عفان وأولاد الشريف، وينسبون إلى جدّهم بن عودة بن خدة، وهم يرون أنفسهم، أشرف وأن نسبهم البعيد يعود إلى قبيلة قريش العربية، قبيلة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم².

2. قبيلة الزمالة:

تعادل في قوتها وسطوتها قبيلة الدواير، كما لها نفس قيمتها عند الباي ورجال سلطته، استمدت لقب "الزمالة" من المخيم المتنقل، وتعني في نفس الوقت مجموعة من الفرسان، وكانت تعتبر المتكفل الأول باستخلاص الضرائب من قبائل الرعية، من مهامها أيضاً إخضاع القبائل المتمردة والعاصية لأوامر السلطة، كما كانت لها مشاركات عديدة في إخماد الثورات والحركات المعادية للتواجد العثماني في البلاد، كان لها دور كبير في صمود البايات والسلطة العثمانية، خصوصاً أمام ثورات الدرقاويين والتيجانيين، وكانت تتمركز في المناطق ذات الأهمية الكبيرة

¹ انظر الملحق رقم 16.

² الطيب بن المختار الغريسي، القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، المطبعة الخلدونية التلمسانية، ط1، دت، ص344.

فتقوم على حراستها والحفاظ على أمنها واستقرارها، خاصة ممتلكات الدولة ومنشآتها، والأسواق والأبراج والحصون و تستقر أيضا حول المدن و وعلى ضفاف الطريق السلطاني، كان فرسانها يشكلون المحلة التي يقودها الباي أو خليفته من أجل تحصيل الضرائب¹. يتقاسم قيادة قبيلة الزمالة ثمانية عشائر مشهورة ومعروفة كلها بالقوة والحزم، كما أن أعداد رجالها وخيلها كبير، وهي كالآتي:

أ. **المخاليف**: يعود أصلهم إلى قبيلة بني زروال، وينتسبون إلى جدهم مخلوف، تعد أكبر فرق الزمالة، وكثيرا ما كان شيوخها يتسلمون منصب قائد الزمالة.

ب. **القدادة**: تعتبر عشيرة أصيلة في المنطقة، ونسبها مشهور ويعود إلى جدهم الأول قدور بن علي بن الحبوشي.

ج. **القرائية**: يعتبرون إخوة مع القدادة، فهم ينتسبون إلى جد واحد، يلقبون بالمعايزية، ينحدرون من نسب أحمد الملقب بقرادة ويلقب أيضًا أبو معزة بن الحبوشي.

د. **اليساسفة**: أحد العشائر القوية في قبيلة الزمالة، يعود نسبهم إلى جدهم الملقب يوسف.

هـ. **الشوايلية**: يعتبرون عشيرة أصيلة في المنطقة، وتعتبر نفسها من الأشراف، ويعود نسبها إلى قبيلة الحشم المستوطنة في سهل غريس، يقال أن لقبهم هذا يعود إلى جدتهم الأولى شائلة، وهم كثيرو العدد وأغنياء ويمتلكون خيولا كثيرة وقوية.

و. **الونازرة**: يعتبرهم الكثيرون أنهم وافدون وطارئون على بايلك الغرب، لأن أصلهم يعود إلى الساقية الحمراء أو ما يعرف اليوم بالصحراء الغربية، ينحدرون في نسبهم إلى جدهم ونزار.

¹ رفاف شهرزاد، المرجع السابق، ص 978.

ز. **الورادية**: أحد عشائر الزمالة، وكان شيوخها كثيرًا ما يتسلمون منصب قائد الزمالة، ينحدرون في نسبهم إلى جدهم وارد.

ح. **المخاترة**: يعتبرها الكثيرون أنها أصيلة في المنطقة، ونسبها عريق ومعروف، كما كانت لها علاقات كثيرة مع مختلف القبائل في البايك، كان البايات يحترمونها ويقدمون أعيانها في مجالسهم، ينحدرون في نسبهم القريب إلى جدهم المختار، وإلى نسبهم الأبعد منه، إلى جدهم الزاير، لذلك كثيرًا ما يلقبون بأولاد يحيى بن الزاير¹.

3. قبيلة الغرابية:

هي قبيلة اصطناعية، أسسها العثمانيون من العبيد، ويطلق عليهم الغرابية لسوادهم، هم في الأصل أتوا مع ملك المغرب الأقصى المولى إسماعيل، عندما سار على رأس حملة عسكرية لغزو بايلك الغرب الجزائري سنة 1701م، وهم ممن كانوا في هذه الحملة، إلا أن حملته باءت بالفشل وانكسرت شوكتها، فآثر الهروب مع من بقي من جنده، بينما خلف وراءه الكثير من فلول جيشه، وكان ضمن هذه الفلول الغرابية، الذين سلموا أنفسهم للسلطات العثمانية ببايك الغرب، فاستغل ذلك الباي ورجاله، ورأوا أن يستخدموهم في مصالحهم وأن يتم ضمهم إلى قوات المخزن، خاصة بعد أن شاهدوا جرأتهم وشدة بأسهم، وينقسمون بدورهم إلى عبيد الشراقة الذين يستوطنون ضواحي السيق بين وهران ومعسكر، وعبيد الغرابية الذين يستوطنون بين وادي المقطع وبوقيراط².

¹ Tinthoin R, "La plaine de Relizane avant l'irrigation", In B.S.G.A.O, Oran, 1950, N 773, pp32-39.

² الحاج مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تح وتقا وتع يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1995، ص354.

للعلم فإن مع مرور الزمن، دخل في هذه القبيلة الكثير من العشائر والقبائل والعائلات من مختلف الأصول ومن كل أرجاء البلاد، ويتشارك في قيادتها ثمانية عشائر مشهورة وهي: الوردية، العلالية، الخدايمية، الونانية، السهايلية، المحاميد، الرفافسة، العوايلية¹.

4. قبيلة الحشم:

هي قبيلة عريقة النسب، ومعروفة بين كل القبائل وعدد أفرادها كبير، وتعتبر قبيلة أصيلة في المنطقة، ولها أراضٍ واسعة، كما أنها تعتبر من أغنى القبائل في البايك، تحترمها السلطات وتقربها منها كما تقرب شيوخها وأعيانها، كما أنها تنتشر في عدة مناطق في البايك، على رأسها سهل غريس والذي تشغل مساحات كبيرة منه، كما كان لهذه القبيلة دور كبير في مواجهة الإسبان وصد هجوماتهم وغاراتهم².

كانت أيضًا في خلاف دائم وحروب مستمرة مع قبائل المغاطيس الحليفة للإسبان، لذلك كانت السلطة العثمانية، تعتبرها خط الدفاع الأول في وجه الإسبان، وبدورها كانت دائمًا تمدّها بالمال والسلاح، وأيضًا كانت تجازيها بمنحها امتيازات وإعفاءات من الضرائب، بالإضافة إلى منحها مساحات واسعة في سهلي السيق والهبرة، إلا أن علاقتها بالسلطة لم تكن دائمًا جيدة، فكانت تراقب أوضاع السلطة الداخلية، وتحاول جس نبضها، فإن أحست بإنشغال السلطة بالمشاكل أو الثورات، تتحين الوقت المناسب لشق الطاعة وإعلان العصيان والتمرد، ومن أمثلة ذلك حين أعلنت التمرد ووقفت إلى جانب الثورة التيجانية، ومدتها بالمال والسلاح والرجال³. إلا أن تحالفها معها انتهى سريعًا، وسرعان ما عادت إلى حضن قوات المخزن، بل وأصبحت القبيلة الأكثر فعالية في مواجهة التيجانيين، حيث أنه عندما هجم التيجاني على

¹ سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص85.

² رفاف شهرزاد، المرجع السابق، ص978.

³ نفسه، ص978.

مدينة معسكر بجيش كبير، تدخل فرسانها، لنجدة الباي وعساكره وتمكنت من قتل عدد كبير من جيش التيجاني (قتلت حوالي 400 جندي من جيش التيجانيين)، وهذا التدخل أعادها إلى واجهة المخزن، وزاد تقدير الباي ورجاله لها¹.

كما تعد قبيلة الحشم من القبائل التي دائما ما تريد التوسع على حساب أراضي القبائل الأخرى، طوال الفترة العثمانية في البلاد، كما شكلت تهديداً مباشراً لقبيلة سويد العربية الهلالية، التي أصبحت تعرف فيما بعد بقبيلة المحال أو الأمحال، فأدى توسع الحشم على أراضي سويد إلى اندلاع الحرب بينهما، واستمر الصراع لعدة سنوات، تخللتها معارك كبيرة بينهما، انتهت في الأخير بانتصار قبيلة الحشم، مما دفع بقبيلة أولاد بليل إلى التدخل ومحاولة وضع الصلح بين القبيلتين، وقد استفادت قبيلة الحشم من هذا الانتصار، بحيث ارتفع صيتها وأصبحت مهابة أكثر، كما أن رجال السلطة أصبحوا يحترمونها أكثر، ويهابونها بل ويتوجسون منها أيضاً، فأصبحت بنظر القبائل في البايك، أنها تضاهي في قوتها قوة قبيلة بني عامر الهلالية العربية، والتي ضمت إلى المخزن بعد طرد الإسبان من وهران 1792م².

لقد ضمت قبيلة الحشم إلى المخزن سنة 1790م، بعد أن استمالها الباي محمد الكبير إليه، وبعدها رأت القبيلة مشروعه الجهادي، من أجل تحرير وهران والمرسى الكبير من الإسبان، وتسابق القبائل في خدمة مشروعه، قبلت الانضمام إلى المخزن لكسب ثقة الباي ورجاله، والمشاركة في الجهاد ضد العدو الإسباني، والحصول على مكافآت من إعفاءات ضريبية، كما منحها الباي محمد الكبير الأراضي الواقعة بجانب وادي الحمام إلى غاية سهل الهبرة، كما توجد

¹ Louis Rinn, Marabouts et khouanes, Etude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan Libraire éditeur, Alger, 1884, p424.

² Lespinasse, Notice sur le Hachem de Mascara, in R.A , T21, Alger, 1877, p145.

فرقة منها في وادي الحمام، رفقة قبيلة المشايل، ويشكلان معاً مخزن وادي الحمام، أما باقي فرقها فكانت تابعة لآغا الدواير¹.

لقد كانت قبيلة الحشم كثيرة الفرق والعشائر، إلا أن قيادتها خلال العهد العثماني، تناوبت عليها خمس عشائر هي: عشيرة أولاد طراري، عشيرة أولاد العباس والتي تتخذ من الناحية الشرقية لسهل غريس موطناً لها، وعشيرة المحاميد أو ما يعرف بأولاد محمود، وعشيرة أولاد محمد بن خدة، وعشيرة حسان والتي تتخذ من الناحية الغربية لسهل غريس موطناً لها².

5. قبيلة البرجية:

هي تحالف من عدة قبائل عربية وتعد شبه مصطنعة، اعتمدت عليها السلطة العثمانية في بسط نفوذها و استخلاص الضرائب من قبائل الرعية، التي تقع أراضيها جنوب البايك، تمتلك هذه القبيلة الكثير من الأراضي و يشتغل أفرادها في الزراعة و الرعي، تقع أراضيها بمنطقة اليعقوبية، أو بما يعرف بمنطقة سعيدة، تمتد أراضيها إلى غاية تخوم الصحراء³، ويتناوب في قيادتها قبلتين: النقابية والذين يعتبرون قبيلة اصيلة في المنطقة، وينحدرون في نسبهم إلى جدهم محمد ابي النقاب، أما القبيلة الثانية فهي البلاغة ويعتبرون كذلك أصيلين في المنطقة ، و ينحدرون في نسبهم إلى جدهم عمر البلغي الزياتي⁴.

تعتبر قبيلة البرجية من أخلص و أوفى القبائل المخزنية للسلطة العثمانية، فعندما إلتحقت الكثير من القبائل المخزنية بإبن الشريف الدرقاوي، وساعدته في ثورته مثل قبائل الزمالة و الدواير و الغرابة وغيرهم الكثير، رفضت البرجية الإنضمام اليهم، وفضلت خدمة السلطة التي

¹ Ipid,p141.

² دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص238.

³ رفاف شهرزاد، المرجع السابق، ص978.

⁴ سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص85.

كانت تعاني من حالة ضعف كبيرة، بل تواجهت عسكريا مع قوات الدرقاويين، في العديد من المواقع، كما كانت السبب الرئيسي في وقف زحفهم و كسر شوكتهم¹.

6. قبيلة المكايلية:

تعتبر من القبائل المصطنعة، وهي مختلطة في أنسابها، يتشكل بعض فرقها من العبيد و العائلات المختلفة ، بينما تتشكل بعض فرقها الأخرى من عشائر معروفة و نسبها عريق، ابرز قبائلها أولاد بوغرة ، أولاد أحمد ، أولاد العباس و أولاد سلامة ، كانت هذه القبائل علاقتها جيدة بالسلطة العثمانية، كما أنها لا تعصي لها أمرا².

7. قبيلة أولاد خليف:

تعتبر من قبائل المخزن المشهورة ، تقع اراضيها بعيدا عن عاصمة البايك، بمنطقة السوقر ،وقد ضمت إلى المخزن منذ قدوم العثمانيين إلى الجزائر، وقد اعطتها السلطات نوعا من الاستقلال في تسيير شؤونها،بالإضافة تعتبر وصية على قبائل الرعية بسهول البايك الجنوبية، في منطقة تيهرت وجنوب جبال الونشريس، كما كلفت بإستخلاص الضرائب من قبائل الرعية ولها الحق في أخذ نصيب منها ، و هذا ما جعل من شيوخها و أعيانها من أغنى الرجال في المنطقة³.

كما أن السلطة كانت دائما تزودها بالسلاح ، إستطاعت قبيلة أولاد خليف من أن تسيطر على الكثير من الأراضي الزراعية و الرعية، التي كانت بيد قبائل الرعية ، كما أنها كانت تفرض ضرائب و غرامات على قبائل كثيرة مثل قبيلة الشعانبة و قبيلة سعيد عطية و قبيلة

¹ صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومه،الجزائر،2012، ص203.

² رفاف شهرزاد،المرجع السابق، ص978.

³E.Garette:origine et migration des principales tribus de l'Algérie,Paris,Imprimerie,sans date,p476.

الأرباع و قبيلة أولاد يعقوب، وكانت تسمى هذه الضرائب بالعسة، و ذلك ليتسنى لافراد هذه القبائل من الدخول إلى الأسواق أو رعي مواشيتها في السهول¹.

كانت من المهام التي كلفتها بها السلطة العثمانية أيضا، أن تراقب حركة قبيلة أولاد سيدي الشيخ الكبيرة ، التي كان البايات يرونها تشكل خطرا كبيرا عليهم ، فكانت دائما تراقبها في الأسواق و المناسبات التي تجمع أفرادها وتقوم بنقل أخبارها إلى الباي و رجاله،كما أنها شاركت مع القوات العثمانية، في حربها على قبيلة بوزيري التي رفضت دفع الضرائب، وإصطدمت عسكريا بالسلطة سنة 1740 م، وانتهت بهزيمتها و هجرتها إلى ضفاف وادي مينا بالقرب من تيهرت².

8. قبيلة مجاهر:

تعتبر من القبائل الكبيرة والقوية، وكان موقفها غير واضح فكانت أحيانا تتبع للمخزن و أحيانا تعتبر من قبائل الرعية، وقد عرفوا بالقوة و الحزم و الجرأة و الشجاعة في الحروب، وتعتبر من القبائل الأصلية في المنطقة، ويعود نسبهم إلى قبيلة بني هلال العربية، ينقسمون بدورهم إلى عدة بطون و عشائر ابرزها: أولاد شافع، غفراث، أولاد عينا، كانت في العهد العثماني تحت قيادة قائد مستغانم³.

ثالثا: مناطق انتشار قبائل المخزن في بايلك الغرب

لقد كان انتشار قبائل المخزن في بايلك الغرب، يعم كل ارجاء البايك ، ذلك لأن السلطة تريد أن تفرض و تبسط هيمنتها على كل الأراضي الواقعة ضمن حدودها الجغرافية ، لذلك

¹ الحاج صادق، المرجع السابق، ص252.

² Aramburu Den-Josephe, De Oran et L'ouest Algérien au 18 siècle, Présentation et traduction de korso et eplaza, Alger, 1978, p9.

³ سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص98.

عملت على توزيع قوات المخزن في كل المناطق، كما أنها أقرت بعض قبائل المخزن على أراضيها، دون أن تأمرها بالتنقل إلى منطقة أخرى، ومما يلاحظ خلال هذا العهد أن قوات المخزن كانت تتمركز في الأماكن الإستراتيجية، وتجعلها منطلقا للقيام بمهمتها، فكانت تتواجد حول المدن خاصة عاصمة البايك، وهذا الإجراء من أجل حماية الباى و الحفاظ على الإستقرار، كما كانت تنتشر حول الحاميات العسكرية التركية ، و إنتشرت فرقها أيضا حول الأسواق و مخازن الحبوب و المؤونة و مصانع السلاح ، كما كانت مكلفة بحراسة الأبراج و الحصون ،بالإضافة الى حراسة الطرق السلطانية و الطرق الجبلية الوعرة، وهذا ما يساعدها في إنجاز وظيفتها الأساسية بإستخلاص الضرائب من القبائل وإخضاع القبائل المتمردة ومراقبة تحركاتها¹.

تعد منطقة السهول في بايلك الغرب، أهم الأراضي التي إنتشرت فيها قبائل المخزن، وعلى رأسها السهل الوهراني، الذي يعتبر محاذيا للإسبان و حلفائهم من قبائل المغاطيس، فركز البايات على منح قوات المخزن أراضي واسعة فيه، بغية صد التحرشات الإسبانية و جعل من هذه القبائل المخزنية خط دفاع أول للبايلك، وتعد هذه السهول أيضا مطمعا لملوك المغرب الأقصى، وتواجد قبائل المخزن بها يحد من أطماعهم و تجاوزاتهم، كما يعد انتشارها بها حماية للباى و رجاله وعاصمته، وحماية للمدن الرئيسية في البايك التي تقع اغلبيتها ضمن هذه السهول².

كما نجدها تتخذ من الطرق السلطانية تمركزا لفرقها ،فنجد على ضفاف الطريق السلطاني الذي يربط بين مدينة الجزائر عاصمة الإيالة، و مدينتي معسكر ووهران، تواجد الكثير من فرقها من أجل حراسته و تصليحه، كما أنها تمنع القبائل الأخرى من إستخدامه، ويرافق فرسانها

¹ دحمانى توفيق، النظام الضريبي....،المرجع السابق، ص53.

² ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي،المرجع السابق، صص56-57.

البعثات السلطانية ورجال الدولة، كما تقوم بحراسة الدنوش الصغرى، التي يدفعها الباى مع خليفته مرتين في السنة الواحدة لخزينة الدولة بدار السلطان، وأيضا مرافقة الباى و حراسته عند حمل الدنوش الكبيرة كل ثلاث سنوات، والقصد أيضا من خلال هذه المرافقة في هذا الطريق إبراز هيبة الدولة ، كما تعد هذه الأراضي الواقعة على جنبي الطريق السلطاني خصبة للزراعة ورعوية بامتياز، فكانت قبائل المخزن تستغلها لحاجتها الاقتصادية، بما يعود عليها من أرباح، إلا أن هذا الإنتشار لقبائل المخزن، يعد ثانويا مقارنة مع إنتشارها في سهول البايك، ويقتصر هذا الإنتشار على التحكم في المعابر الإستراتيجية، بالإضافة الى مراقبة قبائل الرعية و تحركاتها، وإذا قمنا بتتبع الطريق السلطاني بين مدينة الجزائر و مدينتي معسكر و وهران، فإننا نجد قوتين من القبائل المخزنية رابضة بمليانة، هما قبيلة بوحلوان و قبيلة أولاد الصحاري، بينما نجد قبيلة بني يحيى تتكفل بحراسة وادي الروينة، كما نجد أيضا فرقة من فرق الزمالة بوادي الفضة، وفرقتين من الزمالة أيضا عند ملتقى وادي إسلي، و فرقة أخرى من الزمالة و هي زمالة الحاج بوادي رهيو، ثم نجد فرقتين من الزمالة عند إلتقاء وادي مينا بالشلف، ثم مخزن قبيلة الصحاري الرابضة بوادي هليل، ثم نجد العديد من قبائل المخزن و فرقها منتشرة بين وهران و معسكر¹. كما نجد لها انتشارا في مواقع إقتصادية و إستراتيجية أخرى، مثل انتشار قبيلة عمراو المخزنية بجوار برج سباو، و إستقرار فرق من قبيلة أولاد خليف بالقرب من سوق اللوحة بتيهت².

لقد مر انتشار القبائل المخزنية بباليك الغرب خلال العهد العثماني، بثلاثة مراحل متعاقبة حددت فيها إنتشارها، حسب الأوضاع العامة و الخاصة التي مر بها البايك في هذا العهد:

¹ ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية....، المرجع السابق، ص258.

² سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص90.

أ.المرحلة الأولى: تعود إلى دخول العثمانيين إلى الجزائر، واستيلائهم على الحكم خلال القرن السادس عشر، وذلك عندما قاموا بمصادرة أراضي قبيلة سويد، أو بما يعرف بقبيلة الأمحال، وطردها منها فقد كانت هذه القبيلة تستولي على أراضٍ شاسعة قبل مجيء العثمانيين، وكانت أغلب أراضيها خصبة وذات إنتاج وفير، مع وفرة في المياه الصالحة للشرب والزراعة، وكانت أراضيها تمتد من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى جبال الأطلس التلي، ومن وادي صلاو ووادي مينا بالشلف شرقاً إلى أرزيو ومستغانم غرباً¹.

إلا أن مصادرة أراضيها لم تتم بسهولة، فقامت قبيلة الأمحال، بتجميع قواها ومواجهة العثمانيين في عدة مواقع، وقد لقي العثمانيون منها عناءً عظيماً، حتى أصبحت تُروى عن القبيلة روايات في الشجاعة والبطولة، إلا أن النصر كان حليفاً للعثمانيين في الأخير، وتقهقرت قوة الأمحال أمامهم، فارتحلت إلى مناطق مجيرد غرب وادي الشلف ووادي مينا، بينما استقدم العثمانيون قبائل المخزن، وحاولوا تعمير الأرض بالسكان، من أجل صد العدو الإسباني والتقليل من خطره، ووضع حد لمطالبة قبيلة الأمحال لأراضيها، بعد أن كثرت القبائل فيها، مما يعجزها عن إخراجهم كلهم أو مواجهتهم مجتمعين².

ب.المرحلة الثانية: كانت هذه المرحلة بعد أن استطاع العثمانيون، بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم تحرير وهران وطرده الإسبان منها سنة 1708م، ولم ينتظر الباي كثيراً حتى أصدر قراراً بمصادرة أراضي قبائل بني عامر وفليقة والكثير من القبائل، التي كانت حليفة للإسبان، عقاباً على جرمها بالوقوف إلى جانب الأعداء، فعمل على جلب الكثير من قبائل المخزن وفرّقها، وعلى رأسها قبيلتا الدواير والزماله، وأعطاهما كل السهول القريبة من وهران، بالإضافة

¹ P.E,Bache:”Origine et constitution de la propriété arabe en Algérie avant 1830 “,In R.A.C, N° 3,Paris,1860,pp694-695.

² Ibid,pp694-695.

إلى امتيازات وصلاحيات واسعة باستغلال هذه الأراضي، كما أمر بدعمهم بالسلاح وكل ما يمكن، من أجل أن يبقوا بهذه النواحي، وبذلك يقطع سبل عودة الإسبان إليها¹.

ج. المرحلة الثالثة: تعد هذه المرحلة الأخيرة من توطين قبائل المخزن، وكانت بعدما استطاع الباي محمد الكبير استرجاع وهران والمرسى الكبير سنة 1792م، وتحريرهما من الإسبان للمرة الثانية، بعد أن عادوا إليها سنة 1732، واحتلوها في عهد الباي مصطفى بوشلاغم، الذي كان قد حررهما سابقاً، فأصدر محمد الكبير عدة أوامر وقرارات تخدم مصالح السلطة، وتقطع دابر الإسبان وأي محاولة لهم من أجل العودة، كما تقطع أي طموحات لملوك المغرب الأقصى في بايلك الغرب، وكانت قراراته كالاتي:

-منح قبائل المخزن وعلى رأسها قبيلتا الدواير والزمالة أراضي تصل إلى أسوار وهران، بذلك يتم خلق قوة جديدة في هذه المنطقة، خاصة وأنه أمر بنقل عاصمة البايك إلى وهران، فهو بذلك يحمي من خلالهم العاصمة الجديدة، كما أن هذه القوات تكون تحت تصرفه مباشرة وبالمقربة منه، فيأمرها في أي وقت يشاء فتسارع إلى تنفيذ أوامره، إضافة إلى مراقبتها حركات القبائل التي تعاونت مع الإسبان سابقاً، خاصة فرق من قبيلة حميان وبني عامر وقيزة، الذين ظلوا يخدمون الإسبان ويمدونهم بكل شيء، من أجل بقائهم واستمرار احتلالهم لوهران والمرسى الكبير، كما كان لهذه القبائل المخزنية دور كبير في مواجهة الدرقاويين عندما قاموا بمحاصرة وهران أيام الباي مصطفى المنزالي والباي محمد المقلش².

¹ سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص 91.

² عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص ص 26-30.

-إعطاء قبائل المخزن قلاعًا وأبراجًا وحصونًا ليستقر بها فرسانها، وأن يبقوا في حالة من الاستعداد لأي طارئ، كما أمر بتزويدهم بمختلف الأسلحة، وجعل على كل فرقة من فرسانهم، قائدًا يأترون بأمره ولا يخالفون له رأيًا¹.

-أن تنتشر قوات المخزن عند سفوح الجبال والطرق الوعرة وملتقيات الأودية والطرق السلطانية والثانوية، التي تربط مدن البايك وقراه ببعضها، وذلك من أجل المراقبة وبسط هيمنة الدولة.

-أن يربط فرسان المخزن حول الأسواق، ومستودعات المؤونة والمطاحن، وأن يقوموا بدوريات بين الحين والآخر وأن يراقبوا حركة القوافل التجارية، و يقوموا بتفتيشها إن لزم الأمر².

- أن تنتشر قبائل المخزن في المناطق، التي تمر عليها المحلات الفصلية المكلفة بالجباية، أو لمعاقبة العاصين لأوامر البايك، كما أنها يجب أن تستقر في المناطق، التي شهدت ثورات أو انتفاضات، وذلك من أجل أن تقمعها في مهدها إن انتفضت مرة أخرى³.

كانت قبائل المخزن تتقاسم المهام، فمنها القبائل المحاربة، والتي تختص بالحروب الخارجية والداخلية، ومنها ما هو مخصص لاستخلاص الضرائب من قبائل الرعية، ومنها ما خصص للأعمال الاقتصادية كممارسة الزراعة والرعي⁴.

لقد كانت قبائل المخزن عامة ببايلك الغرب، تنتشر على خطين متوازيين، الأول في المنطقة الساحلية يمتد من شرق البايك إلى غربه، أما الخط الثاني فيقع في المنطقة الجنوبية للبايلك، ويمتد من اليعقوبية إلى سبدو ضواحي تلمسان، وبهذا التوزع كانت قبائل المخزن تحكم قبضتها

¹ Warnier et Carette, Description et division de l'Algérie, Librairie De L.Hachette ,Paris,1847.p47.

² Marcel Emérit: "La situation économique de la régence d'Alger", In IH, N 2, Paris, 1952, p170.

³ Louis Rinn, Le Royaume..., Op cit, p122.

⁴ Ibid, p122.

على كل قبائل بايلك الغرب، وتنتظر إليها القبائل نظراً لهذا التوزيع الدقيق، على أن يدها تمتد إلى أي أحد يريد الخروج عن سلطة العثمانيين¹.

¹ Marcel Emérit: "Les tribus...", Op cit, p52.

المبحث الثالث: قبائل الرعية في بايلك الغرب وتقسيمها الإداري

أولاً: قبائل الرعية في بايلك الغرب و مناطق إنتشارها

تعتبر هذه القبائل عماد سكان البايك، فكان عددها كبيراً، وقد كانت تشكل أضعاف عدد قبائل المخزن في البايك، وكانت خزينة البايك تعتمد مباشرة على الأموال والضرائب المستخلصة منها لسد العجز الذي أصاب الخزينة في هذا العهد، ومنها يقوم الباي ورجاله بتسيير شؤون البايك، خاصة بعد نقص موارد الجهاد البحري¹.

كما أن هذه القبائل طُردت من أراضيها، ومنحتها السلطة لقبائل المخزن ورجال البايك الكبار، فاضطرت إلى اتخاذ السهول الفقيرة، وأطراف الصحراء وسفوح الجبال، مركزاً لإقامتها، بالإضافة فقد فرضت عليها السلطات بأن تبيع محاصيلها ومنتجاتها بأسعار زهيدة، وأصدرت مرسوماً يمنع أفرادها من اقتناء البنادق أو شرائها، ويعاقب كل من وجد عنده سلاح، بالسجن أو القتل².

كما أن استحواذ قبائل المخزن، على أغلب الأراضي وأخصبها في البايك، اضطر الكثير من القبائل إلى الدخول ضمن قبائل الرعية، رجاء أن يُقطع لها أرض، مقابل خدمة السلطة ورجالها، كان الكثير منها يعمل بنظام الخماسة، بحيث يحرثون الأرض ويستصلحونها، ويعتنون بها، وفي الأخير الأخير يقدمون للسلطات أربعة أخماس من الغلة، مقابل أن يحتفظوا بالخمس الأخير لهم³.

¹ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص106.

² نفسه، ص106.

³ Venture de Paradis, (J,M): Tunis et Alger au 18siècle, Mémoire et observation, rassemblés et présentés par : Joseph, Cuoq, éd. Sindbad, Paris, 1983, p117.

لقد كان انتشار قبائل الرعية، يعم أرجاء بايلك الغرب، وكانت تأخذ من سهل تافنة مستقرًا للكثير من قبائلها، وأيضًا تستقر قبائلها بمناطق أخرى مثل سبدو، جبال تاسالة، فرندة، أحواز مازونة، والمناطق الجنوبية والمتاخمة للصحراء، وغيرها من المناطق الأقل خصوبة وإنتاجًا، و هذا ما جعلها دائما فقيرة وفي حاجة دائمة الى مساعدة السلطات.

لقد كان البايات ورجالهم يتخوفون من قيامها بالثورات، فأخذوا عدة تدابير كمنعها من التواصل، مع أي قبيلة معادية أو متمردة على السلطة، كما قاموا بتعيين قادة أترك على هذه القبائل بالإضافة إلى قادة المخزن، ليتم إحكام قبضتهم عليها، وقد قُسمت قبائل الرعية إلى أقسام ومجموعات، فمنها من كانت تحت حكم الباي مباشرة، ومنها من كانت تحت أمر خليفة الباي، أما البايقون فوزعوا على القادة الآتين: قائد فليته، قائد جندل، قائد المدينة، قائد الجبل، قائد اليعقوبية الشرقية، وقائد اليعقوبية الغربية¹.

كانت هناك أسباب عديدة، جعلت هذه القبائل تنطوي تحت لواء العثمانيين، ومن بين أهم الأسباب أراضي بعض قبائلها، القريب من حصون وحاميات الجند التركي وقوات المخزن، الأمر الذي دفع بها للخضوع والإذعان، كما أن تقاسم قبائل المخزن والعائلات الثرية ورجال السلطة لكل الأراضي الخصبة والسيطرة عليها، جعل بعض قبائل الرعية فقيرة وفي حاجة إلى الأموال، ما دفع بها إلى الانضمام إلى نظام الرعية، رجاء أن تهبها السلطات قطعة أرض تستغلها وتقتات من خراجها، بالإضافة أن هناك بعض من قبائل الرعية قليلة العدد، ولا تتحمل الدخول في حروب ونزاعات مع القبائل الأخرى، ففضلت حمى الباي ورجاله على هذه النزاعات².

¹ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 107-108.

² أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري....، المرجع السابق، ص 257-258.

لقد كان البايات حريصين، على استعمال شيوخ مناسيين من أبناء الرعية، فكان منصباً متعباً لصاحبه لما يلقاه من شكاوى من أبناء القبيلة، على حساب مصالح السلطة، إلا أن أغلب الشيوخ كانوا يعملون لإرضاء السلطات، على حساب أبناء قبائلهم، ولقد كان هذا المنصب بمثابة النائب المباشر للباي على القبيلة، فهو يحتك مباشرة بالأفراد، كما كان يُعتبر الكثير من شيوخها جواسيس للباي ورجاله، وينقلون لهم الأخبار والتحركات، فإن رأوا حركة مريبة أو شكوكاً حول القبيلة، زحفت إليها قوات المخزن وعاقبتها¹.

ثانياً: التقسيم الإداري لقبائل الرعية

1. رعية الباي:

كانت بعض قبائل الرعية تخضع بشكل مباشر، لإشراف الباي وسلطته الفعلية، دون وساطة أو إدارة وسيطة، وكان من أبرز هذه القبائل قبيلتا بني عامر ومجاهر، وهما قبيلتان عربيتان معروفتان بانتشارهما الواسع وأعدادها الكبيرة، وقد شكلتا جزءاً مهماً من البنية الاجتماعية لبايلك الغرب، وفي حال غياب الباي المؤقت، سواء بسبب توجهه نحو دار السلطان في إطار مهام رسمية، أو قيادته لحملة المحلة الموسمية لجمع الضرائب وبسط النظام وإخضاع القبائل المتمردة، كان يتم خلفه في منصبه خليفة الكرسي، ليقوم هذا الأخير بإدارة هذه القبائل، وهذا ما يجعل هذا المنصب مهماً وحساساً، بالإضافة يعكس لنا مدى أهمية هاتين القبيلتين².

كان هذا المنصب يساعد قائدين محليين، الأول قائد بني عامر والذي يتولى الإشراف على شؤون عشائر بني عامر، والثاني قائد مستغانم الذي كانت له اليد العليا في تسيير قبيلة مجاهر، أما قبيلة بني عامر فهي من القبائل الكبيرة التي تنتمي إلى البدو المستقرين جزئياً، وقد

¹ كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص 259-260.

² سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص 97-98.

تميزت بكثرة عددها، وانتشارها في مختلف ربوع البايك، وتنقسم إلى ثلاث عشائر رئيسية هي بني يعقوب، شافع، وبني حميد، بينما تتفرع قبيلة مجاهر إلى خمس عشائر بارزة هي: أولاد بوكامل، أولاد معلف، الغفارة، أولاد عيناس، وأولاد شافع¹.

2. رعية الخليفة:

كانت هذه الرعية تابعة للخليفة، وهو أحد كبار مسؤولي البايك، الذي يتمتع بصلاحيات واسعة، خاصة في الجهة الشرقية من البايك، وقد ضمت رعيته ما يقرب من خمس وثلاثين قبيلة، تركزت مواطنها في ناحيتين رئيسيتين، هما منطقة الشلف وتتس، حيث تواجدت 23 قبيلة في الشلف وضواحيها و12 قبيلة في تتس وضواحيها².

قد عُرِفَت هذه القبائل بتنوع أنماط استقرارها، فمنها من اختارت السهول كمجال لإستقرارها، مثل قبائل: عياشة، بني زروال، أولاد بورحمة، أولاد خلوف، زريفة، عشعاشة، أولاد يونس، بني زنطيس، مديونة، بني مدون، صبيح، حميس، أولاد فارس، أولاد قصير، سنجاس، العطاف، وبني حمد، وهي قبائل تعيش على الزراعة والرعي³.

أما القسم الثاني من القبائل التي خضعت للخليفة فكان يتمركز في المناطق الجبلية الوعرة، وهو ما أعطاه نوعاً من الإستقلالية، من خلال صعوبة السيطرة عليها بحكم موقعها الجغرافي، نذكر منها: بني وارغ، بني مسلم، حلوية، شكلة، بسناسخ، البصرة، مطامطة، وانسريس، أولاد عياد، وبني بدوان، وهذه القبائل غالباً ما كانت تعتمد على الرعي، والإستقرار في المناطق

¹ نفسه، ص ص 97-98.

² توفيق دحماني، النظام الضريبي....، المرجع السابق، ص 57.

³ نفسه، ص ص 57-58.

الجبالية التي تتخذ منها حصناً تتفادى من خلاله الكثير من غارات قبائل المخزن، أو أي قوات أخرى، هذا ما جعل السلطة العثمانية تتعامل معها بتوجس وحذر شديدين¹.

3. رعية قائد الجندل:

كان قائد الجندل من كبار الضباط المحليين، الذين أوكلت إليهم السلطة مهمة الإشراف على عدد من القبائل المتوسطة، إذ كانت تحت سلطته ثلاث عشرة قبيلة من قبائل الرعية وأبرز هذه القبائل نذكر بني زقزق، عبيد سدر، بني معيدة، وبنو بوراشد، وهي قبائل تركزت بالأساس، في منطقة ثنية الحد والمناطق المحيطة بها، التي كانت تشكل مجاًلاً جغرافياً انتقاليًا بين السهول والجبال، ما ساعدها في إكتساب مرونة كبيرة في التنقل وممارسة أنشطتها الاقتصادية، ويمتد نفوذ قائد الجندل حتى يصل جبال الونشريس، أين تتواجد قبيلتا أولاد عنتر وقبيلة أولاد هلال، وهما من القبائل القوية المعروفة، وهذا يبرز لنا أهمية القائد المكلف بهذا المنصب².

4. رعية فليته:

تعد قبيلة فليته واحدة من أكبر وأقوى قبائل بايلك الغرب، سواء من حيث العدد، أو من حيث اتساع أراضيها، وهي بدورها تنقسم إلى العديد من القبائل والعشائر، وكانت منتشرة على رقعة جغرافية واسعة، تشمل بالأساس المناطق الواقعة بين وادي رهيو وتيهرت، وهي أراضي خصبة وغنية، وبسبب قوتها وكثرة رجالها، رأى البايات ضرورة تعيين قائد خاص بها، وذلك من أجل ضمان ولائها ومنع أي محاولات للتمرد والعصيان، ولقد قسمت هذه القبيلة إلى اثنتي عشرة عشيرة أهمها: أولاد سويد، عكرمة، والحساسنة، وتعد هذه العشائر الثلاثة أقوى عشائرها وأكثرهم

¹ دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص 244.

² Esterhazy, Op cit, pp274-276.

عددا، خاصة عشيرة الحساسنة، فقد تميزت بوجود عائلة قوية إمتازت بالعلم والشهرة وهي عائلة سيدي العربي، التي كانت دائما يتولى أفرادها مشيخة القبيلة¹.

5. رعية نواحي تلمسان:

انقسمت قبائل الرعية التابعة لمنطقة تلمسان إلى قسمين رئيسيين، حسب طبيعة المجال الجغرافي: الأول يضم القبائل التي استقرت في المدن وأحوازها، بينما يشمل الثاني القبائل الجبلية، التي اتخذت من المرتفعات مقراً لها، ونظراً لهذا التباين، قامت الإدارة العثمانية بتعيين قائدين لتسيير شؤون هذه القبائل، القائد الأول كان يُعرف بقائد المدينة، وكانت تحت إمرته قبائل بني وعزان، أولاد الغسل، أولاد سيدي العبدل، بني سنوس، بني ورنيد، ولهاصة، وهي قبائل كانت تمارس الزراعة بشكل كبير، بالإضافة إلى التجارة، أما القائد الثاني، وهو قائد الجبل، فقد تولى قيادة القبائل التي تستقر في الجبال، ومن بينها: أولاد رياح، جويدات، أولاد ورياش، بني الصميل، وبني بوسعيد، وهي قبائل اتسمت أحياناً بنزعة استقلالية، كما تعتبر قوية ما جعل تسييرها أمراً صعباً نوعاً ما².

6. رعية اليعقوبية:

تقع أراضيها في جنوب البايك، عرفت تقسيماً إدارياً خاصاً بها يميزها عن بقية الرعايا، حيث قُسمت إلى قسمين، الأول هو اليعقوبية الغرابية وكانت تخضع لسلطة آغا الدواير، والثاني هو اليعقوبية الشراقة وكانت تحت قيادة آغا الزمالة، لقد تمتعت هذه القبائل بنوع من الحكم الذاتي، في إطار من التبعية الشكلية للسلطة المركزية العثمانية، وهو ما أتاح لها مجالا واسعا من أجل تسيير شؤونها الداخلية وتعتبر أيضاً شبه مستقلة عن السلطة، وهي شبيهة في وضعها

¹ Louis Rinn, Le Royaume..., Op cit, pp60-61.

² Esterhazy, Op cit, p271.

مع السلطة بقبائل المخزن، سواء من حيث الامتيازات أو من حيث الإمتيازات والصلاحيات الواسعة التي منحها السلطة إياها، وتضم قبائل عديدة أبرزها قبائل أولاد بالغ والمهايا، الجعافرة، الأحرار، حميان، وبني مطهر، وكلها قبائل قوية لعبت دورا بارزا في الحفاظ على أمن وإستقرار المناطق الجنوبية للبايلك¹.

¹ Ibid,p268.

المبحث الرابع: القبائل الحليفة و القبائل المستقلة ومناطق انتشارها في بايلك الغرب

أولاً: القبائل الحليفة

تعتبر هذه القبائل في نظر السلطة العثمانية السلطة العثمانية، من القبائل القوية والمشهورة بتعدادها وقوة فرسانها، بالإضافة إلى أصالتها في البايك، لذلك تقدرها السلطات وتحترمها ، وتعتبرها في الوقت نفسه في منزلة قبائل المخزن، فهي تقدم الكثير من الخدمات للسلطة، بداية من تنفيذ العديد من المهمات التي تحفظ أمن وإستقرار البايك، كما أنها تشارك في الكثير من الحروب الخارجية إلى جانب السلطة، بالإضافة إلى مشاركتها في إستخلاص الضرائب من قبائل الرعية¹.

لقد إستفادت كثيرا من هذا التحالف، فمن جهة تُجنّب نفسها الدخول في نزاعات مسلحة مع قبائل الرعية أو قبائل المخزن، ومن جهة أخرى تستفيد من عملية استخلاص الضرائب وتأخذ نصيبا لنفسها، وقد كانت هذه القبائل تملي شروطها على السلطة بما يخدم مصالحها، ومن أبرزها بعد حق إستخلاص الضرائب من القبائل المجاورة، حرية تعيين شيوخها وأعيانها وأن لا تتدخل السلطة في شؤونها الداخلية، وهذا الامتياز لم تمنحه السلطة حتى لقبائل المخزن وقد كان الباي يعين قادة المخزن بنفسه².

من أبرز هذه القبائل الحليفة قبائل منطقة اليعقوبية، التي كان لها مكانة خاصة عند البايات، حيث حظيت باحترام كبير، نتيجة إخلاصها وتعاونها، وكان عمال الباي يغشون

¹ أرزقي شويتم، المرجع السابق، ص174

² نفسه، ص ص، 174-175.

مواطنها بأعداد قليلة من الرجال لجمع الضرائب، وهذا الإجراء يعد إحترازا وتجنباً لغضب هذه القبائل¹.

من القبائل الحليفة المهمة كذلك قبيلة أولاد سيدي الشيخ، التي تستقر في جنوب غرب البايك، وقد أولتها السلطة العثمانية عناية خاصة، حيث منحتها امتيازات متعددة، من بينها حرية التنقل بمواشيها في مختلف أرجاء البايك شرط أن تدفع بعض الضرائب، كما لها الحقا في تعيين شيوخها، وكان الهدف من وراء هذه الإمتيازات الامتيازات استمالة هذه القبيلة الكبيرة والمحافظة وتجنب التصادم معها، خاصة وأن موقعها الجغرافي يعتبر إستراتيجيا، وقريبا من الحدود مع المغرب الأقصى، وبذلك تعتبرها السلطة حاجزا إجتماعيا في وجه أي أطماع وطموحات لملوك المغرب الأقصى من أجل التوسع على حساب أراضي البايك الجنوبية، ومن خلال هذا التحالف تمكنت السلطة العثمانية من ضمان ولاء هذه المنطقة الواسعة، وإعتبار قبيلة أولاد سيدي الشيخ هي المسؤولة الأولى على الحفاظ على إستقرار هذه المنطقة وتبعيتها للسلطة العثمانية، بالإضافة فإن هذا التحالف يجنب السلطة الكثير من الخسائر المادية والبشرية، بداية من توفير أموال الحملات العسكرية، وترك الأمر لهذه القبيلة القوية².

ثانيا: القبائل المستقلة

تعتبر هذه القبائل في علاقتها بالسلطة العثمانية قبائل مستقلة وممتنعة عن دفع الضرائب، بأي شكل من الأشكال، وتعتبر نفسها لا تتبع سلطة الباي، كما أنها لا تخضع لنظام الجباية ولا تلتزم بالأوامر الإدارية الأوامر الإدارية و أي مرسوم صادر عن السلطات، ويعود موقفها هذا، إلى طبيعة المجال الجغرافي الذي كانت تستقر فيه هذه القبائل، إذ أن أغلب هذه القبائل

¹ كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص 273.

² نفسه، ص 275.

تتخذ من المناطق الجبلية الوعرة، أو تخوم الصحراء أو الحدود الغربية مع المغرب الأقصى مستقرا لها، ما مكنها من التحصن ضد محاولات الإخضاع المتكررة¹.

من أبرز هذه القبائل، التي تتخذ من جبال منطقة مليانة مستقرا لها، وعلى رأسها قبائل ريغة، مطماطة، العطاف، سنواه، بني فراج، وجندل، والتي كانت في حالة عداء دائم مع السلطة العثمانية، وهو ما أدى إلى وقوع مناوشات ومواجهات عسكرية مع قوات البايك وقوات المخزن، خاصة عندما تأتي المحلات لإستخلاص الضرائب منها، أو إقامة حصون وأبراج عسكرية للعساكر، وهو ما ترفضه هذه القبائل وتراه وجها من أوجه الإعتداء عليها، من أشهر المواجهات العسكرية بين الطرفين، ما حدث حينما اعترض فرسان من الكراغلة، دخول قبائل ريغة إلى سوق مليانة، ما دفع هذه القبيلة إلى تجريد السلاح، وعلى إثرها قامت بمهاجمة منازل الكراغلة في المدينة وإحراقها، ما دفع الداوي عمر إلى إصدار أوامر إلى بايات الغرب والتيطري، تقضي بتأديب هذه القبيلة، ومصادرة أراضيها وتوزيعها على قبائل المخزن الموالية للسلطة².

كما تميزت قبائل مثل قبيلة سويد "الأمحال"، برفضها المطلق لدفع الضرائب، وهذا ما دفعها إلى التصادم مع البايك، الذي إستعان بقبائل المخزن، بالإضافة إلى قبيلة الحشم التي كانت دائما في صراع مع الأمحال من أجل الأراضي، ما أدى في الأخير إلى خسارة قبيلة الامحال للكثير من أراضيها، لصالح القبائل المخزنية، بالإضافة تم إجبارها على دفع ضرائب ثقيلة فرضت عليها نتيجة هزيمتها³.

كما كانت هناك قبائل حدودية مثل قبيلة الأنجاد، التي غالبا ما كانت تستخدم موقعها الجغرافي بين الجزائر والمغرب الأقصى، فكانت تدخل الأراضي المغربية عند اقتراب موعد الجباية

¹ Desfontaines(I,R):Fragemens d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger fait de 1783 à 1786, T2, publié par :M.Dureau de la Malle, Paris, 1838, pp144-145.

² M.Julienne, Op cit, pp284,285.

³ Desfontaines(I,R), Op cit, p p170-171.

وإستخلاص الضرائب منها، وبمجرد ما تنتهي عملية الجباية، وتتوقف المحلات العسكرية عن الحركة تعود إلى أراضيها، كما إتخذت بعض هذه القبائل من اللصوصية وقطع طرق القوافل ونهبها سبيلا لعيشها، ما دفع البايات إلى توجيه حملات عسكرية لتأديبها ، خصوصا في عهد الباي محمد الكبير¹،

إضافة إلى ذلك فقد كانت تعتبر الكثير من القبائل الرعوية المتنقلة مثل بعض عشائر قبائل الأحرار، المهايا، وبني مناد، التي كانت تعتبر قبائل بدوية بحتة، تعيش من خلال تربية المواشي وتتخذ من الترحال والتنقل نمطا لحياتها، وبذلك لم تكن لها قرى أو مناطق إستقرار ثابتة، وهذا جعل أمر إستخلاص الضرائب منها صعبا ومضنيا².

لقد لجأت السلطة إلى عدد من التدابير الإدارية والعسكرية، لغستخلاص الضرائب من هذه القبائل، وأهم هذه التدابير مراقبة الطرق ومفترقاتها من خلال نشر فرسان المخزن على طول هذه الطرق، كما أمرتهم بمراقبة الأسواق التي ترتادها هذه القبائل خاصة في فصل الصيف، حين تضطر لبيع بضائعها فيها أو تبتاع ما تحتاجه من بضائع ومؤن غذائية، وبمجرد دخولها لهذه الأسواق أو عبورها للطرق الرئيسية أو الثانوية، تجد فرسان المخزن بإنتظارها من أجل إستخلاص ما تأخر عن دفعه من الضرائب المفروضة عليها³.

أما بالنسبة للقبائل القبائل التي تحتمي بالجبال والمسالك الوعرة، فقد واجهتها السلطة بحملات عسكرية كبيرة، كانت تشارك فيها حاميات من الجند الإنكشاري مدعومين بفرق من قوات المخزن، وكانت هذه القوات تقوم بتدمير القرى المحصنة، وإتلاف المحاصيل الزراعية من أجل الضغط على القبائل لإعلان خضوعها وإستسلامها، وفي حالة استمرار الحرب معها ولم

¹ Desfontaines, Op cit, pp170-171.

² P.Boyer: "La conquete de l'Algérie ", In I.A, Paris, 1957, p127.

³ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص ص 109-110.

ترضخ لمطالب السلطة، تقوم السلطات بمصادرة أراضيها و تمنحها لقبائل المخزن، مثلما حدث مع قبائل صبيح وأولاد يونس والأمحال في مناطق الشلف ووهران¹.

-خلاصة الفصل:

لقد مثلت القبائل في بايلك الغرب العنصر الاجتماعي الأكبر والأهم خلال عهد الدايات، وكان إنتشارها يسود أريافه، وحتى الجبال والمناطق الوعرة، ويقدر عدد أفراد القبائل أواخر هذا العهد بأكثر من نصف مليون نسمة، ويشكلون بهذا العدد ما نسبته 92 بالمئة من سكان البايك، ما دفع السلطات إلى توجيه جميع أدواتها السياسية والعسكرية إتجاهها، فقد كانت الكثير من القبائل غير مقتنعة بالسياسات العثمانية في البايك، كما أنها ترفض الخضوع لسلطانها، ما أدى بالسلطات الى تقسيم هذه البنية الاجتماعية الكبيرة إلى أقسام، ما يسهل التحكم فيها وتسييرها.

كما أنها إعتمدت على قبائل المخزن التي أعطتها إمتيازات وصلاحيات واسعة، بالإضافة الى إصطناعها لقبائل مخزنية أخرى وهي مختلفة في أصولها، كالدواير والزمالة والغرابية، وقد منحها الكثير من الأراضي الخصبة، إضافة بمنحها حق إستخلاص الضرائب من قبائل الرعية، كما أنها تستطيع الإحتفاظ بنصيب من هذه الضرائب لنفسها، كما أنها تقوم على حراسة الحصون والأبراج والمواقع الإستراتيجية في البايك، وكذلك المرابضة خارج المدن من أجل حمايتها من أي هجوم من أي جهة كانت، وقد زودتها السلطات بالأسلحة من أجل تنفيذ مهامها.

أما القسم الثاني فتمثل في قبائل الرعية، التي تعتبر أكبر مكون في المجتمع القبلي، وهي خاضعة للسلطة ومستسلمة لأوامرها في اغلب الأحيان، وتقوم بدفع الضرائب الثقيلة، كما أن أراضيها أقل خصوبة ويعتبر أغلب قبائلها قبائل فقيرة وضعيفة، كما أن الكثير منها يستقر في

¹ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص ص 109-110.

المناطق الجبلية والوعرة، ذلك تجنباً لقوات البايك والمخزن، إلا أن بعضها كان يتحين الفرص بإنشغال السلطات فيعلن التمرد والعصيان، وقد حدثت كثيراً خلال عهد الدايات، إلا أن البايات كانوا يؤدّبونها، وينتزعون منها أراضيها ويقدمونها لقبائل المخزن، كما يأمرّون بتهجيرها إلى أراضي أقل خصوبة وإنتاجاً.

أما القسم الثالث فهي القبائل المتحالفة مع السلطة، وتعتبر قبائل أصيلة في البايك بالإضافة إلى شهرتها وقوتها، ما جعل البايات ورجال البايك يحترمونهم ويتودّدون إليها، كما أنه لا يفرض عليها إلا القليل من الضرائب، ولم تكن المحلات العسكرية تغشى مواطنها، ويكتفي المسؤولون بإرسال عدد محدود من الرجال لاستخلاص الضرائب منها، وهذا الإجراء تجنباً لغضبها، بالإضافة أن بعضها أوكلت لها السلطة بجمع الضرائب من قبائل الرعية، وأخذ نصيب منها لنفسها، مثل قبائل اليعقوبية جنوب البايك، وهذا الإجراء من السلطة يعدّ ودياً، كما أنه لم تعطه للكثير من القبائل المخزنية، علماً أن هذا الإجراء لا يضمها إلى صف المخزن وتبقي حرة في تسيير شؤونها.

أما القسم الرابع فهي القبائل المتمردة، وهي دائماً في نزاع مع السلطات وقوات المخزن، وكثيراً ما تتصادم معهم عسكرياً، وأغلب هذه القبائل تقع أراضيها في جنوب البايك وتتخذ من التنقل والترحال سبيلاً لعيشها ولقطعانها، لكن السلطة تأخذ تدابير من أجل تحصيل الضرائب منها، فتأمر بمراقبة الطرق والأسواق، التي ترتادها من أجل التبضع لنفسها أو بيع بعض منتوجاتها، فيتم إستخلاص الضرائب منها فإن رفضت سارع المخزن إلى تأديبها، فتدفع مرغمة إلا أنها تعود سيرتها الأولى بعد الرجوع إلى مواطنها، ومن أشهر هذه القبائل أولاد سيدي الشيخ.

الفصل الثالث: النشاط الاقتصادي لقبائل بايلك الغرب وإنعكاسه في تحديد
العلاقة مع السلطة

المبحث الأول: مسألة ملكية القبائل للأرض وموقف السلطة منها

المبحث الثاني: النشاط الزراعي لقبائل بايلك الغرب

المبحث الثالث: النشاط الصناعي والحرفي لقبائل بايلك الغرب

المبحث الرابع: النشاط التجاري لقبائل بايلك الغرب

الفصل الثالث: النشاط الاقتصادي لقبائل بايلك الغرب وإنعكاسه في تحديد العلاقة مع السلطة

-تمهيد:

لقد كانت الحياة الاقتصادية في بايلك الغرب تعتمد عادة على المجهود الفردي، وذلك لأن السلطات لم تقدم خدمات أو مساهمات في تطوير الاقتصاد المحلي، ولم تكن تعير إهتماماً بالأوضاع المعيشية للسكان، بل زادت على هذا الإهمال بفرض ضرائب ثقيلة على القطاعات الاقتصادية (الزراعة، الصناعة، التجارة)، بالإضافة أنها لم تواكب التغيرات الإقليمية والدولية التي طرأت على المجال الاقتصادي، بعكس أوروبا التي شهدت قيام الثورة الصناعية خلال القرن الثامن عشر، كما أن الظروف الداخلية في البايك لم تكن مواتية ومناسبة لأي تقدم إقتصادي، نظير الحروب الداخلية وتمردات الكثير من القبائل، بالإضافة إلى الاحتلال الإسباني في وهران والمتربص دائماً بالبايلك، وهذا ما خلق نوعاً من عدم الاستقرار في البايك، وكان من سبب من الأسباب التي حالت دون التطور الاقتصادي، وبالرغم من هذه الظروف غير المساعدة للنهوض الاقتصادي، فإن القبائل لم تستسلم لهذه الظروف القاسية، وإمتحن الكثير من أبنائها مهناً كالزراعة والرعي والحرف والصناعات التقليدية، بالإضافة إلى ممارسة التجارة على الصعيد المحلي والصعيد الإقليمي.

المبحث الأول: ملكية القبائل للأراضي في بايلك الغرب

لقد عرف موضوع ملكية الأراضي في بايلك الغرب، خلال الفترة العثمانية تطورات كثيرة ، كانت نتيجة مباشرة لتغيرات والظروف السياسية والاجتماعية، ويرجع أيضا لطول الحقبة العثمانية في الجزائر، والتي امتدت لقراءة ثلاثة قرون ، فقد كانت هذه الفترة التاريخية الطويلة كفيلا، بظهور مجموعة من القوانين والأعراف، التي تنظم مسألة ملكية الأراضي بالنسبة للقبائل ضمن مجال البايك، ولقد خضعت هذه المسألة إلى تأثيرات متعددة، منها ما هو مرتبط بالمعطيات الجغرافية والطبيعية، ومنها ما هو نابع من الظروف السياسية والتاريخية المتعاقبة، فضلاً عن تغير البايات والحكام، الذين تعاقبوا على إدارة شؤون بايلك الغرب ما بين سنتي 1518 و1830¹.

لقد عرف البايك تحولاً جوهرياً في طبيعة الملكية وأنماطها، وهو تحول لم يكن اعتباطياً، بل جاء نتيجة لثلاثة عوامل أساسية وهي:

أ. العوامل الطبيعية:

لقد تحكمت الطبيعة الجغرافية، في توزيع الأراضي داخل البايك، وبالنظر إلى أن هذا الأخير يقع في منطقة تتوزع بين بيئتين جغرافيتين متباينتين تماماً، حيث يحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب الصحراء الكبرى، وهذا التباين التضاريسي دفع العديد من القبائل إلى التمرکز والاستقرار في المناطق الشمالية من البايك، التي تتميز بخصوبة أراضيها، وغزارة مياهها واعتدال مناخها، ما جعلها أكثر جذباً للسكان وأكثر ملاءمة للأنشطة الزراعية المختلفة، وعلى العكس من ذلك، نجد أن عدداً قليلاً من القبائل كان يقطن بالمناطق

¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف و الجباية الفترة الحديثة، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2003، ص13.

الصحراوية أو شبه الصحراوية الجنوبية، حيث كانت هذه القبائل تعتمد أساسًا على تربية المواشي وبعض الزراعات المعيشية البسيطة، التي تخضع لظروف مناخية قاسية¹.

من اللافت للنظر أن رجال البايك، وخصوصًا قوات المخزن وأعوان الباي، كانوا يستحوذون على أخصب الأراضي وأكثرها إنتاجًا، ما أدى إلى تمركز ملكياتهم في سهول الخصبة مثل سهول وهران وسهل الشلف وسهل غريس، ولقد ساهم هذا التوزيع للأراضي في إقصاء العديد من القبائل من الأراضي الخصبة، ما اضطرهم إلى التوجه جنوبًا أين توجد الأراضي الواسعة والتي تعد أقل خصوبة، أو التوجه إلى المناطق الجبلية بعيدا عن سلطة البايك والمخزن خاصة، كما أن إستغلالها كان جماعيا، وقد أُطلق على هذه الأراضي اسم "أراضي العرش"، وهي أراضٍ مشاعة، يتشارك في إستغلالها جميع أفراد القبيلة، سواء للرعي أو للاستغلال الزراعي، و لكل فرد الحق في الاستفادة من إنتاجها².

لقد أصبحت مناطق مثل جبال الونشريس وجنوبها موطنًا لتلك القبائل، في حين وُجدت كذلك بعض الملكيات الخاصة، التي تعود لأفراد أو عائلات، وغالبًا ما كانت هذه الأراضي تقع في محيط المدن وضواحيها³.

ب. العوامل التاريخية:

تُعتبر مرحلة الدايات من أطول وأهم المراحل، التي عرفت الجزائر في ظل الحكم العثماني، حيث استمرت من سنة 1671 إلى غاية سنة 1830، وقد تميزت هذه المرحلة بتغيرات جذرية من حيث ملكيات القبائل للأرض، ما نتج عنه أيضا تغير في مواطنها، والذي أدى بالضرورة

¹ نفسه، ص 14.

² نفسه، ص ص 14-15.

³ دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص 107.

إلى تغيرات في علاقاتها بالسلطة، كما شهد بايلك الغرب خلال هذه الفترة، العديد من الثورات والانتفاضات القبلية ضد الحكم العثماني، الأمر الذي دفع السلطات إلى اتخاذ إجراءات ردعية، لم تقتصر على القمع فقط، بل تجاوزته إلى مصادرة أراضي القبائل المتمردة، ومنحها لقبائل أخرى، تم إستقدامها من مناطق مختلفة، ومثال على ذلك عندما قامت الحرب بين قبيلتي الحشم والأمحال، حيث سعت قبيلة الحشم إلى التوسع على حساب أراضي قبيلة الأمحال، ولم تنجح السلطة في إخضاع الحشم، إلا في عهد الباي محمد الكبير سنة 1790م، الذي قام بضمها أيضا إلى قوات المخزن¹.

كما قامت السلطة العثمانية، منذ بدايات حكمها في الجزائر عام 1518، بفرض سيطرتها على العديد من الأراضي، فصادرت بعضها ووهبت البعض الآخر لقبائل بعينها، بغرض استخدامها في خدمة مصالح الدولة، سواء من حيث الأمن أو التموين أو الاستقرار، كما أنها تفرض على القبائل دفع ضرائب من أجل إستغلال هذه الأراضي، ما أدى إلى عدم إستقرارها ملكية الأراضي نتيجة هذه التحولات المستمرة، وكان شكل الملكية في البايك يتأثر بشكل مباشر بقرب القبيلة من السلطة أو بعدها عنها، وبمدى ولائها لها².

ج. الأحكام الفقهية:

لقد كانت الشريعة الإسلامية، هي المرجع الأسمى لتحديد أنماط الملكية وإقرارها، إذ كان الحكام العثمانيون، ومعهم عامة السكان يحتكمون إلى الفقه الإسلامي، في مسألة الملكية وإستغلال الأراضي، ومن أبرز الكتب الفقهية التي تم الاعتماد عليها في الجزائر خلال العهد العثماني، وخصوصا فيما يتعلق بالمعاملات الاقتصادية، كتاب نوازل أبي القاسم البرزلي،

¹ توفيق دحماني، النظام الضريبي....، المرجع السابق، ص55.

² Enfantin, Colonisation de l'Algérie, Bertrand libraire, Paris, 1843, p66.

المعروف باسم جامع مسائل الأحكام، وكذلك كتاب المعيار المعرب، لأبي العباس أحمد الونشريسي، والذي يعد مرجعًا هامًا في مثل هذه المسائل، فضلًا عن نوازل مازونة لعمران موسى بن عيسى المغيلي، التي عُرفت باسم الدرر المكنونة، ومن خلال هذه الكتب، تم استخلاص الأحكام والفتاوى المعتمدة، على اجتهادات علماء المذهب المالكي، الذي كان يعد المذهب الرسمي والمعتمد لدى سكان الجزائر، رفقة المذهب الحنفي الذي كان يعتمد عليه العثمانيون، وقد كانت الفتاوى المتعلقة بملكية الأرض، تستند إلى أصول فقهية راسخة، وهذا ما ساهم في منح هذه الملكيات، شرعية إسلامية لا يمكن الخروج عنها¹.

أولاً: الملكيات الجماعية

ارتكز نظام ملكية الأراضي في بايلك الغرب، على شكلين من الملكية، الأولى ملكية جماعية، والثانية ملكية فردية، إلا أن الملكية الجماعية تفرعت عنها العديد من صيغ الملكيات، عكس الملكية الفردية الخاصة التي كانت واضحة وجليّة بإمتلاك أصحابها لها، كما أن هذه الملكيات حددتها الكثير من الظروف التي عايشها البايك خلال هذا العهد².

1. أراضي البايك:

هي الأراضي التي كانت تابعة للسلطة العثمانية في البايك، وقد تم تسجيلها رسميًا في سجلات الدولة، مع تحديد دقيق لحدودها ومساحاتها، وقد تنوعت طرق حصول الدولة عليها، فبعضها تم شراؤه من أصحابه الأصليين، سواء كانوا أفرادًا أو عائلات، وبعضها تم الاستيلاء عليه عن طريق الحيازة، لا سيما في الحالات التي لم تكن الملكية منسوبة إلى أي جهة معلومة، فاعتُبرت شاغرة وأضيفت إلى أملاك الدولة العامة، كما أن هناك أراضي تمت

¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية....، المرجع السابق، ص 29-30.

² محفوظ سماتي، المرجع السابق، ص 68.

مصادرتها بالقوة من أصحابها، بسبب العصيان أو التمرد على السلطة، ولم تقتصر المصادرة على أراضي الأفراد والعائلات فقط، بل شملت كذلك أراضي قبائل بأكملها، خاصة تلك التي كانت تتخذ من التنقل والترحال أسلوباً للعيش، ورفضت الالتزام بدفع الضرائب للبايلك¹.

قد تمت كذلك مصادرة أراضي قبائل أخرى، خاصة التي أعلنت تمرداً أو تحالفت مع الإسبان، فكان للسلطة سبيل عليها بمصادرة أراضيها كعقوبة لها، فكانت أغلب أراضي البايلك في أصلها أراضي مصادرة. أما الشراء أو الحيازة السلمية، فقد كانت نادرة نسبياً، ومثال ذلك ما حصل مع قبيلة الأمحال، حيث صادرت الدولة العثمانية أراضيها عند دخولها إلى المنطقة، نظراً لكونها كانت من أوسع وأخصب الأراضي في البايلك، بالإضافة إلى أن السلطة بررت توسعها على حساب الأراضي، بأن بقبيلة الأمحال تحول بينها وبين محاربة الإسبان، ولأجل ذلك يجب الحصول على أراضيها، وتنظيم الغارات والتصادم مع المحتل إنطلاقاً من هذه الأراضي².

تعد أراضي البايلك ملكاً للدولة، وليس لأي أحد الحق في التصرف فيها، بمحض إرادته ولا يمكن لأي رجل من رجال السلطة، أن يستحوذ على جزء منها ولو كانت قطعة صغيرة، فهي أراضي لا تباع ولا تشتري، ولا يتم تقسيمها ولا تُورث، بأي شكل من الأشكال³، كما أن الأراضي

¹ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ميلادي)، حوليات الآداب و العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الكويت، 2010، ص ص 16-17.

² نفسه، ص 17.

³ ناصر الدين سعيدوني، رقات ...، المرجع السابق، ص 545.

الشاغرة تُضم إلى سجلات البايك، وتعتبر تابعة له مباشرة، وهي أراضي خصبة وسهول غنية، بالإضافة إلى أراضي الغابات والأحراش والمساحات الواسعة المخصصة للرعي¹.

لقد أخذت أراضي البايك في التوسع والازدياد، بل إنها تضاعفت بشكل ملحوظ خلال عهد الدايات، ويرجع ذلك إلى حالة الاستقرار النسبي، التي عرفتتها البلاد خلال هذه المرحلة، ويرجع لك إلى ظهور دايات أقوياء متعاقبين على الحكم هم: عبدي باشا (1724-1732)، وإبراهيم باشا (1732-1745)، ومحمد بكير باشا (1742-1754)، وعلي باشا نقسيس (1754-1766)، ومحمد عثمان باشا (1766-1791)، وكلهم ساهموا في توسيع أراضي البايك، وإخضاع القبائل لسلطة الحكم المركزي².

لقد قُدرت المساحة الإجمالية لأراضي البايك، في بايلك الغرب قبيل الاحتلال الفرنسي بحوالي 1.5 مليون هكتار، معظمها من السهول الخصبة، التي استُغلت بكثافة في زراعة الحبوب، وخاصة القمح³.

كانت هذه الأراضي منتشرة في جميع ربوع البايك، إلا أن أغلبها كان متمركزاً في السهول الساحلية والداخلية، وفي الهضاب وشمال المناطق الصحراوية، ما أدى إلى ازدهار النشاط الزراعي وتربية المواشي، خاصة في سهول وهران وغريس والشلف، بينما كانت أراضي البايك

¹ Arthur Girault, Principes de colonisation et de legalisation coloniale, Tome 2, Librairie de la société du Recueil Géméral des Arrêts, Paris, 1904, p579.

² ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية....، المرجع السابق، ص39.

³ صالح حيمر، السياسة العقارية الفرنسية في الجزائر (1830-1930)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2013-2014، ص23.

في المناطق الصحراوية، أقل من ناحية المساحة الإجمالية، وذلك بسبب ندرة المياه وقلة الأراضي الصالحة للزراعة¹.

لقد انقسمت أراضي البايك، إلى عدة أشكال وصيغ عقارية هي كالاتي:

أ. **العزل**: أراضي تُمنح للفلاحين لزراعتها مقابل أجر معلوم، بالإضافة إلى التزامهم بدفع ضرائب أخرى إلى خزينة البايك². وقد قدمت السلطات، أراضي العزل كمكافأة للعمال والموظفين المخلصين، فكان كبار رجال الدولة والموظفين ينالون أجود الأراضي، بينما نال الآخرون أراضي أقل خصوبة ومساحة³.

ب. **التوزيع**: في بدايتها كانت السلطات تستعمل هذا النظام، لتشغيل وتسخير القبائل الخاضعة، بإعطائها أراضي بُور تعمل على استصلاحها وزراعتها، بالإضافة لتسليم محاصيلها كاملة للدولة⁴. وعلى الرغم من أن التوزيع تمثل عند الجزائريين مظهراً من مظاهر التعاون والتضامن، فإن السلطة استغللتها لخدمة أغراضها⁵.

ت. **القوناق**: أراضي تقع بجانب الطرقات والمسارات الرئيسة، مثل الطريق السلطاني الرابط بين الجزائر العاصمة وعاصمة بايلك الغرب (مازونة، ثم معسكر، ثم وهران)، وكانت تُرابض فيها

¹ عبد اللطيف بن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر: محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر بين عامي 1830-1962، ترجمة نخبة من الأساتذة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 1979، ص27.

² عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر الحديث دراسة سوسيولوجية، تر فيصل عباس، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، بيروت، 1983، ص47.

³ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص139.

⁴ بن رقية بن يوسف، شرح قانون المستثمرات الفلاحية، الديوان الوطني للأشغال التربوية، ط1، الجزائر، 2001، ص22.

⁵ بلعقون محمد الصالح، نظام الأراضي الفلاحية في عهد الدولة العثمانية بالجزائر (1519-1830)، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية، مج6، ع3، جانفي 2022، ص39.

قوات تركية لكن أغلبها كان تحت سيطرة فرق من المخزن، مع كون قوات المخزن الأكثر عدداً وانتشاراً¹.

ث.المطمور :أراضٍ تمتاز بخصوبتها العالية، كما أن إنتاجها كان وفيراً من مختلف المحاصيل الغذائية، وكانت مخصصة لتزويد المخازن التابعة للباي ورجال سلطته وقواته، وتخضع لحراسة من قبل حاميات تركية، مدعومة بقوات من المخزن².

ج.العزيب : تُستغل هذه الأراضي لإنتاج الأعلاف، المخصصة للمواشي والخيول التابعة للسلطة، ويقوم الفلاحون بخدمتها مقابل أجر متفق عليه³.

ح.المشاتي:

لقد منحت السلطات العثمانية في البايك، أراضٍ خصبة وواسعة لفرق وقبائل المخزن، في مختلف سهول وهضاب البايك، لاستغلالها زراعياً ورعويّاً، وذلك مقابل الخدمات العسكرية والإدارية التي تقدمها، عُرفت هذه الأراضي بلقب "المشاتي"، ولم يكن يُسمح لأي قبيلة من المخزن ببيعها أو تأجيرها أو توريثها، لأنها تبقى ملكاً للدولة وتُمنح للاستخدام فقط، كما كان من حق السلطة، أن تنقل أي قبيلة مخزنية من أراضيها إلى غيرها، واستبدالها بقبيلة أخرى، حسب الظروف الأمنية والإدارية⁴.

كانت السلطة تتعامل مع شيوخ وقادة القبائل مباشرة، وهم من كانوا يتولون مسؤولية توزيع الأراضي بين العائلات والأفراد، مع الحرص على ترك مساحات مخصصة للرعي، وقد استمر

¹كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص ص139-140.

² نفسه، ص 140.

³ نفسه، ص 140.

⁴ سميرة طال معمر، المرجع السابق، ص 93.

هذا النظام بداية من منتصف القرن السادس عشر، إلى غاية منتصف القرن الثامن عشر، فيتم تسجيل الأفراد المستفيدين من الأرض في دفتر المشتى، الذي يقوم عليه أحد عمال الخزانجي في البايك¹.

كان الباي شخصياً هو من يشرف على توزيع الأراضي، على القبائل بالإضافة إلى رسم حدودها، وسعى البايات إلى تقريب قبائل المخزن منهم، بمنحهم أراضي قريبة من مقر إقامتهم، لضمان الحماية والاستقرار².

بلغت المساحة الإجمالية لأراضي البايك في وهران وأحوازا فقط، حوالي 11,250 هكتاراً، كانت أغلبها تحت سيطرة قبيلتي الدواير والزمالة، والتي قام بوهبها لهم الباي محمد الكبير بعد تحرير وهران الثاني، كما أصدرت السلطات أوامرها، بطرد قبائل بني عامر والكثير من القبائل الأخرى، لتحالفها و تعاونها مع الاحتلال الإسباني³.

في أواخر القرن الثامن عشر، أصدرت السلطة مرسوماً، يقضي بتمليك أراضي البايك لقبائل المخزن، التي كانت تستغلها، مقابل مبالغ مالية ضخمة تقدمها هذه القبائل لخزينة الإيالة، ولقد جاء هذا القرار خاصة بعد التراجع الاقتصادي الذي عرفه البايك خاصة والجزائر عامة، نتيجة الثورات المتكررة والكوارث الطبيعية، بالإضافة إلى السبب الذي يعد أساسياً، وهو تراجع موارد الجهاد البحري، الذي كان يعتبر المورد الأول و الأساسي لخزينة الدولة، ما جعل السلطات تبحث عن موارد جديدة⁴.

¹ نفسه، ص 93.

² Djillali sari, Les villes précoloniales de l'Algérie accidentale (Nedroma-Mazouna-Kalaa), S.N.E.D , Alger , 1978, p42.

³ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 52.

⁴ Bache, Op cit, pp 689-690.

بهذا المرسوم الذي يعتبر إمتيازاً كبيراً لقبائل المخزن، أصبح يمكن لأفراد القبيلة التصرف بحرية في الأرض من شراء أو بيع، كما يمكن أن يورثوها لأبنائهم و أحفادهم، وقد ساهم هذا القرار أيضاً في خلق نوع من الإقطاعية في الجزائر عامة، بجعل رجال المخزن رجال السلطة الكبار مالكين لمساحات واسعة وغنية من الأراضي، مقابل حرمان الكثير من قبائل الرعية، ببعض الإمتيازات مما زاد من حدة التوتر فزادت بذلك الثورات، و حركات التمرد حتى أصبح لا تخدم ثورة حتى تندلع أخرى في منطقة مختلفة، وكان أيضاً هذا القرار مساهماً فعالاً، في إضعاف السلطة العثمانية الى غاية سقوطها¹.

خ.الخامسة : من أشهر الأنظمة المعروفة في استغلال الأراضي، وقد اعتمدته السلطات العثمانية بكثرة، لما يعود عليها من فوائد ومردود وفير من مختلف المنتوجات الزراعية، ويقوم النظام على العلاقة المباشرة بين الفلاح والسلطة، بحيث تُمنح للفلاح قطعة أرض، بالإضافة أنها تقوم بتزويده بالادوات الضرورية، من محراث وبذور وحيوانات، والادوات الصغيرة أيضاً كالمنجل والفأس وغيرها من أدوات الزراعة².

عند حلول موسم الحصاد، يُسلم الفلاح أربعة أخماس المحصول للسلطة، ويحتفظ بالخُمس لنفسه مقابل عمله، وتُشرف لجنة مختصة من طرف الدولة، على تقدير كمية المحصول وتحديد نصيب الدولة بدقة، وكان هذا النظام محفزاً للفلاح على بذل جهد أكبر، لتحقيق إنتاج وفير يضمن له خُمساً جيداً يكفيه ويكفي عائلته³.

¹ ناصر الدين سعيدوني، وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والآثار التي ترتبت عليها، المجلة التاريخية المغربية ، ع 7 و 8، تونس، 1977، ص71.

² ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر الفترة العثمانية(1800-1830)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر 1979، ص92.

³ بلعقون محمد الصالح، المرجع السابق، ص38.

د. الاستغلال غير المباشر لأراضي البايك :

كانت هذه الأراضي تمنح لكبار الموظفين، ورجال الدولة، وشيوخ الزوايا، والمرابطين، وأعيان المخزن، وتُعد من أجود الأراضي وأكثرها خصوبة، إذ كانت تقع في مناطق غنية، وذات إنتاج زراعي وفير، ولقد اتبعت السلطة العثمانية سياسة دقيقة في هذا المجال، حيث كانت تهدف من خلال منح هذه الأراضي، إلى استقطاب الشخصيات البارزة والمؤثرة في المجتمع المحلي، وكسب ولائها، فهي ترى أن إرضاء هذه الفئة يعني بشكل غير مباشر، كسب رضا عامة الناس أيضاً، وكانت هذه الأراضي فب الغالب، عبارة عن بساتين تنتج مختلف أنواع الفواكه، إلى جانب مساحات زراعية أخرى، تقوم بإنتاج محاصيل معتبرة من الحبوب والخضروات¹.

في المقابل، لم تكن السلطات، تُحمّل هؤلاء المستفيدين أعباء مالية ثقيلة، فقد تم إعفاؤهم من دفع أربعة ريال عن كل جابدة أو زوجة، فضلاً عن تقليص مقدار العشور، إلى صاع من القمح وآخر من الشعير فقط عن كل جابدة².

لقد انتشر هذا النمط من الأراضي، خاصة في المناطق الجبلية والمناطق القريبة من الصحراء، خلال المراحل الأولى من التواجد العثماني، ثم ازداد هذا الانتشار في أواخر العهد العثماني، ليعتبر حول المدن الكبرى، وبشكل خاص في محيط مازونة وتلمسان، حيث كان كبار الموظفين والأعيان، يهيمنون على استغلال معظم هذا النوع من الأراضي الزراعية³.

ذ. الحكور:

تُعد "الحُكُور" صيغة من صيغ استغلال أراضي البايك، حيث كانت السلطات تقوم بتأجير

¹ عبد القادر جغلول، المرجع السابق، ص 56-57.

² دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص 112.

³ الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص 119-120.

بعض الأراضي للفلاحين، من قبائل الرعية أو غيرهم، كما كان يلتزم الفلاحون بدفع ما قيمته اثنا عشر صاعاً من القمح، ومثلها من الشعير عن كل جابدة مزروعة، بغض النظر عن حجم الإنتاج المحقق إن كان غزيراً أو ضعيفاً، مما يعكس حجم الأعباء المفروضة على هذه الفئة من القبائل، وكانت هذه الصيغة تستهدف الفقراء والمعدمين، إذ لم يكن الوجهاء والأثرياء يقبلون عليها، نظراً لقلّة الأرباح وصعوبة العمل فيها¹.

لقد عُرف هذا النوع من الاستغلال، بانتشاره في بايلك الشرق كثيراً، بينما كان في بايلك الغرب محدوداً، اقتصر على بعض القبائل والمناطق مثل قبيلة أولاد قصير، وبعض فرق قبيلة بني عامر، كعشيرة أولاد إبراهيم وكان هؤلاء يدفعون بالإضافة للقمح والشعير، مبلغاً ضريبياً يقدر 2ريال بوجو عن كل سلة مزروعة².

كما يلاحظ أن السلطات، لم تكن تتعامل مع جميع السكان بنفس المستوى، إذ نجد أن الأعيان وموظفي الدولة وكبار المخزن، يحصلون على أفضل الأراضي الزراعية، الواقعة غالباً قرب المدن مقابل ضرائب رمزية، في حين يدفع الفلاح البسيط مبالغ كبيرة، يعجز حتى الأغنياء على دفعها، إذ يُجبر على دفع نصف المحصول للبايلك، مع العلم أن إنتاج الجابدة الواحدة لا يتجاوز أربعة وعشرين صاعاً من القمح ومثلها من الشعير، بالإضافة إلى 2 ريال عن كل سلة مزروعة³.

¹ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي....، المرجع السابق، ص93.

² توفيق دحماني، بالنظام الضريبي ...، المرجع السابق، ص ص80-81.

³ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص142.

2. أراضي العرش:

تُعرف أراضي العرش أيضًا باسم أراضي السبيقة، وهي أراضٍ شاسعة تملكها القبيلة، وتنتشر في كل أنحاء بايلك الغرب، لا سيما في المناطق النائية، والبعيدة عن نفوذ السلطة المباشر¹، وتتركز معظم هذه الأراضي جنوب جبال الأطلس التلي، وتشمل الهضاب والسهول الممتدة حتى تخوم الصحراء، لقد كانت تُستغل أساسًا في زراعة القمح والشعير، وفي بعض الأحيان تُزرع فيها الحبوب القابلة للتجفيف، وبعض الخضروات الموسمية، ويعود سبب إنتشار هذه الزراعات في هذه الأنحاء، إلى الطابع الرعوي والبدوي للقبائل التي تقطنها، والذين اعتادوا التنقل بحثًا عن الكأ والماء لمواشيهم، كما كانوا يتركون هذه الأراضي صيفًا، وينتقلون إلى المناطق الساحلية، لتوفر المياه والمراعي في سهولها، ليعودوا إلى أراضيهم مع مطلع فصل الخريف².

لقد اعتُبرت أراضي العرش ملكًا جماعيًا للقبيلة، فلا يحق لأي فرد التصرف فيها دون الرجوع إلى بقية الأفراد، إذ يمكن لأي منهم أن يستغل الأرض للزراعة أو الرعي، لكن لا يملك حق بيعها أو التنازل عنها، وكانت القبائل تُقاوم تدخل أي جهة خارجية في أراضيها، سواء كانت سلطة عثمانية أو أي من القبائل الأخرى، وغالبًا ما نشبت نزاعات بين القبائل بسبب الخلاف حول حدود هذه الأراضي³، كما أن أفراد القبيلة يتعاونون في حراسة الأرض وحمايتها والمحافظة عليها، ولكل أسرة قطعة أرض تزرعها، وتستفيد منها كما تشاء، وفقًا لقدرتها وما تملكه من أدوات وماشية، بالإضافة فأن من الأعراف المعمول بها، في التعامل مع هذه

¹ صالح حيمر ، المرجع السابق، ص18.

² صالح عباد، المرجع السابق، ص377.

³ Robert Estoublon et Adolphe Lefébure, Code de l'Algérie annoté, Tome1,(1830-1895),

Adolphe Jourdan Librairie, Alger,1896, p727.

الأراض، أنه إذا توفي رجل من القبيلة، فإن الذكور فقط من أبنائه هم الذين يرثونه فقط، وإذا لم يكن له ورثة ذكور، تعود الأرض للقبيلة التي تعيد توزيعها، على أفرادها وحسب من حاجتها ومنظورها¹.

تنقسم أراضي العرش إلى قسمين، الأول أراضي زراعية مستغلة ومقسمة بين أفراد القبيلة، و لكل واحد منهم أو عائلة قطعة أرض معلومة المساحة و الحدود²، أما القسم الثاني فهي أراضي بور، تُستخدم للرعي ويشترك الجميع في استغلالها، وهكذا يجتمع في أراضي العرش نوعان من الملكية، ملكية جماعية و ملكية فردية³، وهذا ما يبرز لنا مدى الانتماء العميق لأفراد القبيلة لهذه الأرض، بالإضافة أنه لا يتردد أفرادها في حمل السلاح دفاعاً عنها⁴.

لم تكن هذه الأراضي موثقة لدى سلطات البايك، ولا يملك أصحابها وثائق ملكية رسمية، إذ يكتفون بالاستغلال الفعلي لها، كدليل على الانتماء، كما أنها موروثة منذ قرون عديدة، عن أجدادهم⁵، كما كانت هذه الأراضي تتمتع باستقلالية شبه تامة، نظراً لأن أغلب القبائل المالكة لها كانت من القبائل الممتنعة، الراضية للسلطة العثمانية عليها، ولم تكن هذه القبائل تدفع

¹ Andri Noushi , Enquete sur le niveau de la population rurales constantinoises de la concuete jusqu'en 1919, D'histoire economique et social .P.U.F, Paris,1961, p85.

² شارل روبير أجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا ، ج1، تر محمد حاج مسعود، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص141.

³ صالح حيمر، المرجع السابق، ص21.

⁴ عبد الحكيم رواحنة ، السياسة الاقتصادية الفرنسية في الجزائر 1870-1930، مذكرة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2013-2014، ص20.

⁵ مغنية الأزرق، نشوء الطبقات في الجزائر، تر سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، 1980، ص39.

الضرائب إلا بعد حملات عسكرية، يقودها الباي لإخضاعها، حيث تُجبر على دفع غرامات وعشور، إلا أنها سرعان ما تعود إلى سيرتها الأولى وتخلع ثوب الطاعة¹.

3. أراضي الوقف:

يُعرّف الوقف شرعاً بأنه حبس الأصل وتسبيل المنفعة، أي حبس الممتلكات وصرف عائداتها في سبيل الله²، وينقسم الوقف في الإسلام إلى نوعين، الأول وقف عام مخصص للمنفعة العامة، مثل الصدقات ومساعدة الضعفاء، والثاني وقف خاص يكون لصالح فرد أو عائلة أو جماعة، ويتكفل الواقف أو من ينوبه في هذا الوقف بتوزيع المنافع في سبيل الله، و يبقى هذا الوقف سارياً حتى في ذريته، ويبقى خراج الأرض لصالح الضعفاء من المسلمين³.

تُعتبر أراضي الوقف أراضي لها معاملات خاصة، وإستغلالها لا يشبه إستغلال الأراضي المتعارف عليها، كالملكيات الخاصة و أراضي البايلك و أراضي العرش، فهي لا تخضع لأي شكل من أشكال الضرائب والرسوم، كما أنه لا يمكن مصادرتها من طرف رجال الدولة و البايلك، تحت أي مسمى أو ظرف ، كما أنها لا تباع و لا تشتري و لا تورث، فخيرها راجع الى المسلمين واهل الذمة ممن كان في جوار دولة الإسلام، ولقد بقيت الأوقاف في العهد العثماني، محافظة على نفسها، بل زادت مع مرور الوقت بزيادة المحسنين⁴.

¹ محمد سويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغير في المجتمع الجزائري المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر، دت، ص73.

² عليوان أسعيد، أوقاف الجزائر في العهد العثماني و مساهمتها الاجتماعية والثقافية ، مجلة الإحياء، ع11، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، دت، ص296.

³ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لولايات، المرجع السابق، ص17.

⁴ بلعقون صالح ، المرجع السابق، ص40.

تعتبر أراضي الوقف في العهد العثماني، ملجأ الكثيرين خاصة الذين يخافون من مصادرة أراضيهم، فيحولونها الى أراضي وقف خاص، بعدما كانت أراضي خاصة وهذا الإجراء من أجل الحفاظ عليها، خشية مصادرتها من طرف البايك، وقد إنتشرت هذه الظاهرة بكثرة حول المدن و مراكز قوة البايك، كما أنهم من هذا التحويل يحرمون الإناث في العائلة من الوراثة فيها، وبذلك يحافظون على ملكيتها ضمن النطاق العائلي¹.

لقد شهد الوقف في عهد الدايات توسعاً غير مسبوق، إذ أصبحت الأوقاف تُوثق رسمياً، عن طريق كاتب الدولة، وتُسجل بأسماء الواقفين مع حضور شهود، كما عُينت لجان متخصصة للإشراف على هذه الأوقاف، وصرف عائداتها في على ما يعود على المسلمين بالخير، ومن أشهر الأوقاف في هذا العهد، أوقاف مكة والمدينة و أوقاف سبل الخيرات²، وأوقاف المسجد الكبير، الذي استمر نشاطه حتى بدايات الاحتلال الفرنسي، الذي قام بتوقيف نشاطه سنة 1841، لأنه كان يحث الناس على الجهاد³، إضافة إلى أوقاف بيت المال، وأوقاف الأولياء والصالحين، وأوقاف أهل الأندلس التي كان يديرها مجموعة من الفقهاء والعلماء، خصوصاً فقهاء الطريقة الصوفية القادرية، وكان الداوي قد أصدر أمراً سنة 1682م، بتكليف أحد المرابطين بالإشراف على هذا الوقف العظيم⁴.

كما وُجدت أوقاف مخصصة للثكنات العسكرية، يستفيد منها الجنود بالعطايا والهبات، وأخرى موجهة لخدمة المساجد لتوفير المستلزمات، كالسجادات والزيت للإضاءة، وهيبات للإمام

¹ سماعيل شامة، النظام القانوني الجزائري للتوجيه العقاري، دراسة وصفية وتحليلية، دار هوم، الجزائر، 2004، ص 11.

² عليوان أسعيد، المرجع السابق، ص 298.

³ عبد الكريم بوحميدة، نشأة وتطور نظام إدارة الوقف في الجزائر أثناء الحكم العثماني، مقال د مج، د ع، دت، ص 774-775.

⁴ بوسعيد عبد الرحمن، الأوقاف و التنمية الاقتصادية والإجتماعية بالجزائر، مذكرة ماجستير تخصص الدين والمجتمع، جامعة وهران، 2011-2012، ص ص 41-42.

والقائمين على المسجد، فضلاً عن أوقاف لتطوير المرافق العامة، كإصلاح الطرق و رعاية الفقراء والمساكين، بالإضافة لبناء الأبراج الدفاعية، وحفر الآبار، وتسخير بعض من أموالها لمساعدة أسر المجاهدين¹.

لقد شهدت الأراضي في أرياف بايلك الغرب قلة في وقفها، حيث أن القبائل وأفرادها كانوا ينفقون على المساجد والزوايا والمدارس والأضرحة والكتاتيب من أموالهم الخاصة، كما أن أراضيهم كانت تقع بعيداً عن المدن ومراكز قوة البايك، ما جعل السلطات عاجزة نوعاً ما في مراقبتها، وهذا ما جعل هذه القبائل تتمتع بحرية إستغلال أراضيها، كما أن وقوع هذه الأراضي على مسافة بعيدة عن مراكز السلطة، جعلتهم لا يقومون بوقفها، على عكس تلك الأراضي التي كانت قريبة من المدن والحصون والأبراج، حيث كانت السلطة أكثر حرصاً على السيطرة عليها².

كانت الأراضي في هذه الأنحاء البعيدة والمعزولة، يقتصر وقفها على الوقف الأهلي والعائلي الخاص، وكان يتم حبس الأرض في ظاهرها ليستفيد منها عامة الناس، لكن في الحقيقة كانت تُخصص لفائدة العائلة أو الفرد الواقف لها، وهذا كان يتم من باب الحذر والخوف من مصادرتها من قبل السلطة العثمانية، وهذه الطريقة كانت من الوسائل المتبعة، من طرف العامة وأبناء القبائل لحماية أنفسهم، من تسلط السلطات وجور الحكام³.

مع بداية الاحتلال الفرنسي، اكتشف الفرنسيون حجم الأموال الكبيرة، التي كانت تُدار من خلال الأوقاف، ما دفعهم إلى التفكير في الاستحواذ عليها، وبهذا الشأن أصدر الجنرال كلوزيل

¹ نادية إبراهيمي ، الوقف وعلاقته بنظام الأموال في القانون الجزائري، رسالة ماجستير في الحقوق، جامعة الجزائر، ص18.

² ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية....، المرجع السابق، ص62.

³ عبد الرزاق بوضياف ، إدارة أموال الوقف و سبل إستثماره في الفقه الإسلامي و القانون الجزائري-دراسة مقارنة- أطروحة دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2005-2006، ص 15.

مرسومين، الأول في 8 سبتمبر 1830م، والثاني في 7 ديسمبر 1830م، يقضيان بضم ممتلكات الأوقاف في الجزائر، إلى ممتلكات الدولة الفرنسية، ويُعتبر هذا القرار من أكبر السرقات، التي ارتكبتها فرنسا في حق الجزائريين، حيث عينت السلطات الفرنسية جيراردين مسؤولاً عاماً على هذه الممتلكات، بينما أبقّت على العمال والقيمين على الأوقاف، في مهامهم السابقة، التي كانت تقتضي جمع العائدات الوقفية وتسليمها إلى الخزينة الفرنسية¹.

4. أراضي الموات:

تعتبر أراضي الموات، أراضي بور وغير صالحة للزراعة، وأراضي مهجورة لا يوجد مالك خاص لها، وبالتالي تصبح هذه الأراضي مباشرة تحت تصرف الباي وأعوانه، حيث يمكنه منحها لمن يريد، أما إذا قام أحد الأشخاص باستصلاح هذه الأراضي، تصبح ملكاً له مباشرة، لأنه يعتبر هو من أحيائها وعمل على إستصلاحها².

في الغالب كانت الأراضي الموات، هي الأراضي التي تركها أصحابها لفترة طويلة، حتى أصبحت في نظر العامة بدون مالك محدد أو متصرف عليها، وتوجد هذه الأراضي عادة في مناطق نائية وبعيدة عن المدن والسكان، حيث تقتقر إلى المياه ولا يمكن استغلالها بشكل زراعي³، وإذا أراد أحد استغلال هذه الأراضي أو إحيائها، كان عليه الحصول على إذن من السلطات، وكان يُشترط دفع ضريبة سنوية، لخزينة البايلك مقابل إستغلالها، أما إذا كانت هذه

¹ الطاهر عمري، تأثر بنية المجتمع الجزائري بالتهجير والهجرة مع بداية الاحتلال، سلسلة أعمال ملتقيات مخبر الدراسات حول الرحلة والهجرة، جامعة قسنطينة، جوان 2010، ص42.

² Ernest Mercier, « La propriété en Maghreb selon la doctrine de malek », Journal Asiatique, Juillet-Aout ,1894,pp4-5.

³ ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية....، المرجع السابق، ص47.

الأراضي بعيدة جداً، فلا يحتاج من يريد استغلالها، إلى إذن من السلطات، ولا يدفع أي ضرائب أو غرامات، حيث كانت تعتبر أراضي مشاعة¹.

لقد انتشرت أراضي الموات في بايلك الغرب، بشكل كبير خلال عهد الدايات، خاصة في أواخره مع بداية القرن التاسع عشر، فقد أدى انعدام الأمن والاستقرار، إلى هجرة العديد من العائلات والقبائل، إلى مناطق الآمنة والبعيدة عن مناطق الحروب والنزاعات، وكان الناس يخشون من العزلة بعيداً عن قبائلهم، خوفاً من التعرض للغزو أو سلب أموالهم ومواشيهم، وربما قتلهم².

ثانياً: الأراضي ذات الملكيات الفردية الخاصة

هي الأراضي التي يملكها أفراد معينون بشكل مباشر، هؤلاء الأفراد يستغلون أراضيهم كما يشاؤون³، ولهم الحق في بيعها أو تأجيرها، كما أن هذه الأراضي تُورث لأبنائهم من بعدهم، وعلى هذه الأراضي تُفرض ضرائب رسمتها السلطات، وتُعد هذه الضرائب شرعية، حيث لا تتعدى ما أمر به الإسلام مثل العشور والزكاة⁴.

تنتشر هذه الأراضي في مختلف أنحاء البايك، لكن أكثرها كان يتركز حول المدن الرئيسية، خاصة في المناطق التي تتواجد فيها القبائل المتحالفة مع السلطة، مثل سهول الشلف

¹ توفيق دحماني، النظام الضريبي....، المرجع السابق، ص 88.

² ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية....، المرجع السابق، ص 47-48.

³ حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، ط1، الجزائر، 2008، ص 154.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية....، المرجع السابق، ص 43.

وغريس ووهران واليعقوبية، كما انتشرت أيضًا في المناطق التي تقع بالقرب من الصحراء، وفي الواحات أيضًا¹.

كانت مساحات هذه الأراضي تتميز بأنها أقل من مساحات الملكيات الجماعية، وكان مالكيها لا يستقرون دائمًا فيها، إذ كانت تخضع لعدة عوامل وظروف، وعادةً ما كانت الأراضي تُورث من الأب إلى الأبناء، حيث كان يتقاسم الأبناء مساحتها، وإذا كان أحدهم مضطراً للبيع، فيجب أن يعرضها على أفراد العائلة أولاً، وهذا العرف كان معمولاً به في الجزائر عامة، وإذا لم يوجد من العائلة من يشتري، كان يُعرضها على عامة الناس، كما كان موظفو الدولة حريصين على تملك الأراضي، التي حول المدن للأشخاص من أصدقائهم وأقاربهم².

انتشرت هذه الملكيات الفردية، في المناطق التي كانت لا تعترف بالسلطة العثمانية، مثل المناطق الواقعة في الونشريس، وجبال الظهرة، وأحواز تلمسان، والمناطق الحدودية مع المغرب الأقصى، وكذلك في المرتفعات الجبلية بين معسكر وتلمسان³.

إضافة فإن هذه الأراضي كانت غالباً عبارة عن بساتين مزروعة بمختلف أشجار الفواكه والحمضيات، مع بعض المساحات المخصصة لزراعة الحبوب والأعلاف، وفي المناطق الصحراوية، كما كانت هناك بساتين نخيل، أما من ناحية الملكية، فأغلب الأحيان كانت ملكاً للأغنياء وشيوخ القبائل وأعيانها وكبار موظفي البايك وضباط الإنكشارية وقادة فرق المخزن⁴.

¹ Emile Larcher, Traité élémentaire de législation Algérienne, Tom3, 2ème edition, Adolphe Jourdan, Alger, 1911, p7.

² Ernest Mercier, La propriété foncière chez les musulmans d'Algérie, Edition Leroux, Paris, sans date, p3.

³ دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص114.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لولايات.....، المرجع السابق، ص15-16.

لقد كانت الملكيات الفردية و الخاصة، تستحوذ عليها الكثير من العائلات أيضا، خاصة المرابطية منها مثل التي تقع بأحواز مستغانم و مازونة و معسكر و اليعقوبية و تلمسان ، فمثلا نجد أن أحفاد سيدي بوعمران مرابط هواره في سنة 1713م، يمتلكون أكثر من خمسين ألف هكتار، وعائلة المرابط سيدي محمد بن قادر، تمتلك أكثر من ثمانية آلاف هكتار، و عائلة سيدي أحمد بن يوسف الملياني تمتلك لأكثر من خمسة آلاف هكتار¹.

توسعت هذه الأراضي بشكل كبير في أواخر العهد العثماني، حيث أصبح كل موظفي البايك، وحتى العمال الصغار يمتلكون أراضي ذات ملكية خاصة، كما شهدت البلاد فائضا في الإنتاج الزراعي، وأصبحت المنتجات الزراعية تُصدر إلى مختلف المدن الأوروبية، وكانت الضرائب المفروضة على هذه الأراضي تقتصر على العشور، أي عشر إنتاج الأرض².

رغم الإنتاج الوفير لهذه الأراضي، فإن السلطات تضررت كثيرا من هذه الملكيات الخاصة، لأنها لا تدفع الكثير من الضرائب، بالإضافة إلى تدهور الوضع الاقتصادي، وضعف موارد الجهاد البحري، وكثرة الثورات والانتفاضات، وانعدام الأمن والاستقرار، فضلا عن استبداد البايات وفساد الموظفين في البايك، وما زاد من إنتشار هذا النوع من الملكيات، إصدار مراسيم تقضي بتمليك الأراضي، التي تستغلها قبائل المخزن، التي كانت تدر أموالا كبيرة للخزينة، من خلال الضرائب التي كانت تدفعها³.

نتيجة لذلك بدأت الملكيات الجماعية، التي كانت تشغل مساحات واسعة تتجزأ، وأصبحت كل قطعة أرض، مقسمة إلى أجزاء صغيرة يمتلكها فرد أو عائلة معينة، وقد قام العديد من أفراد

¹ توفيق دحماني ، النظام الضريبي....، المرجع السابق، ص75.

² دحماني توفيق، الضرائب في الجزائر (1206هـ-1282هـ / 1792م-1865م) دراسة تاريخية مقارنة، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2007-2008، ص164.

³ ناصر الدين سعيديوني، وراقات....، المرجع السابق، ص ص246-247.

المخزن، ببيع حصصهم في هذه الأراضي، لأشخاص من عامة الناس، ونتيجة لذلك بدأت قوة قبائل المخزن، التي كانت تعد الحارس الأول للسلطة، تتفكك وتضعف ما أثر سلبا على استقرار السلطة في آواخر هذا العهد¹.

المبحث الثاني: النشاط الزراعي لقبائل بايلك الغرب

لقد كان بايلك الغرب يعتبر من أغنى البايلاكات على مستوى إيالة الجزائر، لاحتوائه العديد من السهول الخصبة والواسعة، وعلى رأس هذه السهول، سهل غريس الغني بمنتجاته ذات الجودة العالية، فكان يعتبر الممون الرئيسي للبايلك، بالقمح والشعير ومختلف الحبوب²، بالإضافة إلى سهل تلمسان، الذي تتوفر فيه المياه الصالحة للزراعة، ما جعله ممون البايك الرئيسي بمنتجات الفواكه والحمضيات والخضروات³، كما نجد سهولا أخرى شهدت معارك محتدمة، بين قوات البايك والإسبان ومعاونيهم في وهران والمرسى الكبير، فكانت هذه السهول غير مستغلة لعدم استقرار الأوضاع فيها، إلا أنها استغلت بعد طرد الإسبان من وهران سنة 1792م، وأشهر هذه السهول هي التي تقع بالقرب من وهران، كسهل مسرغين وسهل المقطع وغيرهم الكثير من السهول، ونجد أيضا سهول مستغانم وسهل مليانة وسهل تنس⁴.

لقد كانت الزراعات تعتمد على نوعية التربة، بما يناسبها من زراعة معينة⁵، فنجد أن المنطقة الشمالية بصفة عامة، تتميز تربتها باللونين الأسود أو الأحمر، وفي هذه الحالة تعتبر

¹ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص ص136-137.

² أنظر الملحق رقم 8.

³ I.R. Desfontaines, Op cit, p164.

⁴ Thedenat: "Coup d'oeil sur la régence d'Alger, In A.M.A.E, Mémoires et Documents, Algérie , Volume 10, f192, p4.

⁵ أنظر الملحق رقم 10.

الأرض خصبة وقابلة لزراعة الخضر والفواكه والحبوب، لأن لونها يدل على تشبعها بالنيترات¹، ذلك لأنها كانت عبارة عن أحجار كلسية وطينية، ومع مرور الزمن تتفكك وتتحلل وبذلك تعطينا تربة زراعية غنية بالمواد اللازمة، كما أنها لا تحتاج إلى الكثير من المياه، لاحتوائها على نسبة منه².

يرى الباحثون في علم التربة، أن المنطقة الشمالية للبايلك والقريبة من الساحل، تتميز بأن مناطقها الجبلية أكثر برودة من المناطق السهلية، فالمناطق السهلية أحر، وتتعرض للجفاف واليباس بسرعة، إن لم تهطل الأمطار عليها، كما أن الأراضي التي يميل لون تربتها إلى الإحمرار، تصلح لزراعة الحبوب ومختلف الزراعات المروية، كما أنها لا تعطي منتوجات كبيرة أو ذات جودة جيدة، إذا استغلت في زراعة الأشجار المثمرة، بينما الأراضي التي تربتها تميل إلى السواد، فهي تصلح لمختلف الزراعات حبوب كانت أو خضر أو أشجار، وإنتاجها يمتاز بالوفرة والنوعية الرفيعة³.

أما المناطق المتاخمة للصحراء، فتعتبر أقل خصوبة وتفتقر إلى المواد العضوية، إلا أن بعض الزراعات تتوافق معها، فنجد زراعة القمح والشعير وبعض الزراعات المعيشية الأخرى كالحبوب الجافة، بالإضافة إلى زراعة النخيل، التي تتناسب مع التربة الصحراوية ومناخها⁴.

رغم اختلاف التضاريس والمناخ في المناطق الطبيعية الثلاث لبايلك الغرب "منطقة الساحل، منطقة الهضاب، منطقة الصحراء"، واختلاف غطاءها النباتي ونسبة المياه الباطنية ونسبة تساقط الأمطار، إلا أنها كانت كلها فلاحية وبامتياز، ما جعل البايلك خلال العهد العثماني،

¹ وليام شالر، المرجع السابق، ص 29.

² Louis De Baudicour, La colonisation l'Algérie ses Eléments, challamel aimé, libraire éditeur, Paris, 1856, pp3-4.

³ عبد الغني النابلسي، علم الملاحة في علم الفلاحة، مطبعة نهج الصواب، دمشق، 1299هـ - 1881م، ص ص 4-5.

⁴ عبد القادر الحليمي، المرجع السابق، ص ص 52-53.

يصدر مختلف المنتجات الزراعية إلى مختلف الدول الأوروبية، ويحقق اكتفاءً ذاتيًا في مجال الغذاء والأعلاف¹.

لكن مع مطلع القرن التاسع عشر، وانتشار الملكيات الخاصة والفردية للأراضي، واستحواذها على مختلف المنتجات، بالإضافة إلى انتشار الفوضى والثورات وعدم الاستقرار، لم تعد الزراعة تلبي الحاجيات السابقة للبايلك، حيث كان يوجه شطر من الإنتاج إلى الاستهلاك المحلي، والشطر الثاني يقسمه البايلك بين حاجياته وبين تصدير قسم منه إلى أوروبا، فأصبح الإنتاج في بعض السنوات وخاصة سنوات الجفاف والجراد، لا يسد حاجة الأهالي للغذاء، ما أدى إلى انتشار المجاعة، وزعزعة الوضع الديمغرافي للبايلك، إذ أنه في أواخر العهد العثماني فقد نصف سكانه².

ولقد كان سهل غريس، والذي تسيطر على أغلب أراضيه قبيلة الحشم، والذي كانت أغلب أراضيه زراعية، بالإضافة إلى تواجد مساحات رعوية غنية ومساعدة على تربية المواشي، فقد كان أهلا بالسكان، إذ تتواجد به حوالي ستون قرية، وكان يعتبر الممون الرئيسي للبايلك بمادة القمح، إلا أنه عرف زراعات أخرى خاصة الخضر والفواكه³.

نظرًا لأراضيه الزراعية التي كانت تستغل أغلبه، فقد كان رعاة المواشي يغادرونه منذ بدء عملية الحرث، ولا يعودون إليه إلا بعد أن تنتهي عملية الحصاد، إلا أن هذا السهل الغني كان يفتقر إلى وفرة المياه، وكانت زراعته أغلبها تعتمد على تساقط الأمطار، لذلك نجد أن أكثر من نصف مساحته مزروعة قمح وشعير، ذلك لأن هذه الأنواع من الزراعات لا تحتاج كثيرا إلى

¹ سهام بومعزة، الزراعة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني (924-1246هـ/1518-1830م)، أطروحة دكتوراه في

التاريخ و الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2019-2020، ص38.

² ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية....، المرجع السابق، ص ص87-88.

³ توفيق دحماني، النظام الضريبي....، المرجع السابق، ص ص14-15.

المياه الجوفية، أو مياه الأنهار وإنما تعتمد على تساقط الأمطار، فإن كانت نسبة التساقط عالية، كان الموسم الزراعي وفير الإنتاج¹.

كما أن تلمسان اشتهرت بسهولها الخصبة والغنية، ومنتوجاتها الوفيرة وذات النوعية الرفيعة، وأشهر هذه السهول سهل الحرطون، وسهل المنية، واللذين يقعان في أحواز تلمسان، بالقرب من المدينة، وسهلي الحنايا وزناتة، واللذان يبعدان عنها قليلا، إلا أن منتوجاتهما تصل إلى أسواق المدينة، وهما سهلان عرفا عنهما توفر المياه فيهما، وأراضيهما خصبة فانتشرت بهما الزراعات المروية، وهي الزراعات التي تعتمد على السقاية الاصطناعية، كمياه الأنهار والآبار الجوفية والسدود والوديان².

كما تعتبر سهول وهران أخصب السهول وأغناها في البايك، إلا أنها طول الفترة العثمانية لم تكن مستغلة إلا نادراً، وذلك للتواجد الإسباني في وهران، والذي جعل من هذه السهول، حدوداً بين القوتين العثمانية والإسبانية، ولقد شهدت هذه السهول أيضاً حروباً ومعارك وغارات بين الطرفين، ما جعلها تصبح منطقة طاردة للسكان، لانعدام الأمن فيها وخوف الأفراد على حياتهم، إلا أنها بعد سنة 1792م، وطرد الإسبان نهائياً من وهران والمرسى الكبير، رجعت لها الحياة بعد أن اقتطع الباي محمد الكبير، الكثير من الأراضي في هذه السهول لقبايل المخزن، وعلى رأسها قبيلتا الدواير والزمالة، التي وصلت الأراضي المقطعة لهما إلى أسوار وهران، كما أن سهولا أخرى تعد خصبة وغنية، ولكن تعتبر أقل أهمية من السهول سالفة الذكر، وهي سهول مستغانم وسهل مليانة وسهل تنس وسهل السرسو وسهل الهبرة، التي كانت أغلبها تحت سيطرة

¹ أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان 1830-1855، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 169.

² الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، إشراف و مراجعة وتحقيق الحاج الغوثي بن احمدان، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، 2011، ص 320.

القبائل المتعاونة مع الإسبان، كبنّي عامر وقيزة وشافع وغيرهم، خاصة سهول مستغانم التي كانت تقع أغلبها تحت سيطرة قبيلة مجاهر¹.

أولاً: الأنظمة الفلاحية السائدة في بايلك الغرب

لقد اشتهرت الزراعة في بايلك الغرب، بنظامين يعمل بهما الفلاح وتربطه بالأرض، فكان نظاما الخماسة والتوزيع سائدين في نظام المعاملات الزراعية:

1. الخماسة :

هو نظام يقوم على اعتناء الفلاح بالأرض وحرثها وبزرها وحصادها، مقابل أن يبقى لنفسه خمس إنتاجها، ويعطي لصاحب الأرض ومالكها الأخماس الأربعة المتبقية، ويعتمد في ذلك بأن يهبه المالك للأرض خمسة أسباب للمبادرة في العمل وهي: أن يوفر له الأرض والماء، والبذور المراد زراعتها، والآلات والأدوات الفلاحية المستخدمة لخدمتها، والحيوانات التي تحرث الأرض، ويحمل عليها المنتج ويستعملها أيضا في مختلف الأعمال الزراعية، وبذلك يتحقق الشرط الخامس، وهو العمل الذي يقوم به الفلاح، إذن فإن هذا النظام يعتمد على الفلاح وخبرته في الزراعة، مقابل رأس مال متجسد في الأرض والأدوات اللازمة من أجل إستغلالها، ما يعطي للفلاح الأسباب والإمكانات للإنتاج، وبذلك تكون العلاقة بينهما تكاملية².

بهذا النظام يمكن للخماس بمرور بعض السنوات، أن يحسن من وضعه الاقتصادي، كما يمكنه تربية بعض المواشي لإعاقته على تكاليف الحياة، إلا أن هذا المصير لا يكون لكل الخماسين على حد سواء، ففي سنوات الجفاف أو الجراد، يخسر الخماس الكثير بحيث يصبح

¹ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 187-188.

² إسماعيل بركات، دراسة و تحقيق الدرر المكنونة في نوازل مازونة من مسائل الطهارة الى مسألة النزاع بين طلبة غرناطة، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، 2009-2010، ص 37.

خمس من الإنتاج ضئيلاً، وفي بعض الحالات لا يحصل على شيء، ما يزيد في عنائه، وهذا ما دفع بالكثير من الذين اشتغلوا بالخماسة، إلى تركها والعودة إلى حضن قبائلهم، أو يتوجهون إلى مهنة الرعي، وهذا ما حدث فعلاً في أواخر العهد العثماني، حين انتشرت الكوارث الطبيعية ما أثر بشكل كبير في الإنتاج الزراعي¹.

2. التوزيع :

هي شكل من أشكال التآزر والتآخي والتعاون بين أفراد القبيلة الواحدة، فيتشاركون كلهم في حرث أرض شخص منهم، بالإضافة إلى بذرها وحصادها، وهو ما يقلل من تكلفة إستغلال الأرض، إلا أن التوزيع تغيرت في مفهومها، إذ أصبح البايك يفرض على أبناء قبائل الرعية، التي تجاور أراضيها العمل فيها دون مقابل، وكان العمل فيها شاقاً ومضنياً، هذا كله من أجل إرضاء السلطات، ويعد هذا النظام الذي يستخدمه البايك، مجحفاً ومن مظاهر الجور والظلم العثماني في الجزائر، وهذا ما دفع بالكثير من القبائل إلى الهجرة والابتعاد عن أراضي البايك، والتي فيما بعد لم تجد من يخدم هذه الأراضي، فلجأت السلطة إلى إصدار مراسيم، تقضي بتمليك قبائل المخزن على هذه الأراضي، ما زاد في عجز الخزينة وما زاد الوضع سوءاً².

ثانياً: الأدوات والوسائل المستخدمة في الزراعة

لم تكن الزراعة في بايلك الغرب خلال عهد الدايات، تعتمد على آلات ووسائل متطورة، ولم يكن في وسع الفلاح أن يمتلك العديد من الآلات والأدوات المتطورة في زراعته، إنما كان يعتمد على أدوات بسيطة، كما أن مسألة ري الأراضي وسقايتها، كانت مرتبطة بتساقط الأمطار،

¹ ناصر الدين سعيدوني ، دراسات تاريخية في الملكية....، المرجع السابق، ص356.

² كمال بن صحراري، المرجع السابق، ص 189-190.

فكانت الإنتاجية تعتمد على نسبة التساقط، وهي الوحيدة التي تتكفل بجودة الإنتاج ووفرتها¹. لقد اعتمد المزارعون في بايلك الغرب، على وسائل وأدوات تقليدية من أجل إستغلال الأراضي وزراعتها وهي كالاتي:

1. المحراث:

هو الأداة والآلة المستخدمة من أجل حرث الأرض، وكان المحراث خلال عهد الدايات تقليدياً جداً، بحيث كان يُستعمل خلال العصور السابقة²، وكان خشبياً مما يعرضه إلى الإلتاف، إلا أن عملية إصلاحه لا تستغرق وقتاً، كما أن فعاليته في الحرث ضعيفة، إلا أنه خلال هذا العهد، كان يعتبر الأداة الأولى المساعدة للفلاح، ويعتمد في عملية الحرث على رأسه الحديدي، الذي يعمل على تقطيت التراب، فغالبا ما كان يتشكل كله من الخشب المتين، ولا يحتاج إلى يد عاملة كثيرة، فهو بسيط في تركيبته ويجره ثور أو بغل، وإذا كانت الأرض صلبة يستخدمون ثورين أو بغلين، فيقلب الأرض بعمق عشرة سنتيمتر³. إن هذا المحراث يعتبر بسيطاً من حيث تركيبته، فهو يتشكل من جزأين ولا يمكن الاستغناء عن أي جزء منهما، وعادة ما يكون الخشب المستعمل في صناعتها، من أشجار البلوط أو الزيتون، وفي الأسفل يقع الرأس الحديدي أو الخشبي، ويبلغ طوله حوالي 15 سنتيمتر، ما يساعد في قلب التربة وتكسيورها، كما أن هذا المحراث ببساطته وسهولة إصلاحه عند الإلتاف، كان سعره في المتناول أيضاً، كما أنه في أغلب الأحيان لا يتعمق في الأرض كثيراً، فحرثه سطحي لا يتجاوز عشرة سنتيمتر، مما يجعل الأرض تحافظ على مكوناتها الأساسية ولا

¹ Xavier Yacono, « La Régence d'Alger en 1830 d'après des commission de 1833-1834 », Revue de l'occident musulman et de la méditerranée , N°2, 1966, p233.

² انظر الملحق رقم 6.

³ محمد الأمين بزاز، تاريخ الأوبئة و المجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992، ص30.

تتعرض للإجهاد، هذا ما جعل الأراضي تُستغل كل سنة، وهو بذلك يعمل بعكس المحراث الأوروبي، الذي يتعمق في الأرض فيجهدا عند زراعتها، فتأتي بمنتجات وفيرة في السنوات الثلاث الأولى، ثم تعجز الأرض عن الإنجاب، ما دفع بالمزارعين الأوروبيين إلى استخدام الأسمدة بشكل كبير، من أجل الحصول على الإنتاج، وبذلك أصبحت قطعة الأرض في أوروبا تستهلك الكثير من المصاريف، وأضعاف ما تستهلكه قطعة مماثلة لها في الجزائر¹.

2. المنجل:

هي أداة مهمة في عملية الحصاد، ويعتبرها الفلاح الأداة الأولى المساعدة له مثلها مثل المحراث، فبواسطتها تتم عملية الحصاد ويستخدم كثيرا في حصاد منتج القمح والشعير، وتعتبر وسيلة تقليدية وبدائية اعتمد عليها الفلاح في مختلف العصور، وكانت أسعارها في متناول الجميع، وتعتبر الوسيلة الأمثل والكفيلة بمهمة الحصاد².
لقد كان شكل المنجل هلاليا، وكانت طريقة الحصاد تعتمد على إحناء حزمة من السنابل وقطعها بسنانه الحديدية، وتوضع السنابل في أكياس أو رداء من القماش، وتستمر عملية الحصاد عدة أيام، وكانت عملية مضيعة، نظرا لعدم توفر الوسائل المتطورة³.

3. الفأس:

يستخدمه الفلاح لتسهيل عملية الحرث والبذر، فكان يستعمل في شق السواقي للري، وحرث

¹ G. Dervin, L'Algérie: son agriculture, son Commerce , son industrie, sa colonisation, son avenir ,Epernay, Imprimerie Du Nord-Est ,1902,pp20-21.

² محمد الأمين بزاز، المرجع السابق، ص30.

³ هاينرش فون مالتيسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، تر أبو العيد دودو، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص44.

الأماكن التي عجز المحراث على التعمق فيها، كما كان يستخدمه الفلاح في حفر الآبار والمطامير¹.

4. الأسمدة:

هي المواد العضوية التي يضيفها الفلاح للأرض المحروثة، فيزيد من خصوبتها ومصدرها يكون من الحيوانات كالأغنام والماعز والبقر والبالغ ومختلف الدواجن، وغناؤها بالمواد العضوية يساعد في زيادة الإنتاج، وأيضًا في زيادة جودة المحصول، كما تساهم عملية التسميد في إثراء الأرض التي خراجها قليل، وهذا ما جعل من عملية التسميد ضرورة لتكملة العملية الزراعية، والحصول على المأمول منها².

كما كان الفلاحون في العهد العثماني، يستصلحون الأراضي الملحية باستخدام الأسمدة الطبيعية، لأنها مصدر غني بالمواد العضوية، التي لا نجدها في الأراضي الملحية، ويختلف السماد باختلاف الحيوانات المستخلصة منها، فنجد أن سماد الدواجن يعتبر أجودها وأغلاها، كما أنه توجد زراعات يختص كل سماد لها، من أجل الحصول على الإنتاج المناسب، كما أن هناك بعض الزراعات، التي يمكن أن تدمج فيها مختلف الأسمدة، ولقد صُنفت الأسمدة من حيث الجودة، فتأتي الدواجن في المرتبة الأولى، وتليها فضلات الإنسان، ثم روث الحمير يليه الماعز ثم الغنم، ويعتبر روث البقر، أقل جودة بين الأسمدة المخصصة للأرض³.

¹ سهام بومعزة، المرجع السابق، ص208.

² موسى هواري، تقنيات الزراعة ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين (من القرن 1هـ-7م إلى القرن 7هـ-13م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر 2، 2015-2016، ص38.

³ نفسه، ص39-40.

لقد استُخدمت أيضًا أسمدة غير مستخلصة من الفضلات، كالتبن والرماد، ويمكن دمجهما مع الفضلات الحيوانية أيضًا، وهذا ما يسمى بالسماد المولد أو المركب¹.

5. المطامير:

هي جمع مطمورة تستخدم في تخزين المواد الغذائية، خاصة الأساسية منها كالحبوب والزيوت، وتكون تحت الأرض على شكل مخابئ، يستمر تخزين المواد الغذائية بها، لفترة طويلة تمتد من الفصل إلى العام، انتشرت في بايلك الغرب بكثرة خلال عهد الدايات، وتعد طريقة ناجحة في الحفاظ على المنتج وحمايته من الفساد والضياع².

كما أن حفرها ليس بالأمر اليسير، فتحتاج إلى معرفة وخبرة في حفرها، كما أنها من ناحية الفم، تكون ضيقة ثم كلما نزلنا يزيد اتساعها، كما أن جدرانها في الأسفل مطينة أو مبنية بالحجارة، ثم يقومون على ترطيب جدرانها لكي لا تتناثر منها الأتربة، ما يعود على المواد المخزنة بالضرر، كما أن التربة التي تحفر فيها المطمورة تكون مختارة بعناية، فأغلبها يكون في الأراضي البيضاء المستحصفة، والتي تتميز بالبرودة والجفاف وانعدام الرطوبة، التي تعد سببًا رئيسيًا في إتلاف المحاصيل المخزنة، وكذلك تحفر في الأراضي الصخرية الصلبة³.

6. الحيوانات المستخدمة في الزراعة:

تُعتبر من أهم الوسائل في العملية الزراعية، فنجد أن الفلاحين يستخدمون العديد من الحيوانات، على رأسها الحمير والبغال والأبقار والخيول، وذلك كله من أجل أن تساعد في تحصيل إنتاج وفير، فمن خلال استغلال جهودها، يستطيع الفلاح تسهيل عملية إستغلال

¹ نفسه، ص 42.

² سهام بومعزة، المرجع السابق، ص 208.

³ موسى هوارى، تقنيات الزراعة ببلاد المغرب....، المرجع السابق، ص 16-17.

الأرض، كما أنها تساعده في كسب الوقت وزراعة مساحات أكبر، ولقد استخدمت بداية للاستفادة من فضلاتها، لتسميد الأرض وتخصيبها، وقد كانت فضلاتها لها قيمة سوقية بين الفلاحين¹، كما أن الحيوانات استخدمت في حرث الأرض، إذ هي التي تجر المحراث، خاصة الثيران التي كانت توفر الوقت وتحرث مساحات أكبر².

كما أنها استخدمت في سقاية الأرض، فكانت هي التي تدير السواني، التي تعتبر آلة استخراج المياه من الآبار، وكثر استعمالها كثيرا خلال العهد العثماني، خاصة في مناطق سهول الشلف، واستخدمت فيها الثيران كثيرا لقوتها، ومن أجل استخراج كميات أكبر من المياه³.

ولقد كانت الحيوانات أيضا تستخدم في عملية الدرس، وهي عملية خاصة بالقمح والشعير، وهو أن يُستخلص الحب من السنابل وتفرق عن بعضها، فيؤتى بالمحصول ويجمع في مكان واحد، ويأتون بالبهائم كالحمير والأبقار، ويجعلونها تدوس على المحصول من السنابل، فيساهم ذلك في تسهيل عملية الدرس، وكانت أيضًا تستخدم في نقل المحاصيل إلى المخازن والمطامر والأسواق⁴.

7. السقاية:

لقد تعددت خلال عهد الدايات، طرق سقاية الأراضي الزراعية، ولقد كان هطول الأمطار المصدر الأول والرئيسي للكثير من الأراضي خاصة الصحراوية، فسقوط الأمطار يتبعه جريان

¹ موسى هواري، استخدام الحيوانات في الزراعة ببلاد المغرب خلال الفترة الإسلامية، مجلة الدراسات التاريخية، مج13،

ع1، 2012، ص37.

² نفسه، ص39.

³ نفسه، ص43.

⁴ موسى هواري، تقنيات الزراعة ببلاد المغرب....، المرجع السابق، ص208.

في الوديان، فتصل إلى مناطق فتفيض بها، حتى وإن لم تسقط الأمطار بها، وقد اشتهرت منطقة سهل غريس، بالسقاية من وادي غريس حين تتساقط الأمطار، فيعمل الفلاحون على حفر سواقي من الوادي إلى أراضيهم، إلا أن هذا النوع من السقاية يعتمد على كمية الأمطار المتساقطة، فإذا كانت ضئيلة كان المحصول ضئيلاً أيضاً¹.

من أشهر الوديان في بايلك الغرب المستخدمة والمستغلة في سقاية الأراضي الزراعية هو وادي الشلف، والذي يبلغ طوله 725 كم، وقد بنى العثمانيون قنطرة وادي الشلف سنة 1814م، وعندما تسقط الأمطار بغزارة خاصة في فصل الشتاء، يبقى جارياً ومتدفقاً لمدة أسابيع وربما أشهر، وهذا ما يمكن الفلاحين من سقي الأراضي الواقعة على ضفافه وطول سهل الشلف².

أيضاً يعتبر وادي تافنة من الأودية المستغلة في السقاية، خاصة وأنه يمر على الكثير من المناطق، كما أنه يعد ثاني أطول وادٍ في البايك، ويبلغ طوله حوالي 170 كم، وهو ينبع وينحدر من جبال تلمسان ومن مرتفعات تزيد على ألف وخمسمائة متر، ويصب في مدينة بني صاف على البحر الأبيض المتوسط، وكان الفلاحون يستغلونه في سقاية الأراضي بأحواز تلمسان³. كما يعتبر وادي الرحي الممون الرئيسي لوهران وأحوازا وسهولها، وما يميزه أنه دائم الجريان ومياهه عذبة، ما انعكس على جودة المنتجات بالسهول الوهرانية، كما أنها عرفت بوفرة الإنتاج⁴.

¹ نفسه، ص ص157-158.

² كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص192.

³ بسام العسلي، سلسلة جهاد شعب الجزائر، ج1، دار النفائس، ط3، 1986، ص97.

⁴ فتيحة رحيم، النافورات بالعناصر الدينية والمدنية بالجزائر خلال العهد العثماني-دراسة أثرية فنية-، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2، 2010-2011، ص12.

يدعى هذا الوادي أيضا بوادي رأس العين، بالإضافة إلى أودية ثانوية لكنها مهمة للمناطق التي تمر بها، كوادي الهبرة ووادي المقطع ووادي مسرغين ووادي بوتليليس، كما أن تلمسان وأحوازا كانت بها أودية صغيرة، إلا أنها كانت تستخدم في سقاية أشجار الفواكه والحمضيات، وكانت تنبع من الجبال والمرتفعات، وتتشكل بالتقاء مجاري الكثير من الينابيع، وكان مذاق مياهها عذبا، ف اتخذت لسقاية الأراضي والحيوانات والناس أيضا¹.

كذلك اعتمد الفلاحون في سقاية أراضيهم، على المياه الجوفية عن طريق العيون والآبار، التي تختلف في بعدها الباطني عن سطح الأرض من منطقة إلى أخرى، فنجد أن المناطق الشمالية في البايك، مياهها قريبة إلى سطح الأرض لقربها من مجاري الأودية والأنهار، كما أنها تشهد تساقطا معتبرا من الأمطار، غير أن المناطق الجنوبية والمتاخمة للصحراء، تبتعد المياه في أعماقها لتكون عملية حفر الآبار فيها أكثر صعوبة، إلا أنها تنتشر فيها بكثرة، لأنها مناطق تعتبر جافة بالإضافة إلى قلة تساقط الأمطار فيها، كما أن أوديتها جافة أغلب أيام السنة، فيضطر ساكنوها إلى حفر الآبار، باعتبارها الحل الأمثل لأزمة نقص المياه².

إن المياه الجوفية تنقسم إلى قسمين: الأول مياه جوفية متجددة وتقع في المناطق الشمالية، وتتجدد بتجدد تساقط الأمطار، ومياه جوفية غير متجددة تقع في المناطق الصحراوية والمتاخمة لها، ومن أسباب عدم تجدها قلة الأمطار، فيصيب عيونها وآبارها الجفاف، وتعتمد القبائل في هذه المناطق، على التنقل من أجل حفر آبار جديدة تلبي إحتياجاتهم من المياه³.

¹ يحيى بوعزيز، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص 31-32.

² الزوكة محمد خميس، جغرافية المياه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998، ص 268.

³ باشا محمد، التعاون المغربي في مجال الموارد المائية وترشيد إستغلالها، الجمعية الجغرافية الكويتية، مج 2، 1995، ص 510-511.

كما أن للمياه الجوفية سلبية، على رأسها ارتفاع تكاليف حفر الآبار، وأنها معرضة أيضًا لارتفاع نسبة الملح فيها، كما أنها غير مضمونة لأن نفادها يمكن أن يحدث في أي وقت، خاصة وأن استهلاكها كبير في المناطق الصحراوية الجافة والحارة، مما يعرضها إلى الجفاف ونضوب الماء فيها بسرعة¹.

كذلك استُخدمت السدود في السقاية، إلا أن هذه السدود كانت في أغلبها صغيرة وضعيفة، فكانت عبارة عن بعض الحواجز الطينية والخشبية، التي كانت سرعان ما تتهار في حال قدوم الفيضانات، واتخذها الفلاحون كخزان للمياه من أجل سقاية المزروعات ولأغراض أخرى، إلا أنه كانت هناك سدود كبيرة وقوية، لكنها كانت قليلة ولا تفي بالغرض المأمول، وعلى رأسها سد وادي مينا، بالقرب من غليزان والذي يسقي حوالي ثمانية آلاف هكتار، وسد وادي واصل الذي يشق أغلب أراضي إقليم تيهرت الجغرافي، كما يمر على الكثير من القرى ومواطن القبائل، والذي أصبح عليه ستة سدود سنة 1852م خلال الحقبة الاستعمارية².

ثالثًا:المنتجات الزراعية

بالرغم من أن الفلاحين في بايلك الغرب، كانوا يعتمدون على وسائل وأدوات تقليدية في زراعتهم، إلا أن الإنتاج كان وفيرًا خلال عهد الدايات، وتتوّعت المحاصيل فحقق البايك اكتفاءً ذاتيًا وأمنًا غذائيًا، كما كان يصدر إلى الدول الأوروبية الفائض من الإنتاج، خصوصًا الحبوب وعلى رأسها القمح والشعير، وأيضًا كانت شعبة الفواكه والحمضيات مزدهرة ورائجة أيضًا،

¹ صبري فارس الهيثي وحسن أبو سمور، جغرافيا الوطن العربي، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 1999، ص90.

² كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص192.

بالإضافة إلى إنتاج الخضر والبقوليات أيضًا، كما انتشرت زراعات التبغ والأعلاف والحشائش الطبيعية¹.

1. إنتاج الحبوب:

لقد كانت الحبوب في عهد الدايات، بمثابة عمود الزراعة وكاھلها في البايك، وذلك لأنها تعتبر الغذاء الأساسي لكل العامة والخاصة في البايك، زيادة على أنها المورد الأول رفقة الضرائب للخرينة العامة في البايك، كما أن البايات ورجال السلطة، شجعوا على زراعتها ووفرتها، لأنها كذلك تزيد من قيمة صادرات الدولة، خاصة بعد ضعف ونقص موارد الجهاد البحري، ومن أهم الحبوب المزروعة في هذا العهد القمح والشعير والأرز والشوفان والذرة، كما أن بعد عملية الذر، نتحصل على ما تبقى منها ليكون بذلك علفًا للمواشي، كما أن الحبوب تعد من المصبرات، ذلك لأنها لا تفسد بسرعة، وإن وجدت المطامر يمكن تخزينها حتى لسنوات².

لقد كانت المناطق الساحلية ومنطقة الهضاب في البايك، تنتج أجود أنواع القمح على مستوى العالم، ويصنف أنه متفوق على قمح سردينيا المشهور في تلك الحقبة، وكان القمح الجزائري يغزو الأسواق في مختلف المدن الإيطالية، وتصنع منه العديد من العجائن³. نظرًا لجودة القمح في البايك، أخذت السلطات بتدابير لضمان سيطرتها على المناطق التي تنتج القمح بوفرة خاصة سهل غريس، الذي كانت أكثر مساحته مزروعة لإنتاج القمح، وبدرجة أقل سهول وهران ومعسكر والشلف ومليانة وقلعة بني راشد ومستغانم وتلمسان، و لقد قُدرت مساحة الأراضي المزروعة بالقمح في بايلك الغرب خلال السنوات الأخيرة من العهد العثماني،

¹ موسى هوارى، الزراعة ببلاد المغرب....، المرجع السابق، ص ص208-209.

² نفسه، ص ص208-209.

³ وليام شالر، المرجع السابق، ص30.

بحوالي 3500 جابدة، أي ما يعادل 35 ألف هكتار، مع العلم أن مساحة الجابدة تساوي 10 هكتارات¹.

كما كانت الأراضي المزروعة، متنوعة في زراعة أنواع القمح التي كانت تصلح زراعتها في البايك مثل قمح البحر الأسود وقمح بحر البلطيق، وكان يتناسب مع الأراضي الجزائرية، ويأتي بجودة عالية حتى إنه أجود من الذي يزرع في بلاده الأصلية². لقد كان أغلب أبناء القبائل خلال عهد الدايات، له قطعة أرض سواء كانت تابعة للبايلك أو أراضي العرش أو أراضي الملكيات الخاصة، فكان يزرعها كلها أو جزء منها قمحًا، وهذا يعتبر إرثًا ورثه الجزائريون جيلًا بعد جيل، وذلك من أجل تحقيق الأمن الغذائي الذاتي له ولعائلته، إلا أنه لم يكن يهتمهم الأمر كثيرًا، فقد كانوا في أغلبهم، يستغلون أراضي صغيرة، وحسب فارلي جولي الذي يرى أن الجزائريين أشخاص يميلون إلى الدين كثيرًا، وابتعدون عن حب الدنيا، وأنهم يرون كمية إنتاجهم قضاءً وقدرًا من الله عز وجل، كما أن مطالبهم في الحياة صغيرة، فلا يسعى أحد أفرادهم، إلا لزراعة أرض صغيرة تطعمه وتكفيه، وتبعده عن شبح المجاعة³.

لقد قدر بوتان في تقرير له سنة 1808م، أن مردود الهكتار الواحد من الحبوب يتراوح بين ثمانية عشر وستة عشر قنطارًا، وهذا يعتبر مردودًا متوسطًا، لكن الأراضي المزروعة منتشرة في كل الأرجاء، وأن أغلب الأفراد يستغلون الأراضي للزراعة⁴. كما أن الشعير كان بمثابة المحصول الثاني بعد القمح، وكانت زراعته منتشرة أيضًا، إلا أن

¹ ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2014، ص ص174-175.

² Larfeuil, Guide du colon en Algérie , et description des production de ce beau pays , Paris, 1848, p17.

³ Varlet Jules ,Les céréales d'Algérie, De Giralt(Alger-Mustapha),1900,p11.

⁴ بلبروات بن عتو، الباي محمد الكبير.....، المرجع السابق، ص309.

أراضيه تكون أقل خصوبة من الأراضي التي تزرع قمحاً، وهو يقارب مردوده في الهكتار مردود القمح، إذ في متوسط إنتاجه في مناطق عديدة، هو تسعة قناطير للهكتار، بينما نجد مردوبيته تزيد في مناطق مثل سهل غريس وسهول وهران، وتصل مردودية الهكتار فيها إلى أربعين قنطاراً¹.

يُعد الشعير أكثر استهلاكاً بالنسبة للجزائريين، كما أنه يساعدهم في عملية التخزين، فهو جاف أكثر من القمح، كما أن زراعته أقل تكلفة بالإضافة فهو مقاوم للجفاف، وقد شهدت الجزائر سنوات وفرة في الإنتاج، خاصة بعد تحرير وهران الثاني سنة 1792م، حيث استُغلت السهول التي كانت بيد الإسبان وحلفائهم من قبائل المغاطيس، بالإضافة إلى تساقط كميات كبيرة من الأمطار، فأضحت سنابل القمح والشعير في طولها تصل قامة الرجل، حتى أصبح الكثير من الفلاحين، لا يبالون بحصاد السنابل القصيرة لكثرة السنابل الطويلة، وبعد عملية الحصاد، تترك السنابل الصغيرة مع التبن لترعى فيها المواشي².

لقد أعتبر البايك مصدراً للقمح بامتياز للموانئ الأوروبية خاصة مرسيليا³ لقد تمكن البايك من تصدير 150 ألف شحنة من الحبوب إلى أوروبا سنة 1808م، خلال حكم الباي مصطفى بوشلاغم، إضافة إلى هذا فقد شجع الباي محمد الكبير إنتاج الحبوب، وذلك بعد أن فتح باب تصديرها إلى أوروبا، ولقد بقيت صادرات البايك مرتفعة، وبكميات كبيرة إلى غاية سنة 1815م⁴.

¹ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص58.

² حمدان خوجة، المرأة... المصدر السابق، ص33.

³ انظر الملحق رقم14.

⁴ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص58.

لكن البايك بعد سنة 1815م، شهد اضطرابات عديدة كما شهدت الجزائر عامة هذه الاضطرابات، فقد شهدت البلاد العديد من الثورات والانتفاضات، بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية التي حلت بالبلاد وكانت متتالية، كما انتشرت الأوبئة والأمراض، هذا كله ساهم في زعزعة الإنتاج الزراعي، وعلى رأسها الحبوب، فلم يتجاوز إنتاج الجزائر عامة خلال السنوات الأخيرة من عهد الدايات، 7.5 مليون قنطار من القمح، كما أن الجفاف أضعف مردودية الأرض، فأصبح الهكتار لا ينتج سوى ما بين سبعة وخمسة قناطير من القمح أو الشعير¹.

لقد كانت الأراضي تختلف في القدرة الإنتاجية لها من منطقة إلى أخرى، وهذا راجع إلى الظروف والعوامل الاقتصادية والسياسية، فنجد أن أراضي القبائل، التي تخضع للحكم الإسباني أقل إنتاجية من أراضي القبائل في سائر أرجاء البايك، فنجد أنها لم تكن تنتج سوى نصف ما كانت تنتجه بعد تحرير وهران الأول 1708م، وذلك لأن الإسبان كانوا دائماً حريصين على عدم توفر الإنتاج لدى هذه القبائل، من أجل أن تبقى في حاجة إليهم، مما يعزز التحكم فيها واستعمالها في خدمة مصالحهم، كما نجد أن الأراضي الخاضعة لحكم الإسبان لا تنتج أكثر من عشرة فناقات² من القمح، مقابل فناق واحد يتم بذره، ومن الشعير لا تتجاوز 15 فناقاً مقابل فناق بالنسبة لأراضي قبيلة شافع، أما أراضي قبيلة أولاد موسى بن عبد الله فكانت تنتج من الشعير 30 فناقاً ومن القمح 15 فناقاً، أما أراضي قبيلة مجاهر فكانت تنتج 16 فناقاً مقابل فناق واحد من الشعير، و10 فناق مقابل واحد من القمح، وكانت أراضي أولاد إبراهيم أفقرها، فكانت تنتج خمسة فناقات مقابل فناق للبذر، سواء من القمح أو من الشعير³.

¹ نفسه، ص58.

² فناق: هو وحدة للوزن يعتمد عليه العثمانيون و يعادل 1.2 كغ (1200 غرام).

³ كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص195.

بعد تحرير وهران الأول عملت السلطات، على رفع الإنتاج ودعم الفلاحين في هذه الأراضي، كما اتخذ الباي مصطفى بوشلاغم لنفسه منزلا في ريفها، وأصبحت تنتج 30 فناءً مقابل واحد من الشعير، و25 فناءً مقابل واحد من القمح، وهذا ما يبرز تحسن مردودية الأرض، بعد استرجاعها من الإسبان وإجراء إصلاحات واسعة وكبيرة عليها¹.

كما شهدت أراضي البايك زراعة الأرز، وإن كان أقل أهمية من القمح والشعير، فقد شهدت بعض المناطق زراعته لأنه يلائم مناخها، فهو لا يزرع في منطقة تقل درجة الحرارة فيها عن 24 درجة مئوية، وأن يزرع في مناطق تكون فيها نسبة تساقط الأمطار عالية تتجاوز 100 ملم في السنة، كما أنه يزرع في أراضٍ مسطحة ومبسوطة لتغمره المياه في فترة نموه².

كانت سهول مليانة وضفاف وادي مينا وبعض الأراضي بأحواز معسكر، تنتج الأرز بكميات معتبرة، حيث قُدر إنتاجها في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، بنحو ستة آلاف قنطار من الأرز سنوياً، وكان يشكل بايلك الغرب جل إنتاج الأرز في البلاد، بحيث حققت البلاد اكتفاءها الذاتي من هذه المادة الغذائية، ولم تصبح في حاجة لاستيراده، بعد أن كانت تستورده من مصر³.

كما أن زراعة الأرز غير متعبة كثيراً وغير مكلفة مثل القمح، كما أن موسمه الزراعي لا يتجاوز أربعة أشهر، بداية من مطلع شهر ماي إلى غاية حصاده خلال شهر أوت، إلا أن الأرز الجزائري كان يعتبر أقل جودة من الأرز المستورد من مصر، إلا أن تحقيق الاكتفاء قلل من فاتورة الاستيراد، كما كانت أسعار الأرز في الأسواق المحلية في متناول الجميع، كما انتشرت أواخر العهد العثماني زراعته في سهول وهران ومستغانم ومعسكر، على غرار مليانة

¹ نفسه، ص195.

² كمال مورييس شربل، المرجع السابق، ص34.

³ Venture dr Paradis, Op cit, p24.

وضفاف وادي مينا اللتين تعتبران المصدر الأول للأرز في البلاد، إلا أن أرز مليانة عُرف عنه الجودة، بحيث يعتبر أجود نوع في البلاد، وكانوا يشبهونه بأرز مصر¹.

إلا أن الأرز في مرحلة نموه يحتاج إلى الكثير من المياه لسقايته، كما أنه قبل حرق الأرض التي سيزرع فيها يتم سقيها لعدة أيام لتناسب بذوره، لذلك كانت زراعته محصورة في المناطق الساحلية، خاصة التي تمر بها الأودية الجارية أغلب أيام السنة كوادي الشلف، كما أن سهول البايك يتواجد بها أودية صغيرة، ما ينتج عنها عندما تتساقط الأمطار تيارات مائية تساعد في سقاية حقول الأرز².

كما شهد البايك رواجًا في زراعة القطن، فكانت سهول الشلف ومستغانم وسهل الهبرة وضفاف وادي مينا، تعتبر المنتج الأول للقطن في البلاد، فكان يوجه للاستغلال المحلي وإلى مصانع صنع الملابس، بينما كانت سهول وهران منفردة بزراعة بذور الكتان، ووصل إنتاجها أواخر العهد العثماني إلى خمسة آلاف قنطار³.

انتشرت أيضا زراعة الخرطال، ويعتبر علّقا مهماً للمواشي لاحتوائه على الكثير من المواد، التي تساعد في تغذية أفضل للمواشي، كما أنه يقدم للأبقار ليحسن إنتاجها من الحليب، ومن زراعات الحبوب أيضًا زراعة الذرة، التي كانت تنتشر في الهضاب والسواحل والمناطق الجبلية أيضًا، وأساس زراعتها توفر المياه وتساقط الأمطار بنسب معتبرة، لذلك لا نجد زراعتها رائجة

¹ محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984، ص59.

² M. Rozet, Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupé par l'armée française en Afrique , T3, A. Bertrand lib, Paris, 1833, p213.

³ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص196.

في جنوب البايك وصحرائه، ويختلف مردود الهكتار فيها حسب نسبة تساقط الأمطار ووفرة المياه¹.

2. منتجات الخضر والبقول:

تُعتبر الخضروات والبقول، ثاني أهم المحاصيل الزراعية بعد الحبوب، وذلك لحاجة الناس الماسة إليها، فهي تشكل عنصراً أساسياً في نظامهم الغذائي، وتشمل البقوليات العديد من المحاصيل، كالقول والحمص واللوبيا والعدس والفاصوليا، فكان استخدامها شبه يومي، مما يبرز أهميتها وقيمتها، كما أنها تُعتبر مساعدة للتربة وتعمل على تخصيبها، وفي بعض الأحيان يمكن الاستغناء عن الأسمدة في زراعتها، مما يبرز أهميتها في الدورة الزراعية، والحفاظ على خصوبة الأرض بل وزيادتها².

تُعتبر الخضر أيضاً في مرتبة البقوليات، لحاجة الناس لها في نظامهم الغذائي، ولما تحتويه من فوائد صحية كثيرة، وكان الفلاحون في بايلك الغرب يزرعونها نظراً لسرعة نموها، إذ لا تأخذ سوى بضعة أشهر ليكون محصولها جاهزاً، كما أن أسعارها كانت مرتفعة على أسعار الحبوب والبقوليات، ما يعود على المزارعين بالأرباح الوفيرة في مدة أقصر، علاوة على كونها مطلوبة في السوق لوفرة المستهلكين لها³.

لقد شهدت الفترة الأخيرة من عهد الدايات، ازدهاراً كبيراً في زراعة البقول والخضر في مختلف المناطق، حيث كانت هذه الأصناف من الزراعات، توجد أينما وُجد الماء وتوفرت الأسباب⁴، أما أهم الخضر التي كانت تُزرع فهي، الطماطم، الخيار، الفلفل، البصل، البطيخ،

¹ يحيى بوعزيز، مع تاريخ الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 322.

² علي أحمد هارون، جغرافية الزراعة، دار الفكر العربي، ط 1، القاهرة مصر، 2000، ص 172.

³ نفسه، ص 218.

⁴ مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 3، مكتبة النهضة، بيروت، 1964، ص 313.

البطاطا، وقد شهدت هذه المنتجات رواجاً كبيراً، فأصبحت زراعتها تتم بالقرب من المدن لتسهيل تسويقها¹.

كما تختلف زراعة الخضر من منطقة إلى أخرى، إذ أن لكل صنف مناخاً وتربة معينة تناسبه، أيضاً تختلف كذلك في فصول بذرها وإنتاجها²، فنجد أصنافاً تتضرر من الحرارة وتُزرع في فصل الشتاء وأوائل الربيع، مثل البنجر والبصل والثوم والبطاطا والجزر، وأصنافاً أخرى تتضرر من البرودة والصقيع فتُزرع في أوائل فصل الربيع، ليكون إنتاجها جاهزاً في فصل الصيف مثل الطماطم والفلفل ومختلف أنواع البطيخ والخيار، ولكل صنف من الخضر تربة خاصة تُختار بعناية من قبل المزارعين، مدعومين بخبرتهم الطويلة في ميدان الزراعة، وتعد زراعة الخضر حساسة جداً، إذ يجب على المزارعين العناية بها جيداً، كما أن لكل صنف مقدار معين من المياه، لا يجب تجاوزه أو النزول عنه³.

كان هناك أيضاً إنتشار لزراعة الخضر، الأقل شأنًا مثل الخس والخردل والسبانخ والخرشوف، فكانت متوفرة بأسعار زهيدة، وتُخصص لها قطع صغيرة بجانب الأراضي المزروعة بالخضر الأساسية⁴.

لقد كانت البطاطا من أهم المنتجات الخضرية، إذ تُعتبر المطلوبة الأولى في السوق، رغم أن جودتها لم تكن عالية، كما هو الحال في أوروبا، إذ كانت صغيرة الحجم وموجهة للاستهلاك المحلي فقط، إلا أنه يمكن إنتاجها مرتين في السنة الواحدة، كما أنها لا تتطلب جهداً كبيراً من

¹ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 59.

² انظر الملحق رقم 9.

³ علي أحمد هارون، المرجع السابق، ص 218-219.

⁴ Tomas Shaw, Voyage dans ..., Op cit, p14.

الفلاحين، مما جعلها متوفرة ومحقة للاكتفاء الذاتي في البلاد، فضلاً عن سعرها الزهيد، بعكس أسعارها في الأسواق الأوروبية¹.

كما ازدهرت زراعات الحشائش العطرية، التي تُستعمل كثيراً في الطهو، وعلى رأسها القصب والكرفس، وكان يتم الاهتمام بهما كثيراً، وتخصيص أجزاء من الأراضي الزراعية لهما، رغم أنهما يُعتبران ثانويين في السوق وسعرهما رمزي، إلا أنهما أساسيان في إعداد الطعام، وتُزرعان في فصل الصيف، ويتم جني محصولهما في أوائل فصل الربيع².

3. الأشجار المثمرة والثروة الغابية:

لقد عرف بايلك الغرب تنوعاً كبيراً، من حيث الأشجار المثمرة والثروة الغابية، ولعل أهم عوامل هذا التنوع، هو التنوع المناخي والتضاريسي، الذي يتمتع به بايلك الغرب، فنجد شماله يمتاز بمناخ البحر الأبيض المتوسط، الذي يتميز بتساقط نسبة معتبرة من الأمطار، بالإضافة إلى ارتفاع نسبة الرطوبة، ما يساعد في نمو الكثير من الأشجار، وعندما نتجه نحو المناطق الداخلية، نجد منطقة الهضاب التي تشهد تنوعاً من حيث أنواع الأشجار أيضاً، بما يناسب تربتها ومناخها، أما جنوباً فتنتشر الواحات والكثير من الأشجار المثمرة، التي تتعايش مع المناخ الصحراوي القاسي، المعروف بحرارته وتضاريسه الرملية³.

¹ M. Rozet, Op cit, p208.

² علي أحمد هارون، المرجع السابق، ص16.

³ عمار عمورة، الجزائر بوابة التاريخ، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص191.

أ. الأشجار المثمرة:

كانت في سهول الشلف ومعسكر والهبرة وتلمسان ومازونة، وحول كل مدن البايك وقراها تنتشر البساتين، فكانت معسكر محاطة بالكثير من بساتين الكروم والزيتون واللوز¹. كما أن قلعة بني راشد وأحوازاها، اشتهرت بإنتاج الليمون والمشمش والرمان والخوخ والعنب، إلا أن الليمون كان غالباً فيها، وكان يعتبر من أجود أنواع الليمون وكان مطلوباً في كل الأسواق². أيضاً اشتهرت المناطق السهلية، بإنتاج الحمضيات والعنب، وكان إنتاجهما كبيراً بحيث يوجه جزء منه للاستهلاك المحلي، أما الجزء الثاني فيُصدّر إلى الموانئ الأوروبية³. كما كانت مازونة من أهم الأماكن المنتجة للفواكه، إذ تحيط بها البساتين من كل جانب، مستفيدة من المياه العذبة الصالحة للزراعة التي يمر بها وادي القادوس، مما جعلها من أهم المدن إنتاجاً للفواكه⁴. أما تلمسان وأحوازاها، فقد كانت تنتج الكثير من الحمضيات والرمان والزيتون، وكانت قطبا لصناعة زيت الزيتون في البايك، وكان من بين أجود أنواع الزيوت في البلاد، كما اشتهرت أيضاً بالحدائق الغناء، حيث عمد الكثير من سكانها، إلى تخصيص أجزاء من أراضيهم وتحويلها إلى حدائق، تضم كل أنواع الأشجار المثمرة وغير المثمرة⁵.

عرف البايك خلال هذا العهد ازدهاراً في زراعة الأشجار، واعتناءً كبيراً بالبساتين المتنوعة، خاصة المناطق الشمالية، التي يلائم مناخها وتربتها هذه الأنواع من الزراعات، بالإضافة إلى

¹ أندري برنيان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر اسطنبولي رايح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 187.

² محمد بوركبة، المرجع السابق، ص 114.

³ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، ط3، الجزائر، 1982، ص 142.

⁴ كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص 25.

⁵ مرمول كاريخال، إفريقيا، ج3، المصدر السابق، ص 13.

كونها غير مكلفة ولا تحتاج إلى جهد كبير، ما جعلها تنتشر في السهول والمناطق الجبلية على حد سواء¹.

كما أن زراعة التين والعنب كانت رائجة، وكان إنتاجها ضخماً، يوجه جزء منه للاستهلاك المحلي، والجزء الآخر يُقسم بين التصدير إلى أوروبا، واستعماله في صناعة الخمر، وقد كان الخمر في هذا العهد غير رائج بين أوساط العامة لتحريمه شرعاً، إلا أن قسماً ضئيلاً منه كان يستهلك داخل الجزائر، بينما يُصدّر الجزء الأكبر إلى الدول الأوروبية². ومن أشهر مدن البايك المنتجة للفواكه والزيتون والتين والعنب مستغانم وأحوازها، حيث ساعدت وفرة المياه العذبة، على إنتاج كميات هائلة وبجودة عالية³.

أما ندرومة وأحوازها فكانت زراعة أشجار الخروب هي السائدة فيها، وكانت تُصدّر منتجاتها إلى أسواق البايك، وكان أهلها أيضاً يشتغلون في تربية النحل، ما جعلها مصدراً مهما للعسل، الذي أصبح غذاءً رسمياً لهم، إلى جانب الحبوب والخضر والفواكه، كما كانت تلمسان تنتج العديد من أنواع التين، وعلى رأسها التين الأسود كبير الحجم، المتميز بمذاقه الحلو جداً. وكانت أحوازها تنتج الكرز بكل أنواعه، ما جعلها خلال العهد العثماني، المصدر الأول للكرز وكانت جودته ممتازة جداً، بالإضافة فإن العنب متوفراً فيها بكثرة، ومن خلال إنتاجها للعديد من أصناف الفواكه، أصبحت تلمسان تعد قطبا زراعيا منتجا للفواكه بإمّتيار كما ونوعاً⁴. أما المناطق المتاخمة للصحراء، ورغم الجفاف وقلة الأمطار وقلة خصوبة أراضيها، فقد انتشرت بها الكثير من الحدائق والبساتين، حيث كانت تتواجد بها الكثير من البساتين خاصة،

¹ سهام بومعزة، المرجع السابق، ص 267.

² وليام سينسر، المرجع السابق، ص 139.

³ سهام بومعزة، المرجع السابق، ص 270.

⁴ حسن الوزان، ج 2، المصدر السابق، ص ص 14-20.

الإجاص، المشمش، الرمان، التين، اللوز، العنب، فكانت تستقطب الكثير من قبائل المنطقة للعيش فيها¹.

أما النخيل فقد كانت زراعته أساس الزراعة في المناطق الصحراوية، وكانت التمر تشكل أكبر منتج زراعي في هذه المنطقة، وكانت واحات النخيل الأصل في الزراعة، بينما تُغرس بين النخيل، أشجار الكروم والرمان والزيتون، ومن أشهر المناطق الصحراوية المنتجة للتمر، هي منطقة توات، فقد كان أهلها يعتبرون التمر غذاءً أساسياً لهم، إلى جانب القمح والشعير، بل كان التمر يُعتبر بديلاً مناسباً عن القمح خلال سنوات القحط والجفاف، وكان يُباع جزء منه في أسواق البايك الشمالية، خاصة تيهرت ووهران ومستغانم وتلمسان وسائر قرى ومدن البايك² أيضاً كانوا يحرصون على غرس الفسائل الجيدة، التي في أغلبها تكون محلية ومعروفة، ويكون موسم زراعة هذه الفسائل في فصل الربيع، وتبقى غير مثمرة لمدة تتراوح بين خمس سنوات وسبع سنوات، وعندما تبدأ بإعطاء ثمارها، يكون مردودها في السنوات الثلاث الأولى ضعيفاً، ثم تصبح الغلة كبيرة مثل سائر النخيل، كما كانت أرض توات تضم أكثر من مئة نوع من التمر، أشهرها تلمسو، تناصر، تملح، تقربوشت، وتروزاي، وكانت هذه الأصناف مختلفة في الشكل واللون والمذاق، إلا أنها جميعاً تمتاز بالحلاوة، ويُعتبر صنف تلمسو، أجودها فكانت نخلته تعطي ثمرًا لمدة أربعين سنة دون أن تنقص كمية الغلة، ثم تبدأ بعد الأربعين في الضعف³.

¹ المشير دوك دي دumas، الصحراء الجزائرية، تر قندوز عباد فوزية، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 39.

² بهية بن عبدالمؤمن، الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين (18-19)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2011-2012، ص 74.

³ صالح بوسليم، المؤسسات الثقافية بإقليم توات دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية (أثناء القرنين 12 و 13 هـ / 18 و 19 م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة جيلالي اليابس، 2007-2008، ص 110.

كما عرف البايك انتشاراً واسعاً في زراعة أشجار الزيتون، فكان سهل السيق، الذي يقع بين وهران ومعسكر ينتج أجود أنواع الزيتون، كما أن أحواز تلمسان، كانت تنتج الزيتون وتختص بعصره واستخراج زيتيه، وكان الزيت يُستهلك محلياً ويُصدر جزء منه إلى الخارج¹. لقد أخذ الباي مصطفى بوشلاغم بعد تحريره لوهران والمرسى الكبير وطرد الإسبان، أرضاً كبيرة كان يستغلها أحد كبار الموظفين الإسبان، تحتوي في أغلبها على أشجار الزيتون، ولا تبعد عن المرسى الكبير سوى فرسخين، كما أن زراعة الزيتون في الجزائر، كانت موجودة منذ الأزمنة البعيدة، وتطورت تدريجياً إلا أنها بلغت أوج ازدهارها في العهد العثماني، بفعل الطلب المتزايد على الزيتون الجزائري وزيتيه، لاستخدامه في العديد من المجالات، كالمستخلصات الطبية والأدوية آنذاك، بالإضافة إلى أن زراعته لا تحتاج إلى جهد كبير أو عناية دائمة، ما جعله منتشراً في مختلف أرجاء البايك، كما أنه يتحمل التغيرات المناخية المختلفة².

ب. الثروة الغابية:

لقد عرف عن بايلك الغرب خلال عهد الدايات، تميزه بغطاء نباتي كثيف ومتنوع، خاصة في جبال الأطلس التلي وسفوحها وأوديتها، ما منح الإقليم طابعاً طبيعياً مميزاً، فكانت الغابات منتشرة على طول سلسلة الجبال وما بينها من سهول وهضاب وسفوح، مشكلة مشهداً بيئياً غنياً، وكانت هذه الغابات تنتمي إلى المناطق التي يشملها مناخ البحر الأبيض المتوسط، وهو مناخ معروف بتقلباته الفصلية بين الرطوبة والحرارة المعتدلة، الأمر الذي ساعد في تشكيل التنوع الغابي من حيث تنوع الأشجار، كما أن أبناء القبائل وأهل القرى والمدامر، ساهموا من خلال عمليات تشجير محدودة، سعوا من خلالها إلى استغلال الأرض زراعياً وغابياً، رغم أن معظم الغطاء الغابي الطبيعي ظل يعتمد بشكل كامل، على الموارد الطبيعية دون تدخل بشري

¹ أندي برنيان، المرجع السابق، ص 187.

² رشيد بورويبة، وهران فن وثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص 91.

مباشر، فالغابات كانت تُروى عبر مياه الأمطار الموسمية وفيضانات الوديان، خصوصًا تلك الوديان الكبرى، مثل وادي الشلف ووادي مينا، اللذان كانا يتميزان بجريانهاما الدائم خلال معظم أيام السنة، ما ساعد على نمو الغابات فيهما، كما ساهم عامل الرطوبة العالية، الناتج عن الموقع الجغرافي القريب من البحر في زيادة كثافة الغطاء النباتي، ونمو الأشجار بمعدلات جيدة¹.

لقد عرفت مدن وهران وتلمسان والشلف، وكذلك ضفاف وادي مينا، تنوعًا ملحوظًا في الغابات وفصائلها، بحيث اختلفت الأنواع النباتية من منطقة إلى أخرى، حسب طبيعة التربة والارتفاع عن مستوى سطح البحر، بالإضافة إلى المناخ الخاص بكل منطقة، فبعض الأنواع النباتية كانت تلائمها البرودة المصحوبة بارتفاع نسبة الرطوبة، بينما أنواع أخرى يناسبها انخفاض في الرطوبة مع اعتدال في درجات الحرارة، كما تواجدت أنواع أخرى، ازدهرت في المناطق التي اتسمت بارتفاع درجات الحرارة مع نسبة رطوبة معتدلة، وقد شكل هذا التنوع الغابي في جعل بايلك الغرب منطقة غنية بالثروات الغابية².

لقد أشار المؤرخ ابن زرفة في كتاباته إلى الثروة الغابية في بايلك الغرب، مسلطًا الضوء على تنوعها وكثرتها، ومبررًا بشكل خاص أهمية شجر الصفصاف، الذي كان من أكثر الأشجار انتشارًا، خاصة حول مدينة وهران، ولقد بين أن خشب الصفصاف، لعب دورًا كبيرًا في تحرير وهران الثاني، حيث تم استعماله في صناعة المدافع، وكانت كميات كبيرة من جذوع

¹ عبد العزيز طريح شرف، الجغرافيا المناخية والنباتية، دار المعرفة الجامعية، جامعة الإمام محمد بن مسعود، السعودية، 2000. ص 545.

² نفسه، ص 545-546.

وأغصان الصفصاف، تُستخدم لإشعال فوهات المدافع من أجل القصف المدفعي، وتدمير التحصينات والأسوار¹.

لم تكن وهران تزخر بغابات الصفصاف فقط، بل كانت تضم غابة كبيرة معروفة بالمتنزه، وكانت هذه الغابة غنية بأشجار اللكية، التي تمتاز بأوراقها الكبيرة الكثيفة وأغصانها الظليلة، وهو ما جعل الإسبان الذين عاشوا في المدينة كثيرا، يبدون إعجابهم الكبير بها، حتى أطلقوا عليها اسم "ذات الظل الجميل"، وقد كانت أوراق شجر اللكية، تشبه إلى حد كبير أوراق شجر الكرز، فيما كانت براعمها تتوزع على شكل عناقيد طويلة بين الأوراق الكثيفة، وكانت هذه الغابة تعتبر من أكبر الغابات، وأكثرها كثافة ليس في وهران فقط، بل في كافة أرجاء بايلك الغرب، إضافة إلى هذه الغابة الكبرى، انتشرت في أحواز وهران وجبالها، العديد من الغابات الصغيرة، والتي كانت كثيفة، وتتشكل من أشجار الصبار والدفلى، خاصة على ضفاف الوديان، التي كانت توفر بيئة مناسبة لنموها².

من جهة أخرى شهدت منطقة ندرومة، انتشار الغابات الكثيفة التي امتدت على طول الجبال والسفوح والأودية المحيطة بها، وقد وصلت امتدادات الغطاء الغابي لندرومة، إلى مشارف مدينتي الغزوات وهنين المطلّتين مباشرة على البحر الأبيض المتوسط، وقد كانت العوامل الطبيعية مساعدة لنمو هذه الغابات، من بينها طبيعة الجبال الصخرية التي شكلت بيئة مناسبة لنمو الأشجار، فضلاً عن القرب النسبي من الساحل، إذ لا تبعد ندرومة عنه سوى عشرة

¹ مصطفى بن زرفة، الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية، المكتبة الوطنية، الحامة الجزائر، المخطوط رقم 2597، ورقة 95.

² هاينرش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 33-35.

كيلومترات فقط، كما أن وقوعها ضمن نطاق مناخ البحر الأبيض المتوسط المعتدل، ساعد على تسجيل معدلات عالية من تساقط الأمطار¹.

رغم هذه الثروة الغابية في بايلك الغرب، فإنها بدأت تراجعت تدريجيا، مع آواخر عهد الدايات، خاصة بعد سنة 1815م، نتيجة مجموعة من العوامل والكوارث الطبيعية، فقد ضرب الجفاف المنطقة عدة مرات متتالية، مصحوبا بأسراب الجراد، التي اثرت سلبا على الغطاء النباتي ، ونظرا لاعتماد معظم الغابات على الأمطار، فإن الغابات شهدت إنحصارا كبيرا، بالإضافة إلى نقص كبير من حيث كثافتها².

أما العوامل البشرية فقد ساهمت بدورها في هذا التراجع. فقد كانت هناك حملات مستمرة لقطع الأشجار، بهدف تزويد المعامل بالمواد الخام لصناعة السفن التجارية والحربية، وهو ما فرض استغلالا مفرطا وغير مستدام للثروة الغابية، كما أن الاستعداد لتحرير وهران الثاني، دفع بالسلطات إلى قطع كميات كبيرة من الأخشاب، لاستخدامها في صناعة المدافع، ودعم الحصون والقلاع، بالإضافة إلى ذلك فقد كان عدد من الأهالي، يعيشون بالقرب من الغابات يمتنون مهنة الحطابة، حيث كانوا يقومون بقطع الأشجار ونقلها وبيعها في الأسواق ، وقد كانت هذه الأخشاب تستخدم في مجالات واسعة، مثل بناء المساكن وصناعة الأثاث المنزلي، فضلا عن استخدامها للطهي أو للتدفئة، خصوصا في فصل الشتاء الباردة، بالإضافة أن الحدادين أيضا كانوا يعتمدون على هذه الأخشاب، لإشعال أفرانهم لصناعة الأدوات الحديدية، كالسيوف والأواني والمعدات الفلاحية³.

¹ الزين محمد، العمارة الدينية الإسلامية في منطقة ندرومة من خلال نموذجين الجامع الكبير وزاوية سيدي محمد بن عمر، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2002-2003، ص45.

² Ch. Feraud, "L'exploitation de la karasta", R.A ,N°12, Alger, 1886, p378.

³ سهام بومعزة، المرجع السابق، ص288.

كانت أخشاب الأشجار تُستخلص منها منتجات متعددة مثل الخزائن والصناديق، كما كانت تُستعمل في بناء أسقف المنازل وأعمدتها وأبوابها، ما جعل من الأخشاب مادة مطلوبة لدى سكان البايك، إلا أن الجهة التي استغلت الثروة الغابية بشكل مكثف ومنظم، كانت هي إدارة البايك نفسها، حيث كانت تعتمد عليها في بناء السفن الحربية، ودعم الجيش بالعربات العسكرية، وبناء القلاع والحصون الدفاعية، كما كان رجال السلطة والبايات، يجهزون قصورهم وبيوتهم بأفضل أنواع الخشب¹.

رابعا: الثروة الحيوانية والنشاط الرعوي لقبائل في بايلك الغرب

لقد كان أبناء القبائل في بايلك الغرب، خلال عهد الدايات يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بتربية المواشي، حيث اعتبرت هذه المهنة المصدر الأول والأساسي للرزق والمعيشة لديهم، كما كانت الزراعة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتربية المواشي، إذ كان أبناء القبائل يحرصون على تأمين أمنهم الغذائي، لأنفسهم ولمواشيهم في آن واحد، لذلك مارسوا الزراعة إلى جانب مهنتهم الأصلية والأساسية وهي تربية مختلف أنواع المواشي، من أغنام وماعز وأبقار وخيول وحمير وبغال، وكانوا يرعون قطعانهم في سهولهم الواسعة، التي كانت تزخر بالأعشاب الطبيعية والحشائش المفيدة، ما ساعد في مزاولتهم لهذه المهنة، وعندما كانت تحل سنوات القحط والجفاف، التي من خصائصها أنها سنواتها تأتي متواترة، وكانوا يعودون إلى ما تم تخزينه من مؤن في مطامرهم تحت الأرض، إذ كانوا يتحسبون لهذه الفترات العصيبة بتخزين جزء من غذائهم، فيخزنون الغذاء اللازم لهم ولمواشيهم تحسباً لانقطاع المطر وجفاف الأرض².

¹ Sahraoui Bensaid, Aida Gasmi, Imene Ben Hafied, Les forets d'Algérie de césarée la romaine a ce jour, Forets Méditerranée , Tome XXVII, n°3, 2006, p269.

² Houdas, Ethnographi de l'Algérie ,Maisonneuve frères etch, Leclerc editeurs, Paris, 1886, p88.

كما أن العلاقة كانت تبادلية بين الزراعة وتربية المواشي، حيث إن الحيوانات تحتاج إلى منتجات زراعية كالأعلاف والحبوب لغذائها، والزراعة بدورها تحتاج إلى استخدام الحيوانات، سواء في حرث الأرض عبر الثيران، أو في تسميدها بفضلاتها، أو في عمليات الدرس والنقل، إذ كانت المواشي هي وسيلة النقل الرئيسية للمنتجات الزراعية، سواء أخذها للأسواق أو تخزينها في المطامر، ومن هنا كان الفلاح راعياً والراعي مزارعاً بالضرورة، ما يدل على الترابط العضوي بين النشاطين الزراعي والرعوي¹.

لقد تميز العهد العثماني في الجزائر عامةً، وبايلك الغرب خاصةً بطابع ريفي واضح، حيث ارتبط السكان ارتباطاً قوياً بالأرض، واستقرت الغالبية العظمى منهم في الأرياف، بينما سكنت العناصر الإدارية والعسكرية المدن الكبرى، وقد كانت القبائل في بايلك الغرب، وخاصة قبائل المخزن تمارس بشكل أوسع مهنة تربية المواشي ورعيها مقارنة بالزراعة، إذ أن من أصل ست وأربعين قبيلة مخزنية، كانت عشر قبائل فقط تمتهن الزراعة بشكل رئيسي، بينما القبائل الست وثلاثون الأخرى فقد كانت محاربة، وتعتمد في معاشها اليومي على تربية المواشي بمختلف أنواعها، فكانت تملك أعداداً كبيرة من الأبقار والأغنام والماعز، وتهتم بتربية الخيول القوية نظراً لحاجة فرسانها إليها في الحروب والغزوات، بالإضافة إلى إبراز هويتها وسطوتها من خلال عدد خيولها الكبير².

أولى أبناء هذه القبائل اهتماماً خاصاً بتربية الأبقار أيضاً، لما لها من أهمية في إنتاج الحليب، واستخدامها في حرث الأرض، ونقل الأحمال والعديد من الأشغال الزراعية، كما أنها

¹ علي أحمد هارون، المرجع السابق، ص 281.

² توفيق دحماني، النظام الضريبي....، المرجع السابق، ص 15.

كانت ذات قيمة اقتصادية معتبرة، بينما إستهلاكهم من اللحوم كان يأتي أساساً من الأغنام والماعز¹.

انتشرت تربية الأبقار على وجه الخصوص في المناطق الساحلية والهضاب، حيث وفرت طبيعة المراعي الخصبة، والمناخ المعتدل بيئة ملائمة لتربيتها²، وما ساعدها أيضاً خصوبة السهول في البايك، حيث كانت السنابل تصل إلى قمة الرجل، وهو مؤشر على خصوبة الأرض ووفرة الإنتاج الزراعي، كما أنه بعد عملية الحصاد، كان الفلاحون يتركون التبن وبقايا المحاصيل في الحقول لترعى عليها المواشي، ما كان يحسن من الخالة العامة للمواشي، ما يؤدي إلى ارتفاع في قيمتها الاقتصادية³.

أما المناطق الجنوبية لبايك الغرب، فقد كانت معروفة بوفرة الأغنام والماعز والإبل والخيول القوية، فتوفر المراعي الغنية بالأعشاب الطبيعية، جعل هذه المنطقة تعتبر من أفضل مناطق تربية المواشي، فكانت مواشيتها ذات جودة عالية، خاصة الخيول والأغنام، فيما كانت الإبل لا تستطيع العيش إلا في الصحراء فهي تتأقلم أكثر مع هذه التضاريس والمناخ معا⁴.

تميز بايلك الغرب عن باقي المناطق الأخرى في الجزائر بجودة خيوله، إذ بالإضافة إلى المناطق الصحراوية فيه، فقد إشتهرت كل من معسكر واليعقوبية وسهل غريس بخيولها القوية، ما أدى إلى التنافس بين القبائل على جودة الخيول وعددها، حتى أن قبائل المخزن كانت

¹ نفسه، ص ص15-16.

² سهام بومعزة، المرجع السابق، ص215.

³ حمدان خوجة، المرأة...، المصدر السابق، ص71.

⁴ Duval Jules, L'Algérie tableau historique, descriptif, et statique, Librairie de l'Hachette et Cie, Imprimerie : De Ch. Lahure, Paris, 1859, p47.

تحرص على شراء الخيول في الأسواق، لمنع قبائل الرعية من امتلاكها خشية إستخدامها في حالة تمردھا، مايؤثر في ميزان القوة العسكرية¹.

كما برزت ندرومة وأحوازها كقطب أساسي لتربية المواشي، حيث امتلك سكانها أعداداً ضخمة من مختلف أنواع المواشي، مستفيدين في ذلك من خصوبة الأراضي السهلية، وسفوح الجبال وتوفر المياه، ما جعلها من أهم مناطق اقتناء المواشي الجيدة في البايك².

كما تميزت نواحي تاسالة أيضاً بوفرة الأغنام وجودتها العالية، إذ كان أغلب السكان هناك، يمتنون تربية الأغنام والعناية بها، حتى أصبحت مصدراً رئيسياً للصوف والجلود، التي كانت تسوق إلى مختلف أسواق البايك بأسعار مناسبة لوفرتها الكبيرة، ومن جهة أخرى فقد كانت أسعار الخيول مرتفعة نسبياً، مقارنة بأنواع المواشي الأخرى، إذ كان سعر الحصان يبدأ من 372 فرنك، ما يعكس أهميته الاقتصادية والعسكرية البالغة³.

نظراً للثروة الحيوانية الكبيرة للبايلك، فإنه كان يصدر مختلف المواشي نحو أوروبا، وفي مقدمتها الأبقار والخيول والأغنام والماعز، وشكلت هذه الصادرات مصدراً إضافياً لدعم خزانة البايك، خاصة بعد تراجع عائدات الجهاد البحري، التي أصبحت تساهم بنسبة قليلة في مداخيل الخزينة⁴.

¹ توفيق دحماني، النظام الضريبي....، المرجع السابق، ص16.

² الزين محمد، المرجع السابق، ص44.

³ فارس العيد، الأوضاع الاقتصادية في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، مجلة الساور للدراسات الإنسانية والاجتماعية، ع5، 2017، ص148.

⁴ خضير عقبة، النشاط الاقتصادي بالجزائر في العهد العثماني ما بين القرن 17-19م، دراسة تاريخية، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع6، ص238.

لقد شهدت تربية الماعز في تلك الفترة ازدهاراً ملحوظاً، حيث كانت تعتبر مصدراً أساسياً للحليب إلى جانب الأبقار، وتميز الماعز في البلاد بصغر حجمها وطول شعرها، مقارنةً بالأنواع الأوروبية، فضلاً عن جودة لحومها ومذاقها الممتاز، أما الأبقار والثيران المحلية، فقد عرفت أيضاً بحجمها الصغير ورأسها وقرونها الصغيرة نسبياً، بخلاف الأبقار الأوروبية ذات الأحجام الكبيرة، إلا أنها تبقى ذات قيمة إقتصادية مهمة¹.

غير أن أواخر عهد الدايات شهد البايك اضطرابات سياسية وكوارث طبيعية، أثرت بشكل مباشر على النشاط الزراعي، ف تراجع الإنتاج نتيجة الكوارث الطبيعية، بالإضافة إلى انتشار الأوبئة التي حصدت الكثير من الأرواح، وزعزت البايك ديمغرافيا، وهو ما أدى بالضرورة إلى نقص اليد العاملة، ومع الغلاء الفاحش في أسعار السلع الغذائية، اضطر كثير من أبناء القبائل إلى التخلي عن الزراعة، والتوجه نحو الرعي كمصدر للعيش معتمدين في ذلك على حياة التنقل والترحال بحثاً عن الكأ والماء لهم ولمواشيهم، كما أدت هذه التحولات إلى هجر الأراضي الزراعية، التي كانت سابقاً موضع ارتباط واهتمام القبائل، بينما اضطر من تبقى إلى ممارسة الزراعة، في مناطق بعيدة عن سلطة البايك، تقادياً للضرائب الثقيلة والمصادرات، ما زاد من معاناة القطاع الزراعي أواخر هذا العهد².

المبحث الثالث: النشاط الصناعي والحرفي لقبائل بايلك الغرب

شهد بايلك الغرب خلال عهد الدايات، تطوراً في العديد من الحرف والصناعات التقليدية، إلا أن هذه الصناعات لم تواكب التطورات، التي عرفتتها الدول الأوروبية في تلك الفترة، حيث بقيت هذه الحرف على حالها، طوال مراحل الحكم العثماني في الجزائر، ما أدى إلى عدم تطورها

¹ سهام بومعزة، المرجع السابق، ص ص 217-218.

² كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 215.

وتوسعها، بل كان معظم إنتاجها موجهاً للاستهلاك المحلي بشكل رئيسي، وكانت الصناعات والحرف تتم على يد أصحابها باستخدام أدوات تقليدية، حيث كانت محققة للاكتفاء الذاتي في لبائلك الغرب، وبالرغم من بعض الخطوات التنظيمية، التي كانت تسعى سلطات بايلك الغرب إلى تنفيذها، بتنظيم الحرف من خلال جعل أماكن خاصة لكل حرفة أو صناعة على حدى، فإنها لم ترق إلى المستوى المطلوب، مقارنةً بما كان يحدث في أوروبا، التي شهدت بداية الثورة الصناعية منتصف القرن الثامن عشر، التي ساهمت في تطوير الصناعات بشكل كبير¹.

أما الإجراءات فقد اكتفت السلطات بتعيين وكلاء ونقباء لتسيير شؤون الحرف، ولم تشهد دعماً من السلطات، فكانت تتمركز في الأسواق والشوارع الرئيسية في المدن، بينما ظلت القرى والمدن والمداشر ومواطن القبائل في الأرياف، تعاني من نقص التنظيم، ما أدى إلى تدهور الوضع الصناعي والحرفي في هذه المناطق، كما زادت هذه المعاناة مع فرض الضرائب الثقيلة، على أصحاب الحرف التقليدية في الأرياف، حيث أصبحوا يواجهون صعوبات جمة في استمرارية العمل، بالإضافة إلى تشجيع السلطة على استيراد المواد المصنعة من الأسواق الأوروبية، ما أدى إلى زعزعة الصناعة المحلية، وزيادة أسعار منتجاتها، وتعود هذه الزيادة إلى الصناع والحرفيين الذين يحاولون تغطية مصاريف عملهم، بالإضافة إلى الضرائب الثقيلة التي فرضتها السلطات، بينما كانت السلع المستوردة أكثر جذباً للناس، بسبب انخفاض أسعارها مقارنة بالمنتجات المحلية بالإضافة إلى جودتها².

إن هذه الظروف جعلت العديد من الحرفيين، يتخلون عن مهنتهم الأصلية ويغيرون نشاطاتهم، بسبب تراجع العائدات ومن أبرز الأمثلة على ذلك، أن مدينة تلمسان كانت في

¹ عبد الفتاح بن جدو، نظرة على الصناعة والحرف بالجزائر خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية الجزائرية،

مج6، ع2022، 1، ص505.

² فارس العيد، المرجع السابق، ص149.

أواخر العهد العثماني، تمثل سوقاً رئيسياً للسلع الأوروبية المستوردة، وذلك بسبب انخفاض أسعارها، وجودة الإنتاج الذي كان يتم باستخدام الآلات الحديثة، ونظراً لإجماع هذه العوامل، شهد القطاع الصناعي في البايك خاصة والجزائر عامة تدهوراً كبيراً، بالإضافة إلى عدم مواكبة التطور الذي تشهده أوروبا، والإكتفاء بالإستيراد في الكثير من الأحيان¹.

كانت الصناعات في بايلك الغرب، تعتمد بشكل كبير على المواد الأولية المحلية، مثل الصوف، الجلود، الخشب، والمعادن المختلفة مثل الحديد والنحاس، إضافة إلى المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة، كما كانت جبال الونشريس تشتهر بإنتاج المعادن مثل الرصاص والفضة، ورغم أن الصناعات المحلية، لم تكن موجهة نحو التصدير، فقد كان بعضها يحقق نوعاً من الاكتفاء الذاتي، ويغني البايك عن الإستيراد، ومن بين الصناعات البارزة في البايك، صناعة الحلي الذهبية والفضية، مثل الأحزمة المطرزة والمجوهرات النسائية، التي كانت تشتهر بها بعض القبائل، كانت هذه المجوهرات تستخدم للتزيين والافتخار².

إلى جانب هذه الصناعات، كانت العديد من الحرف التقليدية تنتشر في الأرياف، مثل صناعة الأواني الخشبية والفخارية، بالإضافة إلى صناعة الألبسة والمنسوجات، حيث كانت معظم الصناعات، تعتمد على صوف الأغنام أو وبر الإبل، كما تميزت بعض القبائل في صناعة الأسلحة، مثل السيوف والدروع، التي كانت جزءاً من هويتهم وقوتهم العسكرية، كما اشتهرت بعض القبائل في بايلك الغرب بصناعات معينة، فكانت كل قبيلة تختص بنوع معين من الحرف، ما منح كل قبيلة سمعة مهنية معينة، حيث تميزت بعض القبائل في الصناعات

¹ نفسه، ص ص 149-150.

² خضير عقبة، المرجع السابق، ص 242.

المعدنية، مثل صناعة الأسلحة، بينما تخصصت أخرى في صناعة النسيج أو الأثاث الخشبي¹.

قسمت الحياة الصناعية في بايلك الغرب، إلى قسمين رئيسيين، الأول يختص به أهل المدن ويغلب عليه الصناعات ذات الثمن المرتفع، بينما الثاني كان مخصصًا لأهل الريف من أبناء القبائل، حيث كانت الصناعات في الريف تتميز بأسعارها المنخفضة، لكن مع مرور الوقت، اضطر العديد من الناس في الريف، إلى الاشتغال في الرعي والزراعة كمصادر أساسية للرزق، وفي حالات قليلة كان يتم الاشتغال في الحرف والصناعات².

يمكن القول أن الأرياف كانت المصدر الرئيسي للمواد الأولية، التي كانت تستخدم في الصناعات في المدن، وعلى سبيل المثال كانت القبائل توفر المواد اللازمة، لصناعة المحارث والزيت والسيوف وسروج الخيل، ولقد كانت صناعة السيوف والدروع تعتبر جزءًا من هبة القبيلة وقوتها، كما كانت النساء في الأرياف، يشرفن على الصناعات النسيجية مثل الألبسة والأغطية والأفرشة، بالإضافة إلى صناعة خيام الشعر، وتعتبر صناعة القشابية والبرنوس من أشهر الصناعات، التي كانت منتشرة حيث كان صوف الأغنام هو المادة الأساسية لهذه الصناعات³.

أما البرانس المصنوعة من وبر الإبل، فكانت تتميز بجودتها العالية وارتفاع أسعارها، مقارنة بتلك المصنوعة من صوف الأغنام، وقد كانت منطقة معسكر تعتبر من أبرز المناطق في صناعة البرنوس، حيث كان برنوس معسكر يُعتبر من أفخم المنسوجات في المنطقة، ويتميز

¹ خضير عقبة، المرجع السابق، ص ص242-243.

² نفسه، ص243.

³ عيسى عطاشي، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتين نموذجًا، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص81.

بلونه الأسود ولقد كان سعره مرتفعاً جداً، إذ يبلغ 100 فرنك، وأشتهرت نفس المنطقة أيضاً، بصناعة الزرابي الجميلة، فذاع صيتها أيضاً مثل البرنوس¹.

بالنسبة للأسرة في الأرياف، فقد كانت تعمل في العديد من المجالات الصناعية والزراعية والرعية في وقت واحد، ومن خلال هذا التعدد في الأنشطة الاقتصادية، كانت الأسرة تستهلك منتجاتها الزراعية والرعية والصناعية من خلال عملها، وإستغلالها للأدوات المتاحة لها في ذلك، ما ينتج عنه تحقيق إكتفاء ذاتي، بالإضافة فإن الفائض من الإنتاج يوجه إلى الأسواق المحلية لبيعه، وبالتالي يتيح للأسرة شراء بعض المستلزمات التي لا تنتجها، كما كان هذا الفائض يساعدهم في دفع بعض الضرائب، التي كانت تفرض عليهم².

لقد كانت المدن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأرياف، إذ كانت الأرياف تُعد المصدر الأول والرئيسي للمواد الأولية الخام، فقد تميزت مناطق مثل مليانة وندرومة، بإنتاج كميات معتبرة من الفواكه المجففة، والتي كانت تصدر إلى الأسواق في مدن البايك ، بل وتتجاوزها إلى مدن ومناطق أخرى من الإيالة، ولم يقتصر الأمر على التسويق الداخلي، بل إن بعض هذه المنتجات كانت تجد طريقها إلى الأسواق الأوروبية، ما يدل على جودة الإنتاج المحلي وقدرته على المنافسة، وتخصصت هذه المناطق أيضاً في إنتاج ماء الورد، الذي كان يُصنع بعناية فائقة، ويستعمل في المناسبات الاجتماعية أو في التجميل والطب الشعبي، ما رفع من سعره وقيمه التجارية،

ولقد انفردت مدينة مليانة بصناعة أنواع من المربي، لاسيما مربى العنب ومربي اللوز، وهي صناعة كانت تتطلب وقتاً وجهداً كبيرين، نظراً لطبيعة العمليات التقليدية المعتمدة، ومع ذلك فقد

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص337.

² نفسه، ص335.

كانت أسعار هذه المنتجات مرتفعة جداً، بسبب جودتها العالية، فضلاً عن إمكانية تخزينها لفترات طويلة تتجاوز السنة¹.

أما صناعة المنسوجات فقد عرفت نشاطاً مميزاً في أرياف تلمسان، التي اشتهرت بإنتاج أجود أنواع الألبسة الصوفية والقطنية، كما ساهمت دقة الصنع وجودة المواد المستعملة، في جعل هذه المنتجات تحظى بإقبال واسع، سواء في الأسواق المحلية أو الأجنبية، وتعددت أنواعها فمنها أثواب للاستخدام اليومي وأخرى للمناسبات الخاصة، كما اشتهرت قلعة بني راشد بصناعة الزرابي الفاخرة والجيدة، التي كانت تُنسج بدقة متناهية وجهد بالغ، ما جعلها من أغلى المنتجات النسيجية، وقد غزت زرابي قلعة بني راشد مختلف الأسواق، ليس فقط المحلية بل أيضاً الأجنبية، حيث كانت تباع في أسواق الحجاز وبلاد الشام وإسطنبول، وتميزت هذه الزرابي برسوماتها الطبيعية الخلابة وألوانها الزاهية، فشكّلت بذلك منتجاً فنياً واقتصادياً راقياً².

من الملاحظ أن تلمسان كانت بمثابة القطب الصناعي الأكبر في بايلك الغرب، فقد انتشرت بها العديد من الصناعات الغذائية، لاسيما مطاحن الحبوب التي كانت تعرف محلياً باسم "الرحى"، بالإضافة إلى معاصر الزيتون، التي تنتج كميات معتبرة من زيت الزيتون الجيد، والذي كان يسوق محلياً، بالإضافة إلى تصديره نحو أوروبا والمغرب الأقصى، ففي تلمسان وحدها كانت توجد معصرتان كبيرتان داخل المدينة، وثلاثة معاصر في محيطها الخارجي³.

كما برزت تلمسان في مجال دباغة الجلود وصناعة الأحذية الجيدة، التي كانت تحتل مكانة مهمة في الأسواق المحلية، حتى أصبحت المدينة في أواخر العهد العثماني، المصنع الأول للأحذية من حيث الكم والجودة، ولم يقتصر التميز الصناعي في تلمسان على ذلك فقط، بل

¹ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 68.

² كمال بن صحرابي، المرجع السابق، صص 216-217.

³ حمدان ×وجة، المرأة....، المصدر السابق، 97.

شمل أيضاً صناعة السروج الفاخرة والمطرزة بخيوط الذهب والفضة، ما يعكس مستوى الرفاهية والدقة الفنية التي بلغتها هذه الصناعات، كما انتشرت أيضاً في تلمسان صناعة الأواني المصنوعة من مادة الحلفاء، وهي مادة طبيعية متوفرة بكثرة في المناطق الجنوبية القريبة، وقد استُخدمت هذه المادة في إنتاج سلال وأوان منزلية بسيطة، ولكنها ضرورية للاستخدام اليومي¹، على غرار تلمسان، اشتهرت قلعة بني راشد كذلك بصناعة الصابون، حيث وجدت بها مصانع خاصة لهذه المادة الأساسية في الحياة اليومية. كما انفردت ندرومة ومارونة في صناعة القطن والكتان، حتى أصبحتا وجهة رئيسية للتجار الباحثين عن سلع ذات جودة عالية².

أما في أواخر العهد العثماني، وخصوصاً مع بداية عهد الباي محمد الكبير، فقد شهد بايلك الغرب نهضة اقتصادية ملحوظة، إذ عمل هذا الباي على تشجيع مختلف مظاهر النشاط الاقتصادي، بما في ذلك الحرف والصناعات التقليدية، الأمر الذي ساعد على ازدهار هذه الأنشطة خلال عهده، كما اشتهرت تلمسان بشكل خاص في صناعة النحاسيات، مستفيدة من مهارات الأندلسيين الذين كانوا بارعين في هذا المجال، وقد ورث الأندلسيين هذه الحرفة عن أجدادهم وطوروها بإتقان لافت، ما جعل منتجاتهم النحاسية كالقدور والطنجرة والأطباق والدلاء وأباريق القهوة والصواني، تتميز بجمالها وصناعتها الدقيقة، وقد كانت أسعار هذه المنتجات معقولة، لكنها كانت ترتفع عندما يتعلق الأمر بمنتجات دقيقة ومتقنة الصنع، والتي تتطلب وقتاً طويلاً وجهداً مضنياً³.

¹ حمدان خوجة، المرأة...، المصدر السابق، ص 97.

² ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 68.

³ شريفة طيان ساحد، نحاسيات تلمسان في العهد العثماني (القرنان 12-13هـ/18-19م) من خلال مجموعة المتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية-الجزائر-، دراسات تراثية، مج 6، ع 1، 2012، ص ص 16-21.

المبحث الرابع: النشاط التجاري لقبائل بايلك الغرب

لقد عرف بايلك الغرب نشاطا تجاريا واسعا خلال عهد الدايات، بل تميز وتطور نوعا ما عما كان عليه، في المراحل العثمانية الثلاث الأولى في الجزائر (الباليربايات، الباشوات، الآغوات)، وما ساعده في ذلك أيضا موقعه الإستراتيجي الهام، بحيث يعتبر محاطا في حدوده الداخلية والخارجية بكيانات قوية، جعلته يكون وسيطا تجاريا بامتياز بالإضافة إلى رواج التجارة الداخلية بين مناطقه، فنجد أن دار السلطان وبايلك التيطري يحده شرقا، والمغرب الأقصى يحده من ناحية الغرب، بينما يحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ويقابله في الضفة الأخرى الدول الأوروبية، التي تعتبر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر سوقا مفتوحة ورائجة لمختلف البضائع، كما أن موانئها تصدر منها مختلف البضائع والسلع، كما أن الكثير من مدن البايك كان يمر عليها طرق رئيسية وإقليمية، كبيرة كالطريق الذي يبدأ من سواحل المغرب الأقصى مروراً بمدن تلمسان، قلعة بني راشد، مازونة، مليانة¹.

كما كان هذا الطريق يمر أيضا على مدن رئيسية في دار السلطان وبايلك الشرق، ليصل إلى تونس، فكانت هذه الطرق تحمل معها القوافل التجارية وقوافل الحجيج، ما جعل المناطق التي يمر عليها، مراكز لرواج المبادلات التجارية، بالإضافة إلى وجود طرق ومسالك داخلية، تربط مدن وقرى البايك ببعضها، ما ينتج عنها مبادلات تجارية واسعة بين أبناء القبائل و مختلف التجمعات السكانية².

¹ جميلة مشرفي، الأسواق في بايلك الغرب خلال عهد الدايات (1671-1830)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة معسكر 2017-2018، ص ص 93-94.

² نفسه، ص 94.

أولاً: شبكة الطرقات في بايلك الغرب

1. الطريق السلطاني الرابط بين مدينتي وهران والجزائر:

هو طريق يقع في شمال البايك، ويشمل شمال الجزائر كلها وصولاً إلى تونس، يبدأ من شرق البايك بمليانة، مروراً بوادي الروينة ثم وادي الفضة ثم وادي إسلّي ثم وادي رهيو وملتقى وادي مينا، والذين يقعون ضمن نطاق سهل الشلف، ثم وادي هليل ثم معسكر وصولاً إلى وهران، وكانت تتواجد على جوانبه قبائل كثيرة، أغلبها من قبائل المخزن على رأسها قبائل الدواير والزمالة وبني يحيى وقبيلة أولاد الصحاري وغيرهم الكثير من القبائل¹. إلا أن طول هذا الطريق اختلفت فيه مصادر عديدة، وراجع ذلك إلى تغير مساراته خلال عهد الدايات، بالإضافة إلى المواصلات المستعملة في قطعه، فيرى هايدو بأن مسافة هذا الطريق تبلغ 60 فرسخاً، مع العلم أن الفرسخ يساوي 5,76 كم، بينما بوتان فيقدره بثمانين فرسخاً، أما باراديه فيرى أن الطريق من مدينة الجزائر إلى معسكر، يبلغ خمسين فرسخاً ومن معسكر إلى وهران هناك عشرة فراسخ، أي طول الطريق الكلي 60 فرسخاً، وهو بهذا التقدير يوافق هايدو في تقديره².

بالإضافة إلى هذا الطريق نجد ثلاثة أنواع من الطرق الداخلية في البايك، الطريق الأول هو الذي يربط بين المدن الرئيسية في البايك، والطريق الثاني هو الطريق الذي يربط المدن والقرى الساحلية، أما الطريق الثالث فهي الطرق الريفية والمسالك الجبلية³.

¹ ناصر الدين سعيدوني، ورقات....، المرجع السابق، ص258.

² خلف الله زكرياء و محمد بن جبور، التجارة الداخلية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني (1563-1830)، مجلة عصور، مج1، ع2، 2022، ص199.

³ جنان الطاهر، مازونة عاصمة الظهرة: ثغر حربي و مركز إشعاع حضاري، جمعية الظهرة للفن و السياحة و الآثار، الجزائر، ص32.

2. الطرق التي تربط بين المدن وقرى البايك:

أما الطرق التي تربط بين مدن وقرى البايك، فأبرزها الطريق الرابط بين مازونة وتلمسان ويمر بمعسكر، وكانت مازونة تعتبر حلقة وصل في البايك، فكانت تمر عليها الكثير من القوافل، ما جعلها قطبا للمبادلات التجارية¹، وكان الكثير من التجار يسوقون بضائعهم في أسواقها لتوسطها المدن، خاصة تجار قلعة بني راشد ومعسكر وتلمسان، كما أنها كانت العاصمة الأولى للبايك، ما جعل البايات الأوائل يشيدون بها أسواقا وطرقا بينها وبين المدن في البايك².

أيضا نجد الطريق الرابط بين وهران ومعسكر، وهو طريق تجاري هام إذ يربط بين مدينتين كبيرتين في البايك، ويبدأ من وهران ليمر على الكرمة ثم تلييلات ثم وادي الحمام ويقطع جبال بني شقران، ويبلغ طوله حوالي 90 كم، وقد عرف عنه أنه آمن فقد كانت المدن التي يمر بها تحتوي على العديد من الحاميات التركية، بالإضافة إلى تواجد الكثير من فرق وقبائل المخزن على طول هذا الطريق، كما كانت به نقاط مراقبة وتفتيش، إضافة إلى أنه لقي اهتماما من البايات خصوصا الباي مصطفى بوشلاغم، الذي قام ببناء أبراج على طول هذا الطريق مثل برج الكرط الذي يبعد عن معسكر أربعة كم فقط وذلك سنة 1706م، بالإضافة الى الكثير من الأبراج والحصون والقصور التابعة لسلطة البايك³.

أما النوع الثاني فكانت الطرق الساحلية، والتي تربط بين المدن الساحلية في البايك، وهو في الأصل طريق واحد، وهو كالآتي:

¹ نفسه، ص32.

² مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص ص164-165.

³ جميلة مشرفي، الأسواق في البايك....، المرجع السابق، ص ص96-97.

- **الطريق بين وهران وتلمسان:** يبدأ من وهران ثم مسرغين ويمر على السبخة، ليصل إلى العامرية ويواصل مسيره بين المرتفعات والسهول، ليصل إلى جبل مليح ثم الصفصاف وأخيرا تلمسان.
- **طريق وهران مستغانم:** يبدأ هذا الطريق من مستغانم ثم مزغران، التي تعتبر قريبة من البحر الأبيض المتوسط، ثم يسير وسط المستنقعات والسبخات، ثم منطقة المقطع وأخيرا وهران، لقد عرف عن هذا الطريق أنه غير جيد وغير مهيا، ولم يلق اعتناء كالطرق الأخرى.
- **طريق مستغانم تنس:** يبدأ من مستغانم ليقطع بلاد قبيلة مجاهر، مروراً بعين تادلث ثم ميتوح ليصل إلى الشلف، ثم يمر بوادي علالة ليصل أخيراً إلى مدينة تنس¹.
- أما النوع الثالث من الطرق التجارية في البايك فهي الطرق الريفية والمسالك الجبلية التي تربط القرى والمداشر ومنازل القبائل ببعضها كما أنها تؤدي إلى المدن الكبرى وأبرز هذه الطرق:
- **طريق وهران والمرسى الكبير:** يبلغ طوله ستة كيلومترات، وقد أولاه الباي محمد الكبير رعاية خاصة، فقام بعد تحرير وهران والمرسى الكبير سنة 1792م، باستصلاحه كما أصبح المرسى الكبير الميناء الرئيسي للبايلك إلى غاية الاحتلال الفرنسي².
- **طريق الرابط بين وهران ومسرغين:** يصل إلى جبال تاسالة جنوباً، و تنتشعب عنه طرق فرعية كثيرة، ويقطن بالقرب منها الكثير من قبائل المخزن وقبائل الرعية.

¹ نفسه، ص ص 98-100.

² ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 249.

• **طرق أحواز تلمسان:** كانت كثيرة الطرق والمسالك، خاصة الطريق الذي يربط بين تلمسان وهنين، التي تعتبر الميناء الرئيسي لتلمسان، بالإضافة إلى الطريق الذي يربط تلمسان بأرشقول ومينائها، والتي تقع على بعد 45 كم، كما يعتبر الطريق نفسه الذي يربط تلمسان بندرومة في أغلب المسافات، و يعد مهما في نقل البضائع ومرور القوافل التجارية، خاصة القادمة من المغرب الأقصى¹.

ثانيا: المبادلات التجارية:

تعتبر الأسواق في بايلك الغرب، خلال عهد الدايات قطاعا هاما جدا، لما يدر على الخزينة من أموال، كما أنه يساير الحياة اليومية لكل أطراف البايك، فكان ملتقى لتبادل السلع والبضائع سواء كانت محلية أو أجنبية، وبذلك انتشرت الأسواق في مختلف أرجاء البايك، في مدنه وأريافه ما دفع البايات إلى دعم الأسواق وتوفير الأمن فيها، حتى أنهم أقاموا حرسا خاصا لحراستها ومراقبتها، واستعانوا في ذلك بفرق من قوات المخزن، كما كانت تقام أسواق أسبوعية وموسمية بالقرب من الحصون والحاميات التركية².

لقد كانت أغلب الأسواق تقام في المناطق الشمالية للبايك، فتركزت في المدن الكبرى وحولها وفي القرى وفي الأرياف أيضا، خاصة تلمسان التي كانت تعد القطب التجاري الأول في البايك خلال هذا العهد³، فنجد العديد من الأسواق تحمل اسم قبيلة من قبائل البايك خاصة قبائل المخزن، التي كانت تتخذ الأسواق مصدرا لدخلها، بحيث تفرض ضرائب على القبائل التي تريد بيع بضائعها في السوق، كما شهدت هذه الأسواق حركة كبيرة من التجار القادمين

¹ جميلة مشرفي، الأسواق....، المرجع السابق، ص ص102-103.

² دباب بومدين، أضواء على النشاط التجاري في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18، مجلة حقول معرفية للعلوم الاجتماعية و الإنسانية، ع2، 2020، ص110.

³ انظر الملحق رقم7.

من جنوب البايك، محملين ببضائع يباع جزء منها في الأسواق ويستهلك محليا، والجزء الآخر يشحن إلى موانئ البايك، ثم يتجه إلى الأسواق الأوروبية¹.

لقد فرضت السلطات العثمانية، على قبائل الرعية ضرائب لدخول الأسواق، واعتبرت الأسواق من وسائل الإعلام للسلطة، بحيث كانت القرارات والتعليمات الصادرة عن البايك تعلن في الأسواق، هذا ما جعل السيطرة على الأسواق في مصلحة السلطة، وكذلك تنفذ من خلالها قراراتها وتصل إلى مرادها من القبائل، كما أن السلطات أعطت أوامرها للمخزن بمراقبة الأسواق، من أجل إستخلاص الضرائب من القبائل المتنقلة، والتي لا تستقر في منطقة معينة، فإذا دخلت إليها أحد هذه القبائل، فرضت عليها ما تأخر من الضرائب أو يتم مصادرة البضائع التي أتت بها إلى السوق، وهذا ما جعل الكثير من القبائل ترضخ لأوامر السلطة، وتعطيها ما تريد من أموال من أجل الحصول على حرية الشراء والبيع والتبادل في الأسواق، خاصة وأنها قبائل تعتمد في عيشها على رعي المواشي، وهي في حاجة دائمة إلى المواد الغذائية، خاصة الحبوب من قمح وشعير².

لقد كانت الأسواق تأخذ لقبها من المدن أو القرى، التي تقع فيها وحتى الطريق التي يمر عليها، كما يتخذ لقبه من القبائل التي تسيطر على السوق أو يقع ضمن نطاقها الجغرافي، وكانت أغلب الأسواق في البايك ليست كبيرة، مثلما هو الحال في أوروبا، إنما كانت كثيرة ومنتشرة، بالإضافة كانت هناك أسواق مختصة أيضا في أنواع محدودة من البضائع، وأسواق شاملة يسمح فيها ببيع مختلف السلع والبضائع، كما كانت الأسواق تختلف في مواقيت إقامتها،

¹ Mauroy. M, Précis de l'histoire et du commerce de l'Afrique depuis les temps anciens jusqu'aux temps modernes, 4^e edition, Imprimerie de Duverger, Paris, 1852, p272.

² كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص222.

فنجد منها الأسبوعية والتي تخصص يوم واحد من الأسبوع، بالإضافة إلى تواجد أسواق موسمية وأسواق دائمة¹.

لقد تعددت الأسواق في البايك، واختلفت عن بعضها وتميزت بصفات خاصة، إلا أنها كانت محصورة في ثلاثة أنواع من الأسواق، فنجد الأسواق في المدن، والأسواق الريفية والأسواق المتنقلة، وكانت الأسواق في الأرياف توفر للقبائل ضروريات الحياة من المواد الغذائية والأثاث والأسلحة، فكان أفرادها دائما يترددون على الأسواق، لقضاء حوائجهم كما كان منهم من يبيع بضاعته فيها، خاصة القبائل التي تعتمد على الزراعة فتسوق منتوجاتها من قمح وشعير وبقوليات وفواكه، وأيضا القبائل التي تعتمد على المواشي، فكانت تجلب مواشيها إلى السوق لبيعها والاستفادة من ثمنها، علما بأن جزءا من الأموال يذهب إلى خزينة البايك على شكل ضرائب، وقد كانت أكثر الأسواق في الأرياف تكون أسبوعية، ويكون مكانها معروفا ومحددا بيوم من أيام الأسبوع، ولقد كانت بسيطة، وتقام في أراض خالية وعارية من الأشجار². ومن أهم هذه الأسواق، سوق الجعافرة بمنطقة اليعقوبية، سوق أولاد عياد بالشلف، سوق أولاد الشريف بثنية الحد، سوق اللوحة بأراضي قبيلة أولاد خليف المخزنية بضواحي تيهرت³.

كما كانت أيضا تتواجد أسواق موسمية وسنوية، كانت أغلبها تقام بالقرب من أضرحة الأولياء الصالحين، وكانت مقصدا للتجار والمستهلكين من مختلف الأرجاء، بالإضافة أن القبائل البدوية المتنقلة، خاصة التي تقع أراضيها بجنوب البايك، تنتقل إلى المناطق الشمالية في فصل الصيف، بحثا عن الماء والكأ لمواشيها، فكانت تلعب دورا كبيرا في إحياء هذه

¹ Mauroy. M, Op cit, p272.

² دحدوح عبد القادر، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني دراسة عمرانية أثرية، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2009-2010، ص246.

³ Ernest Carette, Du commerce de l'Algérie avec l'Afrique central et les états barbaresque, Imprimerie Du Roi, Paris, 1844, p20.

الأسواق، فتعرض بضاعتها ومواشيها للبيع، في المقابل تقتني الكثير من المواد اللازمة، قبل عودتها إلى مواطنها في الجنوب¹.

من أهم الأسواق أيضا في البايك، سوق الجمعة والذي كانت تقيمه وتشرف عليه قبيلة أولاد لكرد، بنواحي تيهرت ويعرف بسوق اللوحة الشهير، وقد أمرت السلطة أولاد خليف أحد قبائل المخزن، بمراقبة تحركات القبائل خاصة قبيلة أولاد سيدي الشيخ، التي كانت تتردد دائما على هذا السوق، ونجد بمنطقة تيهرت أيضا سوق الاثنين، الذي تقيمه وتشرف عليه قبيلة أولاد الشريف، وكان يشرف على هذين السوقين قائد البلد، الذي كان من قبيلة أولاد الشريف، وكان هذين السوقين رائجين فكانت تأتيهما القبائل من مختلف المناطق، مثل قبائل فليطة والحميان وأولاد سيدي الشيخ وأولاد شعيب وأولاد بوعيش والبرجية²، وقد كانت تباع في هذه الأسواق الخيول الجيدة وكانت وجه للتصدير إلى أوروبا خاصة مرسليليا³.

كان التجار يأتون لهذين السوقين من مختلف أرجاء البايك، خاصة من معسكر ومليانة ومستغانم، ومن خارج البايك كبني ميزاب والمدينة، وكانت تباع فيهما الأغنام والمنسوجات، كالبرانس والزرابي والخيول والأقمشة والحبوب وغيرها، كما يتواجد بنواحي تيهرت سوق فرندة، الذي كان يعتبر التبادل التجاري فيه يتم في فصل الصيف فقط، وذلك لأن قبائل جنوب البايك تنتقل إلى الشمال فكانت تعتبر المزود الرئيسي للسوق بالبضائع، كما تعتبر المستهلك الرئيسي للبضائع المعروضة في السوق من طرف أبناء قبائل المنطقة⁴.

¹ دحدوح عبد القادر، المرجع السابق، ص 247.

² كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 225.

³ انظر الملحق رقم 13.

⁴ نفسه، ص ص 225-226.

من أشهر القبائل التي ترتاد هذا السوق قبائل الأحرار والحميان وأولاد سيدي الشيخ، بالإضافة إلى القبائل القريبة من فرنده، وكانت تعرض فيه بضاعات مختلفة كالقمح والشعير والصوف والزرابي والزيت والخضر، كما كان سوقا للمواشي بامتياز خاصة لبيع الأغنام والخيول والحمير¹.

كما كان يقام كل يوم خميس، بسهل الهبرة القريب من معسكر سوق بأولاد السيد ، والذي كانت تقصده الكثير من القبائل، ويعتبر أهم الأسواق الريفية في البايك، ومن أشهر القبائل التي ترتاده قبائل أولاد سيدي دحو و بني شقران، بالإضافة إلى القبائل الواقعة بسهل السيق وعلى ضفاف وادي مينا وقبائل بني عامر، والكثير من سكان مازونة واحوازاها، وقد لقي هذا السوق إهتماما كبيرا من قبائل المخزن، وعلى رأسها الدواير والزمالة و البرجية، وكانت تعرض فيه مختلف البضائع والسلع وعلى رأسها الحبوب والخضر والفواكه، كما تباع فيه المواشي من أغنام وماعز وأبقار وخيول وبغال، بالإضافة الى السروج والحوافر والشمع والزيت و المنسوجات الصوفية و القطنية².

كما تواجد بالقرب من معسكر سوق البرج، الذي يعد من أهم الأسواق في البايك أيضا، فكان التجار يأتون إليه من كل مكان، حتى اليهود الذين يعتبرونه سوقا مميزا لبيع بضائعهم فيه ، ولقد كانت القبائل ترتاده دائما، خاصة التي لا تبعد مواطنها كثيرا عنه، مثل قبائل مجاهر، الحشم، فليته، المكاحلية، البرجية، بني شقران، وكان يباع فيه مختلف المنتجات كغيره من الأسواق، إلا أنه امتاز عنها ببيع البرانس الفاخرة و المنسوجات الجيدة، بالإضافة إلى الأحذية و الزيوت والثيران المخصصة لحرث الأراضي، كما كانت تعرض فيه أقوى الخيول وأسرعها، بالإضافة أن أسعارها اعلی من الخيول العادية، فقد كانت تعتبر خيولا أصيلة، ولقد عين

¹ نفسه، ص ص225-226.

² جميلة مشرفي، الأسواق في بايلك الغرب....، المرجع السابق، ص ص64-65.

العثمانيون للإشراف على هذا السوق، قائد البرج الذي كان يفرض غرامات و ضرائب على الذين يرتادون السوق، خاصة المحملين بالحبوب، الماشية، الزيوت، الصابون، وكان الجزء الأكبر من هذه الضرائب يذهب إلى خزينة البايك، وما تبقى منه توهب لقائد البرج وقبيلته المخزنية، كمكافأة من السلطة لهم، لحرصهم على الإستقرار ودعم سلطة الباي¹.

ولقد كان سوق قلعة بني راشد يعتبر أشهر أسواق البايك، فكان يأتيه التجار من كل نواحي البلاد، بالإضافة فإن سلعه كانت تصل إلى أدغال إفريقيا، وتغزو أسواق البلدان المغرب والمشرق العربيين والأناضول، فكان تجارهم يقتنون اجود المنسوجات والزراحي والسروج المطرزة بخيوط الذهب والفضة، كما كانت تعرض فيه المنتوجات الزراعية كالحبوب، البقوليات، الفواكه، الخضر، الصوف، القطن، القهوة، السكر، الصابون، الزيوت، المواشي من اغنام و ماعز فقط، لأن أرضيته لا تسمح بدخول الخيول و الأبقار².

لقد كانت منطقة اليعقوبية، تشتهر بسوق يقام فيها كل يوم إثنين من الأسبوع، وتقصده القبائل القريبة منها، ابرزها قبيلة الحساسنة، أولاد إبراهيم، أولاد عوف، أولاد خالد الشراقة، أولاد خالد الغرابية، أولاد داود، الحشم الغرابية، فكانت تعرض فيه مختلف البضائع والسلع³.

كما كان سوق ندرومة سوقا مهما، يلتقي فيه التجار من تلمسان ومغنية ومارونة وقلعة بني راشد، ولقد قدر عدد الذين يرتادون السوق بحوالي أربعة آلاف فرد، بالإضافة فإن تجار ندرومة كانت لهم علاقات كثيرة بتجار البايك، و تجار من المغرب الاقصى، وكان يتم فيه عرض

¹ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص ص226-227.

² جميلة مشرفي، الأسواق في بايلك الغرب....، المرجع السابق، ص65.

³ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص228.

بضائع مختلفة خاصة الأقمشة، الزرابي، المنتجات القطنية، الأحذية، الفواكه المجففة، العسل، المواشي من اغنام و ماعز¹.

كما كان بسهل الشلف أسواق تقيمها القبائل وترتاها من كل انحاء البايك، وأهمها سوق الأحد الذي كان يتواجد بمنطقة السعداوية، وسوق الاربعاء بسعداوية أيضا، وكانت تقيمه قبيلة أولاد عباس، بحيث يعرضون فيه منتجاتهم الزراعية والصناعية، بالإضافة فإن التجار يجلبون سلعهم إلى هذه الأسواق، وكانت اغلب المعاملات فيها، تتم بمبدأ المقايضة سلعة بسلعة².

كما كان هناك سوق بالقرب من الشلف، يسمى سوق أولاد ابراهيم ويقام كل يوم جمعة من كل أسبوع، وبمليانة أيضا يوجد سوق يسمى سوق كرام، وكانت تعرض في هذه الأسواق مختلف السلع على رأسها لحوم البقر والالبان ومشتقاتها³.

كما إنتشرت في البايك الأسواق المتنقلة، وكانت مهمة ومنتشرة في اقطار البايك فلم تقتصر على مكان واحد، بل كانت تقام بين مراع القبائل وبالقرب منها، فكانت في اغلبها تحمل بضائع ومنتجات صناعية وغذائية، تختص بها الأسواق في المدن، ولقد كان النظام القائم فيها يقوم على المقايضة، بحيث يزودون القبائل بالمواد المصنعة، مقابل المنتجات الزراعية من حبوب وخضر وفواكه وأيضا مواشي⁴.

¹ بوغفالة ودان وجميلة مشرفي، الأسواق في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني (1519-1830)، مجلة الناصرية، مج8، ع1، 2017، ص131.

² الطاهر جنان، المرجع السابق، ص ص35-36.

³ خالد بلعربي، الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مجلة كان التاريخية، ع 6، ديسمبر 2009، ص32.

⁴ الواليش فتيحة، المرجع السابق، ص78.

لقد كانت تمثل هذه الأسواق واسطة بين القبائل والتجار في المدينة، كما أن أسعار المنتوجات الفلاحية لدى القبائل تعتبر زهيدة، ما يمكن التجار من بيعها في أسواق المدينة بأرباح كبيرة، كما أن ثمنها يساعد في شحنها وبيعها للتجار الأجانب¹.

لقد ساهمت هذه الأسواق في ربط شمال البايك بجنوبه، فنجد أن القبائل البدوية بالجنوب تحمل نفسها ومواشيها إلى الهضاب والمناطق الساحلية، في أواخر فصل الربيع بحثا عن الماء و الكلاً لمواشيها، ويحملون معهم الكثير من البضائع والمنتوجات، من مواشي ومنسوجات وعطور وتوابل و سلع إبتاعوها من أعماق إفريقيا، وكانوا بذلك يشكلون قوافل متنقلة تجوب أقطار البايك، في المقابل فإنهم يقتنون المواد اللازمة والضرورية من القبائل المتمركزة في الشمال، كالحبوب، الفواكه المجففة والعسل، وهذا ما ساهم في إزدهار النشاط التجاري في البايك، ومن أهم القبائل الجنوبية، الحميان وأولاد سيدي الشيخ، ولقد إستقادت القبائل في الشمال كثيرا من هذه القبائل المتنقلة، وأشهر القبائل التي إستقادت منهم قبيلة سيدي العربي، التي تقع أراضيها بالقرب من مستغانم، فكانت لها علاقات كبيرة مع قبائل الجنوب، فكانوا يجلبون لها ما تريد من سلع غير متوفرة في الشمال، وبالمقابل تمدهم بسلع غير متوفرة في أراضيهم².

أبرز ما ميز عهد الدايات أنه شهد حركة تجارية واسعة في الأرياف، وبين القبائل بعكس المراحل العثمانية السابقة، ويرجع هذا التوسع التجاري في الريف، إلى أن القبائل عرفت نوعا من الاستقلالية عن السلطة، كما أن القبائل إعتمدت في تجارتها على نظام المقايضة و تبادل السلع في أغلب الأحيان، ولم تستعمل النقود والعملات المعمول بها في البايك، بالإضافة فإن القبائل الصحراوية تتحرك بسهولة في الشمال، بعدما أمنهم البايات على أنفسهم وأموالهم

¹ Elie De La Primaudaie, Le commerce et la navigation de l'Algérie, Chlahure, Paris,1861,p227.

² دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص ص166-167.

ومواشيهم، مقابل تقديم الضرائب المفروضة وبعض الهدايا للباي ورجال سلطته، فكانت تأخذ من سهول الشلف مستقرا لها في فصل الصيف، بالإضافة إلى سهول وهران ومستغانم وتلمسان، وكان بعضها الآخر يتخذ من الهضاب بنواحي تيهرت وجنوب اليعقوبية مستقرا لها¹.

غير أن إنتقالها من الجنوب إلى الشمال يأخذ وقتا طويلا، كما أنه يعتبر سفرا مكلفا، هذا ما جعل أسعار الكثير من المواد التي يحملونها تتضاعف، ومثال ذلك أن سعر حمولة جمل من التمر في الصحراء لا يتجاوز 15 فرنك، بينما يباع في مناطق الشمال بحوالي 400 فرنك، إضافة لهذا فإن الأسعار تتغير من حين لآخر ومن سنة إلى أخرى، وذلك بفعل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تساهم في وفرة المنتجات وندرتها، فمثلا كان سعر البقرة الواحدة في وهران مطلع القرن التاسع عشر 80 فرنك، لكن بفعل الجفاف والأوبئة والكوارث الطبيعية في أواخر العهد العثماني، أصبح سعرها لا يتجاوز 40 فرنك².

أعتبرت تلمسان وأحوازها قطبا تجاريا هاما خلال عهد الدايات، فأصبحت المبادلات فيها تضاهي مدينة الجزائر عاصمة الإيالة، وزيادة على ما ذكر كانت رائدة المبادلات التجارية مع القبائل الصحراوية، فتجارها يستقدمون السلع والبضائع من مختلف مناطق البايك، إضافة إلى إستقطابها للتجار من المغرب الأقصى، فأصبحت مستودعا للسلع في المنطقة، ما ساعد تجارها في السيطرة على تجارة المواد القطنية والأقمشة والحرير والأحذية والمنسوجات الفاخرة³، ولقد سيطرت على نسبة كبيرة من الصادرات إلى المغرب الأقصى، حيث بلغت صادراتها إليه 400

¹ توفيق دحماني، النظام الضريبي....، المرجع السابق، ص 19.

² نفسه، ص 20.

³ نفسه، ص ص 19-20.

ألف فرنك ذهبي في سنة واحدة، وفي المقابل كان تجارها يستوردون من المغرب الأقصى الثيران والخيول والجلود والحناء والحديد والتوابل¹.

-خلاصة الفصل:

رغم الظروف غير المساعدة من أجل تحقيق نمو إقتصادي فعلي وواضح، فإن قبائل بايلك الغرب رغم إفتقارها ،للكثير من التجهيزات والأدوات المتطورة، المستعملة في القطاعات الاقتصادية في أوروبا، فإنها إستطاعت أن تحقق الإكتفاء الذاتي للبايلك في الكثير من القطاعات خاصة الزراعية منها، بل وأصبحت السلطات من خلالها تصدر كميات كبيرة من منتوجاتها إلى مختلف الأسواق الأوروبية وأسواق المغرب الأقصى، وكذلك كانت الأنشطة الصناعية والحرفية والتي إقتصرت على بعض الصناعات التقليدية، كالمنسوجات والنحاسيات والسروج والصابون والصناعات الغذائية، مثل زيوت ومربى وفواكه مجففة، بالإضافة إلى صناعة الأسلحة التقليدية كالسيوف والخناجر والبارود أيضا.

¹ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص72.

كما كان النشاط التجاري مزدهرا أيضا، فكانت الأسواق منتشرة في مختلف أرجاء البايك، وكانت في غالبها أسبوعية أو موسمية، وكان للقبائل دور كبير في إقامتها، وما ساعد على ذلك هو توفر شبكة الطرقات المساعدة لنتقل القوافل التجارية والتجار عبر مناطق البايك وأسواقه، ولقد كانت هذه الأسواق مزدهرة وتباع فيها مختلف السلع والبضائع والمواشي، كما اشتهرت أيضا أسواق نواحي تلمسان، التي كان يرتادها الكثير من تجار المغرب الأقصى، الذين كانوا يقتنون الكثير من السلع والمواد ويأخذونها إلى بلادهم لبيعها، بالإضافة إلى تجار البندقية ومرسية ومرسيليا والكثير من المدن في جنوب أوروبا، والذين كانوا يغشون أسواق البايك ويبتاعون ما يريدون من سلع من أجل تسويقها في بلدانهم.

الفصل الرابع: الأوضاع الاجتماعية والثقافية لقبائل بايلك الغرب وموقف السلطة منها

المبحث الأول: الأوضاع الاجتماعية

أولاً: الكوارث الطبيعية

ثانياً: الأوبئة و الأمراض

المبحث الثاني: الأوضاع الثقافية

أولاً: المؤسسات التعليمية

ثانياً: العلماء في بايلك الغرب وعلاقتهم بالسلطة

الفصل الرابع: الأوضاع الاجتماعية والثقافية لقبائل بابلوك الغرب وموقف السلطة منها

-تمهيد:

لقد شهد بابلوك الغرب خلال عهد الدايات، أوضاعا إجتماعية مستقرة نوعا ما إلى غاية منتصف القرن الثامن عشر، حيث بدأ البابلوك يشهد موجات من الكوارث الطبيعية، فتخللته طوال الفترة الأخيرة من عهد الدايات، وقد شهد أنواعا عديدة من هذه الكوارث، على رأسها القحط والجفاف والجراد والفيضانات والزلازل، وقد ساهمت بشكل مباشر في ظهور مجاعات شديدة، بالإضافة أنه عانى كثيرا من المجاعات، خاصة في العقد الأخير من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ولقد كانت هذه الكوارث الطبيعية في أغلب الحالات المسبب الأكبر للمجاعات، بالإضافة إلى مساهمتها في تدهور الأوضاع الصحية خلال نفس الحقبة من هذا العهد، فانتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكة وزادت من معاناة السكان، إلا أن السلطات لم تصنع شيئا ملموسا في مواجهة هذه الكوارث والأوبئة، ويرى الكثيرون أن موقفها كان سلبيا جدا، أظهرت فيه السلطات عجزا كبيرا وواضحا، ما أدى في الأخير إلى تدمير الرعية، بالإضافة إلى الكراهية التي أصبحت تكنها لها.

أما بالنسبة للأوضاع الثقافية، فقد عرف البابلوك إزدهارا محدودا نوعا ما في هذا المجال، وذلك من خلال إنتشار المؤسسات التعليمية، التي ساهمت بدورها في نشر رسالة العلم والتعليم في البابلوك، كما أن السلطات لم تكن تدعم كثيرا هذه المؤسسات، خاصة تلك التي تقع في الأرياف والبوادي، وإقتصر إهتمامها على رعاية بعض المدارس والمساجد والمكتبات الكبرى في المدن، كما كان العلماء في البابلوك كانت علاقتهم بالسلطة تتراوح بين العلاقة الإيجابية حيناً، والسلبية حيناً آخر، وكانت هذه العلاقات مرتبطة بمدى تقرب البايات لهم، أو نفورهم منهم.

المبحث الأول: الأوضاع الاجتماعية لقبائل بايلك الغرب

أولاً: الكوارث الطبيعية:

شهدت الجزائر عامة وبايلك الغرب على وجه الخصوص، خلال فترة عهد الدايات، موجات من الكوارث الطبيعية، التي كانت لها آثار سلبية على الوضع الديمغرافي للسكان، فقد توالى هذه الأزمات على بايلك الغرب، بداية مع مطلع القرن الثامن عشر، نهاية هذا العهد، بداية من ظاهرة القحط والجفاف وأسراب الجراد، كما شهد البايك زلازل مدمرة بالإضافة إلى الفيضانات، ما أدى إلى تزعزع ديمغرافي في البنية السكانية للبايلك، التي أثرت بشكل مباشر على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ما أدى إلى إنتشار مظاهر البؤس والشقاء بين السكان، وقد كان لهذه الكوارث وقع شديد في القرى والمدن على حد سواء، إذ ساهمت في تفشي الأمراض وتدهور المستوى المعيشي، ما جعل الدولة العثمانية في البايك تقف أمام تحديات اجتماعية واقتصادية في وقت كانت تعاني فيه من ضعف مالي وفساد إداري، وقد إقتصرت مواجهتها لهذه الأزمات بإستخدام وسائل محدودة ومتوسطة جداً¹.

1. القحط والمجاعات:

لقد شهد بايلك الغرب خلال آواخر عهد الدايات موجات من القحط، التي تسببت في مجاعات شديدة ، ومن بين أبرز هذه المجاعات، تلك التي اصابت البايك مع بداية حكم الباي محمد الكبير سنة 1779م، والتي عانت منها كثيرا عاصمة البايك معسكر، فقد كانت المجاعة شديدة إلى درجة أن كثيراً من السكان، اضطروا إلى أكل المحرمات من ميتة ولحم الخنزير،

¹ نوفيق دحماني، الأوضاع الصحية و الكوارث الطبيعية في الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي، ملتقى وطني بعنوان الوضع الصحي في الجزائر خلال الاحتلال، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ص 1.

ويعد هذا مشهدا يعكس حجم الكارثة ،التي ألمت بالبلاد، وهو ما مهد لانتشار الأوبئة والأمراض التي حصدت أرواح الآلاف من السكان¹.

يعتبر السبب المباشر لهذه المجاعة اجتياح أسراب الجراد للأراضي الزراعية، حيث أتلقت كل المزروعات، وحرمت الناس من محاصيلهم الغذائية خاصة القمح والشعير، وأمام هذا الوضع الكارثي تحرك الباي محمد الكبير، بإجراءات حاول فيها إحتواء الأزمة، فأمر باستيراد كميات ضخمة من القمح والشعير، كما أصدر أوامره بتخفيض أسعار المواد الغذائية في الأسواق، لتكون في متناول الطبقات الفقيرة، ومن ضمن ما قام به أيضًا فتح أبواب المدارس والمساجد وقصور رجال الدولة وحتى قصره الخاص، لاستقبال الفقراء والمحتاجين، وتقديم الطعام واللباس لهم، للتخفيف من وقع المجاعة وآثارها على السكان².

لم تكن هذه المجاعة حالة معزولة، بل عرف البايك سنوات أخرى من الجفاف الشديد، خاصة بين عامي 1770 و1780، وهي الفترة التي عانى فيها السكان من شح الأمطار، ما أدى إلى تدني المحاصيل الزراعية، ويرجع هذا الوضع إلى اعتماد الزراعة في البايك بدرجة كبيرة على مياه الأمطار، إذ لم تكن هناك سدود كبيرة وشبكات سقي منظمة، وكان لهذا الاعتماد الكلي على تساقط الأمطار، أثر سلبي في حال تأخرت أو انعدمت، إذ تضعف الإنتاجية بشكل كبير وبذلك ينعدم الأمن الغذائي، كما ازداد الأمر سوءًا عندما تكررت هجمات الجراد، التي كانت تأتي على ما تبقى من محاصيل ضعيفة، وقد ترتب على ذلك انقطاع المؤن

¹ ابن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص205.

² فلاح سفيان، الأوبئة والأمراض في ابيلك الغرب الجزائري من خلال المصادر المحلية والأوروبية في القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2021-2022، ص175.

في مناطق واسعة من البابلوك، وارتفاع كبير في أسعار المواد الغذائية، ما تسبب في موجة من النزوح الداخلي من القرى ومواطن القبائل، نحو المدن بحثاً عن المعونة والطعام من السلطة¹.

بعد سنة 1792، تعرض البابلوك لموجة جفاف شديدة، تسببت في ارتفاع كبير في أسعار المواد الغذائية، فاضطرت القبائل المقيمة في الأرياف، إلى التوجه نحو مدن مثل معسكر ووهران ومستغانم، أملاً في الحصول على مساعدات من طرف السلطات، ولمواجهة هذه الأزمة قام الباي محمد الكبير، بجولات ميدانية في المناطق المتضررة في البادية، محاولاً توزيع المساعدات واحتواء تدفق الفقراء نحو المدن، في إطار سياسة تخفيف العبء عن الحواضر، وفي سنة 1816 ضربت البابلوك موجة جديدة من الجفاف وتحديداً في وهران وأحوازها، حيث شهدت تلك السنة تراجعاً حاداً في كمية الأمطار، مما أدى إلى فساد الزروع وغلاء الأسعار، بل وانتشار اللصوصية أسوا، نتيجة تدهور الوضع المعيشي للقبائل خاصة².

وخلال فترة حكم الباي عثمان، عانى البابلوك من أسراب الجراد، والذي قضى على الأخضر واليابس، فأتلف المحاصيل الزراعية والثمار، وتسبب في تضاعف أسعار القمح والشعير والمواد الغذائية الأساسية، إلى حد جعل شريحة واسعة من السكان، عاجزة تماماً عن شراء حاجاتها الغذائية³.

وفي عهد الباي محمد المقلش، ضربت البابلوك مجاعة شديدة، تُعد من أشد وأقسى المجاعات التي عرفتها البلاد خلال عهد الدايات، وكانت تلمسان وأحوازها أكثر المتضررين بهذه الكارثة، حيث أثرت المجاعة بشكل مباشر على الأوضاع المعيشية والإقتصادية، وانتشرت اللصوصية بسبب ندرة الغذاء، ما أدى إلى فقدان الأمن والسيطرة على السكان، ودخل البابلوك

¹ دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص 263.

² نفسه، ص 263-264.

³ نفسه، ص 263-265.

مرحلة من الفوضى وعدم الاستقرار، ولقد بلغت الأمور من السوء درجةً كبيرة، حيث أدت إلى إندلاع مواجهات داخلية بين الحضر من جهة والكراغلة من جهة أخرى، وهذا ما يبرز لنا حجم الكارثة وتداعياتها¹.

وأمام تفاقم الأوضاع اضطر الباي محمد المقلش، إلى التدخل بسرعة، فلم يجد أمامه من حل سوى مهاجمة قبيلة بني عامر، المعروفة بثروتها الزراعية فقام بمصادرة مطاميرها ومخازنها من الحبوب، واستولى على كميات ضخمة من المؤونة، بلغت حمولتها أكثر من تسعمائة جمل، ثم أمر بإرسالها مباشرة إلى تلمسان وأحوازها، ولقد اتخذ هذا الإجراء أيضاً كنوع من العقاب السياسي، نظراً لمساندة قبيلة بني عامر للدقاويين، في تمردهم ضد السلطة العثمانية، ولقد نجحت هذه الخطوة في إعادة الهدوء إلى تلمسان والبايلك عموماً، بعد أن كاد أن ينزلق في حرب أهلية عصبية، قد تصل تداعياتها إلى البلاد كلها، حيث ساهم توزيع المؤونة تحت إشراف رجاله في تهدئة النفوس، وعودة الأمن والاستقرار إلى تلمسان وضواحيها، بعد فترة من التوترات والانفلات الأمني².

لكن لم تمضِ سنوات كثيرة، حتى عادت الكارثة في سنة 1827، حين ضرب الجفاف والقحط البايلك مرة أخرى، بشكل أشد وطأة من السابق، فشخت الأقوات وارتفعت الأسعار بشكل جنوني، ما أدى إلى وفاة الكثير من الناس لا سيما في الأرياف، ما دفع القبائل إلى النزوح نحو المدن الكبرى خاصة وهران ومعسكر وتلمسان، أملاً في الحصول على المساعدة من طرف السلطات، ولمواجهة هذه الأزمة اضطر الباي حسن بن موسى الباهي، إلى إتخاذ عدة تدابير وإجراءات، ولعل أشهرها عندما قام بتصغير حجم رغيف الخبز وتوزيعه على السكان، بغرض

¹ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص176.

² كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص176.

إطعام أكبر عدد من الناس، وقد أُطلق على هذا العام لقب "عام خبز الباشا"، دلالة على حجم الكارثة وقسوتها¹.

من المعروف أن الجفاف لم يكن مجرد انقطاع في الأمطار، بل كانت له تبعات خطيرة تمس كل جوانب الحياة، على الرغم من وجود سدود فلاحية صغيرة أنشأها بعض الفلاحين من أموالهم الخاصة، إلا أنها لم تكن كافية لمجابهة الأزمة، نظرًا لاعتماد الفلاحة أساسًا على الأمطار الموسمية، وعندما تنعدم الأمطار، تتدهور الزراعة وينهار الإنتاج².

وتجدر الإشارة إلى أن الكوارث الطبيعية المرتبطة بالجفاف، لم تكن نادرة بل كانت تتكرر كثيرًا، ومن ذلك الفيضانات المفاجئة، التي كانت تأتي في أعقاب فترات الجفاف، فتقضي على الزرع والضرع وتهدم البيوت، كما أنها تخلف خسائر بشرية ومادية جسيمة، ما زاد من تفاقم الوضع في أواخر هذا العهد³.

أصبح الجفاف حدثًا متكررًا ومخيفًا، وارتبط في أذهان الناس بالمجاعة المؤكدة، خاصة مع تذبذب تساقط الأمطار، وانقطاعها خصوصًا في شهري مارس وأفريل، وهما أهم الشهور التي تتأثر بهما الزراعة إيجابًا أو سلبًا، فقد كانت المحاصيل الزراعية تتأثر مباشرة بهذا الانقطاع، ويتراجع مردودها بشكل كبير، ما زاد من معاناة أفراد القبائل، الذين يعتمدون على الإنتاج الزراعي لتلبية مطالبهم المعيشية، وما زاد من هذه المعاناة، تقاعس أغلب البايات في مواجهة الكوارث، بل إنشغل بعضهم بجمع الضرائب من القبائل، حتى في أوج الأزمات وهذا ما جعل

¹ ابن يوسف الزباني، المصدر السابق، ص 247.

² فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، قسم الآداب، جامعة بسكرة، 2014-2015، ص 17.

³ مسعودي فتحة، الكوارث الطبيعية في الجزائر خلال القرنين 18م و19م بين التأثيرات السياسية والاجتماعية، أطروحة دكتوراه، جامعة الشلف، 2024، ص 66.

أبناء القبائل يتذمرون من السلطة العثمانية، كما أنهم أصبحوا لا يرونها مساعدا لهم، بل أصبحت أحد الأسباب التي زادت في تفاقم المجاعة من خلال سياساتها الجبائية القاسية¹.

وفي ظل هذه الظروف القاسية، أصبحت أسعار الحبوب باهظة، حيث وصل صاع القمح إلى تسعة رقص، وصاع الشعير إلى أربعة، وهي أسعار لم يكن باستطاعة غالبية السكان تحملها، وفي المقابل انخفضت أسعار المواشي بشكل كبير، حيث بلغ سعر رأس الغنم اثنين رقص فقط، بسبب خشيتهم من نفوقها نتيجة ندرة الأعلاف، وهكذا أصبح القمح والشعير هما العملة الحقيقية التي تقاس بهما الحياة، في وقت صار فيه الغذاء أغلى سعرا من الذهب².

وفي سنة 1804 شهد البايك كارثة طبيعية قاسية، تمثلت في جفاف شديد، حيث انقطعت الأمطار لفترة طويلة، فكان الإنتاج الزراعي ضئيلا جدا، بل أصبح منعما، ولقد أدى هذا الوضع إلى ندرة حادة في المواد الغذائية، وفي مقدمتها القمح والشعير الذين كانا يمثلان القوت اليومي للسكان، ونتيجة لهذا التدهور ارتفعت أسعارهما بشكل غير مسبوق، فبلغ سعر الصاع الواحد من القمح ما يقارب خمسة عشر بوجو، وهو مبلغ كبير لم يكن في متناول عامة الناس، خاصة الفئات الفقيرة، وأبناء القبائل الريفية التي تعتمد على الزراعة من أجل الإستهلاك وتحصيل الأموال أيضا³.

لقد خلف هذا القحط مجاعة شديدة، انتشرت في معظم أرجاء البايك، وبلغت حدًا كبيرا من الفتك، وكان من خسائر هذه المجاعة أنها قد أهلكت الكثير من العلماء، والعديد من الرموز

¹ ناصر الدين سعيدوني، الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان آواخر العهد العثماني 1791-1830)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص324.

² المنور مروش، دراسات عن الجزائر....، المرجع السابق، ص147.

³ يمينة سعودي، الحياة الأدبية بقسنطينة خلال الفترة العثمانية، رسالة ماجستير في الأدب، جامعة قسنطينة، 2005-2006، ص44.

العلمية في البايك، مثل الفقيه العالم عبد القادر السنوسي بن زرفة، المعروف بعلمه وورعه، كما توفي أخوه العالم الهاشمي، وكانا من أعمدة الفقه والدين في البلاد، ولم يسلم كذلك ابن عمهما مصطفى بن عبد الله مؤلف كتاب "فتح وهران"، وهو أحد المؤلفات التي وثقت لجوانب هامة من التاريخ المحلي للبايك، ما يبرز حجم الكارثة التي لم تستثن أحدًا من بطشها¹.

ازدادت وطأة الجفاف والمجاعات مع استمرار تدهور الأحوال في السنوات الأخيرة من هذا العهد، فقد كان أثر التغيرات المناخية القاسية يتعمق عامًا بعد عام، ويمكن تتبع مؤشرات الأزمة من خلال تتبع أسعار القمح، التي شهدت تصاعدًا كبيرًا وخياليا، ففي مطلع سنة 1814، بلغ سعر الصاع ستة رقص، لكنه لم يلبث حتى إرتفع في نهاية نفس السنة إلى خمسة عشر رقصًا، أي بزيادة فاقت الضعف خلال بضعة أشهر فقط، أما في سنة 1815 فقد واصل سعر القمح ارتفاعه ليبلغ حوالي 23 رقصًا للصاع، تلاه ارتفاع جديد في سنة 1816 ليصل إلى 25 رقصًا، وقد بلغ سعره الذروة في بداية سنة 1817، حيث بلغ السعر 37 رقصًا للصاع الواحد، وهو ما شكّل عبئًا ثقيلاً على أغلب السكان، وخصوصًا المزارعين الذين لم يعودوا قادرين على توفير القوت لهم ولأسرهم، وبقيت الأسعار مرتفعة على هذا النحو طيلة سنوات الأزمة، إلى أن شهد خريف سنة 1819 بعض الانفراج، حيث انخفض سعر الصاع إلى 24 رقصًا، وهو انخفاض طفيف لم يغير كثيرًا من الوضع المتردي، لكنه أعطى بعض الأمل للسكان من أجل تجاوز هذه المحنة².

ما زاد من تفاقم هذه الكوارث الإنسانية، ظاهرة احتكار السلع الغذائية، إذ لم تكن المجاعات نتيجة طبيعية فحسب، بل ساهمت فيها عوامل بشرية واقتصادية، مرتبطة بمصالح بعض التجار الكبار، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث سنة 1805، حين ضربت البلاد مجاعة شديدة،

¹ مسعودي فتحة، المرجع السابق، ص 69.

² نفسه، ص 69-70.

غير أن حدّتها زادت بشكل لافت، بسبب ممارسات بعض التجار الكبار، الذين استغلوا الأزمة لتحقيق الأرباح الكبيرة على حساب معاناة الشعب، ومن بين هؤلاء التجار وأبرزهم التاجران اليهوديان بكري وبوشناق، اللذين استغلا نفوذهما القوي داخل السلطة المركزية، لا سيما علاقتهما المباشرة بالداي مصطفى، الذي سمح لهما بتصدير كميات كبيرة من القمح نحو أوروبا، خاصة إلى مرسيليا وبعض الإمارات الإيطالية، في وقت كانت فيه الأسواق المحلية في حالة عجز حاد، بسبب عجزها عن تلبية احتياجات السكان من القمح والشعير، وهو ما جعل المجاعة تستفحل بشكل كارثي¹.

2. الفيضانات:

عرف بايلك الغرب خلال عهد الدايات، سلسلة من الفيضانات العنيفة والمتكررة، والتي يمكن اعتبارها من أبرز الكوارث الطبيعية، التي كان تأثيرها كبيرا على حياة السكان، وذلك لما تسببت به من أضرار فادحة وخسائر جسيمة على مختلف الأصعدة، سواء البشرية منها أو المادية، ولقد ارتبطت هذه الفيضانات غالباً، بسنوات الجفاف والقحط التي تسبقها، إذ بعد انحباس طويل في الأمطار، تتساقط الأمطار بشكل كبير ومفاجئ، ما ينتج عن هذه الظاهرة جريان كبير في الوديان، التي بدورها تجرف كل ما في طريقها، من زرع وضرع ومساكن وبنية تحتية، مع العلم أن البنية التحتية خلال هذا العهد كانت ضعيفة نوعاً ما، بالإضافة فإنها كانت تدمر القرى الفلاحية والمزارع والبساتين، وتؤدي إلى نفوق عدد كبير من المواشي، ناهيك عن الأضرار التي تلحق بالمزارعين والرعاة².

¹ آف شوبيرغ، الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، تر أبو العيد دودو، المجلد الأول، دار الأمة ، طبعة خاصة، 2009، ص39.

² مسعودي فتحة، المرجع السابق، ص64.

لقد شهدت البلاد فيضانات مدمرة بشكل خاص، خلال سنتي 1812 و1816، حيث خلفت هذه الكوارث الطبيعية، خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، فقد أتلقت الفيضانات محاصيل زراعية، كانت تعتبر عماد القوت اليومي للناس، كما أفسدت بساتين الثمار في البساتين والواحات، ما أدى إلى أزمة غذائية خانقة، وقد بلغ سعر القمح حينها أضعاف ما كان عليه، إذ تضاعف تقريباً سبع مرات، الأمر الذي زاد من إنتشار مظاهر الفقر والبؤس، كما انتشرت المجاعات لا سيما في الأرياف والمناطق النائية، وقد زاد البرد القارس من حدة الأزمة ، وتشرّد الآلاف من العائلات بعد أن دمرت منازلهم، سواء في المدن أو القرى، وبالرغم من الجهود التي حاول البايات بذلها، من أجل التخفيف من وقع هذه الكارثة، من خلال توزيع بعض المؤن والمساعدات البسيطة، فإنها لم تكن كافية أمام حجم المعاناة، فالكارثة كانت أكبر من إمكانيات البايك¹.

على مدى القرن الأخير من الحكم العثماني، عرف بايلك الغرب عدداً متكرراً من الفيضانات، التي كانت تضرب البلاد على فترات متقاربة، وتؤثر سلباً على الزراعة والتجارة والحياة الاجتماعية برمتها، وكان وقعها يضاهاى وقع الجفاف في تسببها في المجاعات وغلاء الأسعار، بالإضافة على انتشار البطالة واللصوصية التي يرافقها فقدان الأمن والاستقرار، وغالباً ما كانت نتائجها تؤدي إلى انفجار الأوضاع، ونقمة القبائل على السلطة، فهي ترى أنها مقصرة في أداء واجباتها تجاه السكان، وقد أحصى المؤرخون عدداً من الفيضانات الكبرى، التي أصابت بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهي: 1727، 1731، 1733، 1734، 1736، 1740، 1753، 1755، 1757، 1791، 1812،

¹ فلة موساوي قشاعي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518-

1871، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص88.

1816، وهي سنوات أضرت بالسكان، سواء من حيث حجم الخسائر، أو من حيث اتساع رقعة المتضررين بها¹.

أدت هذه الفيضانات إلى عجز الكثير من القبائل، عن دفع الضرائب والجبايات للسلطة، وهو ما شكل ضربة موجعة لخزينة البايك، التي كانت تعتمد على هذه الموارد في تمويل القطاعات التابعة للسلطات، وفي بعض الأحيان اضطر البايات إلى إعفاء بعض القبائل، من دفع الضرائب وذلك مراعاة للمحن التي مروا بها، إلا أن هذا لم يكن كافياً لبناء الثقة بين السلطة والقبائل، فالعجز المالي والإداري للسلطة العثمانية، فتح المجال أمام حالة من السخط والتذمر، وصلت حد العصيان والتمرد، بل وصل سخط بعض القبائل، إلى دعم ومساندة الثورات الدينية والإنتفاضات القبلية، كالثورتين الدقاوية والتيجانية، ومن نتائج هذه الفيضانات أيضاً، أن السلطات وضعت يدها على كثير من الأراضي، التي فقد أصحابها حياتهم في المجاعات أو الكوارث، حيث تم ضم قسم منها إلى ممتلكات الدولة، في حين ألحق القسم الآخر بمؤسسة الوقف².

3. الجراد:

من بين الكوارث الطبيعية التي عرفها البايك خلال هذا العهد، زحف أسراب الجراد الذي كان من أشد الكوارث إضراراً بالأراضي الزراعية، رغم أنه نادراً ما يُذكر بنفس مستوى الجفاف أو الفيضانات، فقد كانت أسراب الجراد تأتي فجأة، وبأعداد هائلة تغطي مساحات واسعة من الأراضي، وتأتي على الأخضر واليابس، فلا تترك زرعاً إلا أهلكته، وكان هذا الزحف سبباً رئيسياً في انعدام المواد الغذائية وغلاء الأسعار، ما أدى إلى مجاعات عنيفة، وقد عرف البايك

¹ محمد بن جبور، الوضع الصحي بالجزائر في أواخر العهد العثماني، مداخلة في ملتقى وطني بجامعة معسكر، ص4.

² نفسه، ص4.

موجات متكررة من زحف الجراد، منذ بداية القرن الثامن عشر، وأشهر السنوات التي سُجل فيها ذلك: 1710، 1716، 1724، 1725، 1760، 1778، 1779، 1780¹.

كما أن أسراب الجراد كانت تظهر في أوقات حرجة، وغالبًا ما تتزامن مع ضعف الإنتاج الزراعي، أو بداية موسم الحصاد، ما يزيد من وقع الكارثة، ولم تكن هناك وسائل فعالة للتصدي لهذه الأسراب، سواء من قبل السكان أو من قبل السلطة، فكان الجميع في مواجهة قدر محتوم، لا سبيل إلى دفعه، وكان الناس يلجؤون إلى ما تيسر لهم من حلول بدائية، من إشعال النيران أو إحداث الضجيج لإبعاد الأسراب، غير أن هذه الوسائل لم تكن مجدية، أمام الأسراب الكثيفة والقوية، أما السلطات العثمانية فلم تكن تملك الوسائل التقنية أو التنظيمية الكفيلة بمواجهة الظاهرة، فكان اعتمادها الأكبر على الدعاء والصدقات، إلى جانب دعوة السكان إلى إدخار ما إستطاعوا عليه من مواد غذائية، بالإضافة إلى تقليل الاستهلاك حتى تمر الأزمة².

رغم خطورته إلا أنه كان يُعتبر في كثير من الأحيان أهون الشرور، مقارنة بالجفاف أو الفيضانات، وذلك لأنه على الأقل يمكن التنبؤ بموسمه نسبيًا، ويتيح للناس بعض الوقت لتجنب عواقبه أو بعض من عواقبه على الأقل، بخلاف الكوارث الأخرى التي تضرب بغتة، وتحدث صدمة عامة، ومع ذلك فإن الجراد ظل يشكل تهديدًا دائمًا للزراعة والأمن الغذائي، وأسهم بدوره في إضعاف الاقتصاد المحلي، ورفع معدلات الفقر والبؤس، فحسب الدراسات العلمية الحديثة، فإن موجة واحدة من أسراب الجراد تلتهم حوالي 100 ألف طن من القمح أو الشعير أو النباتات الخضراء بصفة عامة، وهو ما يكفي أن يكون غذاء لنصف مليون إنسان على الأقل لمدة سنة

¹ نفسه، ص4.

² نفسه، ص ص4-5.

كاملة مع العلم أن سكان بايلك الغرب لم يتجاوزوا ستمائة ألف نسمة أواخر عهد الدايات، ما يبرز لنا أن الجراد كان يلتهم أغلب المحاصيل الزراعية في البايك¹.

4. الزلازل:

تُعرف الزلازل على أنها اهتزازات عنيفة، تحدث في القشرة الأرضية نتيجة تحرر مفاجئ للطاقة المتجمعة في الصخور، وهي طاقة كامنة تتراكم بفعل الضغوط الناتجة عن الحركات التكتونية للصخور عبر الزمن، يمكن أن يكون هذا التحرر ناجماً عن انكسارات وتصدعات في صفائح القشرة الأرضية، أو عن أنشطة بركانية مرافقة لانبثاق الحمم والمواد المنصهرة من باطن الأرض نحو السطح، وتتفاوت نتائج الزلازل وآثارها تفاوتاً كبيراً، تبعاً لقوتها وعمق بؤرتها وموقعها الجغرافي، حيث تكون الأضرار أكثر جساماً، إذا وقعت في مناطق مأهولة بالسكان أو قريبة من التجمعات العمرانية، وعادةً ما تُقاس قوة الزلازل باستخدام سلم ريشر، وهو المعيار الأكثر شيوعاً لقياس شدة الزلازل، فإذا كانت قوة الزلزال أقل من 4 درجات، فإنه يُعد ضعيفاً ولا يشكل تهديداً كبيراً، إلا أن الناس يشعرون به².

أما إذا تراوحت قوته بين 4 و6 درجات، فإنه يصنّف ضمن الزلازل المتوسطة، التي قد تحدث أضراراً متفاوتة، خاصة إذا كانت المباني ضعيفة البناء، وفي حال تجاوزت قوته 6 درجات وصولاً إلى 8 درجات أو أكثر، فإنه يُعتبر زلزالاً قوياً ومدمراً، كما أنه يمكن أن يسوي المباني بالأرض ويغير معالم بعض المناطق أيضاً، ناهيك عن ما يخلفه من ضحايا بشرية، ومن أبرز النتائج الخطيرة للزلازل، حدوث إزاحات أرضية أفقية أو عمودية، ما يؤدي إلى

¹ صليحة علامة، الأحوال الصحية بالجزائر خلال الاحتلال الفرنسي من 1830م إلى 1962م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص57.

² عبدالله بن محمد العمري، الزلازل والتفجيرات، موسوعة العمري في علوم الأرض، ط1، الرياض السعودية، 2022،

انزلاقات وانهيارات مدمرة، كما يمكن أن تتسبب الزلازل القاعية التي تقع في أعماق البحار، في حدوث أمواج عاتية ومدّ بحري مدمر يُعرف بـ"تسونامي"، والذي قد يصل تأثيره إلى السواحل، ويهدد المدن الساحلية والمرافئ والمنشآت البحرية¹.

فيما يتعلق ببابلوك الغرب خلال عهد الدايات، فقد شهدت هذه المنطقة عدداً من الزلازل والهزات الأرضية، على مدار القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ويعود ذلك إلى وقوع الجهة الشمالية من البابلوك، ضمن النطاق الجيولوجي النشط المعروف بسلسلة الأطلس التلي، والتي تشمل مناطق مهمة مثل وهران، مستغانم، تلمسان، ومعسكر، ورغم أن المنطقة شهدت زلازل عديدة، إلا أن غياب التوثيق العلمي والتأريخ لها، إضافةً إلى محدودية تأثيرها على الحياة العامة، حال دون تدوينها بالتفصيل في المصادر التاريخية المتاحة².

غير أن أبرز هذه الزلازل وأشدّها وقعاً، كان زلزال وهران سنة 1790م، الذي يُعتبر من أقوى الزلازل التي عرفتھا المنطقة المتوسطية، وبدأ الزلزال بهزات خفيفة متقطعة منذ أواخر شهر أوت من نفس السنة، واستمرت هذه الهزات بشكل دوري حتى منتصف شهر سبتمبر، ما جعل السكان يعيشون في قلق دائم وترقب، ومع بداية شهر أكتوبر، عاد الاهتزاز بشكل أكثر حدة، إلى أن بلغ ذروته في ليلة الثامن إلى التاسع من أكتوبر، حيث ضرب زلزال مدمر المدينة، واستمر لنحو ثلاث دقائق متواصلة، وهي مدة طويلة بما يكفي لتدمير كل ما هو هشّ وضعيف البناء، وفي اليوم التالي شهدت المدينة هزات ارتدادية متكررة³.

لقد أورد ابن سحنون الراشدي، أن عدد القتلى في صفوف الإسبان تجاوز ثلاثة آلاف ضحية، كما شملت الخسائر حاكم المدينة الإسباني وأفراد عائلته، الذين كانوا ضمن الضحايا،

¹ نفسه، ص16.

² دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص262

³ نفسه، ص ص262-263.

وهو ما أحدث خللاً في القيادة العسكرية الإسبانية بوهران، كما سقطت معظم المنازل والمنشآت داخل المدينة، وتضررت البنية التحتية بشدة، كما انقطعت المياه الصالحة للشرب عن المدينة لأيام معدودة، ما زاد من معاناة الإسبان داخل المدينة¹.

ومن الملاحظ أن القبائل المجاورة لوهران، لم تتأثر بنفس القدر من الزلزال، حيث لم تسجل خسائر بشرية كبيرة في صفوفهم، ما جعل الكثير من الأهالي ينظرون إلى هذه الكارثة الطبيعية، على أنها عقاب إلهي سلطه الله على المحتلين الإسبان، نظير ظلمهم وممارساتهم ضد المسلمين، وقد استثمر الباي محمد الكبير هذا الحدث في تعبئة القبائل في البابلوك، ودعا إلى الجهاد لطرد الإسبان من وهران والمرسى الكبير، مستغلاً حالة الضعف والارتباك التي أصابت القوات الإسبانية بعد الزلزال، كما شكل زلزال وهران محطة فارقة في مسار الصراع العثماني الإسباني، حيث اعتبره الكثيرون أنه فرصة سياسية وعسكرية، لتوحيد صفوف القبائل تحت لواء الجهاد، واستعادة مدينة وهران بعد سنوات من الاحتلال الإسباني².

ثانياً: الأوبئة و الأمراض في بابلوك الغرب خلال عهد الدايات:

لقد شهد بابلوك الغرب خلال الفترة العثمانية، وخصوصاً في عهد الدايات، موجات متكررة من الأوبئة والأمراض، التي شكلت تهديداً كبيراً لحياة السكان واستقرار القبائل، وأسهمت في خلق أوضاع صحية مأساوية، كان لها أثر بالغ على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ويمكن القول إن هذه الأوبئة، لم تكن ناتجة فقط عن ظروف بيئية داخلية، بل كانت في كثير من الأحيان نتيجة تفاعلات خارجية، خاصة مع الموانئ والتبادلات التجارية عبر

¹ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ص 219-220.

² أمين كرطالي، زلزال وهران سنة 1205هـ/1790 و مدى تأثيره في تحرير مدينة وهران، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 7، ع 1، جوان 2022، ص 955.

البحر الأبيض المتوسط، والذي كان المدخل الرئيسي للأمراض المستوردة، لا سيما في الفترات التي تميزت بتراجع المراقبة الصحية، بالإضافة إلى غياب الوسائل الوقائية¹.

تعود بداية هذه الموجات الوبائية إلى سنة 1738، حين ضرب الطاعون مدينة تلمسان وضواحيها، ثم امتد إلى وهران وما جاورها، وكان هذا الوباء شديد وفتاكاً، خاصة مع تزامنه مع اضطرابات سياسية عرفها البايك، كما توفي الباي يوسف بن مصطفى بوشلاغم المسراتي نتيجة هذا الطاعون، بعد أن كان قد فر إلى تلمسان بسبب تمرد أعوانه عليه، وفي سنة 1740 عاد الوباء ليضرب تلمسان مجدداً، واستمر انتشاره حتى سنة 1743، حيث اجتاح معظم نواحي البايك، ولم تسلم منه حتى المناطق الريفية المعزولة، ما تسبب في ارتفاع كبير بعدد ضحاياه الذي قدر بنحو ستين ألفاً².

لقد كانت استجابة السلطات ضعيفة نسبياً، إذ لم تكن هناك إمكانيات طبية أو مؤسسات قادرة على مواجهة الكارثة، واكتفى البايات في بعض الأحيان، بمحاولة عزل المناطق المصابة وتطبيق الحجر الصحي، بالإضافة إلى تقديم بعض المساعدات البسيطة، ولقد عاد الوباء مجدداً سنة 1778، وكانت عودته مرتبطة بشكل مباشر بسنوات من الجفاف وزحف أسراب الجراد، ما أدى إلى نقص حاد في المؤونة وانتشار المجاعة، وقد تزامن هذا الوضع الكارثي مع بداية حكم الباي محمد الكبير، الذي واجه منذ تسلمه البايك تحديات كبيرة، تمثلت في تأمين الغذاء للناس وتطوير انتشار الوباء، فقام بإجراءات استثنائية تمثلت في استيراد القمح من الخارج وتوزيعه بالمجان أو بأسعار رمزية على السكان في المدن، والقبائل في الأرياف، كما فتح أبواب قصره

¹ توفيق دحماني، الأوضاع الصحية....، المرجع السابق، ص 137.

² فلاح سفيان، المرجع السابق، ص 163-164.

للفقراء ووفر لهم الطعام واللباس، خصوصًا خلال فصل الشتاء، ومع ذلك ظلت هذه الإجراءات محدودة أمام حجم الكارثة الصحية¹.

وفي سنة 1786، تفشى الوباء مرة أخرى، وكان من أشد موجات الطاعون التي شهدتها البابلوك، وقد بدأت المؤشرات الأولى للكارثة منذ سنة 1784، التي عرف البابلوك خلالها مجاعة شديدة، ما مهد لظهور الوباء في هذه الأوقات المحرجة، وتشير التقديرات إلى أن معدل الوفيات في مارس 1786، تراوح بين 14 و 18 ضحية يوميًا، وبلغ ذروته في الأشهر اللاحقة، إلى غاية انحساره في سبتمبر من نفس السنة².

لم تمض سوى أشهر قليلة، حتى عاود الوباء في بداية سنة 1787، وهذه المرة عُرف باسم "الوباء الكبير"، لما خلفه من خسائر بشرية، إذ تشير الأرقام إلى سقوط 339 ضحية في الأسبوع الأخير من جانفي فقط، وقد كان ضحاياه من المسلمين والنصارى واليهود على حد سواء، وقد تفاوتت تقديرات المؤرخين حول عدد الضحايا، فبينما قدر البعض أنهم حوالي 16 ألف ضحية، كما ذكر الشريف الزهار أن عدد الوفيات بلغ نحو 500 شخص يوميًا، وكانت مدينة معسكر، الأكثر تضررًا في بابلوك الغرب³.

وفي سنة 1794، عاد الطاعون للانتشار من جديد، وكان في ذروته خلال حكم الباي محمد الكبير، الذي حاول مرة أخرى اتخاذ التدابير الوقائية، إلا أن انتشار المجاعة خلال نفس السنة، أدى إلى تدهور الوضع الصحي بسرعة، وقضى الوباء على أعداد كبيرة من السكان، كما أصاب عائلة الباي نفسه، وهلك به بعض أفراد أسرته⁴.

¹ Gorgos M, Op cit,p408.

² سفيان فلاح، المرجع السابق، ص ص176-178.

³ نفسه، ص 178.

⁴ نفسه، ص 180.

وفي سنة 1796 شهدت مدينة وهران وأحوازاها، موجة طاعون كبيرة، ويُرجح أن مصدرها كان من مدينة الجزائر التي بدورها إنتقل الوباء لها بسبب وفود أحد السفن التجارية الأوروبية إلى مينائها، وقد ارتفع عدد الضحايا بشكل تدريجي، ليبلغ ذروته سنة 1797، حيث وصلت الوفيات اليومية إلى نحو 48 شخصا، بالإضافة فإن هذا الوباء كان في فترة ركود وتدهور إقتصادي ما زاد في معاناة البابلوك بصفة عامة¹.

وفي سنة 1798 ضرب الطاعون مدينة تلمسان مرة أخرى، وسرعان ما انتشرت العدوى في مختلف أنحاء الإيالة، وبلغت الخسائر اليومية في الأرواح في جميع نواحي الإيالة حوالي 300 ضحية، ما جعله من أعنف الأوبئة التي شهدتها الإيالة، ثم تبعته موجة أخرى سنة 1799، مستهدفة مدينة وهران واستمرت إلى غاية سنة 1802، وقد ارتبطت هذه الموجة بقدوم الحجاج، الذين يُرجّح أنهم نقلوا العدوى من الحجاز، أو من مرافئ البحر الأبيض المتوسط، ما جعل من وهران تعتبر بؤرة هذا الوباء، ولقد امتد تأثير هذه الموجة إلى تلمسان ومعسكر²، وأدى إلى وفاة عدد كبير من العلماء، أبرزهم سيدي عبد القادر بن السنوسي بن زرفة، ومصطفى بن عبد الله، إلى جانب العديد من الجنود والمسؤولين المحليين، وكذلك أفراد من عائلة الباي³.

ثم خمدت الأوبئة لفترة وجيزة لتعاود الظهور من جديد، حين ضرب الطاعون مدينة وهران وأحوازاها سنة 1816م، وقد كان هذا الوباء من أعنف ما شهده البابلوك خلال هذا العهد، حيث مات جراءه خلق كثير، حتى أن الناس كانت تموت في الطرقات والأسواق، دون أن تجد من يدفنها أو يسعفها، ما خلق حالة من الذعر العام في أوساط السكان، ولقد تراجعت حدته تدريجيا

¹ فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص 88.

² سفيان فلاح، المرجع السابق، ص 181-182.

³ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 69.

مع نهاية شهر أوت من نفس السنة، ثم اختفى كلياً في مطلع شهر سبتمبر، مخلفاً وراءه آلاف الضحايا¹.

وفي سنة 1819، عاد الوباء من جديد لكن هذه المرة بصورة أكثر شراسة وضراوة، إذ لم يقتصر انتشاره على وهران فحسب، بل شمل عدداً من المناطق المجاورة، واستمر الوباء طيلة السنة وأودى بحياة ما يناهز سبعة آلاف ضحية، ما يعكس عمق هشاشة البنية الصحية للبايلك، بالإضافة الى انعدام وسائل الوقاية التي تعد أهم وسيلة في تفادي الكارثة، أو على الأقل التقليل من خسائرها، ثم عاود الطاعون الظهور مجدداً سنة 1819، وقد كانت وهران ومعسكر من أكثر المناطق تضرراً، فقد سجلت تقارير تلك الفترة ما بين 20 و30 ضحية يومياً، في بداية انتشار الوباء، غير أن عدد الوفيات أخذ في الارتفاع السريع، بداية من شهر ماي ليتجاوز 40 ضحية يومياً في وهران وحدها، وهو رقم مرعب بمعايير ذلك العهد ، وفي شهر جوان بلغت الخسائر البشرية ذروتها بمعدل يزيد عن 80 وفاة يومياً، ما جعل الطاعون يتحول إلى فاجعة إنسانية حقيقية ، بالإضافة أنها أكثر فتكا من الحروب والمجاعات².

لقد شهد البايك خلال السنوات الأخيرة من عهد الدايات، تدهوراً كبيراً في الأوضاع الاجتماعية والمعيشية، بسبب العديد من الأزمات والكوارث الطبيعية والصحية، ولعل أبرزها استفحال الأوبئة، وتوالي سنوات القحط والمجاعات، بالإضافة الى انتشار المستنقعات، التي أصبحت بؤراً لتفشي الأمراض المعدية، كما أن تراجع القدرة الشرائية، وصعوبة الحصول على الغذاء والدواء، قد زادت من تفاقم الوضع، وخلقت بيئة خصبة لتفشي الأمراض المعدية وغير المعدية، الأمر الذي أنهك المجتمع المحلي، وزاد من معاناته الإجتماعية³.

¹ فلاح سفيان، المرجع السابق، ص187.

² فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، صص145-146.

³ مخطار بونقاب، المرجع السابق، ص52.

لقد عانى سكان البايك خلال عهد الدايات من أمراض متعددة، بعضها ناتج عن سوء التغذية والتدهور المعيشي، وبعضها الآخر نتيجة غياب الإلتزام بالقواعد الصحية، بالإضافة إلى غياب شبه كلي للمرافق والمؤسسات الإستشفائية، ما جعل من السكان عرضة للإصابة بالأمراض المزمنة¹.

وتُعدّ الحمى بمختلف أنواعها من أكثر الأمراض شيوعًا بين السكان، ومن بينها الحمى المترددة، والحمى المتواترة، والحمى الصفراء، التي كانت تصيب الأطفال والكبار على حد سواء، وتنتشر عادة في فصل الصيف، ولقد كانت الحمى تتسبب في وفيات كثيرة، خصوصًا في صفوف كبار السن، وقد بقيت هذه الأمراض ملازمة للناس لفترات طويلة، دون إيجاد حلول علاجية فعالة².

إلى جانب ذلك، انتشرت أمراض مزمنة وخطيرة في مختلف أرجاء البايك، من بينها الزهري، الذي كان يعتبر من الأمراض المنقولة المعدية، ومرض الجذري الذي كان من أشد الأمراض فتكًا بالأطفال، إضافة إلى السل الذي انتشر في الأوساط الفقيرة والمكتظة بالسكان، وأمراض العيون أيضا بسبب الغبار وانعدام النظافة، بالإضافة إلى الالتهابات الرئوية الناتجة عن تقلبات الطقس وسوء التغذية، كما شهد البايك إنتشار التيفوس والحصبة الذين كانا يحصدان الكثير من الأرواح، ويعتبران في فتكهما بالسكان مثل الطاعون، وكانت كل هذه الأمراض تتسبب في حصد آلاف الأرواح سنويًا دون أن تجد علاجًا فعالًا³.

¹ عائشة غطاس، أوضاع الجزائر المعاشية والصحية أواخر العهد العثماني المجاعات و الأوبئة 1787-1830، المجلة التاريخية للدراسات العثمانية، ع 17 و18، سبتمبر 1998، ص 361.

² فلة الموساوي القشاعي، المرجع السابق، ص 253.

³ فلاح سفيان، المرجع السابق، ص ص 200-202.

لقد اعتمد السكان في مواجهة هذه الأمراض، على وسائل تقليدية بسيطة، كان أبرزها استخدام الأعشاب الطبية، مثل الشيح والحلبة والزنجبيل وغيرها، وكانت توصف للحمى ومشاكل الجهاز الهضمي والتنفسي، لكن هذه الوسائل لم تكن كافية أو فعالة أمام الأمراض الخطيرة، مثل الطاعون والتيفوس والجذري، التي كانت تتطلب تدخلاً طبياً منظماً، لكن السلطات كانت تفتقر إلى العديد من الوسائل الناجعة لمواجهة هذه الأوبئة والأمراض¹.

بالرغم من الآثار الكارثية التي خلفتها الأوبئة والأمراض في البابلوك ، فإن موقف البايات لم يكن عند حسن ظن الرعية، فقد اكتفوا بموقف المتفرج في كثير من الأحيان، بل ويذهب بعض الباحثين إلى اعتبارهم غير مباليين تماماً بمعاناة السكان، وهمهم الوحيد هو جمع الضرائب وإرضاء السلطة المركزية، ولقد استمر استخلاص الجباية حتى في سنوات الطاعون والمجاعة، دون مراعاة للظروف الصعبة التي كانت تعيشها العامة، أما المرافق الصحية فقد اقتصر على بعض الزوايا الشعبية والأضرحة، التي كانت تقدم العلاج التقليدي المبني على الطب الشعبي والتداوي بالرقية والأعشاب، وهي وسائل أثبتت محدوديتها في مواجهة الكوارث الصحية الكبرى، ومن جهة أخرى كان البايات يفرون مع أهلهم وحاشيتهم إلى مناطق نائية بمجرد انتشار الوباء، ويقضون هناك فترات طويلة حتى تتجلي الكارثة، ثم يعودون لمناصبهم و ممارسة مهامهم بعد زوال الخطر².

كما يرى عدد من المؤرخين أن أغلب البايات، لم يكونوا مؤهلين لتحمل أعباء الحكم والمسؤولية، بل تولوا مناصبهم عن طريق الرشوة أو لقربهم من الدايات، ماجعلهم يفتقرون إلى الحس الإنساني والسياسي المطلوب لإدارة الأزمات الكبرى كالأوبئة والمجاعات³.

¹ أرزقي شويتام، المجتمع....، المرجع السابق، ص284.

² دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص269.

³ دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص269.

كان لانتشار هذه الأوبئة والأمراض نتائج وخيمة على البنية السكانية والاقتصادية للبايلك، حيث دفعت الكثير من السكان إلى الهروب من المناطق الموبوءة، ما أدى إلى تشتت العديد من العائلات والقبائل خوفاً من العدوى، وقد فضلت بعض القبائل الارتحال إلى أماكن نائية ومعزولة، هرباً من الطاعون، وهو ما أثر بشدة على النشاط الزراعي والتجاري، إذ تراجعت الإنتاجية الزراعية، وانخفضت المبادلات التجارية، بالإضافة إلى ندرة السلع والمنتجات في الأسواق، وما زاد الطين بلة أن بعض القبائل استغلت حالة الفوضى وانتشار الأوبئة والأمراض، للتحول إلى اللصوصية وقطع الطرقات، مثل قبيلة الأعشاش التي كانت تستقر غرب البايك، ما دفع الباي إلى إرسال حملة عسكرية ضدها لإعادة فرض النظام، وتمكنت هذه الحملة من تفريق أفراد القبيلة وإرغامهم على التخلي عن هذه الأنشطة، التي زادت من معاناة السكان خلال هذه الفترة العصيبة¹.

¹ كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص178.

المبحث الثاني: الأوضاع الثقافية لقبائل بايلك الغرب

أولاً: المؤسسات التعليمية

لقد كان التعليم في بايلك الغرب خلال عهد الدايات محصوراً في المساجد والكتاتيب والزوايا والمدارس، فتُعد هذه المؤسسات العلمية بمثابة البنية التحتية التعليمية الوحيدة المتوفرة آنذاك، والتي كانت تتكفل بتعليم أبناء القبائل وتوجيههم نحو العلوم الدينية واللغوية، وقد شكلت هذه المؤسسات رغم بساطتها، محور الحياة العلمية والثقافية في مناطق البايك، حيث كانت تُعتبر الأماكن الوحيدة المتخصصة في نشر العلم وتلقيه، سواء في المدن أو في الأرياف، ولقد شهدت الأرياف ومواطن القبائل حركة علمية لا يستهان بها، حيث توفرت فيها المساجد والزوايا والكتاتيب، إلا أن هذه المؤسسات رغم انتشارها لم تنل حظاً وافراً من الاهتمام الرسمي، حيث فضّلت السلطة العثمانية التركيز على المؤسسات التعليمية في حواضر البايك، كالمدينة الكبرى والمراكز الحضرية، التي كانت تحظى بالأولوية في الإنفاق والتسيير، نظراً لأهميتها السياسية والإدارية¹.

تُعتبر الأوقاف المصدر الأساسي والداعم الرئيسي للتعليم في مختلف المؤسسات التعليمية، سواء في الأرياف أو المدن، فقد كانت الأوقاف تساهم بشكل مباشر في دعم الطلبة ومعلميهم والعلماء، من خلال توفير مورد مالي دائم يضمن استمرارية العملية التعليمية، وكان يُمنح للمعلمين مقابل مادي لقاء القيام بواجباتهم التعليمية، حرصاً على عدم انصرافهم عنها إلى مهن أخرى طلباً للعيش، كما أن الكثير من المحسنين أوقفوا منازلهم وجعلوها مدارس أو كتاتيب، ومنهم من أوقف جزءاً من بستانه أو أملاكه لتقديم المعونة للطلبة ومعلميهم، وللوقوف فوائد كبيرة

¹ رقاد سعديّة، المؤسسات العلمية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني (1700-1830)، مجلة عصور جديدة ،

مج 8، ع2، ديسمبر 2018، ص123.

لا تقتصر فقط على دعم التعليم، بل تتعداه إلى الجوانب المعمارية والاجتماعية، حيث ساهم في ترميم المساجد وتوسيعها، والعمل على استقبال أكبر عدد ممكن من طلبة العلم، خاصة أولئك القادمين من مناطق بعيدة، فكانت الأوقاف تضمن لهم الإطعام والسكن وتوفير الكتب والاحتياجات الأساسية¹.

1. المساجد:

كانت المساجد منتشرة في كل أرجاء بايلك الغرب، وتُعتبر أهم مؤسسة دينية وتعليمية على الإطلاق، فهي كانت تجمع الناس بمختلف طبقاتهم ومشاربهم العلمية، ويُنظر إليها كمكان مقدس لا يمكن تدنيسه أو العبث بحرُمته، ما منحها مكانة مركزية في الحياة اليومية والدينية للسكان، وقد لاقت المساجد اهتمامًا كبيرًا من السلطات المحلية ورجال المال، والوجهاء وشيوخ القبائل، الذين عملوا على دعمها ماديًا ومعنويًا، عبر وقف ممتلكاتهم ومخصصاتهم المالية لخدمتها، بالإضافة فإن المساجد تُعد أيضًا سرحًا علميًا بامتياز، إذ كانت تُقام فيها دروس العلم يوميًا، لا سيما الدروس الدينية المرتبطة بتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم القراءات السبع، والفقه المالكي، وعلوم الحديث، والتفسير، والنحو، وغيرها من العلوم المتداولة آنذاك².

فعلى سبيل المثال، أُحصي في مدينة تلمسان وحدها أواخر العهد العثماني، خمسون مسجدًا تُعنى كلها بالتعليم والتنشئة السليمة لأبناء المجتمع، ما يُدل على المكانة العلمية الرفيعة، التي كانت تحظى بها المدينة، وحرصها على ترسيخ تقاليد التعليم الديني في مؤسساتها، ومن أبرز مظاهر رعاية السلطة بالمساجد واهتمامها بها، ما قام به الباي محمد الكبير، حينما أمر ببناء المسجد الأعظم في معسكر سنة 1790م، وأيضًا جامع وهران بعد تحريرها مع الحرص على

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1....،المرجع السابق، ص230.

² محمد بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص59.

أن يكونا منارات علمية يرتادها العلماء وطلبة العلم من كل أنحاء الإيالة، ومن دول الجوار كذلك¹.

لقد كانت المساجد خلال هذا العهد تعتبر مؤسسات تعليمية ذات طابع ديني ومجتمعي، تلعب دوراً محورياً في نشر العلم وترسيخ القيم الأخلاقية والاجتماعية، ومن أمثلة اهتمام السلطة بالمساجد أيضاً، ما قام به محمد بن عثمان، والد البايع محمد الكبير، عندما أوقف على جامع معسكر وقفاً شاملاً خُصص لتغطية حاجيات العلماء والطلاب والموظفين الدينيين العاملين بالمسجد، وكان تفصيل ذلك على النحو التالي:

منح أربع سلطانيات ذهباً لطلبة العلم الذين يحضرون درس صحيح البخاري كل سنة، وأربعين ريالاً للإمام، ومثلها للخطيب، وعشرين ريالاً لكل مؤذن من المؤذنين الأربعة، وأربعة وأربعين ريالاً للقيمين، وعشرين ريالاً لكل معلم يُدرّس القرآن أو الفقه أو الحديث، وأربعين ريالاً لمؤدّب الكتاب (طلبة الصغار)، وخمسة عشر ريالاً للمسؤول على خزانة الكتب، وعشرة ريالات للراوي المكلف بجلب المياه، وخمسة عشر ريالاً لعامل المائدة، وأربعين ريالاً للمسؤول عن الوقف، ونصف ريال عن كل بيت يسكنه طالب علم، يُخصص لاقتناء الزيت من أجل الإنارة الليلية².

إن هذا الاهتمام الذي أبدته السلطات المحلية، إلى جانب الوجيهاء وعامة الناس، يفسر لنا بشكل جلي انتشار المساجد في مختلف أرجاء البايك، حتى أضحت هذه المعالم الدينية حاضرة بقوة في المشهد العمراني والديني للبايلك، إلا أن بعض هذه المساجد اكتسبت شهرة استثنائية، وذلك بسبب كثرة روادها من العلماء وطلبة العلم، ومساهمتها الفعالة في نشر القيم الدينية

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1، المرجع السابق، ص250.

² نفسه، ص ص257-258.

والعلوم الشرعية، ففي تلمسان على سبيل المثال، نجد المسجد الكبير الذي يتوسط المدينة، بالإضافة إلى مسجد المشور المتواجد داخل قلعة المشور، أما في ندرومة فنجد الجامع الكبير، الذي يرجع تأسيسه إلى العهد الموحيدي، ما يعكس عمق الجذور التاريخية للمدينة، كما أن وهران، عقب تحريرها من الاحتلال الإسباني سنة 1792م، شهدت نهضة عمرانية دينية تمثلت في بناء العديد من المساجد، حيث تسابق الناس على تشييدها، ويُعد مسجد الباي محمد الكبير من أبرز هذه المساجد، إذ شُيّد بأمر مباشر من الباي نفسه بعد الفتح، وذلك لإعطاء الطابع الإسلامي للمدينة، كما تم بناء مسجد الباشا سنة 1796م، بأمر من الداي بابا حسن، تعبيراً عن شكر لله على هذا الفتح العظيم¹

وفي مدينة معسكر أيضاً، اشتهر المسجد الكبير الذي أمر ببنائه الباي محمد الكبير، إلى جانب المسجد العتيق المعروف أيضاً بمسجد السوق، أما مستغانم، فقد بلغ عدد مساجدها إحدى عشر مسجداً، وكان من أشهرها مسجد يحيى بن ستي، والمسجد الأعظم الذي يمثل تحفة معمارية وروحية، وفي مازونة التي كانت تحتضن العديد من العائلات العلمية انتشرت المساجد بشكل كبير، إذ كان أهلها يتسابقون في بناء بيوت الله والعناية بها، ومن أشهر مساجدها آنذاك: مسجد سيدي عيسى، ومسجد عزوز بن المغراوي، الذي يُعد من أقدم المساجد في المدينة، فضلاً عن مسجد سيدي محمد بن الشارف، الذي شُيّد على نفقة عائلة سيدي هني من مالها الخاص، في دلالة على دور الوقف والتقوى المتجذرة في المجتمع².

¹ دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص 274.

² نفسه، ص ص 274-275.

2. الزوايا:

تُعد الزوايا خلال العهد العثماني من أهم المؤسسات الدينية والاجتماعية، فهي مكان روحي بامتياز، وسرح علمي بارز، يلتقي فيه الطلبة والفقهاء والمعلمون، ويتميز تصميم الزاوية بخصوصية معمارية واضحة، حيث تتكون من عدة غرف مخصصة لحفظ القرآن الكريم ودراسة العلوم الشرعية، إضافة إلى مساكن للطلبة والفقراء وشيخ الزاوية، فضلاً عن أماكن مخصصة لطهي الطعام، وتخزين المؤن، وإسطبلات لحيوانات الزاوية، إلى جانب بيوت للصلاة، هذا ما جعل من الزاوية بمثابة مؤسسة شاملة تجمع بين وظائف المسجد، والمدرسة، والسكن، والخدمة الاجتماعية¹.

انتشرت الزوايا في بايلك الغرب بشكل لافت، وفاق عددها ما هو موجود في البايلاكات الأخرى، وهو ما يرجعه الباحثون إلى عدة عوامل، من أبرزها التواجد الإسباني بوهران، حيث أدت الزوايا دوراً في التعبئة الشعبية وحث القبائل على الجهاد ومقاومة العدو الصليبي، ولقد عملت السلطات على دعم الزوايا لما لها من أهمية في الحشد الديني والاجتماعي، كما أن من أسباب إنتشارها بكثرة قرب البايك من المغرب الأقصى الذي كان حينها مركزاً للصوفية، وموطناً للعديد من الزوايا والطرق الروحية المؤثرة².

تشير الإحصائيات إلى أن عدد الزوايا والأضرحة في الجزائر العثمانية، كان يفوق عدد المساجد والمدارس، وذلك لأن سكان تلك الحقبة كانوا يرون في الأولياء وسيلة للتقرب إلى الله وطلب البركة، وتعتبر تلمسان من أبرز المناطق من حيث كثافة الزوايا، حيث بلغ عددها ثلاثين زاوية في أواخر العهد العثماني، ومن أشهرها: زاوية سيدي الذيب، وزاوية سيدي بومدين،

¹ يحيى بوعزيز، مع تاريخ الجزائر....، المرجع السابق، ص131.

² مخطار بونقاب، الحياة الثقافية....، المرجع السابق، ص76.

وزاوية محمد السنوسي، وزاوية أحمد الغماري، وزاوية عين الحوت، بالإضافة إلى ضريح سيدي الحلوي الأندلسي، ومن مظاهر العناية التي حظيت بها الزوايا، أنها كانت تمتلك أراضي موقوفة تيعود خراجها إليها، حيث كان الفلاحون يحرقونها ويزرعونها ويسقونها ويحصدونها ثم يقدمونها للزاوية، التي تتولى تسيير هذا المورد وفق حاجاتها، مثل تغطية نفقات الترميم والبناء، وأجور المعلمين، وتوفير متطلبات الإيواء والعيش الكريم للطلبة، كما اعتاد الفلاحون في الأرياف ومواطن القبائل، على تقديم جزء من محاصيلهم الزراعية إلى الزاوية، باعتبارها مركزاً مقدساً يلعب دوراً حيوياً في حياتهم الدينية والاجتماعية¹.

كما أصبح أغلب السكان، سواء في المدن أو القرى والبوادي، يتبعون طريقة صوفية معينة ينهلون من تعاليمها ويتبركون بأوليائها، وقد ساهم هذا الانتشار الواسع في ترسيخ البعد الروحي والديني في حياة الأفراد والجماعات، حتى غدت الطريقة الصوفية جزءاً من الهوية الثقافية والدينية لسكان البايك، ومن أشهر الطرق التي لقيت رواجاً وانتشاراً كبيراً في مختلف أرجاء البايك نذكر الطريقة القادرية التي تُعد من أقدم الطرق وأوسعها نفوذاً، والطريقة الدرقاوية التي لاقت قبولا واسعا في المناطق الريفية، والطريقة التيجانية التي وجدت موطناً قدم لها في عدد من الحواضر الكبرى².

كانت أكثر المناطق التي عرفت انتشار الزوايا وتعدد الطرق الصوفية هي مدينة تلمسان، التي اعتبرت مركزاً روحياً وثقافياً خلال هذا العهد، حيث أورد المؤرخ ابن مريم العديد من أسماء الزوايا وأضرحة الأولياء المنتشرة في المدينة وأحوازها، ما يدل على عمق الموروث الصوفي فيها، كما عرفت مدن مستغانم ومارونة وهران وأحوازهم، توسعاً في مجال الزوايا والطرق الصوفية، إذ إنتشرت بها الزوايا التي تأوي الفقراء والطلبة وتعمل على نشر التعليم الديني، وقد

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1....، المرجع السابق، ص264-265.

² رقاد سعدية، المرجع السابق، 138.

تميزت مناطق سهلي الشلف وغريس أيضًا بوجود عدد كبير من الزوايا الريفية، التي ترتبط بالقبائل المنتشرة في هذه الأقاليم، حيث كانت كل قبيلة أو عشيرة تختار وليًا صالحًا تعتبره راعيًا روحيا لها، وتجتمع في زاويته أو تقيم له ضريحًا تأخذ منه البركة¹.

أما مدينة معسكر، فقد برزت هي الأخرى بفضل عدد من الزوايا التي لعبت دورًا هامًا في الحياة الدينية والثقافية لسكان المنطقة، ومن أبرز هذه الزوايا نجد زاوية القيطنة، التي تقع على ضفاف وادي الحمام في منطقة بوحنيقية، والتي أسسها الشيخ الجليل مصطفى بن مختار الغريسي، جد الأمير عبد القادر سنة 1792م، وقد عُرفت هذه الزاوية منذ تأسيسها بأنها كانت بمثابة مركز علمي كبير يقصده الطلبة من مختلف أنحاء المنطقة، وخصوصا لتلقي العلوم الشرعية، وبعد وفاة الشيخ المؤسس، تولى ابنه الشيخ محيي الدين مشيخة الزاوية، وحرص على تطويرها وتوسيع أنشطتها، فازدهرت أكثر وذاع صيتها، وصارت قبائل الحشم ترى فيه المرجع الديني والعلمي، ويعدونه شيخهم ومفتيهم، وقد كانت القبائل المجاورة تقدم للزاوية الهدايا من أموال ومواشٍ، ويضعونها تحت تصرفها لتوزيعها على المحتاجين والفقراء وطلاب العلم².

مع مرور الوقت، ارتفع عدد الطلبة الذين يقيمون بها، ما دفع القائمين عليها إلى تنظيمها إلى عدة أطوار تعليمية، حتى صارت وجهة للطلبة من مختلف أنحاء البلاد، وأيضاً من المغرب الأقصى وغرب إفريقيا، بل وحتى من مصر لما اشتهرت به من جودة التعليم وكفاءة المعلمين، وكان من أشهرهم عبد القادر المشرفي، وبفضل هذا الزخم، أصبحت زاوية القيطنة تعتبر أحد أهم المعاهد العلمية والدينية في الإيالة الجزائرية أواخر العهد العثماني، يصفها الأمير عبد القادر في إحدى إشاراتة قائلاً: "من اجتاز الوادي قاصدا القرية يؤمن، ولا سبيل

¹ نفسه ، ص138.

² طاعة سعد، الدور العلمي لزوايا ومدارس ومساجد معسكر خلال الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، مج5، ع10، ديسمبر، ص32.

عليه، وذلك أن الجد اختطها بإشارة أهل الخير، فقال له متطوع: ذهبت من القاف إلى الحاف، فلم نجد مثل هذا الكاف"¹.

من الزوايا المتميزة أيضا في معسكر، نجد زاوية بوسكرين، التي عُرفت بكونها صرحا علميا رفيعا، حتى أطلق عليها اسم "الأزهر الصغير"، لما لها من مكانة مرموقة بين الزوايا، فقد كانت تستقطب العلماء والفقهاء من مصر وبلاد الشام، وكان يدرّس فيها علوم القرآن الكريم والفقه والحديث الشريف، إلى جانب علوم العقل والفلك، وتعود جذور تأسيسها إلى القرن التاسع الهجري، ما يجعلها من أقدم الزوايا في البايك، وظلت على مدى قرون تخرج أجيالا من الطلبة الذين تبوؤوا مناصب علمية واجتماعية بارزة، وقد ضمت نخبة من العلماء الذين تميزوا في مختلف العلوم، ما ساهم في رفع شأن الزاوية وزيادة احترامها من قبل العامة والسلطات على حد سواء، بل إن بعض البايات كانوا يزورونها ويظهرون التقدير لشييوخها ويشاركونهم مجالسهم².

عموما، فإن الطرق الصوفية في بايلك الغرب، قد تنافست فيما بينها من أجل استقطاب الطلبة والعلماء، ونشر قيم التصوف والتعليم الديني، لكن تبقى الطريقة القادرية في صدارة هذه الطرق من حيث الإسهام في النهضة العلمية والدينية، فقد أنشأت شبكة من الزوايا المتخصصة في التدريس ونشر العلوم، وكانت توفر بيئة مناسبة للتحصيل العلمي، عبر اقتناء عمالها للكتب والمخطوطات، واستقدام العلماء المتميزين من مختلف المناطق، وبالرغم من أن بعض الزوايا قد انحرفت عن مسار التعليم، وانشغلت بالسياسة والدعوات المعارضة للسلطات، إلا أن الزاوية القادرية ظلت وفية لرسالتها العلمية، وشكلت منارة مضيئة في تاريخ التعليم الديني في البايك³.

¹ نفسه، ص ص32-33.

² يحيى بوعزيز، مع تاريخ الجزائر....، المرجع السابق، ص ص33-34.

³ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 100.

لقد كان للزوايا في الأرياف دور جوهري وبارز في تحفيز حركة الجهاد والدفاع عن الأرض والعقيدة، خصوصًا في الفترات التي عرفت تزايدًا للتهديدات الأجنبية، وخاصة الاحتلال الإسباني الذي تركز في وهران، وفي بداياتها لم تكن الزوايا مجرد مراكز روحية أو تعليمية فحسب، بل شكّلت في الحقيقة رباطات جهادية بالدرجة الأولى، كرّست إمكاناتها البشرية والمادية لخدمة قضية المقاومة، حيث ساهمت في دعم المجاهدين وتوفير احتياجاتهم من مؤن وسلاح ومال، فضلًا عن الرجال المستعدين للانخراط في ساحة القتال¹.

من خلال هذه الجهود التي كانت تقوم بها الزوايا الريفية، تميزت هذه الأخيرة عن مثيلاتها في الحواضر، حيث أبانت عن روح وطنية عالية، وكان شيوخها يمارسون دورًا تعبويًا كبيرًا في أوساط القبائل، إذ كانوا يدعون باستمرار إلى توحيد الصفوف ونبذ الفرقة والخلافات القبلية من أجل مواجهة العدو الصليبي المشترك، الذي لا يهدد فقط حدود البلاد، بل يسعى لطمس الدين والثقافة الإسلامية الراسخة².

هذا الموقف الحاسم من الزوايا الريفية أكسبها ثقة السلطات الحاكمة آنذاك، وجعل البايات يولونها اهتمامًا خاصًا، إذ نظروا إليها على أنها حليف موثوق ومخلص، يمكن الاعتماد عليه في الأوقات الحرجة. ولهذا السبب، تم إعفاء الكثير من هذه الزوايا من الرسوم والضرائب التي كانت مفروضة على غيرها من المؤسسات، كما تم إدماج بعض شيوخها ضمن الجهاز الإداري والعسكري، وتقديمهم في مجالس الحكم، بل بلغ الأمر أن شارك العديد منهم في الحملات العسكرية إلى جانب جيوش الباي، ما ساهم في رفع الروح المعنوية للجنود والمتطوعين، وأكسب الزوايا مزيدًا من الاحترام والتقدير في المجتمع³.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج1،، المرجع السابق، ص267.

² نفسه، ص ص267-268.

³ رقاد سعدية، المرجع السابق، ص138.

غير أن هذه العلاقة التي بنيت على الثقة والتعاون بدأت في التراجع والتآكل تدريجياً، بعد الحدث المفصلي المتمثل في تحرير وهران سنة 1792م، حيث بدأت السلطة تغير من سياستها تجاه هذه الزوايا، فأصبحت تعاملها كغيرها من الزوايا الحضرية، دون تمييز أو تقدير للدور التاريخي الذي قامت به، بل إن بعض البايات تخلوا عن سياسة المهادنة والتحالف، وبدؤوا بفرض رسوم جديدة أثقلت كاهلها، كما أعيد فرض الضرائب التي سبق أن أعفيت منها، ما نتج عنه حالة من التذمر والاستياء في صفوف مشايخ الزوايا وأتباعهم¹.

زادت الأمور سوءاً نتيجة تدهور الأوضاع العامة، إذ أصبحت السلطات تمارس ضغوطاً متزايدة على الأهالي، تمثلت في مضاعفة المكوس، ومصادرة الأراضي الزراعية، وممارسات تعسفية من طرف رجال الباي في حق الفلاحين والبسطاء، ولم تكن الزوايا في منأى عن هذا التسلط، وهو ما دفعها إلى إعادة تموقعها في صفوف عامة الشعب، لتصبح من جديد صوتاً للمظلومين، وملاذاً للفقراء والمقهورين، حيث بدأت تعيد تفعيل دورها في الدفاع عن العدالة الاجتماعية ومجابهة استبداد السلطة².

مع تنامي الشعور بالغضب والرفض، بدأت بعض الزوايا تتحول إلى مراكز للتعبئة الثورية، فتم تدريب الطلاب والأتباع على العمل السري، وتنظيم صفوف المقاومة الشعبية، وقد كان لهذا التوجه أثر بالغ في بروز عدد من الحركات الثورية الكبرى، التي انطلقت من رحم الزوايا، وعلى رأسها الثورة الدرقاوية والثورة التيجانية، وهما من أبرز الحركات المناهضة للسلطة العثمانية في بايلك الغرب، كما أن العلاقات بين السلطة والزوايتين القادرية والرحمانية لم تكن بأحسن حال،

¹ نفسه، ص 138.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1....، المرجع السابق، ص 267.

إذ توترت هي الأخرى على خلفية مواقف الزاويتين من سياسات الباي، خاصة فيما يتعلق بالضرائب، والتضييق على النشاط الديني والاجتماعي¹.

هكذا تحولت الزوايا من حليف استراتيجي للسلطة إلى فاعل معارض، يعبر عن تطلعات الشعب، ويقود حراكًا اجتماعيًا ودينيًا ضد الانحرافات التي طالت النظام القائم، وقد برهنت الزوايا الريفية على مرونتها وفاعليتها، سواء في زمن الحرب أو في أوقات السلم، فظلت دومًا حاضرة في قلب الأحداث، مؤثرة في مجريات الأمور، وصانعة لملامح التحول السياسي والاجتماعي في بايلك الغرب خلال العهد العثماني².

3. الرباطات:

لقد كان للرباطات في بايلك الغرب خلال العهد العثماني دور فعال ومركزي، لا يقل أهمية عن دور الزوايا، بل كانت في كثير من الأحيان تؤدي الوظائف ذاتها من حيث تعليم العلوم الشرعية وتكوين النخبة العلمية، إلا أن رسالتها الأولى والأساسية ظلت مرتبطة بالجهاد والدفاع عن الثغور، وأنشئت هذه الرباطات بالأساس لتكون مراكز للمراقبة والتحصين والدعم العسكري، بالإضافة فإن المرابطين فيها يلقون إحتراما كبيرا من السلطات والرعية على حد سواء، ويعتبرونهم رجال جمعوا بين العلم والجهاد³.

لقد انتشرت الرباطات على وجه الخصوص في المناطق الساحلية القريبة من مواقع الاحتلال الإسباني في وهران والمرسى الكبير، وكان طلبة العلم يعيشون فيها حياة مزدوجة، تجمع بين طلب العلم الشرعي والتدريب العسكري المستمر، فكانوا بذلك طلابًا في الصباح

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1....، المرجع السابق، ص ص267-268.

² نفسه، ص271.

³ نفسه، ص272.

ومجاهدين في الليل، يتحينون الفرص للانقضاض على العدو المحتل، بالإضافة إلى حراستهم للحصون والمواقع الإستراتيجية، ومن أشهر المساهمات التاريخية لهذه الرباطات، ما حدث خلال فتح وهران الأول سنة 1708 م، والذي تم بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، حيث لعبت الرباطات دوراً محورياً في الحشد والإعداد، وساهمت بقوة في العمليات القتالية، وكان من أبرز العلماء المشاركين في هذا الفتح المجاهد مصطفى الرماصي، الذي كان فقيهاً ومقاتلاً في آن واحد، إلى جانب العالم أبو الحسن العبدلي، الذي كانت له مكانة مرموقة في أوساط المجاهدين والعلماء، وقد عُرف هؤلاء المشايخ بدورهم التعبوي والدعوي، فكانوا يشحذون الهمم، ويجمعون التبرعات من القبائل لتوفير العتاد اللازم للمجاهدين¹

أما خلال فتح وهران الثاني سنة 1792 م، فقد بلغت مساهمة الرباطات ذروتها، حيث كانت القوة الدافعة الأساسية وراء هذا الفتح الكبير، وقد أدرك الباي محمد الكبير، الذي قاد هذه الحملة، أهمية الرباطات ودورها فخصّها بعناية فائقة، ومدّها بكل الوسائل الضرورية من أموال ومؤن وأسلحة، بل كان يعقد معها المجالس ويستشير شيوخها في أمور الحرب والدين على حد سواء، وكان طلبة الرباطات هم أول من شارك في الصفوف الأمامية للهجوم، وهو ما يدل على قوة إيمانهم بالقضية، واندماجهم التام في المشروع الجهادي².

شارك في هذا الفتح عدد من علماء الرباطات، المعروفين بالتقوى والورع، وكانوا يقودون مجموعة من الطلبة والمجاهدين في رباط جبل المائدة القريب من وهران، وهو الموقع الذي شكّل قاعدة متقدمة للهجوم على القوات الإسبانية، ومن العلماء البارزين: محمد بن علي الشارف المازوني، وولده اللذان شاركوا معه، بالإضافة إلى الشيخ الطاهر بن حوا، ومحمد بن

¹ المهدي البوعبدلي، الرباط والفدا في وهران والقبائل الكبرى، مجلة محكمة نصف سنوية تصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ع6، ص 20.

² نفسه، ص ص 20-21.

مصطفى بن زرفة، الذين كانت لهم مكانة علمية وجهادية بين أوساط القبائل والسطة أيضا، ولقد تحولت الرباطات في تلك المرحلة إلى مؤسسات شاملة، تُدرّس فيها العلوم وتُربى فيها الأجيال، وتُجهّز فيها الحملات العسكرية، حتى غدت بالفعل بمثابة مدارس حربية وروحية متكاملة، وكانت هذه الرباطات تقوم بمهامها في ظروف صعبة، وتحمل مسؤوليات جسيمة، لكنها استطاعت رغم ذلك أن تحافظ على وظيفتها التربوية والعسكرية معًا، ما جعلها محل احترام واسع من طرف القبائل والسكان والسلطة العثمانية¹.

لا يمكن في هذا السياق إغفال دور زاوية الشيخ محمد بن علي المجاجي، التي اعتُبرت من أبرز الزوايا الرباطية في المنطقة، إذ جمعت بين الوظائف الثلاث: الزاوية كمؤسسة دينية، والمدرسة كمؤسسة علمية، والرباط كمؤسسة عسكرية، وقد تميزت هذه الزاوية بنشاطها المكثف وتكوينها الصارم للطلاب، الذين كانوا يتلقون فيها التربية الروحية إلى جانب التدريب الجهادي، وكانت تشرف على تنظيم السرايا، وتوزيع المؤن، وتنسيق العمليات مع بقية الرباطات المنتشرة في البايك².

4. المدارس:

تُعد المدارس من النماذج التعليمية المتقدمة نسبياً في بايلك الغرب، غير أنها لم تكن على نفس درجة الانتشار التي عرفتتها المساجد والزوايا، إذ كان إنشاؤها في الغالب ثمرة لمبادرات فردية قام بها بعض العلماء والمشايخ الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية نشر العلم والمعرفة، وعلى الرغم من قلة المدارس التي بُنيت بمبادرات من البايات، إلا أن بعضهم سعى لتأسيس

¹ نفسه، ص 19.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج1....، المرجع السابق، ص 273.

مؤسسات تعليمية بهدف تعميم التعليم، ومن أبرز الأمثلة على ذلك الباي محمد الكبير، الذي أنشأ المدرسة المحمدية بمعسكر، إلى جانب المسجد الأعظم سنة 1781م¹.

رغم محدودية عدد المدارس، فإن حضورها العلمي والاجتماعي كان قويًا، وقد ساهم بشكل فعال في محاربة الأمية داخل المجتمع، وأصبحت شبه منعمة في أوساط سكان البايك، وقد أشار الكثير من الزائرين الذين حلّوا بالبلاد إلى دهشتهم من عدد المدارس المنتشرة، ما يدل على الوعي الكبير بأهمية التعليم، وكان لنظام الوقف دور رئيسي في قيام هذه المدارس، سواء من حيث بنائها أو تمويل المعلمين، فضلًا عن تأمين حاجيات الطلاب من كتب ووسائل تعليمية، وهو ما سهّل تعميم العلم وجعل المدارس قادرة على أداء مهامها بفعالية، ففي مدينة تلمسان وحدها، سُجل وجود ما لا يقل عن خمس مدارس ثانوية وعالية، نالت اهتمامًا بالغًا من السكان الذين لم يترددوا في دعمها ماديًا من أموالهم الخاصة، وقد شارك التدريس فيها نخبة من العلماء، وقد نالت هذه المدارس تقديرًا من عدد من الرحالة والعلماء الذين مرّوا بتلمسان، وأشادوا بمستواها ونظامها العلمي المتطور².

أما في معسكر، فقد شهدت أيضًا بروز عدة مدارس، تتقدمها المدرسة المحمدية التي أسسها الباي محمد الكبير سنة 1781م، والتي أصبحت لاحقًا واحدة من أبرز المعالم التعليمية في الإيالة، فقد تميزت ببرنامج علمي متنوع، شمل العلوم الشرعية مثل الفقه والحديث والتفسير، إلى جانب العلوم العقلية كالرياضيات والجغرافيا والفلك، ما جعلها تضاهي مؤسسات التعليم الكبرى، في المغرب الأقصى وتونس وحتى في المشرق العربي³.

¹ Moulay Belhamissi, Mazouna...., Op cit, p49.

² أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1....، المرجع السابق، ص274.

³ رشيدة شكري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات 1671-1830، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص58.

لقد لقيت المدرسة اهتماماً مباشراً من مؤسسها الباي محمد الكبير، الذي حرص على تجهيزها بالمرافق اللازمة، كما أنشأ لها مكتبة زاخرة بالكتب، وعيّن فيها نخبة من العلماء البارزين، من أمثال الشيخ مصطفى بن زرفة والطاهر بن حوا، وفي سنة 1792م، أسند إدارتها إلى الشيخ محمد بن عبد الله الجليلي، فازدهرت المدرسة أكثر وحققت إشعاعاً علمياً واسعاً، وساهمت في تحويل مدينة معسكر إلى منارة علمية بارزة¹.

لقد اشتهرت المدرسة المحمدية إلى جانب مؤسسات أخرى، مثل المدرسة الكتانية في قسنطينة والمدرسة القشاشية في الجزائر العاصمة، لتشكل معاً دعائم قوية للنهضة العلمية في البلاد، ومرجعاً علمياً في شتى فروع المعرفة، ما جعلها تضاهي أبرز المدارس في شمال إفريقيا والمشرق العربي².

كما برزت مدرسة مازونة كأحدى أبرز المعالم التعليمية في البايك، حيث كانت تُعد من أقدم المدارس المعروفة في المنطقة، واشتهرت كذلك بلقب "مدرسة مازونة الفقهية"، نظراً لكون غالبية الدروس المقدمة فيها مخصصة لعلم الفقه وفروعه، ولقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تأسيسها، غير أن الروايات تتفق على أنّ تأسيسها تم في أواخر القرن السادس عشر أو مطلع القرن السابع عشر، أما مؤسسها فهو الشيخ محمد بن الشارف البلداوي، وهو أحد العلماء الاندلسيين الذين هاجروا إلى الجزائر بعد سقوط الأندلس، واستقر بمدينة مازونة، حيث ساهم في إرساء دعائم التعليم الديني بها، وقد عرفت هذه المدرسة إقبالاً متزايداً من طلبة العلم من مختلف أنحاء البايك، نظراً لما اشتهرت به من سمعة علمية طيبة، ومكانة مرموقة بين المؤسسات التعليمية في البلاد، كما كان الطلبة المتفوقون في الزوايا والمدارس القروية،

¹ محمد عليو، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة معسكر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر 1701-

1830، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران ، 2008-2009، ص135.

² أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1....، المرجع السابق، ص280.

يتوجهون إليها لاستكمال تحصيلهم العلمي، وقد شهدت المدرسة حضور نخبة من العلماء الذين قاموا بالتدريس بها، من بينهم: العلامة أبو راس الناصري، والشيخ محمد بن علي السنوسي، إلى جانب الشيخ عدة بن غلام الله، أحد أعلام التصوف ومجدد الطريقة الشاذلية في نواحي تيهرت¹.

مع مرور الوقت، ارتفع عدد الطلبة الملتحقين بالمدرسة بشكل ملحوظ، وأصبحت تعد وجهة رئيسية للعلم في البايك إلى جانب المدرسة المحمدية في معسكر، وكان من أبرز من تولوا التدريس فيها أفراد أسرة آل هني، وهي أسرة علمية معروفة في مازونة تعود أصولها إلى المهاجرين الأندلسيين، وكان لها دور بارز في نشر التعليم ومن بين أعلام هذه الأسرة نذكر الشيخ أبو طالب محمد بن علي بن الشارف المازوني، وهني بن محمد أبو طالب، ومصطفى بن هني، والشيخ أبو العباس أحمد بن هني، كما ساهم في التدريس بها علماء آخرون من خارج الأسرة مثل: الشيخ ابن علي بن الشيخ عبد الله المغيلي، والشيخ العربي بن نافلة، والشيخ محمد الصادق بن أفغول².

بعد تحرير مدينة وهران سنة 1792م، أولى الباي محمد الكبير اهتمامًا خاصًا بإعادة الطابع الإسلامي والثقافي للمدينة، فقام سنة 1793م بتأسيس مدرسة خنق النطاح، التي أطلق عليها أيضًا اسم مدرسة الباي، وقد أنشأها لتكون مركزًا للعلم والدين، ولتساهم في إعادة بعث الحياة العلمية في وهران بعد التحرير³.

كانت هذه المدرسة تدرّس مختلف العلوم الدينية واللغوية، وقد حظيت برعاية مباشرة من الباي الذي قام بتمويلها، وتوفير كل ما تحتاجه من مرافق تعليمية وتجهيزات ضرورية، وتعتبر

¹ رقاد سعدية، المرجع السابق، ص132.

² نفسه، ص ص132-133.

³ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص138.

هذه المدرسة منارة علمية يقصدها الطلبة من مختلف أرجاء البلاد، لما توفره من بيئة علمية متميزة، ومن بين أشهر العلماء الذين قاموا بالتدريس بها: الشيخ الطاهر المشرفي، وأحمد التهامي، و خليل الفرندي، ومحمد بن سعد التلمساني، بالإضافة إلى عدد من العلماء الآخرين الذين تركوا بصمتهم في الحياة العلمية بوهران، ولقد كانت لهذه المدرسة خصوصية تاريخية، إذ دُفن فيها الباي محمد الكبير سنة 1798م، تقديرًا لمكانته وجهوده في خدمة العلم والدين، غير أن الاحتلال الفرنسي بعد إحتلاله وهران، عمد إلى تحويل المدرسة إلى حمام عسكري للجند، ما أدى إلى طمس المعالم الأصلية للمدرسة رغم وجودها إلى اليوم، وطمس قبر الباي أيضا، ما شكّل خسارة ثقافية وتاريخية كبيرة¹.

5. الكتاتيب (الكتاب):

لقد انتشرت الكتاتيب في مختلف أرجاء بايلك الغرب، وامتدت إلى أغلب القرى والمدن، ومواطن القبائل، إلا أنها لم تكن في مستوى المدارس الكبرى في المدن من حيث التنظيم والعمران والمحتوى العلمي، بل كانت بسيطة من حيث بنيتها، وتكاد تخلو من المرافق المهيكلية، وكان أبناء القبائل يقصدون هذه الكتاتيب لتلقي أبجديات التعليم، خصوصًا في ظل غياب مؤسسات تعليمية منظمة في محيطهم، وغالبًا ما كانت هذه الكتاتيب تدار من طرف معلم واحد، وأحيانًا اثنين في أحسن الأحوال، وكانوا يقدمون فيها دروسًا أولية تشمل تلاوة القرآن الكريم، وتعليم مبادئ القراءة والكتابة، وبعض ما تيسر من الأحاديث النبوية الشريفة².

كما يحصل الطالب عند إتمامه مراحل التعليم الأولى على إجازة علمية من شيخه، تؤهله للانتقال إلى المدارس والمعاهد الكبرى المنتشرة في الحواضر مثل معسكر وتلمسان ووهران، فقد

¹ رقاد سعدية، المرجع السابق، ص136.

² أحمد قاسم، الكتاتيب في البلاد التونسية، المجلة التاريخية المغربية، ع89-90، منشورات التميمي للبحث العلمي و المعلومات، تونس، 1998، ص145.

كانت تُعدّ الكتاتيب بمثابة المدارس الابتدائية في سلم التعليم التقليدي، وكانت تُعرف في الجزائر عامةً باسم "المسيد"، حيث يتم فيها تحفيظ القرآن الكريم، وتلقين الأطفال أصول الكتابة والقراءة، وغرس القيم الإسلامية منذ الصغر، وقد أنشئت هذه المؤسسات التعليمية البسيطة في الأساس تجنباً للعب الأطفال وضجيجهم داخل المساجد، نظراً لقداسة المكان وحرص المسلمين على طهارته ونظافته، كما تواجدت إلى جانب هذه الكتاتيب الصغيرة، كتاتيب كبيرة الحجم نسبياً، وكان لها دور تعليمي أكثر اتساعاً، إذ تجاوزت مهمة تحفيظ القرآن، إلى تعليم قواعد الترتيل والقراءات، وإلقاء دروس في الفقه وعلم الحديث، ما يجعلها تقترب كثيراً من مفهوم المدرسة الثانوية أو المعاهد العلمية¹.

من أبرز المناطق التي عرفت انتشاراً واسعاً لهذه الكتاتيب تلمسان، التي ضمت وحدها ما يزيد عن خمسين كتاباً، بلغ عدد الطلاب بها أكثر من ألفي تلميذ، وهي نسبة مرتفعة مقارنة بعدد سكان المدينة الذي كان يقدر بحوالي 14 ألف نسمة في أواخر العهد العثماني، الأمر الذي يعكس مدى ارتباط الجزائريين بالعلم والدين الإسلامي، وحرصهم الكبير على تربية أبنائهم على مبادئ الدين والتعلم منذ سن مبكرة².

ما يلفت الانتباه في بايلك الغرب خلال هذه المرحلة هو عدم خلو أي قرية أو تجمع سكاني من وجود كتاب أو أكثر، بل وصل الأمر إلى أن الكتاتيب انتشرت حتى في المناطق الجبلية النائية وأوساط البدو الرحل، ما يعكس مدى تجذر الثقافة التعليمية في المجتمع الجزائري آنذاك، وقد أشار العديد من الجنرالات الفرنسيين الذين شاركوا في الحملات الأولى على الجزائر

¹ يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا....، المرجع السابق، ص200.

² مختار بونقاب، الحياة الثقافية....، المرجع السابق، ص73.

إلى هذا الواقع، معبرين عن دهشتهم من المستوى العلمي المرتفع، لدى سكان الجزائر مقارنة بشعوب أوروبية عدة¹.

لقد كانت كل قبيلة أو قرية تتولى بنفسها مهمة تعيين المعلم أو "الفقيه"، الذي يشرف على الكتاب، بشرط أن تتوفر فيه شروط صارمة من بينها حسن الأخلاق والتقوى والعلم، والصبر على تعليم الأطفال، مع القدرة على أداء رسالته التربوية في ظروف بسيطة، وقد تراوح عدد التلاميذ في الكتاب الواحد بين 15 إلى 20 تلميذاً، وأحياناً كان العدد يتجاوز الخمسين في بعض المناطق، التي يكثر فيها السكان أو يقل فيها عدد الكتاتيب².

6. المكتبات:

لقد احتلت المكتبات مكانة بارزة ضمن المؤسسات العلمية والثقافية في بايلك الغرب خلال العهد العثماني، وقد تميزت بتنوعها وانقسامها إلى قسمين رئيسيين: المكتبات العامة التي كانت مفتوحة أمام جميع فئات المجتمع من طلبة العلم والعلماء والقراء، والمكتبات الخاصة التي كانت مملوكة من طرف الزوايا أو الأسر العلمية العريقة، وتقتصر الاستفادة منها غالباً على أعضائها أو المنتسبين إليها، وقد أضحت هذه المكتبات منارات علمية تساهم في بناء المشهد الثقافي والعلمي في البايك، إذ كانت تضم مجموعات متنوعة من المخطوطات والمؤلفات في مختلف ميادين المعرفة، بدءاً من العلوم الشرعية واللغوية، والرياضيات والفلك والتاريخ والأنساب³.

لم يكن لهذا النشاط أن يزدهر لولا ما وفرتة الأوقاف من دعم مادي ومعنوي، فقد كانت الجهة الرئيسية التي تتكفل بتمويل المكتبات، سواء من خلال تخصيص الرواتب للعاملين فيها،

¹ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج1.....، المرجع السابق، ص274.

² رقاد سعدية، المرجع السابق، ص131.

³ حمدادو بن عمر، واقع الحياة الثقافية والفكرية أواخر العهد العثماني ببايلك الغرب، حوليات التاريخ والجغرافيا، مج 4، ع7،

2013، ص ص31.

أو عبر توفير الأدوات والوسائل التي تحتاجها هذه المؤسسات، للقيام بدورها العلمي على أكمل وجه، ومن اللافت أن القائمين على هذه المكتبات، كانوا يسعون دائماً إلى إثراء محتوياتها، فيبذلون الجهد في اقتناء المخطوطات النادرة والثرية، ولو كانت بأسعار باهظة، لما لهذه المؤلفات من أهمية في تعزيز الرصيد المعرفي للمنطقة¹.

على الرغم من أن عدد المكتبات لم يبلغ مستوى انتشار المساجد والزوايا من حيث الكثافة، إلا أن حضورها العلمي لم يكن أقل شأنًا، بل كانت تعتبر مراكز مرجعية لا غنى عنها لطلبة المدارس والمعاهد العليا، الذين يرغبون في التوسع وزيادة محصولهم العلمي، أو للعلماء الذين يعكفون على التأليف والبحث العلمي، ولقد ساهمت عدة عوامل في تنمية محتويات هذه المكتبات وتكثيف إنتاجها، أبرزها النشاط المكثف في مجال التأليف والنسخ داخل الجزائر عمومًا وبايلك الغرب خصوصًا، حيث كان هناك اعتماد شبه كامل على الإنتاج المحلي للكتب، خاصة في مجالات العلوم الشرعية واللغوية والفلك أيضًا، بالإضافة إلى بعض الكتب المتخصصة في الطب الشعبي².

إضافة إلى استيراد العديد من المؤلفات من الحواضر الإسلامية الكبرى، كالقيروان وتونس وفاس ومراكش والقاهرة ومكة والمدينة ودمشق، بل وحتى من إسطنبول، ما جعل محتويات المكتبات ثرية ومتنوعة، تغطي معظم ميادين العلم، كما كانت تلمسان تتصدر مناطق البايك من حيث عدد المكتبات، وكذا غنى محتوياتها من الكتب، نظرًا لما كانت عليه من مكانة علمية مرموقة، وبفضل كثرة العلماء والمدارس والزوايا فيها، ما جعلها مركزاً لإشعاع علمي خلال هذا العهد³.

¹ نفسه، ص 31-32.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1،، المرجع السابق، ص 285-286.

³ نفسه، ص 286.

بالنسبة للمكتبات الخاصة، فقد عرفت بدورها تطوراً معتبراً، ومنها ما ارتبط بالزوايا، التي كانت تؤدي أدواراً تربوية ودينية وعلمية في آن واحد، مثل زاوية إبراهيم التازي في وهران، التي كانت تحتوي على مكتبة ضخمة على عدد كبير من كتب والمخطوطات المتنوعة، بالإضافة إلى أدوات وآلات كانت تستخدم في الجهاد، ما منحها صبغة مزدوجة تجمع بين المكتبة والمتحف¹.

لقد عرف القرن الثامن عشر ازدهاراً نوعياً في عدد المكتبات العامة والخاصة، نتيجة لما شهده البايك من حراك علمي واسع شمل مجالات متعددة، وترافق هذا الحراك مع توجه واضح لدى بايات بايلك الغرب لدعم العلم والعلماء، وكان على رأس هؤلاء البايات الباي محمد الكبير، الذي عرف بحرصه على تشجيع التأليف والنسخ، خاصة تلك المتعلقة بالعلوم الشرعية والفقه والحديث والتاريخ والأنساب وعلوم الفلك والرياضيات والطب، كما أدى هذا المناخ المشجع إلى بروز بيئة علمية خصبة، كان للمكتبات فيها دور محوري، فغدت مؤسسات قائمة بذاتها تمارس دورها في نشر المعرفة وتكوين النخبة العلمية، وساهمت بفعالية في الحفاظ على التراث الثقافي والعلمي للبلاد².

لقد اشتهرت مكتبة مازونة بترائها العلمي الكبير، وبما ضمته من رصيد ضخم من الكتب والمخطوطات النفيسة، حيث كانت تشكّل منارة علمية يقصدها الباحثون وطلبة العلم والعلماء من مختلف أنحاء الإيالة، وقد تم تخصيص غرفة خاصة لحفظ هذا الرصيد العلمي الهائل، وذلك حرصاً على حماية المخطوطات من التلف أو الضياع أو التمزق، وقد عمل المسؤولون على هذه المكتبة بشكل دائم على ترتيب محتوياتها ومراجعتها وصيانتها، ما يعكس درجة

¹ رقاد سعدية، المرجع السابق، ص 136

² نفسه.

الوعي بأهمية هذا الإرث العلمي، ومن بين أشهر المخطوطات والكتب التي كانت محفوظة داخل مكتبة مازونة:

• تحقيق المبادئ وتحرير المعاني على رسالة أبي زيد القيرواني، للمؤلف أبي الحسن علي المالكي، وقد نُسخَت هذه المخطوطة بخط يد الناسخ المعروف أبي القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن البرّاني.

• كتاب الدرر في حل ألفاظ المختصر، وهو من تأليف الشيخ محمد بن إبراهيم بن خليل، ويعد من الكتب التي لاقت رواجًا واهتمامًا داخل الأوساط العلمية لما يحويه من شرح دقيق لأهم المتون الفقهية¹.

لقد حظيت مكتبة مازونة باهتمام بالغ من طرف الباي محمد الكبير، الذي أولى عناية كبرى بنشر العلم والمعرفة، حيث أمر بوقف مجموعة معتبرة من الكتب لصالح هذه المكتبة، كما أوقف لها نسخة فاخرة من صحيح مسلم سنة 1202 هـ (الموافق لسنة 1787م)، ما يؤكد اهتمامه بتوفير المراجع الأساسية لطلبة العلم².

إلى جانب مكتبة مازونة، برزت عدة مكتبات عامة أخرى، كان لها دور فعّال في الحياة العلمية والثقافية في البايك، وفي مقدمتها مكتبة المدرسة المحمدية بمعسكر، التي شيّدها الباي محمد الكبير سنة 1781م. وقد عمل الباي على دعم هذه المكتبة بالمخطوطات القيمة والكتب، وشجع العلماء الذين يدرّسون بالمدرسة، على الإسهام في التأليف والنسخ والإنتاج العلمي،

¹ دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص 280.

² ميسوم ميلود، مدرسة مازونة-دراسة تاريخية فنية-، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2002-2003، ص 100.

وهكذا أصبحت مكتبة المدرسة مركزا علميا مرموقا ومقصدا للطلبة النجباء من مختلف أنحاء الإيالة¹.

من بين المكتبات الشهيرة أيضًا، مكتبة زاوية القيطنة بمعسكر، والتي كانت تضم مجموعة واسعة من الكتب والمخطوطات، وارتبط اسمها باسم الشيخ محيي الدين والد الأمير عبد القادر، حيث استفاد هذا الأخير في شبابه من محتوياتها الغنية، مما ساهم في تكوينه العلمي والديني والفكري².

كما كانت هناك مكتبات خاصة مملوكة لأسر علمية معروفة، مثل مكتبة الباي محمد الكبير نفسه، والتي كانت تضم مؤلفات وكتبًا نادرة جلبها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وكان يخصص وقتًا للمطالعة الشخصية فيها، وقد أوقف هذه المكتبة بدوره على طلبة العلم للاستفادة من كنوزها³.

من المكتبات الخاصة المتميزة كذلك، مكتبة أبي راس الناصري في معسكر، والتي عُدّت من أضخم المكتبات في كامل البلاد خلال تلك الفترة، وقد احتوت على ثروة علمية كبيرة، شملت مؤلفات أبي راس نفسه ومخطوطات كثيرة في الفقه، والحديث، والتاريخ، والأنساب، وعلوم اللغة، وكانت هذه المكتبة مقصدًا رئيسيًا للطلبة والباحثين، الذين كانوا يجدون فيها ما يعينهم على التحصيل والبحث العلمي المتقدم⁴.

¹ عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي حياته وآثاره 1895م، المؤسسة الوطنية للفنون الطبعية، ط1، الجزائر، 2011، ص62.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج1....، المرجع السابق، ص298-299.

³ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، 155.

⁴ أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح و تق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1980، ص20.

كما نجد أيضًا من بين المكتبات العلمية البارزة في بابلوك الغرب، مكتبة مدرسة الشارف بمدينة معسكر، والتي تُعد من أهم المكتبات التعليمية التي ساهمت في إثراء الحركة العلمية خلال هذا العهد، وقد تميّزت هذه المكتبة بتنوع مصادرها وغزارة محتوياتها من الكتب والمخطوطات في شتى فروع المعرفة، ما جعلها محط أنظار العلماء وطلبة العلم، وكان يشرف على هذه المؤسسة العلمية، الشيخ عبد القادر المشرفي الذي يعد من أبرز علماء عصره¹.

ثانيا: العلماء في بابلوك الغرب وعلاقتهم بالسلطة

لقد اشتهر بابلوك الغرب خلال مرحلة حكم الدايات، بكثرة العلماء والفقهاء وبتنوع مشاربهم الفكرية والعلمية، فكانوا حاضرين في مختلف مناطق البابلوك، سواء في الحواضر الكبرى كمعسكر وتلمسان ووهران، أو في القرى والزوايا الريفية، حيث لعبوا أدوارًا محورية في نشر العلم وترسيخ قيم الإسلام في نفوس العامة والخاصة، لقد حاز هؤلاء العلماء تقدير السكان على اختلاف مشاربهم الاجتماعية، وذلك لما تميزوا به من تقوى وورع وأخلاق عالية، فضلاً عن مكانتهم العلمية الراسخة، التي جعلت من البابلوك مركزًا فكريًا مزدهرًا طيلة العقود التي امتدت فيها سلطة الدايات².

من أبرز الأسماء التي لمعت في العلم والمعرفة خلال هذه الفترة: الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي، ومصطفى الرماصي، والطاهر بن حواء، وأبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني، ومحمد الحلفاوي، وعبد القادر المشرفي³، والشيخ هني، وأبو راس الناصري، وابن سحنون الراشدي، ومحمد بن يوسف الزياني، وأحمد بن فغول، والحاج محمد بن قوجيل،

¹ عبد الحق شرف، المرجع السابق، ص 63.

² بوجلال قدور، مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بابلوك الغرب فترة الدايات 1671-1830، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2016-2017، ص 89.

³ نفسه، ص 89.

والقاضي الصادق الحميسي، وقاضي أرزيو أحمد بن الطاهر، ومصطفى بن زرفة الدحاوي، ومحمد بن الطاهر المحفوظي، والطاهر بن الشيخ المشرفي، والمفتي أحمد التهامي، وغيرهم من العلماء الذين أثروا الساحة العلمية بكتبهم ومؤلفاتهم، وساهموا في تكوين أجيال من الطلبة والعلماء، وانتشرت آثارهم في مكتبات المدارس والزوايا، ولقد كانت العلاقة بين هؤلاء العلماء والسلطة العثمانية الحاكمة في بايلك الغرب علاقة تميزت بالتقدير والاحترام المتبادل، فقد كانت السلطة ترى في العلماء سنداً شرعياً ومعنوياً، خاصة في ظل الصراعات الداخلية والخارجية التي عرفتھا المنطقة، ولذلك، كان البايات يحرصون على تقريب العلماء وإشراكهم في مجالسهم، بل واستشارتهم في كثير من القضايا المتعلقة بالشؤون الدينية والاجتماعية¹.

إلى جانب دورهم التربوي والدعوي، كان للعلماء حضور بارز في ميدان الجهاد والدفاع عن الوطن. فقد شاركوا بأنفسهم وطلبتهم في الرباطات وفي المعارك التي خاضها البايك ضد الإسبان، وعلى وجه الخصوص في معركتي تحرير وهران الأولى والثانية، حيث استشهد عدد منهم في سبيل الله والوطن، وكانت مشاركتهم سبباً في رفع الروح المعنوية للمجاهدين وتثبيت قلوبهم، ما جعل مكانتهم في قلوب الناس والسلطة ترتفع أكثر فأكثر، وقد كان الكثير من هؤلاء العلماء يقومون بدور الوساطة الاجتماعية، مستغلين مكانتهم وثقة الناس بهم. فكانوا يُصلحون ذات البين بين القبائل المتنازعة، أو بين العرب والكراغلة، كما هو الحال مع الشيخ عبد القادر المشرفي الذي برز في هذا الدور، إذ عُرف بتدخله الناجح لفض النزاعات وبقدرته على تهدئة النفوس والتوفيق بين الخصوم².

لقد زاد هذا الدور الاجتماعي والعلمي من تقارب العلماء مع السلطة، فتم تعيين بعضهم في مناصب إدارية أو دينية عليا، مثل منصب "آغا" أو "قاضي" أو "شيخ الزاوية". ومن أبرز

¹ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص302.

² أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص53.

الأمثلة في هذا السياق أن أسرة الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، تحظى بمكانة كبيرة لدى حكام الجزائر، حتى أن الداي حسين باشا قام بمصاهرة مع هذه الأسرة، في إشارة إلى مدى تأثيرها ونفوذها السياسي والاجتماعي والديني، ومن مظاهر هذا التكريم أيضًا، أن إمارة الحج، التي كانت من المناصب المرموقة في الدولة العثمانية، أُسندت إلى عدد من أبناء هذه الأسرة العلمية، فكان من بينهم الشيخ بن طيبة بن سيدي بوزيان، الذي تولى إمارة الحج سنة 1710م، والسيد بوطيبة المداني سنة 1758م، والحاج محمد بن الواحد بن سيدي الخلافي سنة 1761م. وكانت هذه الإمارة ليست مجرد وظيفة تنظيمية، بل اعترافًا صريحًا بالفضل والعلم والريادة التي تميز بها هؤلاء العلماء في خدمة الدين والدولة على حد سواء¹.

تعد عائلة الكتروسي في مازونة من أبرز العائلات العلمية، التي لعبت دورًا هامًا في دعم الاستقرار الإداري في البايك، كما تقلد أفراد منها مناصب هامة في البايك، فقد أوكلت للشيخ محمد بن المهدي الكتروسي مهام الإفتاء والخطابة في مازونة سنة 1795م، وهو منصب ديني رفيع كان يخول لصاحبه سلطة علمية معتبرة ضمن الجماعة، كما برز اثنان من أفراد هذه العائلة في مناصب عليا أيضًا، أحدهما تولى القضاء، والآخر تقلد منصب الإفتاء سنة 1798م، وهو ما يبرز مدى الثقة التي كانت تضعها السلطة في هذه العائلة المشهود لها بالعلم والصلاح².

من بين الشخصيات العلمية المؤثرة أيضًا، والد أحمد بن سحنون الراشدي، الذي شغل منصب قاضي القضاة بمدينة معسكر، وكان مقربًا جدًا من الباي محمد الكبير، وقد كان هذا

¹ لزغم فوزية، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2013-2014، ص ص 451-452.

² لعباسي محمد، تعيينات آل الكتروسي في المناصب الدينية بمدينة مازونة على العهد العثماني من خلال الوثائق التاريخية، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع13، 2018، ص 94.

العالم يشغل منصب كاتب الباى لمدة سبعة عشر عامًا متواصلة، من سنة 1779م إلى غاية سنة 1796م، ما يبرز مدى تأثيره في القرار السياسى والإدارى للبابلوك، وكذلك الثقة الرفيعة التى حظى بها من قبل السلطة الحاكمة¹.

كما نجد من العلماء البارزين الذين تقلدوا مناصب علمية وإدارية هامة، الشيخ محمد الموفق أبى جلال، الذى عيّن الباى محمد الكبير مديراً عاماً على المدرسة المحمدية، وهى من أشهر المؤسسات التعليمية فى معسكر، ونظراً لكفاءته العلمية عهد له الباى أيضاً رئاسة رباط جبل المائدة بوهراى، ما يعكس تعدد المهام التى كانت توكل للعلماء فى تلك الفترة، إذ لم تقتصر على الجانب الدينى فقط، بل تعدته إلى التنظيم العسكرى والروحى للمجاهدين، وكذلك عيّن الباى محمد بن عبد الله الجيالى رئيساً عاماً على جميع الرباطات المجاهدة ضد الوجود الإشباني، فى دلالة واضحة على الثقة الكبيرة التى كانت تمنحها السلطة لرجال العلم لتأطير الجهاد وتنظيم المقاومة، وفى السياق ذاته تولى الشيخ أحمد التهامى منصب مفتى وهران بعد تحريرها، وهو منصب دينى مرموق يعبر عن حضور العلماء فى مراكز القرار الدينى².

أما ابن هطال التلمساني، فقد عُرف بكفاءته الرفيعة، إذ تولى عدة مناصب إدارية سامية، إلى جانب كونه مستشاراً مقرباً من الباى محمد الكبير، كما أنه كان يكلف بمهام دبلوماسية وسفارية هامة تمثل فيها البابلوك فى الخارج، وقد استمر فى تقلد هذه المهام حتى بعد وفاة الباى، إلى أن قتل فى معركة فرطاسة 1805م خلال التصدي للدرقاويين³.

من مظاهر عناية السلطة بعلمائها كذلك، تعيين الشيخ محمد الطاهر المشرفى فى منصب الإفتاء والقضاء بمدينة وهران بعد استرجاعها من الاحتلال الإشباني، كما خُصص له راتب

¹ لزغم فوزية، المرجع السابق، ص137.

² يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة فى الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامى، بيروت لبنان، 1995، ص247.

³ ناصر الدين سعيدونى، النظام المالى....، المرجع السابق، ص448.

شهري كبير يقدر بـ 60 دينارًا ذهبيًا، في مؤشر على المكانة المالية والرمزية التي كانت تمنحها السلطة للعلماء المرموقين.

يمكن الاستدلال أكثر على التقدير الرسمي للعلماء من خلال الرواتب الشهرية التي كانت مخصصة لهم من خزينة البايك، حيث كان المفتي الحنفي يتقاضى شهريًا 34 ريالًا، بينما يحصل القاضي الحنفي على 25 ريالًا. أما المفتي المالكي فكان يتقاضى 20 ريالًا، في حين يتلقى القاضي المالكي راتبًا شهريًا مقداره 10 ريال¹.

رغم المكانة الرفيعة التي حظي بها العلماء والفقهاء في بايلك الغرب خلال الفترات السابقة من هذا العهد، فإن العلاقة التي كانت تربطهم بالسلطة الحاكمة أخذت في التدهور والانحدار مع أواخر العهد العثماني، حيث بدأت مظاهر الاحترام والتقدير التي كانت تُكن لهم تتلاشى تدريجيًا، ليحل محلها الجفاء بل والعداء أحيانًا، فقد أصبح بعض البايات لا يولون اهتمامًا يذكر لعلم العلماء ولا يراعون مكانتهم الروحية والاجتماعية، مما أدى إلى تأخرهم عن مواقع التأثير والنفوذ، بل ووقع العديد منهم ضحية السياسات القمعية التي انتهجتها السلطة، فتعرضوا للسجن أو الإهانة، بل بلغ الأمر حدّ القتل في بعض الحالات المؤلمة².

يعود هذا التدهور إلى الحالة العامة التي شهدتها الإدارة العثمانية في أواخر عهدها، حيث أصبحت المناصب تُباع وتشتري، وفُقد مبدأ الكفاءة العلمية والخلقية في التعيين للمناصب الحساسة، فانتشرت الرشوة والمحسوبية، ما ساهم في إقصاء العلماء الصالحين والمخلصين من المشهد العام، كما ساهم في ذلك ظلم البايات وتسلب رجالهم، حتى ضاق كثير من الفقهاء ذرعًا

¹ محمد شباح، إمتيازات العلماء والأولياء في بايلك الغرب الجزائري خلال عهد الدايات 1671-1830، مجلة الفكر المتوسطي، مج12، ع1، 2023، ص552.

² حمدان خوجة، المرأة....، المرجع السابق، ص ص112-113.

بهذه المظالم، وأصبحوا يرفعون أصواتهم احتجاجًا على جور الحكام، بل عمد بعضهم إلى تحريض الناس على مقاومة السلطة الجائرة¹.

من أبلغ الأمثلة على القطيعة التي وقعت بين العلماء والسلطة، ما فعله الباي الحاج خليل، المعروف بكرهيته للعلماء ونفوره من الفقهاء وعدم رغبته في مجالستهم أو الإصغاء إليهم². ففي إحدى المرات، عندما ثار سكان تلمسان عليه وتمردوا على حكمه، تحرك بجيشه نحو المدينة قاصدًا تأديب أهلها، وتوعد حينها بإبادة سكانها، كما توعد بقتل الشيخين سيدي المداني بن عطاء الله الغريسي، وسيدي الحاج الموفق الكبير بن سعيد الشقراني عند عودته، و عندما إقترب من تلمسان مرّ بزواية الشيخ أبي الترفاس محمد بن محمد الساحلي شيخ طلبة الساحل، فاقحم الزاوية عنوة، ونهب محتوياتها وخربها، وفرّق الطلبة عن شيخهم بالقوة، بل أهان الشيخ ذاته، وكان على وشك أن يقتله، لكنه تراجع عن ذلك³.

إلا أن خاتمة الباي كانت مأساوية، إذ عُثر عليه مقتولًا في خيمته أثناء حصاره لتلمسان في حادثة لا تزال تفاصيلها غامضة، كما أن الشيخ أبي الترفاس توفي بعده مباشرة في نفس السنة، أي سنة 1192هـ/1778م، وهي السنة نفسها التي توفي فيها الشيخ عبد القادر المشرفي، في دلالة على حجم المأساة التي عاشها العلماء آنذاك⁴.

لقد استمر هذا النهج العدائي تجاه العلماء في عهد آخر بايات بايلك الغرب، حسن بن موسى الباهي، الذي قام بحملة عسكرية ضد زاوية عين ماضي بالجنوب، متهمًا شيخها أحمد بن سالم التيجاني بالتحريض على العصيان والتخطيط للمؤامرات ضد سلطة البايك، ففرض

¹ نفسه، ص113.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص22.

³ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص287.

⁴ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص22.

عليهم ضرائب ثقيلة وغرامات باهظة أرهقت السكان، وهو ما جعل بعض المؤرخين يرجّحون أن هذه التصرفات الظالمة كانت من أسباب تفكير التيجانيين في الثورة لاحقاً¹.

لم يكتف الباي حسن بذلك، بل قاد بنفسه هجوماً على زاوية الشيخ بن قندوز التيجاني، وأمر بتقييده واقتاده إلى وادي رهيو حيث تم تنفيذ حكم الإعدام فيه دون محاكمة، مما أثار موجة استنكار في أوساط العلماء والناس، وكذلك قام الباي حسن بقتل للعالم الجليل محمد بن قريد الغربي في وهران سنة 1828م، حيث أرسل له شخصين على هيئة لصين فقتلاه في بيته، وعندما جاءت زوجته تشتكيان إلى الباي، أمر بوضعهما في كيس وإغراقهما في البحر في مشهد مروّع يعكس قسوة ذلك العهد².

كما قام بتعليق العالم الحاج محمد البوشيخي على خشبة لعدة أيام ثم أمر بقتله، وطال ظلمه الشيخ محيي الدين والد الأمير عبد القادر، إذ أمر بسجنه لسنوات طويلة، ومنعه أيضاً من أداء فريضة الحج، وإن هذه السياسات العدوانية تجاه العلماء تُمثل انحرافاً خطيراً عن نهج السلف من البايات الذين كانوا يكرّمون العلماء ويستشيرونهم، وتدل على حجم التدهور الذي لحق بالحكم العثماني في سنواته الأخيرة، الأمر الذي مهّد بشكل غير مباشر لزوال هذا الحكم، إذ بفقدان العلماء مكانتهم، فُقدت الحكمة، وانتشر الظلم، وزادت الفجوة بين الحاكم والمحكوم³.

¹ يحيى بوعزيز، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص76.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص32.

³ يحيى بوعزيز، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص77.

-خلاصة الفصل:

لقد شهد بابلوك الغرب آواخر عهد الدايات موجات من الكوارث الطبيعية خلال القرن الثامن عشر والرابع الأول من القرن التاسع عشر، كالجفاف والجراد والزلازل والفيضانات، وقد تسببت هذه الكوارث في زعزعة الوضع الديمغرافي لبابلوك الغرب، كما أنها ساهمت في ظهور المجاعات، التي كانت تعتبر شبحاً خلال هذه الحقبة، وكان الجفاف هو المسبب الأكبر لهذه الكارثة، وقد ضرب البابلوك العديد من المجاعات أبرزها مجاعة سنة 1779م، ما دفع الباي محمد الكبير إلى إستيراد كميات كبيرة من القمح من الأسواق الأوروبية، وأيضاً مجاعة 1784 الشديدة والتي تسببت في حصد الكثير من الأرواح، وكانت السبب المباشر لإنتشار الطاعون في الإيالة سنة 1786م.

كما ضربت البلاد مجاعة سنة 1805م، التي سببها إحتكار السلع الغذائية من قبل التجار خاصة اليهوديان بكري وبوشناق، وأصبحت أسعار القمح والشعير خيالية، ويعود سبب الإحتكار إلى نفوذ التجار اليهوديان، وإستغلال علاقتهما الجيدة بالداي مصطفى باشا، الذي سمح لهما بتصدير كميات كبيرة من القمح إلى مرسيليا والأمارات الإيطالية، كما ضربت البابلوك مجاعة خلال عهد الباي الأخير للغرب حسن بن موسى الباهي، والتي فتكت بالكثير من الناس، وسمي ذلك العام بعام "خبز الباي"، ذلك لأن من تدابير الباي لتجاوز هذه المخنة أنه أمر بتقليص حجم رغيف الخبز، من أجل أن يطعم أكبر عدد من الناس.

بالإضافة إلى هذه الكوارث، فقد إنتشرت الأوبئة والأمراض أيضاً خلال هذا العهد، وتعود بداية ظهور الأوبئة إلى سنة 1738م، عندما ضرب الطاعون تلمسان، وبقيت موجاته تضرب البابلوك من حين لآخر إلى غاية نهاية العهد العثماني، ومن أشهر الأوبئة طاعون 1743م، الذي قدر عدد ضحاياه بستين ألف ضحية، كما ضرب وباء 1786م، الذي كان سببه

مراجعة 1784م، ليعاود الظهور سنة 1787م، وقد سمي "الوباء الكبير"، وكان يحصد أكثر من 500 ضحية يوميا في أوج قوته، ويذكر أنه حصد 16 ألف من السكان، وكانت معسكر أكبر المتضررين منه، وقد ضرب الطاعون العديد من المرات بايلك الغرب، كما أن الأمراض كانت منتشرة طوال هذا العهد، وأشهرها الحمى بأنواعها، ومرض الزهري، ومرض الجذري والعديد من الأمراض الجلدية والتنفسية.

الملاحظ أن السلطات وقفت عاجزة أمام هذه الكوارث والأوبئة، بإستثناء الباي محمد الكبير الذي عمل على مواجهتها من خلال دعم السكان ماديا ومعنويا، وتوظيف الأطباء والتدابير اللازمة لتجاوز هذه المحنة، رغم نتائجها الكارثية، بينما أغلب البايات فقد كانوا حينما يضرب الطاعون يحملون أنفسهم وأهلهم وحاشيتهم وينعزلون في مناطق بعيدة غير أهلة بالسكان، إلى غاية إنتهاء هذه المحنة ليعودوا إلى مناصبهم، بالإضافة كان هناك بايات يستخلصون الضرائب خلال هذه الأزمات، كما أنهم غير مبالين بوضع الناس، هذا ما جعل من القبائل تتذمر وعلن التمرد والعصيان، وعدم الإعتراف بسلطة العثمانيين كحاكم شرعي للبايلك.

أما الأوضاع الثقافية فقد شهدت إزدهارا نوعا ما، وذلك من خلال إنتشار المؤسسات التعليمية في كل أرجاء البايك، إلا أنها كانت في القرى والبوادي والمداشر أين تستقر القبائل يتم تشييدها من طرفهم وتمونها من أموالها الخاصة، لأن السلطة كانت تهتم فقط بالمؤسسات التعليمية الكبرى في المن فقط، أما بالنسبة للآرياف والبوادي فكانت غير مهتمة إطلاقا، إلا أن أبناء القبائل كان يدرسون في مدراس وكتاتيب وزوايا، وحتى الرباطات في مناطق سيطرة قبائلهم، وعندما يحصل التلاميذ على إجازات من معلمهم، يتوجهون إلى الدراسة في المدن المجاورة لهم في غالب الأحيان.

لقد شهد البايك أيضا بروز الكثير من العلماء والعائلات العلمية المشهورة، وقد كانت علاقة السلطة بها يحددها البايات، فنجد أن بعض البايات يقربون العلماء منهم ويكرمونهم، بالإضافة إلى توظيفه في مناصب عليا في البايك مثل الباي محمد الكبير، بينما نجد الكثير من البايات يعاملون هؤلاء العلماء والأسر العلمية معاملة سيئة بالإضافة إلى البغض الذي يكونه لهم، مثل الباي الحاج خليل الذي سجن وعذب الكثير من العلماء، والباي حسن بن موسى الباهي في أواخر فترة حكمه ساءت علاقته بالعلماء كثيرا، فقد قتل وعذب وسجن الكثير منهم، مثل قتله للشيخ بن قندوز التيجاني، وقتله أيضا للعالم الجليل محمد بن قريد الغربي، وسجنه للشيخ محيي الدين والد الأمير عبد القادر لسنوات، كما منعه من أداء فريضة الحج، بالإضافة أنه قام بتهديم العديد من الزوايا.

الفصل الخامس: دور القبائل في توجيه السياسة العامة في بايلك الغرب خلال عهد الدايات

المبحث الأول: دور قبائل المخزن في الجباية

المبحث الثاني: مشاركة القبائل في تحرير وهران الأول والثاني

المبحث الثالث: الثورات الصوفية (الدرقاوية و التيجانية أنموذجا) وموقف
القبائل منها

المبحث الرابع: القبائل المتعاونة مع الاحتلال الإسباني وعلاقتها بالسلطة
والقبائل في بايلك الغرب

الفصل الخامس: دور القبائل في توجيه السياسة العامة لبايك الغرب خلال عهد الدايات

-تمهيد:

لقد كان لقبائل بايلك الغرب دور كبير في توجيه السياسة العثمانية خلال عهد الدايات، بحيث كانت تعتبر مادة البايك البشرية، فكانت تساهم بشكل واضح وكبير في التأثير على شتى المجالات السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية، إضافة إلى إنتشارها في مختلف ربوع البايك، ما دفع بالسلطة إلى تقديمها في أي مشروع تطمح إليه، ومثال ذلك إسناد مسؤولية إستخلاص الضرائب ودعم الخزينة لقبائل المخزن.

كما تعتبر قبائل المخزن القوات التي تعتمد عليها السلطات في فرض هيمنتها وقمع الثورات والتمردات، بالإضافة أن القبائل عموماً كانت تشارك في صد الخطر الإسباني، أو مواجهة الحملات المغربية، بل كانت الكثير من القبائل تتطوع وتتنافس فيما بينها من أجل محاربة الإسبان ونيل شرف الجهاد، بالإضافة هناك قبائل متعاونة مع الإسبان، جعلت السلطات العثمانية محتاطة منها، وتعاملها بشكل حذر.

المبحث الأول: دور قبائل المخزن في الجباية

لقد كانت قبائل المخزن في بايلك الغرب، تشكّل حجر الأساس في السياسة الدفاعية والاقتصادية للسلطة العثمانية، حيث انتشرت هذه القبائل في مختلف أقاليم البايك، لكنها تركزت بكثافة أكبر في النطاق الممتد بين معسكر ووهران، لاعتبارات استراتيجية بالغة الأهمية. فالمدينتان تمثلان العاصمتين المتعاقبتين للبايلك؛ إذ كانت معسكر عاصمة إدارية وعسكرية رئيسية قبل أن يتم نقل العاصمة إلى وهران بعد تحريرها من الإسبان سنة 1792م، وقد حرصت السلطة العثمانية على إحكام قبضتها على هذه المنطقة عبر تمكين قبائل المخزن من التركز بها، خاصة وأنها تضم أراضي فلاحية من أخصب السهول في المنطقة، وهي السهول المعروفة بكثرة مروجها ووفرة مياهها وخصوبة تربتها¹.

لقد سعت قبائل المخزن، طمعًا في الامتيازات التي تمنحها السلطة مقابل خدماتها، إلى التركز في هذه الأراضي الاستراتيجية، فتنافست على نيل رضا الباي والسلطة العثمانية طمعًا في الحصول على إقطاعات زراعية واسعة، ومن جانبهم وجد البايات المتعاقبون على حكم البايك في هذه القبائل أداة فعالة لتحقيق غايتين أساسيتين، تمثلت الأولى في استغلال هذه المساحات الفلاحية الشاسعة لإنتاج محاصيل زراعية ومواشي توفر موردًا ماليًا ثابتًا ومهمًا لخزينة البايك، خاصة بعد دخول عهد التراجع البحري الذي خفّت فيه مداخيل الجهاد البحري².

أما الغاية الثانية فكانت عسكرية دفاعية بامتياز، إذ إن تركز هذه القبائل في تلك المنطقة يجعل منها خط دفاع أول في وجه الإسبان، الذين ظلوا يتحينون الفرص للعودة إلى المناطق التي أُجبروا على مغادرتها، لا سيما أحواز وهران، التي كانت لعقود طويلة معقلًا استعماريًا

¹ بوحوش عمار، المرجع السابق، ص70.

² كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص52.

إسبانياً بالغ الأهمية، إن هذه القبائل لم تكن مجرد كتلة بشرية تقطن الأرض، بل شكلت الذراع العسكري الضارب للبايلك، وعماد السلطة في تحركاتها الميدانية، فمع مرور الزمن، وخصوصاً منذ عهد الباي مصطفى المنزالي، أصبحت قبائل المخزن هي القوة الأساسية المنفذة للمهام القتالية، حتى قيل في بعض المصادر التاريخية إن السلطة لم تكن بحاجة إلى إطلاق رصاصة واحدة من قبل الجند الإنكشاريين الأتراك، لما أظهرته هذه القبائل من بسالة وشجاعة وولاء مطلق للسلطة، الأمر الذي ساعد على إحلال نوع من الاستقرار الأمني والعسكري في البايك¹.

يكشف الإحصاء التقريبي لعدد فرسان قبائل المخزن مدى قوتها وتنظيمها، إذ يقدر عدد فرسان الدواير بـ1500 فارس، وهم من أبرز القبائل المخزنية وأقدمها في خدمة السلطة، ثم تأتي الزمالة بـ1100 فارس، بينما قبيلة الحشم فقد بلغ عدد فرسانها 2000، وهي من أكبر وأقوى القبائل، وقد لعبت دوراً رئيسياً في الحروب ضد الاسبان، أما قبيلة البرجية فقد بلغ عدد فرسانها 500، وهي من القبائل التي اعتمدت عليها السلطة في تأمين الطرق والمسالك بين المدن الكبرى، كما سجل عبيد الشراقة عددًا مماثلاً بـ500 فارس، والمكاحلية بـ200 فارس، وبرزت قبائل أخرى مثل أولاد العباس والعوارة بـ200 و100 فارس على التوالي، فيما تميزت قبائل أصغر مثل أولاد حامد وأولاد بوغرة وأولاد خضرة وأولاد قويدر بأعداد فرسان تتراوح بين 50 إلى 100، مما يشير إلى شمولية التوزيع العسكري لهذه القبائل على امتداد جغرافية البايك².

إن هذه التشكيلة المخزنية لم تكن مجرد أداة عسكرية، بل كانت أيضاً وسيلة لإعادة تنظيم المجال الجغرافي، على أسس الولاء السياسي والعسكري، وهو ما يفسر دعم السلطة اللامحدود لهذه القبائل عبر الإقطاعات والهبات والامتيازات، فضلاً عن إشراك أبنائها في مناصب قيادية

¹Esterhazy, Op cit, p262/

² كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص53.

ضمن أجهزة الحكم المحلي، وقد اعتمد البايات في تحصيل الضرائب من الأرياف والقبائل، على جملة من الوسائل والتنظيمات الإدارية، كان أبرزها اللجوء إلى الغرامات والمعونات المفروضة على السكان المحليين، غير أن الأداة الأنجع والأكثر حضوراً وفاعلية في هذا السياق تمثلت في نظام "المحلة"، التي يتكون أغلب فرسانها من قوات المخزن، الذي كان بمثابة العمود الفقري لجباية الضرائب، خاصة من القبائل الواقعة تحت السيطرة المباشرة للسلطة العثمانية، وقد أصبح هذا النظام ركيزة أساسية في تحديد العلاقة المالية بين الدولة والقبائل، لما يتمتع به من تنظيم دقيق ومرونة في التنفيذ، وقدرة على فرض الانضباط والامتثال في مختلف المناطق¹.

لقد كانت المحلة تخرج من عاصمة البايك مرتين خلال العام، وهو تقليد مستقر اتخذه البايات وسيلة لتنظيم الضرائب ومراقبة الأرياف، ويشرف على هذه المحلة شخصيات عليا في السلطة، إما الباي نفسه أو من ينوب عنه كالخليفة، ويرافقها وفد إداري وعسكري يعكس أهميتها، ففي المرة الأولى تكون المهمة تقنية وإحصائية في المقام الأول، إذ يتم تسجيل المساحات المزروعة، وتحديد أنواع المحاصيل، وعدّ رؤوس المواشي التي تملكها كل قبيلة، إضافة إلى تقويم الموارد الأخرى التي تدخل ضمن وعاء الجباية، أما الخروج الثاني فيتعلق بالجانب التنفيذي من العملية، حيث يتم جمع الأموال والعشور المفروضة وفق ما تم ضبطه في الإحصاء الأول².

تجدر الإشارة إلى أن محلات القبائل المخزنية، لم تكن موحدة في أشكالها ووظائفها، بل كانت تتفاوت من قبيلة إلى أخرى، بحسب ولائها للدولة وظروف المنطقة التي تنتمي إليها، فبعض هذه القبائل كان يشارك بانتظام في حملات المحلة، ويُعتبر جزءاً لا يتجزأ من جهاز

¹ توفيق دحماني، الضرائب....، المرجع السابق، ص 217.

² Desfontaines, Op cit, p178.

الدولة الجبائي والأمني، بينما كان البعض الآخر لا يُستدعى إلا في ظروف طارئة أو استثنائية، خاصة خلال فترات الحرب الخارجية أو الانتفاضات والثورات الداخلية، وقد وُفّرت هذه المحلات مساهمة ملموسة في دعم خزانة الدولة وتغطية نفقاتها، خاصة في ظل محدودية الموارد الأخرى¹.

لم تقتصر وظائف المحلة على الجباية فحسب، بل اتخذت أيضًا طابعًا رمزيًا وسياسيًا، باعتبارها وسيلة لإظهار هيبة الباي، وبسط نفوذه في المناطق الريفية، إذ كانت جولة المحلة بمثابة تذكير دوري بسلطة الدولة المركزية، ورسالة موجهة للقبائل حول ضرورة الامتثال للنظام العام، ومن خلال تحركاتها المدروسة، استطاعت الدولة فرض نوع من الرقابة والسيطرة على الفضاءات الواسعة لبائلك الغرب، وتحقيق استقرار نسبي في الأرياف².

ويمكن إجمال أبرز المهام والوظائف التي كانت تؤديها المحلة في النقاط التالية:

- القيام بجباية الضرائب من القبائل الخاضعة إداريًا للسلطة، وفي ذات الوقت الدخول في مفاوضات مع القبائل، التي أبدت امتناعًا أو رفضًا للدفع، وهو ما يعكس بعدًا دبلوماسيًا مرئيًا في أداء المحلة.
- مراقبة الطرق والمسالك الحيوية التي تمر منها القوافل والتجارة، بالإضافة إلى تنظيم الأسواق المحلية، بما يضمن حركة اقتصادية آمنة ومنظمة في الإقليم.
- فرض رقابة الدولة على بعض السلع والمنتجات ذات الأهمية الاستراتيجية، وهو ما كان يُعرف باحتكار الدولة، حيث كانت تتدخل في تسويق أو تصدير بعض المواد الأساسية، بهدف استخدامها كورقة ضغط أو أداة لتوسيع النفوذ الاقتصادي.

¹ Ibid, p178.

² توفيق دحماني، الضرائب....، المرجع السابق، ص217.

• تعزيز سلطة الدولة المركزية من خلال جولات ميدانية دورية، تمكّن الباي من تفقد الرعية والتأكد من ولائهم، كما تساهم في ترسيخ صورته كحاكم قادر على بسط النظام وضبط الأوضاع، خاصة في ظل بعد عاصمة البايك عن بعض المناطق القبلية البعيدة¹.

من خلال هذا النظام، تمكنت الإدارة العثمانية في بايلك الغرب، من خلق توازن نسبي بين متطلبات السلطة من جهة، ومصالح القبائل من جهة أخرى، فكان نظام المحلة تعبيراً عن تقاطع المصالح بين الإدارة والمجتمع، وهو ما ساعد في الحفاظ على استقرار نسبي، سمح باستمرار هذا النموذج الإداري لفترة طويلة من الزمن².

بهذا الشكل، يتّضح أن قبائل المخزن لعبت دوراً محورياً وفعالاً، في تدعيم الإدارة العثمانية في بايلك الغرب من الناحية الاقتصادية، فقد كانت هذه القبائل الركيزة الأساسية التي استندت عليها السلطة العثمانية لضمان توفير السيولة المالية المطلوبة، لتسيير شؤون الحكم والجيش والإدارة، وإلى جانب الوظائف الأمنية والعسكرية التي كانت تضطلع بها، تولّت هذه القبائل مسؤولية جبائية، وهو ما جعلها عنصراً لا غنى عنه في معادلة الحكم العثماني المحلي، ولم يقتصر دورها على الجوانب التقنية والتنفيذية فقط، بل كانت أداة في توسيع مجال النفوذ السلطاني إلى المناطق النائية، وإخضاع القبائل التي لم تكن تخضع من قبل للسلطة المركزية، وفي مقابل هذا الدور الحيوي، منحت الإدارة العثمانية لهذه القبائل امتيازات واسعة، كان من أبرزها تمكينها من استغلال أراضي شاسعة من أملاك الدولة، والتي كانت تُعرف بأراضي البايك، ولقد كانت هذه الأراضي سابقاً حكراً على كبار رجال الدولة، خاصة في بداية

¹ نفسه، ص 218.

² ناصر الدين سعيدوني، دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالجزائر، مجلة الأصالة، ع 32، الجزائر، 1976، المرجع السابق، ص 47.

الاستقرار العثماني في الجزائر، إذ كانت تُدار بطريقة تُظهر احتكار الدولة للموارد الزراعية الكبرى، ومع تطور التوازنات الإدارية والاجتماعية، تغير هذا التوجه لتصبح هذه الأراضي مجالاً للاستغلال من طرف قبائل المخزن، وهو ما مثّل تحولاً استراتيجياً في كيفية تسيير الموارد العقارية للبايلك¹.

لقد كانت هذه الأراضي، من حيث قيمتها الاقتصادية، تُعتبر من أهم الأصول الفلاحية التي أثرت بشكل مباشر على الدورة الاقتصادية داخل البايلك، سواء من حيث حجم الإنتاج الزراعي، أو من حيث مداخيل الدولة، وتركز وجود هذه الأراضي تحديداً في المناطق الخصبة والهامة مثل بوتليليس، والعامرية، وحمام بوحجر، وعين تيموشنت، ومغنية، وسهل غريس، ما يدل على أهمية الاختيار الاستراتيجي لهذه المناطق لتكون تحت تصرف قبائل المخزن، وكان من أبرز هذه القبائل قبيلتا "الدواير" و"الزمالة"، اللتان استفادت بشكل ملحوظ من الأراضي الزراعية الممنوحة من الدولة، وقد اشتهرتا بكفاءتهما في إدارة هذه الأراضي واستغلالها².

وقد أظهرت الإحصاءات، كما هو الحال في تقديرات بعض الرحالة الفرنسيين مثل لويس رين، أن قبائل المخزن استحوذت على ما نسبته 78% من مجموع الأراضي الزراعية في البايلك، وهي نسبة كبيرة تعكس الامتيازات التي كانت تحظى بها هذه الفئة، بالرغم من أنها أقل عدداً مقارنةً ببقية القبائل الأخرى، وفي إحصاء أجري سنة 1830، بلغ عدد القبائل المنضوية تحت راية بايلك الغرب 157 قبيلة، تم تصنيفها وفق علاقتها مع السلطة: 56 قبيلة كانت في خانة الرعية الخاضعة، و29 قبيلة حليفة، بينما 26 قبيلة كانت تُعدّ مستقلة وغير خاضعة، في حين شكّلت قبائل المخزن ما مجموعه 46 قبيلة، وقد انقسمت هذه الأخيرة إلى قسمين رئيسيين:

¹ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي....، المرجع السابق، ص86.

² سيدهم فاطمة الزهراء، موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر، دورية كان التاريخية، ع13، 2011، ص23.

قبائل محاربة وعددها 36، وقبائل مخزنية فلاحية وعددها 10 قبائل، ويبين هذا التصنيف المكانة الخاصة التي كانت تتمتع بها قبائل المخزن، وهو ما يعكس السياسة الذكية للسلطة العثمانية في بناء تحالفات استراتيجية تضمن لها الولاء مقابل منح الامتيازات¹.

أما عن طبيعة الامتيازات، فقد كانت تتجلى أساسًا، في منح الأراضي لفترات غير محددة مقابل مبلغ مالي معين، يُضاف إلى الضرائب الشرعية المفروضة، كما كان للسلطة تسهيلات ضريبية معتبرة تجاه هذه القبائل، إذ لم تكن تدفع إلا عُشر قيمة المحاصيل، أي ما يعادل نصف فرنك للهكتار المحروث، وربع فرنك لغير المحروث، وهي نسب تُعتبر رمزية مقارنة بما تدفعه القبائل الأخرى، ومن السياسات التي تبنتها السلطة أيضًا، نظام "كراء الأراضي الزراعية" المعروف باسم "الحُكُور"، والذي يتيح للقبائل استغلال الأرض مقابل ضريبة سنوية تدفعها القبائل وفي الغالب تكون رمزية².

ومثال ذلك ما حدث مع قبيلة أولاد قصير التي تمردت على السلطة، وقامت بمهاجمة خليفة باي الغرب إبراهيم، أثناء توجهه إلى الجزائر محملاً بالدنوش الصغرى، وقد نجا بصعوبة ما استدعى تدخل الداوي، وباي التيطري، وباي الغرب، من أجل معاقبة القبيلة، فتم نفيها من أراضيها سنة 1774 وتعويضها بقبائل الفرايلة، وأولاد فارس، والزمالة، لكن بعد عدة محاولات تمرد جديدة من قبلها، اضطرت السلطة لإعادة أولاد قصير إلى أراضيها، لكن هذه المرة وفق صيغة "استئجار" برسوم محددة، لتُصبح بذلك القبيلة الوحيدة التي تدفع ضريبة "الحُكُور"، ما جعل وضعها فريدًا في العلاقة مع الدولة³.

¹ Louis Rinn, Le Royaume....., Op cit, p122.

² ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية....، المرجع السابق، ص300.

³ توفيق دحماني، المرجع السابق، ص172.

لم تقتصر امتيازات قبائل المخزن على الأرض فقط، بل كانت تشمل موارد عينية ومادية، حيث يحصل كل فرد من رجال المخزن على حصان، وبندقية، وكمية من الشعير للزراعة، إضافة إلى قطعة أرض بمقياس "زويجة"¹.

كما كانت السلطة تمنح فرسان المخزن نسبة معتبرة من الغنائم المتحصلة من الحملات العسكرية، والتي كانت تُقسَّم بينهم بالتساوي، حيث كان يُخصص لهم ثلث الغنائم، ما يشجّعهم على الولاء والاندماج الكامل في المشروع السلطوي، ويُعدّ مثال حملة الباي محمد الكبير من أوضح النماذج على ذلك، إذ قاد حملة ضد حوالي 15 دوارًا في جنوب معسكر، شارك فيها 1500 فارس من المخزن، وتمكن خلالها من غنم 67 ألف رأس من الغنم، و5 آلاف جمل، و633 بغل، و720 بقرة وثور، ثم أمر ببيعها وتوزيع عائداتها على فرسان المخزن، مما يعكس الدور المركزي لهذه الفئة في تأمين الموارد والمشاركة في السياسات الدفاعية والتوسعية للبايلك².

كما أننا نلاحظ أن الإمتيازات والإعفاءات الضريبية، التي استفادت منها قبائل المخزن لم تكن قاعدة شاملة أو حكمًا عامًا ينطبق على كافة القبائل دون استثناء، فعلى الرغم من أن هذه القبائل كانت تتمتع بمزايا كبيرة، إلا أن هناك بعض الاستثناءات، التي قد تبرز في بعض الحالات الخاصة، وعلى سبيل المثال، كانت هناك مساهمات مالية من قبائل المخزن تُضاف إلى الواجبات المالية المفروضة عليها من قبل السلطة العثمانية، ولكن لم تصل هذه المساهمات إلى مستوى الضرائب الثقيلة، التي كان يتحملها بقية القبائل الأخرى في البايك، فبقيت نسبة

¹ نفسه، ص ص172-173.

² محمد السعيد عقيب وعمر مقدم، المرجع السابق، ص115.

هذه المساهمات في الغالب ضئيلة ومناسبة، بما يتماشى مع دور هذه القبائل في الحفاظ على النظام والاستقرار في المنطقة¹.

أما الجانب الآخر من الامتيازات، فقد كان معنويًا بامتياز، حيث كانت قبائل المخزن تتمتع بحماية وأمن بعيدا عن الغارات والتعديات، التي كانت تعاني منها باقي القبائل في البايك، وبفضل هذه الحماية تمكنت هذه القبائل من الاستفادة من أراضيها الخصبة، ومن الدخل الذي تحصل عليه من الضرائب المحصلة من قبائل الرعية، وهو ما منحها دورًا مركزيًا في بنية السلطة المحلية، وأحد أبرز الأمثلة على ذلك هو سيطرة قبيلتي "الزمالة" و"الدواير"، على الأراضي المعروفة بـ"اليقوبية" جنوب معسكر، التي امتدت إلى الشط الشرقي من البايك، ففي هذه المناطق، كانت القبيلتان تمارسان سلطتهما على القبائل الرعوية المقيمة في تلك الأنحاء، وتفرض عليهم رسومًا مالية، لم يكن منها إلا القليل يصل إلى خزينة البايك، وبالتالي يمكن القول إن هذه القبائل كانت تتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلالية الاقتصادية عن السلطة المركزية².

كما كان للنشاط الزراعي لقبائل المخزن، دور حيوي في الحياة الاقتصادية بالبايك، إذ توسعت صلاحيات هذه القبائل لتشمل أراضي البايك أيضًا، وهي أراضٍ كانت تعرف بـ"المشاتي"، وكان يتم تسليم ملكية هذه الأراضي إلى قبائل المخزن، بما يضمن للسلطة العثمانية ممارسة ضغط مستمر على هذه القبائل، وضمان ولائها التام، وهي أراضي شاسعة جدًا، وتقدر مساحتها في وهران وأحوازها فقط بنحو 11250 هكتارًا، حيث كانت قبائل الزمالة

¹ ناصر الدين سعيدوني، دور قبائل المخزن....، المرجع السابق، ص 48.

² ناصر الدين سعيدوني، ورقات....، المرجع السابق، ص 215.

والدواير تستغل هذه الأراضي بعد طرد القبائل المعادية من قبائل "المغاطيس" التي كانت حليفة للاسبان¹.

هذه السياسات ساعدت على توطيد سلطة العثمانيين، في مناطق كانت في وقت ما خاضعة لنفوذ القوى الأجنبية، ما عزز من سيطرة الدولة على أراضٍ حيوية، وتجدر الإشارة إلى أن قبائل المخزن كانت تشارك بشكل كبير، في جمع مختلف أنواع الضرائب التي كانت تفرضها سلطة البايك، وشملت هذه الضرائب أنواعًا متعددة مثل "العشور" و"الزكاة"، بالإضافة إلى مراقبة الأراضي، التي كانت تستغل بنظامي "الخماسة" و"الحكور"، وقد كانت قبائل المخزن مسؤولة عن فرض الضرائب على الأراضي التي كانت تُعد من أراضي العرش، أو تلك التي كانت تعاني من صعوبة الوصول إليها بسبب بعد المسافة البعيدة عن السلطة المركزية للبايلك، وهذه الأراضي كانت تُفرض عليها غرامات كبيرة، وكان يتم تحصيل الغرامات في شكل عيني، مثل المواشي أو المواد الغذائية، وهو ما كان يتطلب تعاونًا وثيقًا بين القائد المحلي وشيوخ الدواير، للكشف عن الثروات الحيوانية وعدد الخيام لكل قبيلة، كما كانت هناك أيضًا "اللزمة" و"المعونة"، حيث كانت هذه المبالغ تُجمع من قبائل الرعية، وتُستخدم لتمويل الجند في الأرياف، وكان شيوخ الدواير مكلفين بجمع هذه الأموال وتقديمها إلى القياد، ما يضمن تأمين الدعم المالي اللازم للجيش العثماني².

مع مرور الزمن، وازدياد حاجة بايات الغرب إلى دعم هذه القبائل، خاصة في ظل تزايد التهديدات الأمنية والثورات المستمرة، كان لابد من تجاوز النظام القديم المعمول به، فأصبح البايات يعترفون بملكية العديد من الأراضي التي تستغلها قبائل المخزن، مقابل مبالغ مالية ضخمة وخدمات جليلة لصالح السلطة العثمانية، وهذا التحول في السياسة كان يهدف إلى

¹ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 140-141.

² ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي....، المرجع السابق، ص 85-91.

ضمان استقرار البايك وتوفير الحماية للسلطة العثمانية في مناطقها المختلفة، وهو ما يعكس سياسة تبادل المصالح بين الدولة وطبقات السلطة المحلية¹.

¹ بحري أحمد، الحياة الاجتماعية بالجزائر في عهد الدايات 1671-1830، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2001-2002، ص62.

المبحث الثاني: دور القبائل في تحرير وهران الأول والثاني

أولاً: تحرير وهران الأول سنة 1708:

شكّل تحرير مدينة وهران سنة 1708م، محطة فارقة في تاريخ بايلك الغرب، وكان للقبائل المحلية فيه دور بالغ الأهمية، فقد قاد الباي مصطفى بوشلاغم المسراتي هذه الحملة التحريرية بأمر من الداوي محمد بكداش، الذي أولى لهذه المهمة أهمية بالغة نظراً لمكانة وهران الجغرافية والعسكرية، ولقد دعم الداوي هذا المسعى بإرسال صهره ووزيره حسن أوزن، على رأس قوة نظامية معتبرة قوامها ثلاثة آلاف جندي مدرب¹.

غير أن الركيزة الأساسية للحملة، كانت القوات القبلية التي تمكن الباي بوشلاغم من حشدّها من مختلف أنحاء البايك، مستفيداً من مكانته في المنطقة، ومن الروابط التقليدية التي جمعت بين السلطة العثمانية وبعض القبائل الكبرى المعروفة بولائها خاصة قبائل المخزن، وسار هذا الجيش المؤلف من النظاميين وقوات القبائل، نحو وهران عبر مسارين رئيسيين، أحدهما بري والثاني بحري، في خطة تطويقية محكمة تهدف إلى إحكام الحصار على المدينة من مختلف الجهات، وشلّ قدرتها على المناورة أو طلب الدعم الخارجي السريع².

ما ساعد على تنفيذ هذه الخطة بنجاح، أن الظرف الإقليمي والدولي كان ملائماً تماماً لشن مثل هذه الحملة، إذ شهدت الجزائر خلال تلك الفترة استقراراً ملحوظاً في علاقاتها مع جيرانها من الشرق والغرب، فقد تم توقيع معاهدة سلام مع بايات تونس سنة 1705، أوقفت مؤقتاً حالة التوتر الذي كان سائداً بين الطرفين، وسمحت للسلطة العثمانية بتحويل أنظارها نحو الى وهران التي كانت تحت نير الاحتلال الإسباني، أما من جهة الغرب، فقد استغلت الجزائر انشغال

¹ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص235.

² نفسه، ص235.

المغرب الأقصى، الذي كان خلال تلك فترة تحت حكم السلطان المولى إسماعيل، الذي إنشغل بالأزمات الداخلية التي عصفت بالأسرة العلوية، ما شلّ قدرتها على التحرك أو التدخل في الشأن الجزائري، وبالرغم من أن المولى إسماعيل كان قد أطلق حملة عسكرية ضد بايلك الغرب سنة 1701، إلا أن تلك الحملة انتهت بهزيمة قاسية كادت تؤدي بحياته، ما دفعه إلى الانكفاء على مشكلاته الداخلية، وتجنّب الدخول في مواجهات جديدة مع الجزائر، هذا الغياب المغربي عن مسرح الأحداث، مكّن سلطات البايك من التحرك بحرية وتكريس جهودها نحو هدف استراتيجي واضح هو تحرير وهران من الاحتلال الإسباني¹.

من العوامل الحاسمة أيضا التي ساعدت الباي بوشلاغم على تنفيذ خطته، أن الإسبان بدورهم كانوا يمرّون بمرحلة من الضعف السياسي والعسكري، نتيجة اضطرابات عميقة في إسبانيا نفسها، كادت أن تعصف بالبلاد وهددت تماسك دولتها، ولقد انعكست هذه الأزمة على الوضع داخل وهران، حيث بات الإسبان يعانون من عجز مالي واضح، وبدأوا يفقدون قدرتهم على ضبط القبائل المتحالفة معهم، فقبائل مثل بني عامر وقيزة وشافع، التي كانت تقدم سابقاً دعماً لوجيستيّاً للإسبان، أظهرت تمللاً ورفضاً لدفع الضرائب بانتظام، ما دفع بالحامية الإسبانية إلى زيادة وتيرة الغارات داخل أراضي البايك، لتعويض هذا النقص المالي، وهو ما خلق حالة من التوتر المتصاعد مع السكان المحليين، ولم يقتصر الأمر على العوامل السياسية والعسكرية، بل تدخلت المؤسسات الدينية بدورها على خط المواجهة، حيث أصدر علماء

¹ محمد علي عامر ومحمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى وليبيا)، ج2، منشورات جامعة دمشق، 2000، ص ص94-95.

الجزائر فتاوى تُجيز قتال من يتعاون مع الإسبان، واعتبروا دماء القبائل والأفراد المتعاملين مع الاحتلال مباحة¹.

هذه الفتوى شكّلت حافزاً دينياً قوياً لدعم حملة التحرير، وقد أدت إلى تعبئة شاملة، إذ بادر الباي مصطفى بوشلاغم إلى إصدار أوامره لقوات المخزن القريبة من وهران، بالتحرك نحو القبائل العميلة، واستهدافها في معاقبتها، هذا الهجوم المزدوج من جهة الجيش النظامي ومن جهة القبائل المخزنية أثمر نتائج مباشرة، تمثلت في إنهاك القوات الإسبانية، وحرمانها من دعم محلي، وتفكيك تحالفاتها داخل المنطقة².

في ظل هذا الضغط العسكري والاجتماعي المتزايد، لم يبق أمام الإسبان سوى الأمل في الإمدادات البحرية القادمة من إسبانيا، وهو ما كان يشكل نقطة ضعف أساسية، نظراً لصعوبة تأمين خطوط الإمداد في ظل حصار بحري جزائري فعال، لكن رغم ذلك، لم يستسلم الإسبان بسهولة، بل حاولوا إعادة بناء تحالفاتهم من جديد، خاصة مع القبائل التي سبق وأن قدمت لهم الدعم، فبادروا إلى إبرام إتفاقيات جديدة مع بني عامر وأولاد عبد الله وقيزة وأولاد علي القبيل وشافع، وبذلك نجح الإسبان في استمالة هذه القبائل، التي بدورها تحالفت معهم وقامت بمساعدتهم، سواء من حيث تزويدهم بالحبوب والمواشي، أو من حيث شن غارات مباغطة على قوات المخزن، خاصة عند تراجع القوة الإسبانية في بعض المواجهات، وذلك من أجل تغطية انسحابهم، وتأمين عمليات إعادة التوضع³.

¹ عزيز سامح ألتز، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر محمود علي عامر، ج1، دار النهضة العربية، ط1، لبنان 1989، ص458.

² العيايدة آمنة فاطمة الزهراء وبوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص352.

³ ناصر الدين سعيديوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي في الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2003، ص154.

بهذا الشكل، لعبت القبائل دورًا مزدوجًا في هذه الحملة: فمن جهة، كانت القبائل المخزنية سندًا حقيقيًا للسلطة، وساهمت بشكل مباشر في العمليات العسكرية والهجومية ضد الإسبان، ومن جهة أخرى، شكلت بعض القبائل العميلة عقبة ميدانية تمثلت في دعمها المتقطع للعدو، ما جعل ميدان المعركة أكثر تعقيدًا، وأدخل بعدًا داخليًا في الصراع بين القوى القبلية في البايك المتنازعة على المواقف، ومن بين الخطوات الاستراتيجية البارزة التي أقدم عليها الباي مصطفى بوشلاغم، في إطار تحضيراته لتحرير وهران، قراره بنقل مقر عاصمة بايلك الغرب من مدينة مازونة إلى منطقة الكرط، وهو القرار الذي لم يكن اعتباطيًا، بل نابعا من قراءة دقيقة للواقع الجغرافي والعسكري والسياسي للمنطقة، فالمدينة الجديدة كانت أكثر قربًا من وهران من جهة، ومن جهة أخرى كانت أقرب إلى مواطن القبائل القوية والمؤثرة، التي يمكن الاعتماد عليها في مواجهة الإسبان وحلفائهم المحليين¹.

لقد عمل الباي على إعمار هذه المنطقة وإعادة تنظيمها عمرانيا وعسكريا، حيث استقدم إليها العديد من فرق العساكر، وأسّس فيها نقاط إمداد وتموين، وهو ما ساعد على تحويلها إلى مركز ثقل جديد في البايك، وقد أصبحت تعرف لاحقا باسم "أمّ العساكر" وذلك لأن العسكر هم أول من سكنها، بالإضافة أن عددهم كان كبيرا، ثم مع مرور الوقت أصبحت تسمى "معسكر"².

لقد انعكس هذا التحول إيجابًا على التعبئة العامة للقبائل، حيث شعر أبناء القبائل بأن السلطة صارت أكثر قربًا منهم، وأصبحت مشاركتهم في الجهاد ضد الإسبان أكثر تنظيمًا ومردودية، كما ساعد هذا الإجراء على توسيع قاعدة الموالين للباي، خاصة بعد أن تمكن من استمالة بعض الفرق التي كانت إلى وقت قريب محسوبة على الطرف الإسباني، مثل بعض

¹ Esterhazy, Op cit, 170.

² Sandoval, Op cit, p89.

فرق قبيلتي بني عامر ومجاهر، وبهذه الخطوة الذكية، لم يحقق الباي فقط مكسبًا عسكريًا على الأرض، بل كسب تحالفات قبلية جديدة ساهمت في ترجيح الكفة لصالحه في المعركة، بقدر ما خسر الإسبان من دعم ومساندة محلية¹.

من ناحية أخرى، كان للرباطات المنتشرة بالقرب من وهران، دور كبير ومكمل في التحضيرات العسكرية لتحرير وهران، حيث لعبت هذه الرباطات، مثل رباط أرزيو ورباط جبل المائدة القريب جدا من وهران، دورًا محوريًا في تعبئة المجاهدين وتحفيزهم على الجهاد، وقد كان الكثير من أبناء القبائل يرباطون فيها بشكل دائم، واعتبرت هذه الرباطات خطوط دفاع متقدمة ضد التغلغل الإسباني، كما كانت بمثابة مراكز عسكرية شبه دائمة، تعمل في حالة استنفار مستمر، وقد أولى الباي بوشلاغم عناية خاصة بها فقام بدعمها بالذخائر والمؤن، وشحنها بالمجاهدين وجعل منها منطلقًا أساسيًا للعمليات العسكرية التي سبقت حصار وهران، وقد أشار الشيخ عبد الرحمن الجامعي الفاسي في بعض كتاباته، إلى أهمية هذه الرباطات في فتح وهران، وأثنى على المرابطين الذين كان لهم شرف المشاركة الفعلية في المعارك الحاسمة².

أما من حيث التركيبة العددية للجيش الذي شارك في الحملة على وهران، فتشير المصادر إلى أن العدد الإجمالي قد بلغ نحو أربعين ألف مقاتل، من بينهم ثلاثة آلاف جندي نظامي، أرسلهم الداوي محمد بكداش رفقة صهره ووزيره حسن أوزن، كما بلغ عدد الجيش النظامي التابع للباي حوالي 5500 جندي، ليصل بذلك العدد الإجمالي للجيش النظامي إلى 8500 جندي، وهذا ما يبرز السلطات على تحرير وهران³.

¹ العيايدة آمنة فاطمة الزهراء وبوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص352.

² المهدي البوعبدلي، الرباط والفدا....، المرجع السابق، ص19.

³ علي بوتشيشة، المنشآت المعمارية المدنية للباي مصطفى بوشلاغم المسراتي بمدينة وهران، مجلة الدراسات الأثرية، مج20، ع1، 2022، ص266.

أما الجزء الأكبر من القوة المهاجمة، فقد تألف من فرق متعددة تنتمي إلى قبائل المخزن والقبائل الأخرى المنضوية تحت لواء البايك، وحسب الإحصائيات فإن القبائل حشدت أكثر من ثلاثين ألف مقاتل، وهو ما يعكس بوضوح مدى اعتماد القيادة العسكرية على الطاقات القتالية للقبائل، سواء من حيث العدد أو من حيث فعالية التدخل في الميدان، وكان لهذا الزخم البشري واللوجستي، أثر بالغ في تسريع وتيرة النصر، حيث استطاعت القوات المشتركة أن تبسط سيطرتها على معظم الحصون والمواقع الاستراتيجية المحيطة بمدينة وهران في غضون أيام قليلة فقط، من 7 إلى 11 سبتمبر سنة 1707، ومن أبرز هذه الحصون: برج العيون، برج الجبل المعروف بمرجاجو، برج حسن بن زهرة، برج الصبايحية أو البرج الجديد، البرج الأحمر، وبرج اليهودي، وقد مكّنت هذه العمليات النوعية من إضعاف المنظومة الدفاعية الإسبانية بشكل شبه كامل، ما ساهم في إقحام المدينة، وتشير التقديرات إلى أنه خلال عمليات الاقتحام، تم أسر نحو ألفي جندي إسباني، بينهم مئتا ضابط، وهو ما يؤكد شراسة المواجهة وكفاءة القوات المشاركة في تنفيذها، خاصة القبائل التي شكلت القوة الضاربة التي عجز الإسبان وحلفائهم على وقف تقدمها¹.

يذكر ابن سحنون الراشدي أن المعركة الأخيرة التي سبقت دخول وهران كانت عنيفة ودامية، حيث كانت المواجهة حامية الوطيس بين القوات الجزائرية بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم وقوات الحامية الإسبانية، التي تحصنت في الأبراج والحصون المحيطة بمدينة وهران، وقد تكبد الإسبان خلالها خسائر بشرية ومادية فادحة، أجبرتهم في النهاية على الاستسلام، ومع توالي الهجمات المنسقة من طرف جيش الباي وقوات القبائل، اضطر الإسبان إلى تسليم ما

¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية....، المرجع السابق، ص 154-155.

تبقى من مواقعهم الدفاعية، وعلى رأسها الأبراج الحصينة التي كانت تشكل خطوط الدفاع الأولى للمدينة¹.

شكّل سقوط هذه الحصون خلال شهر سبتمبر من سنة 1707م، علامة فارقة في مسار الحملة، خصوصًا وأن الباي بوشلاغم لم يكتف بتحقيق انتصار عسكري، بل قام أيضًا بإخضاع القبائل المتعاونة مع الإسبان في أحواز المدينة، وضمن بذلك عزلة الإسبان سياسيًا وعسكريًا، وبهذا التقدم الميداني الكبير أضعف الروح المعنوية للعدو، خاصة بعد أن فقد الإسبان دعم الحلفاء المحليين، فلم يتبق لهم أي قوة يمكن الاعتماد عليها في محيط وهران، ما جعل المدينة تعيش حصارًا خانقًا، وقد استمر حصار المدينة إلى غاية السادس عشر من أفريل سنة 1708، حين تمكنت قوات الباي من اقتحام أسوار وهران والدخول إليها، بعد أن انهارت آخر خطوط الدفاع الإسبانية، وقد أسفر هذا الدخول عن أسر 1461 جنديًا إسبانيًا تم تحويلهم إلى العاصمة الجزائر، في خطوة رمزية تعكس نجاح الدولة في فرض سيادتها على الإقليم وطرد المحتل².

أما قائد الحامية الإسبانية الدون كاربوس كارافا، فقد فرّ إلى حصن المرسى الكبير، الذي بقي صامدًا لفترة قصيرة فقط، قبل أن يخضع هو الآخر أمام الضغط المتزايد من القوات النظامية وقبائل البايك، ففي الحادي والعشرين من جانفي سنة 1709م، أعلن الإسبان استسلامهم التام في الحصن، وأسر قائده الدون بلتزار دولا فيلا بيلا، ما اعتُبر ضربة قاضية للمشروع الإسباني في المنطقة³.

¹ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص199.

² ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية....، المرجع السابق، ص155.

³ نفسه.

لقد كانت الغنائم التي حصل عليها جيش الباي، إثر استعادة المدينتين (وهران والمرسى الكبير) كبيرة ومتنوعة، حيث شملت معدات حربية ومؤونات وقيم مالية، فضلاً عن الممتلكات التي خلفها الإسبان، أما القبائل التي تحالفت مع العدو وتحصنت معه، فقد نالها نصيب من العقاب، إذ تم نهب ممتلكاتها وتشتيتها بعد إخضاعها، وقد انقسم أفراد هذه القبائل إلى ثلاثة أصناف؛ الصنف الأول غادر البلاد مع الإسبان، ومنهم قبيلة الونازرة التي رافقتهم إلى سبتة؛ أما الصنف الثاني فقد تبع الأتراك لكنه كان يبطن عدواته لهم، بينما الصنف الثالث وهو الأهم، فقد انضوى تحت لواء البايلك بعد أن تخلى نهائياً عن التعاون مع الإسبان وعبر عن ندمه الشديد¹.

بعد هذا الانتصار الباهر، اتخذ الباي مصطفى بوشلاغم قراراً استراتيجياً بتغيير عاصمة البايلك من معسكر إلى مدينة وهران، لما لها من موقع جغرافي مهم وإشعاع سياسي وعسكري كبير، كما شرع في إعادة تأهيل المدينة عبر تشييد المنشآت العمرانية، وتنظيم إدارتها واستقبال القبائل البدوية والجبالية التي كانت مواطنها قريبة بوهران، وقد ساهم هذا التحول في إضفاء طابع من الاستقرار والتنمية على البايلك².

لقد لقي هذا النصر استحساناً كبيراً في مختلف أوساط سكان الإيالة الجزائرية، وخلّده الكثير من العلماء والأدباء، الذين عبّروا عن مشاعرهم من خلال قصائد شعرية وأعمال أدبية، ومن أبرز هؤلاء، الشيخ محمد التغريبي الذي نظم قصيدة مطلعها:

الحمد لله الذي قد فتحا وهران عن أيدي الرجال الصلحا

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص 151.

² نفسه، ص 151.

كما أشار أبو راس الناصري إلى هذا الفتح في سينيته الشهيرة، وفي عدد من مؤلفاته التاريخية، وكتب الشيخ المازري أيضاً حول الحدث، ودون المؤرخ محمد بن ميمون وقائعه في كتابه "التحفة المرضية"، ما يعكس مدى تأثير هذا الحدث في الذاكرة الجماعية للجزائريين¹.

غير أن فرحة هذا النصر لم تدم طويلاً، فقد عاد الإسبان سنة 1732م، بأسطول ضخم يضم الكثير من أبرز قادة وضباط جيشهم²، وقد خرج لهم الباي بوشلاغم على رأس جيشه و قام بمقاتلتهم ومناوشتهم، وقد قتل عدد من عساكره و قادته، وعلى رأسهم أبرز قادة قوات المخزن علي بن مسعود المحمودي الحشمي، فتقهقر جيش الباي وانهزم³، فلجأ الباي إلى قبيلة بني عامر لتقاتل معه، لكنها رفضت ذلك وخذلتها، الأمر الذي اضطر الباي إلى الفرار مع أسرته و عدد من معاونيه إلى مستغانم، وأحتل الإسبان مجددا وهران⁴.

ثانيا: تحرير وهران الثاني 1792

لقد كان للقبائل في البايك دورٌ جوهريٌّ وفعال في تحرير وهران الثاني، وقد تأتي لهذا الدور البروز والفاعلية بفضل القيادة الحكيمة والمتميزة للباي محمد الكبير، الذي جمع في شخصه خصال الرجولة والشجاعة والورع والصلاح، وهي صفات جعلته محل احترام من طرف أعيان المخزن ومشايخ القبائل، فاستجابوا لندائه وتقاتلوا في تنفيذ أوامره، خاصة فيما يتعلق بالقضية الوطنية الكبرى في تلك الفترة، والمتمثلة في ضرورة استرجاع مدينة وهران من الاحتلال الإسباني الذي طال أمده⁵.

¹ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ص15-16.

² انظر الملحق رقم 5.

³ بن عودة المازري، المصدر السابق، ص 257.

⁴ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 16.

⁵ يحيى بوعزيز، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص 59.

لقد وضع الباي هذا الهدف في مقدمة أولوياته، وجعل منه غاية سامية سعى إلى تحقيقها بكل الوسائل المتاحة، فجعل تحرير وهران بمثابة المشروع الجامع الذي تلتف حوله مختلف القوى الحية في البايك، وعلى رأسها القبائل، وفي هذا السياق شرع الباي محمد الكبير في تنفيذ خطة محكمة لاستقطاب القبائل وكسب ولائها، من خلال إتباع سياسة متزنة تقوم على اللين وحسن المعاملة، وتغليب الحوار والمصالح المشتركة، بدل الصدام المباشر أو القمع القهري، وقد برزت هذه السياسة في سعيه الحثيث إلى إدماج عدد من القبائل، ذات النفوذ والقوة خاصة المخزنية التي منحها امتيازات معتبرة، أبرزها إعفاءات ضريبية كما أنه منحها استقلالية نسبية في التسيير المحلي لشؤونها، مقابل التزامها بالمشاركة العسكرية في الحملات العسكرية، ومن بين أهم هذه القبائل نذكر الحشم والبرجية، اللتين لعبتا دورا مفصليا في تقوية الجبهة الداخلية، لما لهما من امتداد بشري واسع، ومكانة مرموقة بين قبائل الغرب¹.

وقد أدرك الباي بحنكته السياسية، أن استمالة هذه القبائل ستمكنه من بناء توازن قوى يحول دون سقوط البايك في الفوضى أو التمرد الداخلي، كما ستشكل ركيزة أساسية في الحرب ضد الإسبان². أيضا من بين الخطوات الاستراتيجية التي اعتمدها محمد الكبير في مواجهته مع الاحتلال، إنشاء شبكة رباطات دفاعية حول مدينة وهران، وقد أولى لهذا المشروع أهمية قصوى، إدراكا منه بأن الرباطات لا تؤدي فقط وظيفة دفاعية، بل تساهم أيضا في تعبئة الروح الجهادية لدى سكان المناطق المحاذية للثغور المحتلة، ولذلك عمل الباي على تهيئة هذه الرباطات من كل الجوانب، فدعا أبناء القبائل إلى المراقبة بها ووفر لهم الغذاء والسلاح، وأجزل لهم العطاء، حتى صار الجهاد في الرباطات عملا مقدسا يتنافس فيه المجاهدون، وكان

¹ عائشة غطاس، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص ص 230-231.

² نفسه، ص 231.

أغلب من يربط فيها العلماء وطلبتهم ورجال قبائل المخزن، وكلهم عرف عنهم الانضباط وحب الجهاد، ما أدى الى ضمان الجاهزية القتالية للمجاهدين حول وهران طيلة سنوات الترقب والاستنزاف¹.

من أبرز هذه الرباطات نذكر رباط قصر الأمحال، الذي يشرف على الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، ورباط صلب الفتح الذي يتوسط الطريق بين وهران والمرسى الكبير، ورباط إفري المتواجد برأس العين، إلى جانب رباط جبل المائدة الواقع على أعالي الجبل غرب المدينة، وهو من الرباطات الحصينة التي كانت ترصد تحركات الإسبان بدقة، وهناك أيضا رباط وادي مسرغين، ورباط سيدي معروف، والكثير من المواقع التي غدت بمرور الوقت مراكز دائمة للرباط والدعوة إلى الجهاد، وقد شكلت هذه الرباطات طوقا عسكريا محكما على المدينة، ما أضعف حركة الإمدادات الإسبانية وأفضل خططهم الهجومية².

إلى جانب ذلك، اعتمد الباي محمد الكبير على أسلوب حرب الاستنزاف ضد القوات الإسبانية، وهي حرب بدأ تنفيذها الفعلي منذ سنة 1780، واتخذت أشكالا متعددة، أبرزها نصب الكمائن في الطرق المؤدية إلى المدينة، والتسلل إلى المواقع الضعيفة لشن هجمات خاطفة، فضلا عن مراقبة التحركات العسكرية الإسبانية باستمرار، من خلال عيون وجواسيس كانوا غالبا من أبناء القبائل الموالية للسلطة العثمانية، وقد حققت هذه السياسة نتائج معتبرة، حيث أضعفت الروح المعنوية للعدو، وأرهقته ماديا وبشريا، وجعلته في حالة دائمة من التأهب والدفاع، وهو ما مهد لاحقا للمعركة الكبرى التي توجت بتحرير وهران نهائيا³.

¹ المهدي البوعبدلي، الرباط والفدا....، المرجع السابق، ص 19.

² دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص ص 84-85.

³ نفسه.

لقد حاول الإسبان في خضم اشتداد الحصار عليهم من قبل قوات المخزن والقبائل الموالية للبايلك، كسر هذا الطوق المضروب حول وهران، وذلك بتنسيقهم مع بعض القبائل المتعاونة معهم، حيث شن هذه القبائل هجومات متفرقة استهدفت القبائل المخزنية المتمركزة في الجهات القريبة من المدينة، أملاً في تخفيف الضغط العسكري، غير أن هذه المحاولات التي لم تكن مدروسة بالقدر الكافي، جوبهت بمقاومة عنيفة من طرف قوات المخزن، التي كانت مرابطة في المناطق المحيطة، وانتهت جميع تلك الهجمات إلى الفشل الذريع، ما عزز من ثقة الباي بقوة القبائل ومثانة استعدادهم العسكري¹.

لقد برزت خلال هذه المرحلة الحاسمة من الصراع، براعة قبائل المخزن في خوض حرب العصابات، مستغلة في ذلك طبيعة انتشارها الجغرافي الواسع حول وهران²، وتكيفها الميداني مع جغرافية المنطقة، فلم تقتصر مهامها على المراقبة والدفاع فقط، بل تجاوزتها إلى شن هجمات خاطفة ومباغتة ضد القوات الإسبانية ومجموعات المغاطيس المتعاونة معهم، وكانت هذه الهجمات تعتمد على أسلوب الكر والفر، حيث كانت تطارد العدو وتوقع به الخسائر في الأرواح والعتاد، ثم تتسحب بسرعة إلى مواقعها الحصينة، مستفيدة من معرفتها الدقيقة بالمسالك والطرقات الجبلية، وقد مكن هذا التكتيك الفعال من تقطيع أوصال الإمداد البري للقوات الإسبانية، وأدى إلى تجفيف منابع تموينها من مختلف الجهات³.

بفضل هذه النجاحات الميدانية، تأكد الباي محمد الكبير من فعالية القبائل المخزنية، ليس فقط من حيث شجاعتها القتالية، بل أيضاً من حيث ولائها الصادق والتزامها بالدفاع عن

¹ أحمد توفيق المدني، حرب....، المرجع السابق، ص487.

² انظر الملحق رقم1.

³ مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، الناشر مكتبة النهضة الجزائرية الجزائر، مطابع بدران وشركاه بيروت، 1964، ص239.

مصالح البايك، وقد ظهر له بالمقابل ضعف الجيش النظامي العثماني، الذي لم يكن دافعه سوى الطمع في الغنائم والمناصب، دون أن يبدي روح تضحية أو انخراطاً فعلياً في مشروع التحرير، ولهذا السبب غيّر الباي من خريطة القيادة العسكرية، وأولى ثقته لأعيان المخزن الذين عينهم على رأس العمليات القتالية، كما جعلهم في موضع المستشارين إلى جانب العلماء، مستنداً في ذلك إلى تجاربهم الميدانية ومعرفتهم الدقيقة بالمنطقة وسكانها، وسعيًا لتشديد الحصار على وهران، عمد الباي إلى توطين عدد من قبائل المخزن في الأراضي الواقعة بين سيدي معروف ومنطقة البريدية، وذلك لإحكام الطوق على المدينة، وتحويل هذه القبائل إلى خط دفاع أول ومتقدم، قادر على صد أي محاولة لاختراق الطوق أو إعادة إمداد القوات الإسبانية المحاصرة¹.

لكن هذا الحصار الذي استمر سنوات توقف فجأة سنة 1786م، حين وقّعت الجزائر معاهدة صلح مع إسبانيا يوم 14 جوان 1786م، وكان على رأس الموقعين الداوي محمد بن عثمان باشا، وتضمنت هذه المعاهدة التي عُرفت بأنها معاهدة صلح وصداقة، عدة بنود وأبرزها التزام الطرف الجزائري برفع الحصار عن مدينتي وهران والمرسى الكبير، وعدم القيام بأي أعمال عدائية ضدهما، وفي المقابل تعهد الإسبان بإخلاء المدينتين وإرجاعهما إلى السيادة الجزائرية، المتمثلة في شخص الباي محمد الكبير².

بناء على هذه المعاهدة توقفت عمليات الاستنزاف والمعارك حول وهران، فاتجه الباي إلى استثمار هذا الهدوء النسبي، في تعزيز سلطته على باقي مناطق البايك، حيث أطلق حملة عسكرية هدفها إخضاع القبائل المتمردة في جنوب البايك، كما عمد إلى إدماج بعض القبائل

¹ أمين كرتالي، المرجع السابق، ص ص 951-952.

² عبد الرؤوف بن قاصير، الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر ونتائجها (1775-1792)، مجلة المعيار، مج 27، ع 4، 2023، ص ص 820-821.

الجديدة ضمن سلك المخزن، في مسعى منه إلى تدعيم جهازه العسكري والبشري، استعدادًا لأي تحولات محتملة¹.

رغم توقيع معاهدة الصلح بين الجزائر وإسبانيا سنة 1786م، والتي نص أحد بنودها الصريحة على إخلاء الإسبان لمدينتي وهران والمرسى الكبير، وتسليمهما للباي محمد الكبير، فإن الطرف الإسباني لم يلتزم بهذا البند الأساسي من المعاهدة، بل على العكس من ذلك تعمد الإسبان التباطؤ في تنفيذ عملية الإخلاء، كما دخلوا في مناوشات مباشرة مع القبائل المخزنية المتمركزة بالقرب من وهران، الأمر الذي أعاد التوتر إلى المنطقة، وكشف مجددًا عن نوايا الإسبان في الإبقاء على احتلالهم، ولمواجهة هذا الوضع، سارع الباي محمد الكبير إلى اتخاذ سلسلة من التدابير الاستراتيجية والعسكرية، التي أعادت الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل توقيع المعاهدة².

وأبرز التدابير التي أصدرها شحن الرباطات المحيطة بوهـران بالرجال والسلاح، كما بعث بمراسلات إلى مختلف قبائل المخزن والقبائل الأخرى، يحثهم فيها على البقاء في حالة تأهب واستعداد لأي تحرك ميداني، وهو ما شكّل تحضيرًا فعليًا لمواجهة وشيكة باتت في نظر الباي ضرورة لا مفر منها، لاستعادة وهران وفرض السيادة الكاملة عليها³.

ومن الظروف التي ساعدت الباي ورجاله في تحرير وهران، هو الزلزال العنيف الذي ضرب وهران في يومي 8 و 9 أكتوبر من سنة 1790م، ليعزز من تصميم الباي على التحرك العسكري، فقد وصف المؤرخ ابن سحنون الراشدي، هذا الزلزال بأنه من أشد ما عرفتة المنطقة من هزات أرضية، حيث ارتجت الأرض ارتجاجًا هائلًا وتصدعت الأبنية وسقطت بيوت المدينة

¹ دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص 85.

² عبد الرؤوف بن قاصير، المرجع السابق، ص 822.

³ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ص 219-220.

بأكملها، في حين بقي سور المدينة وحصونها قائمة دون أضرار تذكر، وقد خلف الزلزال دماراً واسع النطاق¹، حيث تشير بعض الروايات إلى مقتل أكثر من ثلاثة آلاف شخص، ومن بينهم الحاكم الإسباني للمدينة وأفراد عائلته²، فيما قدرت مصادر أخرى عدد القتلى بأكثر من سبعة آلاف، إضافة إلى أربعة آلاف شخص بقوا تحت الأنقاض³، بالإضافة فإن شبكة الأنفاق التي كان يعتمد عليها الإسبان في غاراتهم المباغتة، أو التحصن بها أوقات القصف المدفعي من قبل جيش البايك إنهارت كلياً⁴

لم يقتصر تأثير الزلزال على الخسائر البشرية والمادية، بل تبعته حرائق مهولة في أجزاء مختلفة من المدينة، وهو ما أدى إلى فوضى عارمة تمثلت في فرار السجناء، ووقوع أعمال نهب وسلب على نطاق واسع، كما أن القوات الإسبانية تكبدت خسائر جسيمة، حيث هلك معظم جنودها في الزلزال، ولم يبق منهم سوى نحو 1500 جندي⁵، ما أضعف الروح المعنوية للجيش الإسباني بصورة لافتة، وأمام هذه التطورات رأى الباي محمد الكبير أن الفرصة أصبحت سانحة لاسترجاع وهران والمرسى الكبير بأقل الخسائر الممكنة، خاصة بعد مقتل القائد الإسباني وانهيار الوضع الدفاعي داخل المدينة⁶، وبالفعل أعلن النفير العام يوم 1 صفر 1205 هـ الموافق لـ 9 أكتوبر 1790م، داعياً كافة المسلمين للجهاد، وفقاً لما أورده المؤرخ ابن هطال التلمساني⁷.

¹ نفسه.

² نفسه، ص 213.

³ دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص 87.

⁴ انظر الملحق رقم 2.

⁵ صالح عباد، المرجع السابق، ص 172.

⁶ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 220.

⁷ ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص 19.

باشر الباى بعد ذلك في تحريك جيشه وسار نحو وهران، فوصل إلى أسوارها بعد أربعة أيام من وقوع الزلزال، أي يوم الأربعاء وبادر بمراسلة أعيان القبائل المخزن لحشد فرسانهم والانضمام إلى الحملة، حيث كانوا يمثلون ركيزة أساسية في الخطة العسكرية، فاستجابوا لدعوته وقدموا بأعداد كبيرة مدججين بالسلاح، في مشهد مهيب، وبعد وصولهم إلى محيط المدينة، بدأ فرسان المخزن في تنفيذ عمليات هجومية على الممتلكات الإسبانية الواقعة خارج الأسوار، وقد سجلوا انتصاراً مهماً في معركة برج العين، التي استعملت فيها المدافع بكثافة، كما كانت المعركة شديدة الضراوة وأسفرت عن عدد كبير من الشهداء، وجرح أكثر من مئة مجاهد، أغلبهم من أفراد قبيلة بني زروال المخزنية، التي أظهرت شجاعة نادرة وبسالة كبيرة في القتال، إلى درجة أن ذلك البرج سُمي فيما بعد بـ"برج بني زروال"، تخليداً لتضحياتهم¹.

بالرغم من محاولات فرسان المخزن المتكررة اقتحام مدينة وهران عنوة، إلا أن هذه المحاولات لم تُكلل بالنجاح، وذلك نتيجة وصول تعزيزات عسكرية وإمدادات من المؤونة والسلاح من الأراضي الإسبانية إلى وهران، فقد تمكنت السفن الإسبانية من اختراق الحصار وجلب المساعدات اللازمة لحامية وهران، فضلاً عن إجلاء العديد من الجرحى إلى إسبانيا، كما أرسل ملك إسبانيا تعزيزات عسكرية تقدر بسبعة آلاف مقاتل، مدججين بمختلف أصناف الأسلحة من مدافع وبنادق وغيرها، في خطوة أكدت إصرار التاج الإسباني على الاحتفاظ بوهران، كقاعدة استراتيجية متقدمة على السواحل الجنوبية للمتوسط².

أمام هذا الوضع الجديد، وجد الباى محمد الكبير نفسه مضطراً إلى رفع الحصار مؤقتاً، في انتظار فرصة جديدة تؤهله لإعادة تنظيم قواته، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى عاد الباى ليُعيد الكرة سنة 1791، بإعلانه التعبئة العامة من جديد، حيث وجّه نداءً مفتوحاً إلى القبائل

¹ ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ص 220-221.

² دغموش كاميلية، المرجع السابق، ص 88.

داعيًا إياها للجهاد من أجل تحرير وهران، وقد لبّت القبائل وفي طليعتها قبائل المخزن نداء الباي بكل حماس وحيوية، وسارعت كل منها إلى عرض عدد فرسانها ومعداتها الحربية، وذلك ما يبرز إستعدادها للتضحية دفاعًا عن الأرض والدين، ولقد قامت قبائل المخزن بحشد كل ما تملكه من رجال وسلاح، وهو ما مكّن الباي من تكوين جيش ضخم بلغ خمسين ألف مجاهد وفق بعض المصادر الجزائرية، بينما تشير الوثائق الإسبانية إلى أن تعداد هذا الجيش لم يتجاوز في أحسن الأحوال عشرين ألف محارب¹.

لقد اعتمد الباي في هذه الحملة على خطة عسكرية دقيقة، قسّم بموجبها قواته إلى ثلاث جيوش رئيسية، تولّى بنفسه قيادة الجيش الأول الذي يعد الأقوى والأكثر عددًا، وكان أغلب أفراده من فرسان المخزن، أما الجيش الثاني فقد وضعه تحت إمرة ابنه عثمان، وضمّ مقاتلين من منطقة تلمسان وقبائل فليّة، في حين قاد صهره محمد بن إبراهيم الجيش الثالث، الذي كان يتكون من قبائل مازونة ومستغانم وقلعة بني راشد وقبائل شرق البايك، وفي إطار خطته لإرباك العدو وشلّ خطوط إمداده، بادر الباي إلى مراسلة علماء معسكر، طالبًا منهم حشد طلبة الزوايا والمدارس القرآنية، وتوجيههم إلى الرباط بجبل المائدة المحاذي لوهران².

لقد لبّى علماء معسكر هذا النداء على الفور، حيث التحق بالجيش عدد كبير من الطلبة تجاوز الخمسمائة، مرفوقين بشيوخهم ومعلميهم، وعلى رأسهم الشيخ محمد بن المولود المخيسي، والعلامة علي الخرشى المازوني، ممّا أضفى بعدًا دينيًا وروحيًا عميقًا على هذه الحملة العسكرية³.

¹ دغموش كاميلية، قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسلطة العثمانية (1509-1792)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2013-2014، ص155.

² ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص19.

³ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص261.

لقد ساعد هذا التكاثر على إضعاف النفوذ الإسباني بوهران بشكل ملحوظ، خاصة بعد الزلزال المدمر الذي ضرب المدينة سنة 1790، وما خلفه من خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، كما أن الهجوم الأخير الذي شنّه الباي عقب الزلزال ألحق بالإسبان خسائر إضافية، ما ساهم في تراجع ثقة القبائل التي كانت موالية لهم في قدرتهم على الاحتفاظ بالمدينة، وكنتيجة لذلك امتنعت هذه القبائل عن دفع الجزية للسلطات الإسبانية، كما توقفت عن مدّهم بالمساعدات، التي كانت تشكل شرياناً حيوياً لحامية وهران، الأمر الذي زاد من عزلة الإسبان وأضعف من قدرتهم على الصمود¹.

مع بداية فصل الربيع من سنة 1791، بدأ الباي محمد الكبير في تطبيق حصار شامل على وهران، حيث قطع كل الطرق المؤدية إليها، ومنع وصول المساعدات براً وبحراً ولم يكتف بذلك فقط، بل كان يشرف شخصياً على تفقد مواقع الرباطات محفراً جنوده على القتال، وواعداً إياهم بالغنائم والأموال لقاء صبرهم وجهادهم، واستمر هذا الحصار إلى غاية يوم 23 جويلية من السنة نفسها، وهو اليوم الذي شهد اندلاع القتال الرسمي، حيث تبادل الطرفان القصف المدفعي طيلة ست ساعات متواصلة، تمكن خلالها فرسان المخزن من تدمير حصن سان فيليب، ما سمح لهم بالوصول إلى مشارف أسوار المدينة مباشرة، وقد حاول القائد الإسباني تورسي تنظيم هجوم مضاد باستخدام ثلاثمائة مقاتل من الحامية، غير أن الهجوم باء بالفشل وأسفر عن مقتل معظم جنوده وبلغت خسائره 266 قتيلًا، فيما واصل المجاهدون زحفهم، وألحقوا بالإسبان خسائر متزايدة، ما دفعهم إلى طلب هدنة مؤقتة قصد سحب الجرحى، وهو الطلب الذي قبله الباي في بادرة إنسانية رغم أجواء الحرب².

¹ أحمد توفيق المدني، حرب....، المرجع السابق، ص524.

² دغموش كاميلية، السلطة والمجتمع....، المرجع السابق، ص89.

بعد هذا الصراع الدامي، وما تبعه من حصار خانق وعمليات عسكرية مكثفة، اقتنع الطرفان بضرورة التوصل إلى تسوية سلمية، فتم التوقيع على معاهدة للأمان والسلام بين الجزائر وإسبانيا يوم 12 سبتمبر 1791، وبدأ تطبيق بنودها فوراً، حيث تم رفع الحصار عن وهران والمرسى الكبير، وبدأت القوات الإسبانية الانسحاب التدريجي من المدينتين وفي يوم 29 فيفري من سنة 1792، غادر آخر جندي إسباني مدينة وهران، معلناً بذلك نهاية حقبة من الاحتلال الإسباني، وعودة المدينة إلى سيادة الدولة العثمانية في الجزائر، وقد تضمنت هذه المعاهدة بنوداً هامة، من أبرزها: هدم جميع الأبراج والتحصينات التي أقامها الإسبان داخل المدينتين، ومصادرة جميع المدافع التي نصبها الحامية¹.

كما كانت هنوك بنود إقتصادية ومالية، أبرزها إلزام إسبانيا بدفع مبلغ 120 ألف فرنك سنوياً للدولة الجزائرية، وتعويضها عن كل ما نهبتة منذ إعادة احتلال وهران سنة 1732، كما سمحت الجزائر بموجب هذه المعاهدة للإسبان باصطياد المرجان على سواحل بايلك الغرب، في إطار تنظيم اقتصادي خاضع للسيادة الجزائرية².

¹ طاهر التومي، علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520-1792، أطروحة دكتوراه، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، 2018-2019، ص592.

² يحيى بوعزيز، مدينة وهران....، المرجع السابق، ص63.

المبحث الثالث: الثورات الصوفية (الدرقاوية والتيجانية) وموقف القبائل منها

أولاً: الثورة الدرقاوية

في سنة 1802، ظهر عبد القادر بن الشريف الساحلي، المعروف بلقب "الدرقاوي"، والذي ينتمي إلى قبيلة أبي الليل ذات الامتداد الصحراوي، كأحد أبرز الوجوه الدينية والسياسية، التي ستشكل لاحقاً تهديداً فعلياً للسلطة العثمانية في بايلك الغرب، وقد جاء هذا الرجل متأثراً بأفكار الطريقة الدرقاوية المنتشرة آنذاك في بلاد المغرب العربي، خاصة وأنه حمل معه حجاباً خاصاً من شيخ الطريقة الدرقاوية في المغرب الأقصى، مولاي العربي الدرقاوي، الذي كان يعتبر رمزاً دينياً وثقافياً بالغ التأثير لدى القبائل التي تتبع الطريقة الدرقاوية على وجه الخصوص، وقد استخدم هذا الحجاب كوسيلة دينية وسياسية لتحفيز الناس، وتأكيد شرعية دعوته في مقاومة الحكم التركي، حيث كان ينظر إليه كمبعوث روعي أو وكيل عن شيخ الطريقة ذاته، وهو ما أضفى عليه هيبة واحتراماً كبيرين في أعين العامة¹.

انطلق الدرقاوي في مسعاه بدعوة صريحة إلى مقاومة الأتراك، مستغلاً الأوضاع العامة المتدهورة في المنطقة من فساد إداري، وتدهور اقتصادي، وتسلب بعض رجال السلطة والمخزن والبايات على الأهالي، فكان يتنقل بين المواقع جنوب البايك، ومن قرية إلى أخرى، ومن وادٍ إلى آخر²، داعياً القبائل إلى الثورة ومننداً بسياسات الأتراك، ولا يكاد ينزل بمكان إلا وعدد فيه قبائح الحكم العثماني، مستعرضاً ما يصفه بظلمهم وجورهم على الأهالي، واستبدادهم بأرزاق العباد، وقد لاقت دعوته صدى واسعاً، خاصة بين قبائل الجنوب، الذين وجدوا في دعوته تعبيراً عن سخطهم العميق على السلطة الحاكمة، فانضمت إليه العديد من القبائل بسلاحها ومشاتها

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص 202.

² نفسه.

وفرسانها، وتجمعوا بقيادته في منطقة البطحاء بالقرب من منبع وادي مينا، أحد المناطق الاستراتيجية في الجهة الجنوبية من البايك¹.

يذكر المؤرخ الزباني أن الباي مصطفى المنزالي، تولى زمام السلطة في بايلك الغرب، خلال نفس الفترة التي استقل فيها أمر عبد القادر بن الشريف، وتحديداً في سنة 1805²، ومع وصول أخبار تحركات الدرقاوي إليه، وحجم التهديد الذي بات يشكله هذا الأخير على استقرار الحكم، لم يتردد الباي في التحرك الفوري لمواجهته، فجمع قواته من الجند مستعيناً بفرسان المخزن المعروفين بولائهم وكفاءتهم العسكرية، وسار على رأس جيش كبير نحو منطقة البطحاء، في محاولة لتطويق قوات الدرقاوي، والقضاء على هذا التمرد قبل أن تتسع رقعة³.

في يوم 4 جوان من سنة 1805، وقع الاصطدام الحاسم بين الجانبين في منطقة فرطاسة، وهي مساحة جغرافية تقع بين وادي مينا ووادي العبد، حيث تمركزت قوات الطرفين، وكانت المفاجأة الكبرى أن الدرقاوي وقبائله تمكنوا من مباغته جيش الباي، الأمر الذي قلب موازين المعركة لصالحهم منذ الساعات الأولى، وهو ما لعب دوراً حاسماً في حسم نتائجها النهائية، وتجلت براعة الدرقاويين في حسن الإعداد وسرعة التحرك، واستغلالهم لطبيعة الأرض، ما أوقع القوات التركية وقبائل المخزن، في حالة من الفوضى والارتباك⁴.

يذكر الزهار في تأريخه لتلك المرحلة، أن الباي مصطفى فر هارباً من ساحة المعركة بعد أن خسر المعركة ومعظم قواته، وقد اضطر إلى التخلي عن عدد من الصناديق التي كانت تحتوي على الأموال، حيث عمد إلى تركها عمداً في طريق هروبه ليشغل بها مطارديه من

¹ نفسه، ص ص 202-203.

² ابن يوسف الزباني، المصدر السابق، ص 208.

³ صالح عباد، المرجع السابق، ص 202.

⁴ نفسه.

فرسان القبائل الدرقاوية الذين لاحقوه، وكانت هذه حيلة ذكية من الباي الذي أدرك أن هذه الصناديق قد تثير طمع المقاتلين وتُثنيهم عن متابعته، وهو ما مكنه بالفعل من النجاة والفرار نحو وهران رفقة من تبقى من جنده، وفي الأثناء استولى عبد القادر بن الشريف على المحلة العثمانية وما فيها من مؤونة وأسلحة، واعتبر هذا النصر نقطة تحول كبيرة لصالح دعوته، وسرعان ما انتشر خبر انتصار الدرقاوي، فانضمت إليه قبائل جديدة خاصة من المناطق القريبة من تلمسان، حتى أن أهل تلمسان أنفسهم انقسموا إلى فريقين، أحدهما موالٍ للسلطة العثمانية، والآخر موالٍ لحركة الدرقاوي فصار بعضهم يقاتل بعضًا، في سابقة خطيرة تدل على هشاشة الوضع الداخلي وانقسام الولاءات بين مختلف الفئات¹.

كانت لهذه المعركة نتائج مأساوية، ليس فقط من حيث عدد القتلى والجرحى، بل لما خلفته من آثار نفسية وسياسية على السكان، حيث شعر الكثيرون بأن الدولة العثمانية فقدت هيبتها، وأنها باتت عاجزة عن السيطرة على تمرد داخلي واسع النطاق مثل تمرد الدرقاويين، وقد تناول الشاعر مسلم بن عبد القادر الوهراني هذه المعركة في قصيدة شعرية ذاع صيتها، مدح فيها الباي مصطفى المنزالي، وهاجم فيها الدرقاوي ووصفه بأوصاف مهينة، محاولاً رفع معنويات أنصار الدولة وشيطة الطرف الآخر:

فيوم فرطاسة يوم كبير	ذل فيه العزيز و عز الحقير
لقد هيا مصطفى جيشًا كثير	تركًا و مخزنًا الملك الكبير
فلم تكن ساعة و إنهمزوا	من جيش قليل هيا الفقير

تدل هذه الأبيات، رغم تحاملها على الدرقاوي، على حجم الصدمة التي خلفتها الهزيمة، كما تعكس مدى اعتماد الباي على قوات المخزن، التي كان لها حضور بارز في المعركة، إلا أن

¹ أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص84.

كثرة العدد لم تكن كافية أمام عزيمة ابن الشريف والقبائل المناصرة له الذين قاتلوا بإصرار، وبتنظيم محكم واستعداد نفسي كبير من أجل الانتصار¹.

ولقد هبّت العديد من القبائل في بايلك الغرب لتأييده، وقد انضمت إليه طوعاً بعد أن رأت في مشروعه السياسي والديني بديلاً واعدًا عن الحكم العثماني القائم، ونتيجة لهذا الدعم الشعبي، فتحت له أبواب مدينة معسكر دون قتال يُذكر، ودخلها دخول الفاتحين، حيث أنزل عائلته وأتباعه فيها، واتخذها مركزاً مؤقتاً لإدارة تحركاته، وفي سعيه لتوسيع نفوذه أكثر، بدأ ابن الشريف بمراسلة كبار القبائل الموالية للسلطة العثمانية، وعلى رأسهم زعماء قبائل المخزن، الذين كانت لهم مكانة مرموقة في التنظيم العسكري والإداري، ولم يكن هدفه من هذه المراسلات مجرد كسب الحلفاء، بل كان يدرك أن ضم هؤلاء إليه يعني نزع أحد أهم أعمدة الحكم العثماني في البايك، وبالتالي إضعاف خصومه سياسياً وعسكرياً ومعنوياً².

لقد تجلّت في هذه المرحلة عبقرية ابن الشريف السياسية، إذ أظهر رؤية متكاملة واستراتيجية مدروسة، مغايرة تماماً لما كان عليه حال العثمانيين، الذين بدا عليهم التخبط وسوء التقدير في تعاملهم مع الأزمة، وقد أتت مراسلاته أكلها، فالتحقت به عدد من القبائل ذات الثقل، أبرزها الزمالة، الدواير، الغرابية، وغيرها من قبائل المخزن المهمة، باستثناء قبيلة البرجية التي رفضت الانضمام إليه لاعتبارات داخلية أو ربما لمصالح سياسية لم تتقاطع مع مشروعه³.

أمام هذا التحول في موازين القوى، لم يقف داي الجزائر مكتوف الأيدي، فأصدر أوامره بتجهيز حملة عسكرية بقيادة وزيره الحاج علي آغا، تنطلق من الجزائر العاصمة نحو بايلك الغرب لإعادة فرض السيطرة وإخماد التمرد، ووصلت الجيش إلى منطقة العطاف، لكن الوضع

¹ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ص 51-55.

² صالح عباد، المرجع السابق، 202-204.

³ نفسه، ص 204.

تعدّ هناك بسبب التهديدات المتزايدة من القبائل المعادية، التي أحاطت بها من كل صوب، وكانت تسعى للقضاء عليها، وما زاد من صعوبة الموقف أن مياه الوادي كانت شحيحة، ما عرّض الجنود للعطش والإرهاق، وأثر على معنوياتهم وقدرتهم القتالية، وفي هذه الأثناء لجأ الوزير إلى شيخ العطف، الذي أشار عليه بدفع المال لكبار القبائل المعادية، كوسيلة لشراء ولائهم أو على الأقل ضمان حيادهم، كما نصحه بالانسحاب ليلاً، وذلك تفادياً للإشتباك المباشر مع هذه القبائل الثائرة¹.

بالفعل أخذ الوزير الحاج علي آغا بنصيحة شيخ العطف، فعاد بالجيش إلى مدينة مليانة، غير أن ذلك لم يمهّد له الخطر، إذ لاحقته القبائل حتى بلدة حجوط، حيث نشبت معركة عنيفة بين الطرفين، وفي ظل هذه الأوضاع المتأزمة، حاول الداوي مصطفى باشا إعادة تنظيم صفوف جيشه، وأمر الجنود بالعودة للقتال، إلا أن التذمر بدأ يظهر بينهم، خاصة بعد أن بعثوا إليه برسالة صريحة بأنهم لا يعترفون به قائداً، وأن ولائهم لقائدهم الحاج علي آغا المعروف بحكمته، ولم يجد الداوي إلا أنم يتراجع عن قراره، وأبلغ العسكر أنهم بإمكانهم الرجوع إلى مدينة الجزائر، لكن الحاج علي آغا لن يرجع معهم، بل سيغادر إلى إسطنبول بحراً، وهو ما حدث فعلاً بعد مشاورات مع جنده، فغادر على متن سفينة إلى إسطنبول، بينما عاد الجنود إلى مدينة الجزائر².

كل هذه الأحداث وفرت لابن الشريف هامشاً زمنياً مهماً، لإعادة تنظيم قواته وإعادة ترتيب تحركاته الميدانية، فتوجه نحو وهران ببطء محسوب، وخلال طريقه بدأ ينهض ويسلب القرى والمزارع التي يمر بها، ما رسم صورة سيئة له بين السكان، وبدأت سمعته تتدهور شيئاً فشيئاً، ومن جهتها أخذ الباي مصطفى استعداداته الدفاعية، فتحصن مع جنده تحسباً لأي هجوم،

¹ كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص 108.

² أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص 84-85.

وحاول ابن الشريف اقتحام المدينة مرات عدة، لكنه فشل في كل مرة، ما دفعه إلى التراجع مؤقتًا وإعادة تقييم خطته الهجومية، وتزامنًا مع ذلك بدأت الأحوال المعيشية تتدهور نتيجة الحصار، وارتفعت أسعار الحبوب في جميع أنحاء البايك، بسبب تعطل الطرق التجارية، فأصبح القمح يُجلب من الجزائر بحرًا لسد الحاجة، بالإضافة فقد وصلت أخبار ثورته إلى شيخ الطريقة الدرقاوية بالمغرب الأقصى، مولاي العربي فأرسل إليه بنفسه، ينصحه بالالتزام بضوابط التصوف وأخلاقياته، لكن الوفد فشل في مهمته فقرر الشيخ الذهاب بنفسه إلى معسكر¹.

عندما وصل الشيخ، تمكن ابن الشريف من إقناعه بأن العثمانيين يضطهدون الدرقاويين ويظلمون الرعية، كما أعجب الشيخ بالحشود المؤيدة، فبدأ في ذم الأتراك وحثّ الناس على الثورة والتمرد، موقنًا أن الدولة العثمانية في طور الانهيار، وأن الله سينصر أتباع الطريقة عليهم².

ومع تنامي خطر الدرقاويين وتغلغلهم في البايك وتجريدهم السلطة من أنصارها، وعلى رأسهم قبائل المخزن، أدرك داي الجزائر أن الوضع يقتضي تحركًا سريعًا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فبادر إلى الاتصال بمحمد المقلش، نجل الباي السابق محمد الكبير، ونصّبه بايًّا على وهران، وبما أن الطريق البري كان غير آمن بسبب تواجد قوات ابن الشريف، ركب محمد المقلش البحر حتى دخل المدينة، ليبدأ فصل جديد في المواجهة مع ابن الشريف الذي بات يهدد جدًّا السيادة العثمانية في بايلك الغرب³.

أمام حزم الباي الجديد وقيادته الحكيمة، فكانت أولى قراراته هي مراسلة المخزن القديم، وحثه على الانقلاب على الدرقاويين، كما أنه قام بنفسه على الوقوف على تحصينات وهران،

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص ص203-204.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ص51-55.

³ أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص87.

ونصب المدافع ووزع الجنود على الأبراج والحصون، وقام ابن الشريف في هذه الأثناء بمحاصرة وهران وتضييق الخناق عليه، لكن حصاره أخذ وقتاً دون الوصول على مبتغاه، ما دفعه إلى رفع الحصار والانسحاب من محيط وهران، ولكن انسحابه لم يكن في صالحه، فقد استغل الأتراك هذه الفرصة، وقصفوا مؤخرة جيش الدرقاويين، ما أسفر عن وقوع خسائر معتبرة في صفوفه، وسار ابن الشريف في اتجاه منطقة سيق، حيث أقام معسكراً مؤقتاً له بالقرب منها، وكان قد عزم على مواصلة تحركاته لتحريض القبائل في شرق البايك من أجل أن تنثور على السلطة العثمانية وتلتحق به¹.

لكن الأمور لم تسر كما كان يأمل، فقد اصطدم في طريقه مع القبيلة المخزنية البرجية الشهيرة بوفائها التام للسلطة العثمانية، مدعومة بحلفائها من القبائل الموالية للبايلك، واندلعت معركة طاحنة بين الطرفين، وكانت هذه المعركة هي أولى الهزائم التي تعرض لها ابن الشريف، فقد خسر فيها الكثير من جنوده وأغلب الغنائم التي غنمها في معاركه السابقة، وهو ما كان بمثابة ضربة موجعة له، ومع انتشار خبر هزيمة الدرقاويين، قام سكان مدينة معسكر بإطلاق سراح محمد بن الخضراوي بن إسماعيل من السجن، كما استولوا على عائلة ابن الشريف وقتلوا جنده الذين كانوا في المدينة، وبعد عودته مهزوماً إليها، أغلقوا أبواب المدينة في وجهه، ما دفعه إلى التوجه جنوباً برفقة قبيلة الأحرار المساندة له².

بهزيمة الدرقاوي سارع الباي محمد المقلش إلى اتخاذ تدابير سريعة لمواصلة تعزيز موقف السلطة العثمانية، فقام بإصدار عفو عن جميع القبائل التي انضمت إلى ابن الشريف في ثورته، وقد نجح في استمالة الكثير منها، وكان من بين هذه القبائل التي رجعت إلى ولائها للباي قبائل الزمالة والدواير والغرابية، وعدد كبير من قبائل المخزن الأخرى، ومع هذا الدعم

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص 204.

² مختار بونقاب، إنتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري 1802-1816، مجلة المواقف، مج 3، ع 2008، 1، ص 139.

الجديد، أصبح الباي أكثر قوة وأكثر استعدادًا لمواجهة أي تحركات جديدة من جانب الدرقاويين¹.

بالرغم من أن ابن الشريف فقد الكثير من حلفائه المهمين، إلا أنه لم يستسلم فقد توجه إلى تلمسان مع بقية قواته، وتمكن من دخول المدينة وقام أيضًا بمحاصرة الأتراك الذين كانوا متواجدين في قصر المشور، لكنه لم يمكث طويلًا بها، وسرعان ما اضطر إلى الفرار مجددًا بسبب ضغط الظروف المحيطة به، وواصل تحركاته في البايك، كما أجرى العديد من المراسلات والزيارات لزعماء القبائل في مختلف مناطق بايلك الغرب، محاولًا تحريضهم على السلطة العثمانية، وقد نجح بالفعل في استمالة عدد من القبائل، أبرزها قبائل مجاهر وبني عامر وفليطة وأولاد الزاير، وغيرها من القبائل التي كانت تشارك ابن الشريف العداء للمخزن والسلطة العثمانية، وتُعد هذه القبائل من أعداء السلطة العثمانية منذ فترة التواجد الإسباني في وهران، حيث كانت دائمًا تتحين الفرص للاستقلال عن النفوذ التركي والمخزن، وبذلك تمكن ابن الشريف من تكوين حلف جديد من القبائل المتمردة، التي تعهدت بالقتال ضد الأتراك والمخزن على حد سواء، وكان هذا الحلف بمثابة تعزيز لفرصه في مواجهة الجيش العثماني واستمرار مقاومته للسلطة².

وهكذا بينما كانت السلطة العثمانية تحاول استعادة زمام الأمور في بايلك الغرب، كان ابن الشريف يواصل تحركاته لاستقطاب الدعم وتعزيز صفوفه، من أجل تحقيق هدفه في الإطاحة بالسلطة العثمانية وإقامة نظام جديد، يتماشى مع مصالحه السياسية والدينية، وفي هذه الأثناء، سار الباي نحو قبيلة البرجية وأقام مخيمه بالقرب منها، وكان قد علم من مصادره الموثوقة بأن ابن الشريف يقيم في الوقت ذاته عند قبيلة فليطة، وكان يحضر جيشه وعتاده استعدادًا

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص 205.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 51-55.

للمواجهة، كما تبين له أن قبيلة بني عامر، المعروفة بعدائها للسلطة العثمانية، تتربص به وتخطط لمهاجمته¹.

أما قبيلة مجاهر، فقد انضمت إلى صفوف الظهرة المتمردين، وكانوا يخططون للهجوم عليه أيضًا، وفعلاً وقع ما كان متوقعًا؛ في الوقت الذي كانت فيه قبيلتا بني هاشم والبرجية المخزنييتين، مشغولتين في حربهم ضد الدرقاويين، استغل بنو مجاهر هذا الوضع لصالحهم، فاستولوا على مخازن البرجية، لكن الباي تمكن من التصدي لهم، ونجح في طردهم وملاحقتهم إلى ديارهم².

تعددت المعارك بين الطرفين، وفي كل معركة كان الباي يحقق النصر على الدرقاويين، ومن أبرز هذه المعارك كانت معركة وادي المالح، التي كانت بمثابة نقطة تحول في سير النزاع، وكذلك معركة قرية سيدي محمد بن عودة، التي أكد فيها الباي قدرته على إلحاق الهزائم بالدرقاويين ومع توالي الانتصارات، بدأت تظهر بوادر هزيمة الدرقاويين، فاستمر الباي في مطاردتهم إلى بلاد بني عامر، حيث واجههم في معركة تاسالة، وألحق بهم هزيمة قاسية، ما جعلهم ينسحبون إلى مناطقهم التي سيطرو عليها سابقًا³.

بعد ذلك، توجه الباي إلى تلمسان، حيث عمل على إصلاح الأوضاع هناك وإعادة السيطرة على المدينة، ثم تابع سيره نحو وادي الرمان في بلاد مجاهر، وهناك واجه الدرقاويين مجددًا وحقق انتصارًا آخر، وتوالت المعارك بين الطرفين في منطقة تافنة، وكان النصر حليفًا

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص205.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص312.

³ مختار بونقاب، إنتفاضة درقاوة....، المرجع السابق، ص140.

للباي في كل مواجهة، وبفضل هذه الانتصارات الكبيرة، أصبحت هزيمة الدرقاويين أمرًا شبه محقق¹.

لكن الأمور لم تلبث أن تغيرت بشكل مفاجئ، إذ تم عزل الباي محمد المقلش من منصبه وقتله على يد الداوي علي الحاج، ليُعاد الباي مصطفى المنزالي، إلى حكم البايك وقد تمكن من هزيمة الدرقاويين في معركتين كبيرتين، الأولى في فليطة والثانية في مدغوسة، إلا أنه لم يبق في منصبه طويلاً، حيث تمت ترقيته من طرف الداوي إلى منصب الخزانجي، ليخلفه في منصب الباي محمد بن عثمان أبو كابوس عام 1808، وفي هذه الاثناء توجه ابن الشريف إلى منطقة عين ماضي جنوباً، ومع تصاعد الأحداث، عاد ابن الشريف مجدداً، مستعيناً في البداية بقبيلة ترارة الواقعة على الحدود المغربية، لكن الباي بوكابوس قام بتدمير قرية أبي ترفاس، التي كانت قد دعمت ابن الشريف، مما أسهم في تقليص قدرته على متابعة الثورة، وعلى الرغم من ذلك استمر في محاولات تحريض القبائل للثورة على الحكم العثماني، لكن خطره بدأ يتراجع بشكل ملحوظ ابتداءً من عام 1809، حيث بدأ ابن الشريف يتنقل من منطقة إلى أخرى ومن قبيلة إلى أخرى، وكان في كل مرة يلقى رفضاً وطرده من القبائل².

في نهاية المطاف، هرب ابن الشريف إلى المغرب الأقصى في عام 1818، حيث انقطعت أخباره تماماً، ويُذكر أنه توفي في تلك الفترة بالطاعون في منطقة مسيردة، ليضع بذلك حداً لثورة كانت قد أثارت الكثير من الجدل في تلك الحقبة الزمنية³.

¹ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص ص 312-313.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ص 51-55.

³ Esterhazy, Op cit, p208

ثانيا: الثورة التيجانية

مرت العلاقات بين السلطة العثمانية والطريقة التيجانية بمرحلتين مختلفتين، كانت الأولى متعلقة بعلاقة السلطة العثمانية مع الشيخ أحمد التيجاني، شيخ الطريقة التيجانية في عين ماضي جنوب البلاد، أما المرحلة الثانية فكانت متعلقة بالعلاقات التي نشأت بين السلطة العثمانية وأبناء الشيخ أحمد التيجاني، محمد الكبير ومحمد الصغير، اللذين ورثا مشيخة الطريقة بعد وفاة والدهما¹.

1. المرحلة الأولى:

بدأت هذه المرحلة بتضييق الخناق من قبل السلطة العثمانية على الشيخ أحمد التيجاني، حيث كانت السلطة العثمانية تراقب عن كثب، الأنشطة التي تقوم بها الطريقة التيجانية، خاصة بعد أن شهدت هذه الطريقة نموًا ملحوظًا في أتباعها في مختلف أنحاء البلاد، وكان معقلها الرئيسي في واحة عين ماضي جنوب البلاد، ما جعل السلطة العثمانية تعتبر هذه الطريقة تهديدًا لنفوذها في المنطقة ونتيجة لذلك، بدأ العثمانيون باتخاذ خطوات لمراقبة الشيوخ التيجانيين، واتخذوا إجراءات لضمان أن تكون لهم السيطرة التامة على المناطق التي يسيطر عليها التيجانيون، وهو ما انعكس في العديد من حملات القمع².

أدى هذا الوضع إلى توتر العلاقة بين الشيخ أحمد التيجاني والسلطة العثمانية، وكان من أبرز المراحل التي تميزت بهذه التوترات، سلسلة من الحملات العسكرية على عين ماضي، أولى هذه الحملات كانت في عام 1781م، حيث شن باي الغرب محمد الكبير حملة على المنطقة، وأدى ذلك إلى فرض ضرائب ثقيلة على سكان عين ماضي، حيث استمر فرض

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص ص230-231.

² نفسه، ص231.

الضريبة حتى تم تحديد مبلغ قدره 188 ريال كضريبة سنوية على السكان، ولم تتوقف هذه الحملات عند هذا الحد، بل تلتها حملة أخرى بقيادة صالح باي الشرق في عام 1785، حيث كانت هذه الحملة نتيجة لمجموعة من الأسباب السياسية والعسكرية¹.

كان أول هذه الأسباب رغبة السلطة العثمانية في توسيع نفوذها نحو الجنوب الجزائري، بالإضافة إلى محاولة القضاء على تمرد نشب في جبال العمور، والذي كان يهدد الاستقرار في المنطقة، ونجح صالح باي في السيطرة على الأوضاع في عين ماضي، وبعدها توجه إلى الأغواط التي دخلها وأعادها بالقوة إلى تحت سلطة العثمانيين².

مع بداية حملة عثمان باي في عام 1798م، ضد سكان عين ماضي الذين رفضوا دفع الضرائب، كان الوضع قد بدأ يتصاعد بشكل ملحوظ، وعلى الرغم من أن الشيخ أحمد التيجاني نصح أتباعه بضرورة دفع الضرائب لتجنب غضب الباي، إلا أن السكان أصروا على رفضهم ما جعل الباي يخرج على رأس جيش من الإنكشارية وقوات المخزن، وكان هدف الحملة في الأساس إلحاق الأذى بالشيخ أحمد التيجاني، لكن عندما وصل الجيش العثماني إلى عين ماضي، اكتشفوا أن الشيخ قد غادر الواحة مسبقاً إلى قرية أبي سمغون ثم توجه إلى فاس، وقام الباي بمحاصرة القرية لأيام عدة، قبل أن يتوصل إلى تسوية مع أهلها، يدفعون من خلالها ضريبة سنوية³. بذلك شهدت العلاقات بين العثمانيين والتيجانيين، فترة من الهدوء المؤقت بعد هذه الحملة، لكنه لم يدم طويلاً حيث ظلت هناك توترات، خاصة مع استمرار محاولة السلطة العثمانية فرض سيطرتها على مناطق النفوذ، التي كانت في يد الشيخ أحمد التيجاني وأتباعه⁴.

¹ سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص 151-152.

² أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا....، المرجع السابق، ص 137.

³ سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص 153.

⁴ Louis Rinn, Morabouts...., Op cit, p423.

2. المرحلة الثانية:

تعرف هذه المرحلة أيضاً بمرحلة الصدام، حيث تميزت بقيادة ابني الشيخ أحمد التيجاني، محمد الكبير ومحمد الصغير، وتوليها مشيخة الطريقة الصوفية خلفاً لأبيهما، بدأت هذه المرحلة بعد وفاة الشيخ أحمد، حيث أصبح الابنان في قلب الأحداث السياسية والدينية في البلاد، وسرعان ما تبين أن العلاقة بين التيجانيين والسلطة العثمانية قد أصبحت أكثر تعقيداً وصداماً، ومع تزايد الاهتمام العثماني بالتيجانيين الذين كانوا يشكلون قوة كبيرة على الصعيدين الديني والاجتماعي، وكانت بداية هذه المرحلة بحملة حسن باي وهران سنة 1820، بعد ظهور خلاف بين التيجانيين¹.

كانت هذه الحملة بعد قيام بعض التيجانيين بمراسلة الداوي، الذي استغل الفرصة وأمر الباي حسن بالخروج لملاقاة الشيخين وأتباعهما، على رأس جيش مكون من 700 جندي من الإنكشارية و4000 فارس من قوات المخزن، انطلقت الحملة مصحوبة بمؤن وسلاح كبيرين، وعند وصول الحملة إلى عين ماضي، اكتشف حسن باي أن محمد الكبير قد غادر إلى تماسين، بينما توجه محمد الصغير إلى قرية أبي سمغون، ورغم ذلك استمر الباي في مساعيه، فحاصر واحة عين ماضي شهراً كاملاً، في محاولة للضغط على سكانها ودفعهم للقبول بالشروط التي فرضها، ووافق أهل عين ماضي على دفع 100 ألف بوجو وكميات من البرانس والحيك، كما غنم الباي الكثير من المخطوطات التي كانت بمثابة كنز ثقافي، حيث تقدر قيمتها بضعف المبلغ الذي دفعه السكان، إلا أن الباي رفض المغادرة حتى يدخل عين ماضي، فبدأ في قصف المدينة ساعات عديدة، ومع ذلك كانت الأسوار الصلبة لمدينة عين ماضي

¹ محمد علوان، النفحة القدسية في السيرة الأحمدية التيجانية، مطبعة كردستان، ط1، مصر، 1910، ص8.

بمثابة درع يحميها، ما جعل محاولات الباي غير مجدية وخسر الباي في هذه الحملة ثلاثين جندياً، وجرح خمسة وأربعين آخرين، ما دفعه إلى رفع الحصار والعودة إلى وهران¹.

استمرت المعركة مع الشيخين محمد الكبير ومحمد الصغير، ففي سنة 1822، حاول مصطفى بومزراق باي التيطري اقتحام عين ماضي لكنه فشل أيضاً، هذا الفشل المتكرر ساهم في زيادة سخط التيجانيين على العثمانيين، وأدى إلى أن يصبحوا أكثر تحفزاً لاستغلال الفرص للانفصال عن السلطة العثمانية وإعلان الحرب عليهم².

في سنة 1825، قاد حسن باي وهران حملة جديدة على عين ماضي، حيث حاصرها أياماً عدة، ثم صالح أهلها على دفع ضريبة سنوية قدرها 500 ريال سنوياً و2000 بوجو تدفع له فوراً وكانت هذه الحملة بمثابة تأكيد آخر على عزيمة العثمانيين على إحكام قبضتهم على المناطق المتأثرة بالتأثير الديني والسياسي للطريقة التيجانية³.

ازداد تخوف العثمانيين من ابني الشيخ التيجاني، محمد الكبير ومحمد الصغير، وبدأوا بمراقبة تحركاتهما عن كثب وعندما قرر محمد الكبير الحج، راسل الداوي حسين باي قسنطينة ليوقفه ويمنعه من أداء مناسك الحج، خشية أن يكون ذلك بداية لجمع حشود كبيرة من الأنصار في أنحاء البلاد، ولكن الباي لم يتمكن من إيقافه، وعندما عاد محمد الكبير من الحج، حدثته نفسه بمحاربة الأتراك ومواجهة ظلمهم، فبدأ بتجميع الأنصار من مختلف القبائل وقام بمراسلة

¹ Esterhazy, Op cit, p218.

² صالح عباد، المرجع السابق، ص231.

³ دغموش كاميلية، السلطة والمجتمع....، المرجع السابق، ص341.

زعمائها، محرّضاً إياهم على محاربة العثمانيين¹، ونجح في إقناع الكثير من القبائل في مختلف أرجاء البايك، بما في ذلك قبيلة الحشم المخزنية التي وافقت على التحالف معه².

في سنة 1826، قاد محمد الكبير جيشه المكون من 600 محارب من أتباعه في عين ماضي وأتباع الطريقة التيجانية³، إضافة إلى حشد كبير من قبائل الأرباع و فرق من قبيلة أولاد نايل وأبناء منطقة القصور، ووفقاً للاتفاق الذي عقده مع قبيلة الحشم، وجدّهم في انتظاره عند عبوره إلى مدينة معسكر، إذ كان هؤلاء يريدون الثأر لمقتل زعمائهم، الذين قتلهم الباي حسن غدرًا بعد أن دعاهم إلى وليمة وقتل إحدى عشر من أعيانهم، لشكه في إخلاصهم له، وبذلك دخل محمد الكبير التيجاني معسكر ثم توجه إلى وهران عاصمة البايك، وفي طريقه إليها، تعرض لهجوم مفاجئ من قبائل زغدو المخزنية، حيث تمكنت من رد قواته وإصابته بجراح بليغة، حمل على إثرها إلى عين ماضي لتلقي العلاج، وهذه الحملة لم تكن إلا بداية لتمرد أوسع، حيث استمر الشيخ محمد الكبير في تحريض القبائل المحلية، للانخراط في الحرب على العثمانيين⁴.

جهّز التيجانيون جيشهم مرة ثانية، وزحفوا نحو مدينة وهران سنة 1827، وقد بادروا إلى إعادة تنشيط تحالفاتهم القديمة، فكاتبوا قبيلة الحشم التي كانت أبرز حلفائهم في المواجهة السابقة، وقد استجابت لهم بسرعة فانضمت إلى حملتهم الجديدة، وعند وصول الجيش إلى مشارف مدينة وهران، واجه مقاومة قوية من قبل القوات العثمانية النظامية المدعومة بفرق من قبائل المخزن المتمركزة قرب وهران، وقد دارت معارك ضارية بين الطرفين على أسوار المدينة،

¹ أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص159.

² أرزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني....، المرجع السابق، ص108.

³ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص31.

⁴ خالد بلعربي وشعيب مقنونيف، ثورة التيجانية في بايلك الغرب الجزائري إبان القرن التاسع عشر -دراسة تاريخية

أنثروبولوجية-، مجلة أنثروبولوجية الأديان، مج17، ع1، 2021، ص720.

ورغم شجاعة التيجاني وجنوده إلا أن المعركة لم تسر لصالحه، إذ تسببت شدة المقاومة وقوة التحصينات وخبرة قوات المخزن، في إلحاق خسائر فادحة بجيشه، ما دفعه إلى الانسحاب التكتيكي نحو مدينة معسكر لإعادة ترتيب صفوفه¹.

لم يتوقف زعيم التيجانيين عند هذا الحد، بل واصل جهوده لتوسيع قاعدته الشعبية والسياسية، فبعث برسائل إلى قبائل المخزن الكبرى، مثل بني عامر وبني شقران والبرجية والغرابة والدواير والزماله، داعياً إلى توحيد الصف والكلمة في مواجهة الحكم العثماني، ورغم حجم المراسلات واتساع دائرة الدعوة، إلا أن معظم القبائل لم تستجب لدعوته، واقتصر الدعم على أفراد أو مجموعات صغيرة، انفصلت عن قبائلها والتحقت به، ما أضعف طموحاته في إحداث تغيير شامل، ورغم التراجع العددي تمكن محمد الكبير من بسط نفوذه مؤقتاً على بعض مناطق أحواز معسكر، حيث اتخذها قاعدة لانطلاق عملياته العسكرية وتحركاته، ما زاد من قلق السلطة العثمانية، ما دفع باي وهران حسن الباهي إلى التحرك سريعاً².

بعد أن وصلت الأخبار إلى الباي حسن بوجود تحركات عسكرية للتيجاني في ضواحي معسكر ومساعيه لاستمالة القبائل، قرر شن حملة عسكرية مضادة، فجهّز جيشاً كبيراً ضمّ معظم فرق المخزن الموالية له، وسار به نحو منطقة "عواجة" التي كانت نقطة الالتقاء، وهناك اشتبك الجيش العثماني بجيش التيجانيين، وكانت المعركة عنيفة ومصيرية للطرفين، غير أن كفة المعركة سرعان ما انقلبت ضد محمد الكبير، بعد أن نجح الباي في إقناع قبيلة الحشم، عبر وعود وأموال طائلة، بالتخلي عنه في ساحة المعركة، ما شكل صدمة كبيرة لجيشه، إذ فقد حليفه الأقوى وانكشفت خطوطه الدفاعية، ولم يتبقّ مع محمد الكبير سوى نحو 300 فارس من

¹ بن عودة المزاري، المصدر السابق، 357-358.

² سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص 159.

أخلص رجاله¹، ورغم هذا التفوق العددي لقوات السلطة، إلا أن التيجانيين أظهروا شجاعة فائقة، وظلوا يقاتلون حتى آخر رمق، ورفضوا الانسحاب أو الاستسلام، إلى أن قُتلوا جميعًا مع قائدهم محمد الكبير².

يذكر المؤرخ الزهار أن محمد الكبير وجنوده خلال المعركة، اتبعوا عادة أعرابية قديمة وهي أن "يعقلوا أنفسهم" مثل الإبل، أي يربطوا أرجلهم كي لا يفروا، في رمزية تعني التصميم على القتال حتى النهاية، وبالفعل قاتلوا قتالاً بطوليًا، ورفضوا التخلي عن ميدان المعركة حتى تمت إبادتهم جميعًا³.

بعد نهاية المعركة أمر الباي بجمع رؤوس القتلى من التيجانيين، وأرسلها إلى مختلف مناطق البايك بهدف ترهيب السكان وإظهار شدته وبأسه، وأما رأس محمد الكبير ورؤوس قادة جيشه المقربين فأرسلها إلى الداوي حسين بالعاصمة الجزائر، ليُزفّ له خبر النصر وإخماد الثورة التيجانية، وقد أمر الداوي بدوره بتعليق رأس محمد الكبير عند "الباب الجديد" بمدينة الجزائر⁴، ليكون عبرة لمن تسوّل له نفسه بالتمرد، ويضيف الزهار أن أثر الثورة التيجانية كان عظيمًا في نفوس السلطة، وأن الرهبة من محمد الكبير وبسالته، دفعت الداوي إلى إرسال سيفه الشخصي كغنيمة رمزية إلى السلطان العثماني محمود في إسطنبول، في إشارة إلى نهاية التمرد وعودة الاستقرار إلى بايلك الغرب خاصة، والجزائر عامة⁵.

¹ دغموش كاميلية، السلطة والمجتمع....، المرجع السابق، ص343.

² نفسه، ص343.

³ أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص160.

⁴ سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص160.

⁵ أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص160.

المبحث الرابع: القبائل المتعاونة مع الإحتلال الإسباني وعلاقتها بالسلطة والقبائل في بايلك الغرب

لم تكن كافة قبائل بايلك الغرب خاضعة للسلطة العثمانية، إذ عرفت المنطقة تنوعاً كبيراً في ولاءات القبائل، فمنها من كانت خاضعة تماماً للسلطة، ومنها من اختارت طريق الاستقلال أو العصيان، خصوصاً تلك التي تمركزت في الجهات الجنوبية للبايلك، غير أن الأمر لم يقتصر على الجنوب فقط، فقد ظهرت قبائل في شمال البايك، وتحديداً المناطق القريبة من وهران، وكانت قد وضعت نفسها تحت سلطة الاحتلال الإسباني، وأعلنت تبعيتها له، بل كانت تدفع له الضرائب بشكل منتظم، وتجدر الإشارة إلى أن هذه العلاقة تعود جذورها إلى سنة 1509م، أي منذ بداية الاحتلال الإسباني لوهران، وهي الحقبة التي شهدت تمرداً تدريجياً للإسبان على حساب أراضي البايك، حيث توسع نفوذهم مع مرور الزمن، حتى أصبحت خلال فترة الدايات جميع المناطق المتاخمة لوهران، خاضعة بشكل مباشر للهيمنة الإسبانية¹.

لقد استطاع الإسبان بمرور الوقت فرض سيطرتهم على عدد من القبائل البارزة، التي كانت تنشط في المنطقة وتتمتع بثقل سكاني وعسكري مهم، من أبرزها قبائل² كرشتل، بنوزيان، الونازرة، قيزة، غمرة، حميان، شافع³، أولاد عبد الله، وأولاد علي القبيل، إضافة إلى القبيلة الكبرى بني عامر، التي كان لها نفوذ معتبر في المنطقة⁴، كما استطاع الإسبان إخضاع العديد من فروع قبيلة مغراوة الأصلية بوهران⁵، وفي مقابل هذا الولاء، نجد أن قبيلتين فقط رفضتا

¹ يحيى بوعزيز، موضوعات من تاريخ الجزائر، ج1، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص96.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص212.

³ انظر الملحق رقم11.

⁴ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص212.

⁵ انظر الملحق رقم12.

الخضوع للإسبان، وهما قبيلة مخيس وقبيلة الرفافة، حيث حالت أراضي قبيلة قيزة دون اتصال مباشر بين هاتين القبيلتين والسلطة الإسبانية، ما جعلهما خارج نطاق السيطرة الإسبانية¹.

لقد كانت هذه القبائل المتحالفة مع الإسبان، والتي نعتها سكان البايك وقياداته بلقب "المغاطيس"، تلعب دوراً معادياً للسلطة العثمانية، إذ لم تكن تكتفي بدفع الضرائب للمحتل، بل كانت تتخبط معه في حملاته العسكرية ضد البايك². ومن بين أبرز الأمثلة على ذلك مشاركتها في الحملة العسكرية التي قادها الإسبان سنة 1675م باتجاه مدينة تلمسان، غير أن هذه الحملة فشلت فشلاً ذريعاً، بعدما تصدى لها سكان المدينة والقبائل المجاورة لها بشراسة، وقد كان للقبائل المتمركزة في ضواحي تلمسان دور كبير في الدفاع عنها، حيث لاحقوا القوات الإسبانية إلى غاية وهران والمرسى الكبير، فيما قام بابا حسن، بتقديم دعم عسكري تمثل في إرسال فرق من الإنكشارية لتعزيز القوات المحلية، ما سمح بفرض حصار خانق على وهران وقطع جميع الإمدادات عنها، إلى أن وصلت تعزيزات عسكرية من إسبانيا وفكّت الحصار³.

في مستهل سنة 1677م، شاركت هذه القبائل المتحالفة مع الإسبان، في حملة انتقامية قادها الإسبان ضد القبائل التي شاركت في حصار وهران، وقد استهدفت هذه الحملة مراكز ومواطن القبائل المعادية لهم، إلا أن القبائل تمكنت من صد العدوان وإلحاق الهزيمة بهم، وهو ما عكس مدى استعداد السكان للدفاع عن أراضيهم والتصدي للموالين للعدو⁴.

أمام هذا التصعيد المتواصل من طرف الإسبان ومواليهم من القبائل، قرّر الباي تنظيم حملة مضادة بمشاركة واسعة من القبائل المخلصة للسلطة العثمانية، وقد استهدفت الحملة

¹ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص212.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص14.

³ صالح عباد، المرجع السابق، ص140.

⁴ نفسه.

مدينة وهران وحصونها، إضافة إلى مراكز قبائل "المغاطيس" التي تعرّضت للخراب والتدمير، ورغم ذلك لم يتمكن الجيش العثماني من دخول وهران، نتيجة الحصون المنيعة والدعم الإسباني المتواصل الذي حال دون اقتحام المدينة، وفي سنة 1681م وقعت مواجهة حاسمة بين القوات العثمانية والقوات الإسبانية، انتهت بمقتل حاكم وهران الكونت دي تيباويبون، الذي خلفته زوجته في الحكم لمدة سنة واحدة، وهو ما يشير إلى مدى تعقيد الوضع السياسي في المدينة، كما توفي الكونت دي براكامونت متأثراً بجروحه، عقب قيادته لحملة ضد قوات المخزن، غير أن هذه القوات كانت قد نصبت له كميناً محكماً على مقربة من وهران، وتمكنت من إيقاع خسائر جسيمة في صفوف الإسبان، وهو ما شكل انتصاراً معنوياً هاماً للبايلك¹.

تعكس هذه الوقائع التاريخية مدى خطورة دور بعض القبائل في تغيير موازين القوى خلال مرحلة حرجية من تاريخ بايلك الغرب، وتبرز في الوقت ذاته صعوبة السيطرة الكاملة على المنطقة، نتيجة تداخل الولاءات وتشابك المصالح بين الأطراف المختلفة، ما جعل من مهمة الإدارة العثمانية أكثر تعقيداً، لا سيما في مواجهة النفوذ الإسباني المتغلغل عبر هذه القبائل المتعاونين كما ساهمت قبائل "المغاطيس" في الموقعة الكبرى والحاسمة التي شهدتها منطقة بايلك الغرب، والتي جرت أحداثها سنة 1786م في ما عرف بمعركة كدية الأخيار، حيث واجه فيها الجيش الإسباني قوات الباي شعبان من الجند التركي وقبائل المخزن المخلصة للدولة العثمانية²، وقد كان لهذه المعركة طابع مصيري، نظراً لحجم القوات المشاركة فيها وطبيعة الصراع القائم في محيط مدينة وهران، فقد كان عدد جيش الباي في هذه المعركة أربعة آلاف مقاتل، بينما كان جيش الاسبان وحلفائهم من المغاطيس ثلاثة آلاف جندي³.

¹ نفسه، ص140.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، صص14-15.

³ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص229.

في هذه المعركة الفاصلة، تكبد الإسبان ومعهم قبائل المغاطيس هزيمة نكراء، إذ لم تصمد قواتهم أمام الزحف المنظم الذي قاده الباي وجيشه، كما أنهم قاموا بمطاردة الإسبان وحلفائهم، ودار قتال بينهم تحت أسوار مدينة وهران، شكلت امتدادًا للمعركة السابقة، وبلغت درجة عالية من الشراسة، غير أن الباي شعبان استشهد على يد أحد عناصر قبائل المغاطيس، حيث قطع رأسه وفصل عن جسده، ثم قاموا بتعليق رأسه على أحد أبواب مدينة وهران، في مشهد أرادوا به بث الرعب في نفوس المسلمين، إلا أنهم ارجعوه للمسلمين لدفنه مع جسده، حيث تفيد الروايات أن نورًا كان يسطع على رأس الشهيد، وذلك خوفًا منه¹.

لكن من الجدير بالذكر أن العلاقة بين قبائل المغاطيس والإسبان لم تكن دومًا مستقرة أو مبنية على الثقة المتبادلة، فقد شابتها فترات من التوتر وعدم الانضباط، خصوصًا فيما يتعلق بالتزاماتهم المالية تجاه الإسبان، إذ كانت هذه القبائل تتأخر في دفع الضرائب، بل وتتهرب منها أحيانًا، ما تسبب في ضائقة مالية حادة للإدارة الإسبانية بوهران، خاصة في ظل التكاليف الباهظة التي كانت تتحملها الدولة الإسبانية لتأمين وجودها العسكري في المدينة وضواحيها².

هذا الوضع دفع القادة الإسبان إلى شن غارات متكررة على أراضي البايك، بهدف تعويض خسائرهم الاقتصادية، غير أن هذه الاعتداءات لم تمر دون رد، إذ لاحظ الباي بوشلاغم ما يعانيه الإسبان من ضعف مالي وتراجع عسكري، فاعتبر أن اللحظة أصبحت مناسبة، لشن حملة منظمة من أجل استعادة مدينة وهران وتحريرها³.

في هذه اللحظة الحرجة من تاريخ الصراع، وجدت الاسبان انفسهم في موقف دفاعي حرج، فبادرت إلى تجديد موافيق التحالف مع قبائل المغاطيس، وقد اضطرت في سبيل ذلك إلى تقديم

¹ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص229.

² عزيز سامح ألتر، المرجع السابق، ص458:.

³ نفسه، ص458.

سلسلة من التنازلات السياسية والعسكرية، بل وحتى الاقتصادية، مقابل أن تلتزم تلك القبائل بدعمها بالسلاح والذخائر، وتقديم المؤن الكافية لقواتها، بالإضافة إلى المشاركة في المعارك إلى جانبهم ضد قوات البايك، ولقد تم هذا الاتفاق فعلاً، فشهدت تلك الفترة نشاطاً مكثفاً للقبائل العملية وعلى رأسها قبيلة بني عامر، التي لعبت دوراً لوجيستياً وعسكرياً مهماً في دعم الإسبان، فقد كانت هذه القبائل تمد الإسبان بالمؤن والعتاد في أوقات الشدة، كما تولت مهمة تغطية انسحابهم عند تعرضهم للهزائم، من خلال تنفيذ هجمات على مراكز تابعة لقوات المخزن، أو بمواجهة القوات المطاردة للإسبان، وهو ما وفر غطاءً دفاعياً مهماً للمحتل، وساهم في إبطاء تقدم القوات العثمانية في عدة مناسبات¹.

تعكس هذه الوقائع حالة الازدواجية التي طبعت علاقة المغاطيس مع الإسبان، إذ لم تكن تحالفاً دائماً، بقدر ما كانت علاقة مصالح خاضعة للظروف، تُبنى على حساب توازنات القوى، والمكاسب الظرفية التي يسعى كل طرف لتحقيقها، إلا أن الباي بوشلاغم وبحكم حنكته السياسية ودهائه في إدارة شؤون البايك، استطاع أن يستميل ويخضع بعض الفرق التابعة لقبيلة بني عامر، بالإضافة إلى عدد من القبائل الأخرى المحسوبة ضمن جماعة "المغاتيس" التي كانت موالية للإسبان، وذلك من خلال مزيج من الوعود والإغراءات من جهة، واستعمال القوة والضغط من جهة أخرى، فتمكن بذلك من ضم هذه القبائل تدريجياً تحت جناح السلطة العثمانية، لتتحول من خانة الولاء للإسبان إلى طاعة السلطة العثمانية².

وعندما تمكن الباي من تحقيق النصر العظيم المتمثل في تحرير مدينة وهران سنة 1702م ودخوله مظفراً مع جيوشه، قام الجنود التابعون له بنهب ممتلكات القبائل، التي كانت تتواجد داخل أسوار المدينة، والتي ثبت قتالها إلى جانب العدو، وقد نتج عن هذا الوضع انقسام

¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية....، المرجع السابق، 154.

² العيايدة آمنة فاطمة الزهراء وبوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص 352.

أفراد هذه القبائل إلى ثلاث فئات متميزة: فئة أولى اختارت الرحيل مع الإسبان إلى مدينة سبتة، كحال بعض فرق قبيلة الونازرة التي فضّلت المنفى على مواجهة تبعات ولائها السابق، أما الفئة الثانية فقد أُجبرت على الدخول تحت سلطة البايك رغمًا عنها، وظلت تعيش نوعًا من الحذر والريبة، في حين عبّرت الفئة الثالثة عن ندمها على التحالف مع الإسبان، وسعت إلى إظهار ولائها الجديد للسلطة العثمانية في محاولة لتجاوز ماضيها المشين¹.

بعد أن تم تحرير وهران بشكل كامل، باشر الباي بوشلاغم سياسة حازمة تهدف إلى إعادة ترتيب البيت الداخلي للبايلك، فأخضع كافة القبائل التي كانت متعاونة مع الإسبان سابقًا، وضَمَّ العديد منها إلى صفوف قوات المخزن، وعلى رأسها قبيلة بني عامر التي أصبحت جزءًا من القوة النظامية للسلطة العثمانية، غير أن الأمور لم تسر على هذا النحو طويلاً، إذ ما إن عاد الإسبان لاحتلال وهران من جديد، حتى وُضعت ولاءات هذه القبائل على المحك، فبينما هبت قبائل المخزن، كقبائل الحشم والدواير والزمالة، لنصرة الباي والدفاع عن البايك، آثرت القبائل التي كانت سابقًا تحت حكم الإسبان الصمت ولم تحرك ساكنًا، رغم دعوة الباي المتكررة لهم للالتحاق بجيشه، وخاصة بني عامر التي رفضت صراحة المشاركة في المعركة².

مما ينظر إليه بغرابة أن هذه القبائل كانت تعاني من أوضاع اقتصادية مزرية، فبالرغم من ولائها للإسبان، إلا أن الأخيرين كانوا يفرضون عليها ضرائب مرهقة، فيأخذون الجزء الأكبر من أموالهم ولا يتركون لهم إلا القليل، وهو ما أثر سلبيًا على قدرتهم على العيش والإنتاج، كما كانت محاصيلهم الزراعية ضعيفة نتيجة عدة عوامل، أبرزها قلة العناية بالأرض، وانعدام وسائل الزراعة المتطورة، بالإضافة إلى محدودية الموارد الزراعية، ففي المعدلات العادية، لم تكن أراضيهم تنتج سوى عشرة فناقات مقابل كل فناق واحد يتم بذره، سواء تعلق الأمر بالقمح

¹ صالح عباد، المرجع السابق، ص 151.

² مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ص 15-16.

أو بالشعير، وهو إنتاج هزيل لا يكاد يسد حاجاتهم الأساسية، أما بعض الفرق، كأولاد إبراهيم، فكان إنتاجهم الزراعي أسوأ، حيث لم يكن يتجاوز خمسة فناقات لكل فناق مبدور¹.

غير أن الأوضاع تغيرت جذرياً بعد تحرير وهران ودخول المنطقة تحت سيطرة البايك، إذ بدأت السلطة العثمانية في تطبيق مجموعة من الإصلاحات الاقتصادية والتنظيمية، شملت استصلاح الأراضي الزراعية، وتوفير الحماية الأمنية، وتخفيف الضرائب، ما شجع السكان على العودة إلى الزراعة واستغلال الأراضي، ونتيجة لذلك، ارتفع مستوى الإنتاج بشكل ملحوظ، حيث أصبحت الأراضي تنتج ثلاثين فناقاً مقابل واحد من الشعير، وخمسة وعشرين فناقاً مقابل واحد من القمح، وهو تحسن كبير يدل بوضوح على مدى فعالية السياسات التي انتهجها البايك لتحسين وضعية الفلاحين ومردودية الأراضي، بما يعود بالنفع على خزانة الدولة واستقرار السكان على حد سواء².

كما أن قبائل المغاطيس كان لها دور في صد هجومات المجاهدين في الرباطات وقوات المخزن طيلة فترة حرب الاستنزاف، التي اعتمد عليها الباي محمد الكبير منذ سنة 1780، وهي الحرب التي اتخذت طابعاً طويل الأمد، حيث اعتمد فيها الباي على منهجية إنهاء القوات الإسبانية وضرب خطوط إمدادها، والتضييق على تحركاتها من خلال المناوشات المستمرة والكمائن المتفرقة، التي كانت تشنها قواته النظامية بمساعدة القبائل، ولقد شكلت هذه الحرب عامل ضغط كبير على الإسبان، ما دفعهم إلى طلب الدعم المتواصل من مركزهم في إسبانيا، ومع ذلك لم يستطيعوا تحقيق التفوق الميداني، خصوصاً بعد أن تمكن الباي من استدراجهم إلى معركة كبيرة خارج أسوار وهران يوم 14 سبتمبر 1784، وهي المعركة التي تمكن فيها من

¹ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 195.

² نفسه، ص 195.

إلحاق هزيمة نكراء بهم، وإحداث ضربة استراتيجية عندما نجح في قطع المجرى المائي الرئيسي الذي كان يزود مدينة وهران بالماء، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الأوضاع داخل المدينة¹.

في هذا السياق، لعبت قبائل المغاطيس دورًا سلبيًا بالنسبة للسلطة العثمانية في بايلك الغرب، إذ استغل الإسبان العلاقة المتينة التي نسجوها مع هذه القبائل، فعملوا على تجنيد العديد من أبنائها كجواسيس وعملاء، هدفهم الأساسي هو التجسس على تحركات البايات وقوات المخزن، وتحديد مواقع تمركزهم، بالإضافة إلى جمع المعلومات عن نشاط المجاهدين في الرباطات، ونقل كل ما يتعلق بتحركات القوات العثمانية والقبائل الموالية لهم، وكان هؤلاء الجواسيس يزودون الإسبان بمعلومات شديدة الأهمية، على غرار مواقع الحصون الاستراتيجية، ومخازن المؤن، ومصانع الأسلحة التقليدية، بل وحتى مواقع الأبراج الدفاعية، التي كانت تقام على المرتفعات لمراقبة تحركات العدو².

من أبرز ما قام به جواسيس المغاطيس أيضًا، هو تزويد الإسبان بخرائط دقيقة تمثل مسارات الطرق ومواقع القرى، وتوزع القبائل في إقليم البايك، ما ساعد القوات الإسبانية على تنفيذ غارات سريعة ومباغتة، خاصة في فترات الليل أو خلال المناسبات الكبرى، وقد شكل هؤلاء الجواسيس عنصرًا أساسيًا في دعم الاحتلال الإسباني، نظير المكافآت المالية المجزية والامتيازات التي كانوا يحصلون عليها من طرف الحاكم الإسباني في وهران، كإعفاء من الضرائب أو منحهم بعض الأراضي داخل المنطقة المحتلة³.

لم يقتصر دور هذه القبائل على التجسس فقط، بل اتخذ أشكالًا أخرى تمويلية، حيث كان بعض أفرادها يتنقلون بين القرى والمدن في زيّ باعة متجولين، يحملون معهم مواد العطرية،

¹ أحمد توفيق المدني، حرب....، المرجع السابق، ص487.

² بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص212.

³ نفسه.

التوابع، والجلود، ويتظاهرون بممارسة التجارة لكسب ثقة السكان. وكانوا من خلال هذه الطريقة يختلطون بأهالي المناطق، ويستمعون إلى أحاديثهم، فيجمعون المعلومات، ويكشفون الأسرار الخاصة بالقبائل، ويعرفون أماكن وجود الشخصيات الكبيرة أو المستودعات العسكرية، وزاد من خطورة هذا النشاط أنهم كانوا ينفذون عمليات اختطاف منظمة للأشخاص خاصة للأطفال، حيث كانوا يحملونهم ليلاً على ظهور الدواب، ويقتادونهم في مسالك وعرة نحو مدينة وهران، وهناك يبيعونهم للإسبان، الذين يستخدمونهم إما في الخدمة أو يبيعونهم أيضاً، ما شكل مصدر رعب دائم لسكان البايك¹.

بعد تحرير وهران الثاني سنة 1792، شهدت القبائل التي كانت متعاونة سابقاً مع الإسبان تغييرات جذرية في أوضاعها، إذ تم تجريدها من مساحات واسعة من أراضيها الخصبة، وتم توزيعها على قبائل المخزن، التي أثبتت ولاءها ودفاعها عن السيادة العثمانية، وكانت على رأس هذه القبائل قبيلتا الدواير والزمالة، وقد جاء هذا القرار كنوع من العقوبة الجماعية لتلك القبائل التي ثبت تورطها سابقاً في دعم الاحتلال الإسباني، ومع ذلك لم يكن الباي محمد الكبير ليغفل عن أهمية هذه القبائل وعددها الكبير وخبرتها بالمنطقة، فعمل على استمالة بعض فرقها واحتوائها، في إطار سياسة ذكية لامتصاص التهديدات الداخلية، فتمكن من كسب ولاء العديد من الفرق الصغيرة المنتمية إلى قبائل بني عامر، وقبيلة حميان، وكذا بعض بطون قبيلة قيزة، وقد ألحقت هذه الفرق تدريجياً بقوات المخزن، وأدمجت في المنظومة الأمنية والعسكرية للبايلك، بعد أن وضعت تحت الرقابة، وجرى تطويعها لخدمة مصالح الدولة².

أما ما تبقى من تلك القبائل، فقد وُضعت هي الأخرى تحت سلطة المخزن، غير أن الباي محمد الكبير أصدر أوامره الصارمة بضرورة مراقبة تحركاتها وتصرفاتها بدقة، وأنه كان

¹ عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص3.

² نفسه، ص ص26-30.

يشك في احتمال قيام بعض قادتها بتدبير المؤامرات أو العودة إلى الاتصال السري بالإسبان، وهو ما استدعى اتخاذ إجراءات استباقية للحيلولة دون حدوث تمرد أو عصيان مفاجئ¹.

في سياق آخر، ساهمت هذه القبائل في مراحل لاحقة في الاضطرابات التي عرفها بايلك الغرب، حيث شاركت بشكل فعال إلى جانب أتباع الطريقة الدرقاوية في ثورتهم، وكانت قبيلة بني عامر في مقدمة الداعمين لهم، إذ وجدت في الثورة الدرقاوية فرصة سانحة للانتقام من السلطة العثمانية، التي كانت تتوجس منها دائماً، ويُفسر هذا الانخراط بأن بني عامر كانت تتشارك مع الدقاويين في عدائها للسلطة المركزية، واعتبرت الثورة وسيلة للتحرر من الهيمنة السياسية والعسكرية المفروضة عليها منذ عقود².

تجلت هذه النزعة التمردية كذلك في أفعال أخرى، من بينها ما أقدمت عليه قبيلة بني مجاهر، التي هاجمت مخازن قبيلة البرجية، إحدى أهم قبائل المخزن واستولت عليها، مستغلة انشغال البرجية رفقة قبيلة بني هاشم في قتال الدقاويين، وقد كان هذا الهجوم المفاجئ ضربة موجعة للمخزن، وأظهر بوضوح نوايا بعض القبائل، في استغلال الوضع السياسي المضطرب لتحقيق مصالحها³.

في مرحلة لاحقة، لم تكتفِ هذه القبائل بدعم الثورة الدرقاوية، بل انخرطت أيضاً في دعم الثورة التيجانية، التي اعتُبرت إحدى أخطر التحديات التي واجهت السلطة العثمانية في البايك، وقد برزت مرة أخرى قبيلة بني عامر كأحد أبرز الداعمين للتيجانيين، إلى جانب قبيلة الحشم المخزنية، التي رغم انتمائها إلى المخزن، اختارت أن تساند التيجانيين في بداية الأمر، وأمدتهم

¹ مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 51-55.

² نفسه.

³ بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 312.

بالمؤن والأسلحة، وسربت لهم معلومات استراتيجية حساسة عن مواقع القوات الإنكشارية والمخزنية، وشاركت بفرق مقاتلة أرسلتها لتعزيز صفوف التيجانيين في مواجهاتهم¹.

لكن ومع مرور الوقت، وتحديداً عندما عادت العديد من القبائل، إلى صفوف السلطة بعد اتضاح ضعف التيجانيين وتراجع زخمهم العسكري والسياسي، بدأت تلك القبائل المتعاونة تتراجع خطوة بخطوة عن مواقفها، فأدركت أن التيجانيين لم يعودوا يتمتعون بالقوة السابقة، ولا بالتأييد كما كانوا في بداية ثورتهم، ولم تعد مغامرة الوقوف معهم مغرية كما في السابق، خاصة وأن ميزان القوى بدأ يميل بشكل واضح لصالح السلطة العثمانية، وعليه فضلت تلك القبائل الانسحاب من المشهد، وعدم التصادم المباشر مع السلطات، حفاظاً على وجودها ومكتسباتها، واعتبرت أن المواجهة لن تجلب لها سوى الهلاك والندم².

¹ سميرة طالي معمر، المرجع السابق، ص 159.

² نفسه.

-خلاصة الفصل:

نستنتج أن قبائل بايلك الغرب كان لها دور كبير في توجيه السياسة العثمانية، وتوطيد التواجد العثماني أيضا والحفاظ على إستقراره، بحيث كانت تعتبر القوة الأكبر والأهم في البايك، ما دفع بالسلطات إلى توجيه سياساتها بما يتوافق مع مصالح هذه القبائل خاصة المخزنية منها، والتي تتكفل بتحصيل الجباية وإخضاع القبائل المتمردة، والعمل على إرساء قواعد الأمن والإستقرار، إضافة إلى مواجهه الأخطار الخارجية خاصة من قبل الاحتلال الإسباني في وهران، ومواجهة غارات القبائل المتحالفة معه، كما أن دور القبائل كان واضحا وجليا في تحرير وهران الأول سنة 1708م، بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، ثم المساهمات العظيمة التي قدمتها في تحرير وهران الثاني سنة 1792م، بقيادة الباي محمد الكبير.

كما أن القبائل كانت لها الكلمة الفصل في مواجهة العديد من الثورات خاصة الصوفية منها، حتى قيل أنه منذ عهد الباي مصطفى المنزالي لم تطلق رصاصة واحدة من بندقية جندي تركي، وهو ما يدل على أن قوات المخزن هي القوات الحقيقية للسلطة، فإن تخلت عنها سقطت وإنتهى أمرها، ومثال ذلك الثورتين الدرقاوية والتيجانية، فكان إنحيازها للثورات يهدد السلطة وينذر بسقوطها، لكن تراجعها عن التحالف مع المتمردين والثوار، يجعل من الثورات أقل قوة وفعالية، وهو ما حدث مع الثورة الدرقاوية عندما تخلت عنها القبائل خاصة المخزنية منها، إنكسرت شوكتها ولم تدم طويلا حتى إنتهت، بالرغم من دعم بعض القبائل لها.

كذلك الثورة التيجانية، فقد تحالف مع الكثير من القبائل وعلى أسها قبيلة الحشم القوية، التي ساندتها في البداية، إلا أن العثمانيين إستطاعوا إستمالتها إليهم مجددا، ووعدها بالكثير من الأراضي والصلاحيات والإعفاءات الضريبية، ما دفع بها إلى التخلي عن التيجانيين، كما أن

قبيلتا بني عامر ومجاهر القويتين والمشهورتين بعداء السلطة العثمانية تخلت عنهم أيضً، وهو ما عجل في سقوط الثورة التيجانية.

كما أنه ليست كل القبائل خاضعة للسلطة العثمانية، أو تقع ضمن نطاق سيطرتها، فنجد أن هناك قبائل متعاونة مع الاحتلال الإسباني، والتي يطلق عليها لقب قبائل "المغاطيس"، خصوصا القبائل التي تقع أراضيها بالقرب من وهران، وأبرز هذه القبائل قبيلة بني عامر العربية الهلالية، التي تعرف بعددها الكبير وقوتها ويعتبرها الكثيرون أقوى قبيلة في بايلك الغرب، بالإضافة إلى قبائل قيزة وشافع وكرشتل وفرق من قبيلة الحميان وفرق أيضا من قبيلة الونازرة وغيرهم الكثير من القبائل، فكانت كلها تدفع الضرائب للإسبان وتشاركهم غاراتهم على أراضي القبائل القريبة منهم.

إضافة إلى أن هذه القبائل شاركت بقوة إلى جانب الإسبان في مواجهة حملات تحرير وهران من قبل السلطة العثمانية وقوات القبائل في بايلك الغرب، إلا أنه بعد تحرير وهران الثاني سنة 1792م، وقطع دابر الإسبان ضمت إلى جناح السلطة العثمانية، بالإضافة أنه تم إلحاق بعض قبائلها وفرقها لقوات المخزن، ورغم ذلك فإن السلطات كانت تخشى تقلبها ومكائدها، وقد حدث ما كانت تخشاه فعلا، حين قامت أغلب هذه القبائل بمساندة الثورات في أرجاء البايك خاصة الثورة الدرقاوية والثورة التيجانية، حيث كانت تساندهم بالمال والمعلومات والرجال وتزويدها بالمعلومات السرية عن تحركات السلطة، بل ذهبت بعيدا خاصة في دعمها للدقاووين، حيث قامت الكثير من القبائل بإيواء ابن الشريف الدرقاوي والقتال معه داخل أراضيهم، إلى غاية سقوطه ونهاية ثورته.

خاتمة

من خلال دراستنا لهذا الموضوع، الذي هو بعنوان "القبيلة والسلطة الحاكمة في بايلك الغرب خلال عهد الدايات (1671-1831)، خرجنا بعدة إستنتاجات تم التحديد من خلالها طبيعة العلاقة التي سادت بين القبائل والسلطة في بايلك الغرب:

-إهتمام السلطات بالبايلك لمساحته الشاسعة، التي سمحت بتنوع التضاريس، فنجد شمالا مناخ البحر الأبيض المتوسط، وجنوبا المناخ الصحراوي، ما جعله يمتاز بالثراء بمختلف المواد الأولية من معادن وغابات.

-يتميز بايلك الغرب موقع إستراتيجي هام، فهو يتوسط الكثير من الكيانات الحيوية، وبذلك يعتبر حلقة وصل بين الكثير من الأقاليم داخليا وخارجيا، فداخليا نجد دار السلطان وبايلك التيطري شرقه، أما خارجيا فنجد شمالا يحده البحر الأبيض المتوسط الذي في ضفته الجنوبية تتواجد الدول الأوروبية خاصة شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا، البرتغال)، ومن الغرب المغرب الأقصى، ومن الجنوب الصحراء التي تربطه بممالك إفريقيا جنوب الصحراء.

-تعتبر القبائل في البايك عنصرا مهما في التركيبة الاجتماعية في البايك، فقد كانت تشكل ما نسبته 92 بالمئة من سكان البايك، وبذلك كانت تعتبر مادة البايك وذرعه الديمغرافي، ما جعل دورها في الحياة العامة للبايلك جليا وواضحا، وفي المقابل تعتبرها السلطات الكتلة الأهم، التي تساهم في تحديد طبيعة التواجد العثماني في البايك.

-لقد كان توزيع الأراضي في البايك مجحفا نوعا ما، فنلاحظ أنه إنتشر في البايك صيغتين من الملكيات، الأولى ملكيات جماعية، والتي كان للسلطة دور كبير في تحديد مالكيها، فقد كانت تتدخل في توزيع الكثير منها، وذلك من خلال منح أكثر الأراضي خصوبة بالإضافة الى قربها من المواقع الإستراتيجية لقبائل المخزن، بينما قبائل الرعية فقد كانت أراضيها أقل خصوبة، كما تمت مصادرة الكثير من أراضيها ومنحها للمخزن وكبار رجال البايك.

-لقد ساهمت القبائل في الحياة الاقتصادية للبايلك بشكل كبير، وذلك من خلال مساهمتها في الإنتاج وتحريك العجلة الاقتصادية، بداية من إمتهان الكثير من أبنائها الزراعة وتربية المواشي، ما ساهم في إنتاج مختلف المواد الغذائية، التي بدورها ساهمت كثيرا في دعم خزينة البايك من خلال تصدير كميات كبيرة من هذه المنتوجات، وعلى رأسها الحبوب خاصة القمح والشعير.

-لقد كان إنتشار الصناعة محدودا بين القبائل، إلا انها كان لها دور بارز أيضا في تحقيق الاستقرار الاقتصادي، رغم إقتصارها على الصناعة التقليدية، إلا أنها كانت تحقق الإكتفاء الذاتي، وتصدر بعض المواد المصنعة إلى الدول المجاورة والبلدان الأوروبية، وتغني البايك عن التوجه نحو الإستيراد.

-لقد كان للقبائل دور كبير في المبادلات التجارية، وذلك من خلال إقامتها للأسواق الأسبوعية أو الفصلية في مواطن إستقرارها، وكانت تشهد حركة كبيرة بوفود مختلف التجار إليها، وما ساعد على هذه الحركة الطرق الإستراتيجية، التي تسهل في مسير القوافل والتجار خاصة السلطانية منها، والطرق التي تربط بين مدن وقرى ومواطن القبائل في البايك.

-شهدت القبائل حركة ثقافية خلال هذا العهد، تمثلت أساسا في إنتشار أهم المراكز التعليمية كالمساجد والزوايا والرباطات، والتي كانت تقوم على تأسيسها والعناية بها، دون إنتظار المعونة من السلطة التي كانت تهتم بالمؤسسات الثقافية في المدن فقط، إلا أن إنتشارها في القرى والبوادي كان واضحا وكبيرا، ما ساهم في رفع المستوى التعليمي لأبناء القبائل، حتى أن نسبة الأمية في أوساطهم تكاد تكون منعدمة.

-لقد ساد خلال هذا العهد علاقات ودية وأخرى سلبية بين العلماء والسلطة، ومحرك ذلك هو البايات ومدى قربهم للعلماء أو بغضهم لهم، فنجد أن الكثير من البايات قام بتقريبهم إليه وعلى رأسهم الباي محمد الكبير، الذي كان يحترمهم ويجزل لهم العطاء، بل أوكل لهم مناصب عليا

في البايك، بينما نجد بعض البايات يبغضونهم مثل الباي الحاج خليل والباي موسى الباهي خصوصا وآخر عهده، فقد قام بتعذيب الكثير منهم وسجنهم وحتى قتلهم.

-لقد كانت الأوضاع الاجتماعية في البايك منذ بداية عهد الدايات إلى غاية آخر القرن الثامن عشر مستقرة نوعا ما، إلا أنه في آخر هذا العهد شهد البايك ترعزعا ديمغرافيا جراء موجات من الكوارث الطبيعية كالجفاف والزلازل والفيضانات والجراد، التي كلها أدت إلى ظهور مجاعات شديدة إستمرت موجاتها إلى غاية الاحتلال الفرنسي، بالإضافة أنها كانت من أسباب إنتشار الأوبئة والأمراض، وعلى رأسها الطاعون الذي حصد كثيرا من الأرواح وكاد أن يفني سكان البايك، بالإضافة إلى عجز السلطات عن مواجهة هذه الكوارث والأوبئة، وما زاد الطين بلة هو عدم إهتمام الكثير من البايات والمسؤولين بهذه الأزمات، ما زاد من تعاسة السكان.

-لقد كان لقبائل المخزن دور في إستخلاص الضرائب وجمعها من قبائل الرعية، وبذلك تدعم خزينة البايك التي كانت خلال هذا العهد تعاني نقصا كبيرا بسبب تراجع موارد الجهاد، فأصبحت السلطة ترى في هذه الضرائب الخلاص الوحيد لها من شبح العجز المالي.

-كان للقبائل في البايك دور كبير في مواجهة الأخطار الخارجية، بمشاركتها في صد الكثير من الحملات العسكرية المغربية، كما كانت تعتبر في حرب دائمة مع الإسبان وحلفائهم من قبائل المغاطيس العميلة في وهران وضواحيها، فكانت مساهما كبيرا في تحرير وهران الأول بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم سنة 1708، وأيضا كانت مشاركتها في تحرير وهران الثاني واضحة وجليّة سنة 1792 بقيادة الباي محمد الكبير، وقد فقدت الكثير من رجالها من أجل هذا التحرير مثل قبيلة بني زروال التي سمي برج بإسمها، لإستماتتها في تحرير الأبراج وإستشهاد الكثير من فرسانها.

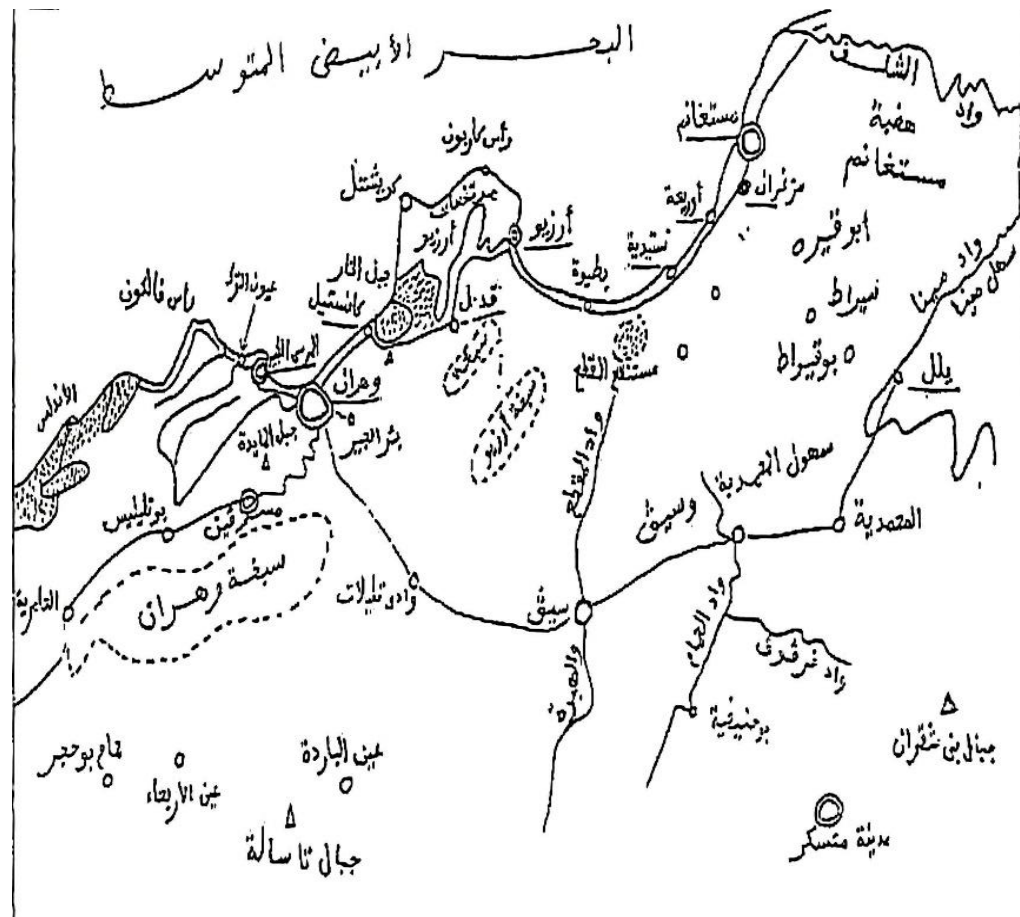
-كان للقبائل دور كبير في مسار الثورتين الصوفيتين الدرقاوية والتيجانية، فنجد منها من وقف إلى جانب السلطة، ومنها من وقف إلى جانب الثائرين، ونلاحظ أن كلمة الفصل كانت لها في

ترجيح كفة أحد الطرفين، فالثورة الدرقاوية مثلاً قويت شوكتها بوقوف القبائل معها، لكنها تراجعت وإنتهى أمرها بعدما تخلت عنها هذه القبائل، وهو نفس ما حدث للثورة التيجانية، فقد كانت قبيلة الحشم تساندها لذلك كانت الغلبة لها في بداية الأمر، لكن تراجع الحشم عن التحالف معها، وعودتها إلى خضن السلطة أضعف التيجانيين، وسرعان ما إنتهت ثورتهم.

-لم تكن كل القبائل في البايك تحت سلطة العثمانيين، فقد كانت هناك قبائل تخضع للإحتلال الإسباني في وهران، ومن أبرز هذه القبائل: بني عامر، قيزة، كرشتل، شافع وغيرهم الكثير من الذين تقع أراضيهم حول وهران والمرسى الكبير، فكانت تدفع الضرائب للإسبان وتساعدهم في الغارات على أراضي البايك المجاورة، وتشارك أيضاً في صد الحملات العثمانية التي تسعى لتحرير وهران، إلا أنه بعد تحرير وهران الثاني 1792 بقيادة الباي محمد الكبير، أخضعها العثمانيون لسلطتهم كما ألحق الباي بعض قبائلها وفرقها للمخزن، إلا أنها لم تكن مأمونة الجانب، وكثيراً ما كانت تتآمر على السلطة وتدعم المتمردين، مثلما حدث خلال الثورتين الدرقاوية والتيجانية.

A decorative border surrounds the central text. It features intricate floral and scrollwork patterns at the corners and midpoints. At the top and bottom center, and on the left and right sides, there are stylized calligraphic elements that resemble hands holding pens or quills, connected by dashed lines.

الملاحق



الملحق رقم 1: خريطة توضيحية للمنطقة الغربية الوهرانية التي شهدت الصراع العثماني الإسباني، أنظر: بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 210.



بمدينة وهران خلال الاحتلال الإسباني، أنظر: بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص234.

319



الملحق رقم5: وثيقة تبرز أسماء الضباط والقادة المشاركين في الحملة العسكرية على وهران 1732م، أنظر: العيايدة آمنة فاطمة الزهراء وبوحمشوش نعيمة، الاحتلال الاسباني الثاني لمدينة وهران من خلال وثائق الأرشيف الاسباني-مرسوم الملك فيليب الخامس حول الحملة على مدينة وهران 1732م أنموذجا، مجلة المعيار، مج29، ع1، 2024، ص540.



الملحق رقم 6: صورة توضح عملية حث الأرض بالمحراث الخشبي التقليدي المستعمل خلال العهد العثماني، أنظر أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، 1956، ص115.



323

ع

علم الملاحم في الفلاحة ومن الله تعالى استمد العناية
والتوفيق وابتدئ يهديني الحاقوم الطريق **الباب**
الاول في معرفة الاراضي اعلم ان الارض الطيبة هي
الحارة الرطبة وسواد الارض دليل على الحرارة فان
الارض السوداء تحمل الامطار اكثر من غيرها ثم الارض
البنفسجية اللون اذا كانت متفشيقة قانية يجود بها
الشجر كثير ثم الارض الحمراء ثم الصخرية وابتدئ يهديني
البيضاء والحاجة الى رطوبة الارض ورسمها وانتفا
اكثر من الحاجة الى حرها **واعلم** ان الشمس والهوى
يصلحان الارض ولذلك تغلب الارض اذا اريد
انتشاء الغراس فيها وهوان ياخذ ما كانت تلوحج الارض
من ترابها الذي اسرت فيه الشمس والهواء فيجعل
اسفل الارض الحفرة ليظهر اشرع الجميل مما اكتسب
من الشمس والهواء في صول الاستحار
وعروقها فربح جعلها ويغني بحدارته وطوبته
والتراب الذي يخرج من اعماق الارض ومن الانبار
والمطامر لا ينبت اول عام حتى تطلع الشمس
ويلطف اجزائه ويكتسب من حرارتها لان التراب
طعم بارد يابس ولولا تسخينه بالشمس وتلطيه
بالمطر لم ينشأ به ثبات البتة **واراضي** الجزائر
طيبة لمكان الحماة التي فيها يسوق اليها ما يتفكر

CS Scanné avec CamScanner

الملحق رقم 8: وثيقة تبرز ممارسة السكان للزراعة في الجزائر خلال العهد العثماني، أنظر:
النابلسي، المصدر السابق، الورقة 4.

لا ينبغي الوتد والملح منها ويركب الذي في الإبنى وعكسه
ويركب في اليطم واللون وهو صحيح **ولا** يوافقه السقي كلبه
والعمارة قات ذلك يبطله ويبقت عروقه وأصله من تركيب
اللون على الحبة الخضراء **والبنديق** كالقستق في جميع ما ذكر
من الغراس يسائر أنواعه **وقيل** أن العقرب يهرب منه
واللون يجب الأرض الرضوة ويكبر قوتها والمجازر خير راحة
ويغرس في الجبال لأنه يجب البرودة وفي الرمل ويغرس
حببات ينقع في مرسجيت ميلول كثير الماء ثلاثة أيام
ثم يخرج ويوضع كل واحدة في حفرة ينهار تراب وجه الأرض
وأذنابها حائل الأرض على التراب المذكور ويلقى الذيل
المخلوط بالتراب عليها في عمق سبر يدعامة قاعة يصعد
عليها ولا يطير اللون تحت الأرض أكثر من أربعة أصابع
وأنه حذر أكثر لم يثبت **وإذا** تنقع حبة ثلاثة أيام قبل غرسه
في ماء وعسل حلاطه ويجعل طرف الحبة الرقيق المحدد
وان عمل في كل حفرة ثلاث حببات فلا يابس **وينقل** بعد
عام الحواض ثم ينقل بعد عامين إلى محل غرسه يعرفها
كلها ولا عس يجد يدوان ثم يتغلغلا حسب ويغرس
أوتار أعلى مهاب السواقي ويزرع أعصانا منه وسط النخلة
وقد تنزع قضبانها باليد جذيا وتغرس الخلوفا النابتة
منه بأصولها ويغرس نقله في الخريف لا في الربيع وصيه
يزرع فيها **واللون** يورق ويظهر قبل الاستجار كلها وأذا

د ب

Scanné avec CamScanner

الملحق رقم 10: وثيقة تبرز أنواع الأشجار و نوع التربة التي تناسبها في الجزائر خلال العهد
العثماني، أنظر: النابلسي، المصدر السابق، الورقة 29.

لعنهم الله واخزاهم واخلا الارض منهم ومسكنهم حال انحصارهم بالمسلمين
بالاودية التي بساحة وهران حذو البرج الاحمر اسفل خنق النطاح
وكانت لهم زواريق يسافرون فيها من مدشهم لوهران اذا اشتد عليهم
لامر وسدت عليهم الطرق البرية يحملون فيها للاسبانيين ساير الخضر
ونحوها وكان الاسبانيون لا ينفطعون عنهم في البحر لاخذ ما يعتفرون اليه
من عندهم وكان من الكرشتليين بعض لا عين للنواحي الشرفية
والقبليّة ومن جملة جند الاسبانيين الذين بوهران من الاعراب
شافع وهم بطن من بطون بني عامر التي بالمغرب وذلك أن بطون
بني عامر بن زغبة بن ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة
ابن هوازن بن منصور بن عكرمة بن يزيد بن حص بن فيس بن
غيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ثلاثة لا غير هؤلاء بنو عامرهم
اخوة بني سعد بن بكر بن هوازن الذين استرضع فيهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم البطن الاول هم شافع بن عامر بن زغبة الهلالي ويطونهم
اربعة وهم الشفارة نسبة لشفرة بن شافع بن عامر بن زغبة واوادم
مطرب ويقال لهم المطارب نسبة لمطرب بن شافع بن عامر بن زغبة
واوادم صالح ويقال لهم الصواحية نسبة لصالح بن شافع بن عامر بن
زغبة واوادم بالغ نسبة لبالح بن شافع بن عامر بن زغبة الهلالي
البطن الثاني هم بنو يعقوب الذين تنسب اليهم ارض اليعقوبية
وطونهم خمسة عشروهم ذوي منيع ويقال لهم اولاد منيع نسبة كجدهم
منيع بن يعقوب بن عامر بن زغبة والكرائش نسبة كجدهم كريش
ابن عباد بن منيع بن يعقوب بن عامر بن زغبة واوادم رداد
ويقال لهم الرد ايدة نسبة كجدهم رداد بن كريش بن عباد بن منيع بن
يعقوب بن عامر بن زغبة واوادم عطا ويقال لهم العطاطبة نسبة
كجدهم عطا بن رداد بن كريش بن عباد بن منيع بن يعقوب بن

CS Scanné avec CamScanner

الملحق رقم 11: وثيقة تبرز تعامل قبيلتي كرشتل و قبيلة شافع أحد فروع قبيلة بني عامر مع

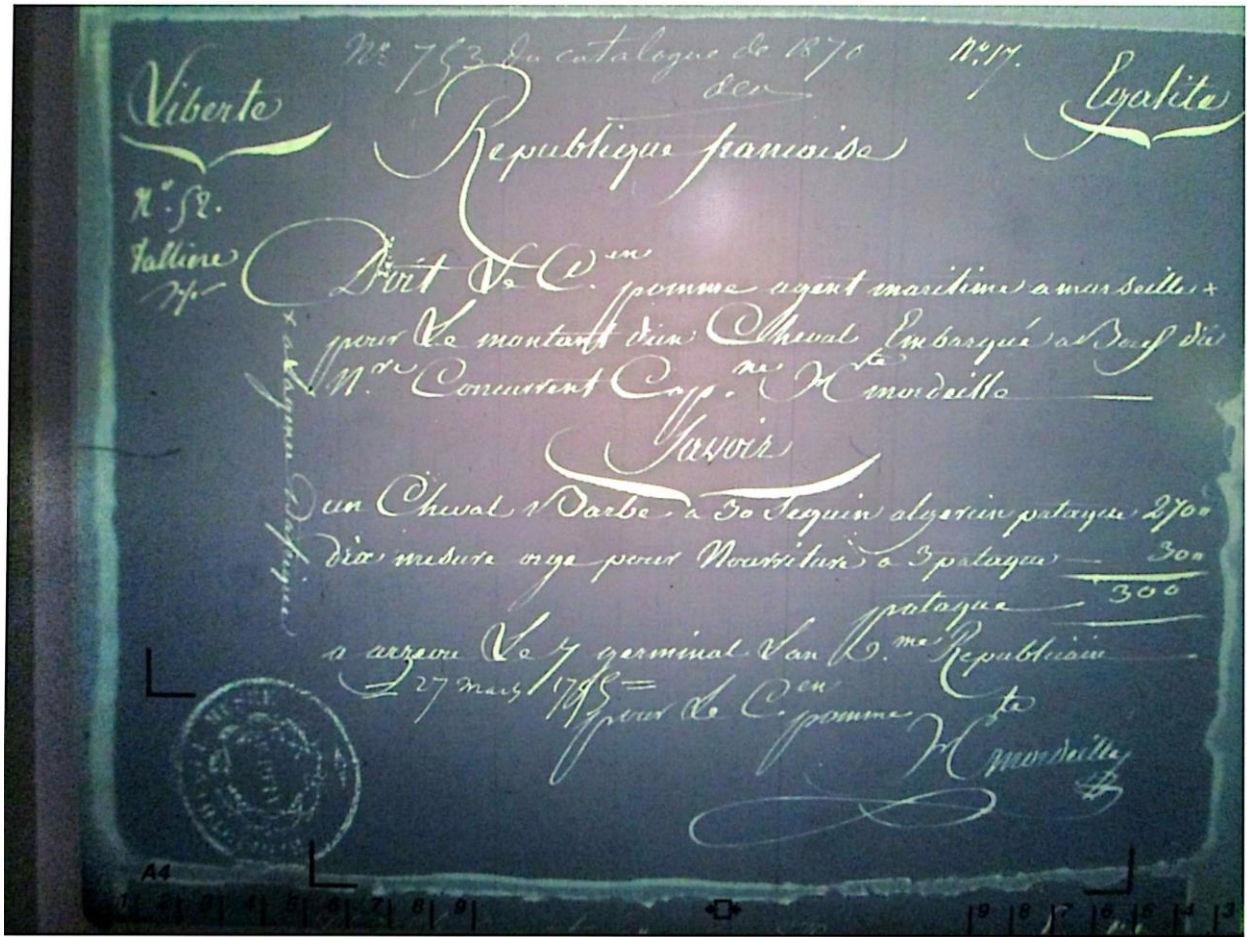
الاحتلال الاسباني في وهران، بالإضافة إلى تناول نسبهما، أنظر: عبد القادر المشرفي،

المصدر السابق، ص 4.

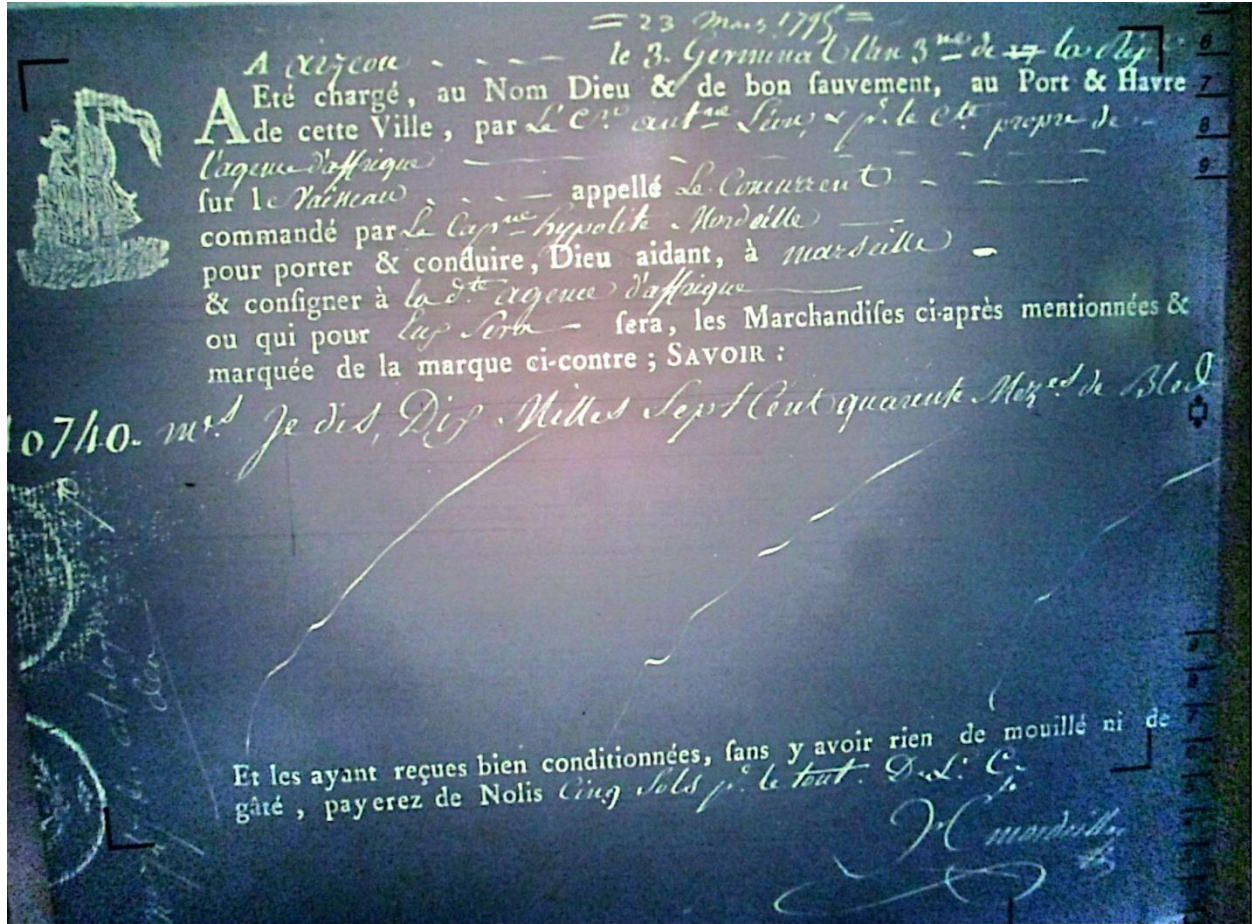
جند لاسبانيين الذين بوهراين من الاعراب بطن من زناقة من مغراوة من اولاد راشد بن محمد بن ثابت بن منديل بن عبد الرحمن بن محمد ابن خير ايضا بن محمد بن خزر بن حصص بن صولات بن وزمار بن صقلاب بن مغراو بن يصيلتين بن مسروفي ويقال له مسرب بن زاكين ويقال له زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا ويقال له زناث يقال لهم كرشتل نسبة لجدهم كرشتل بن محمد بن راشد بن محمد بن ثابت ابن منديل بن عبد الرحمن المغراوى وهم جرفرة في غاية الضعف يبلغون التسعين نواله شانهم عمل البحايرواخنسروالتجارة لا انهم مع ضعف عددهم لهم قوة وشوكة واصل مساكنهم حيث يصب نهر شلب بالبحر الرومى ثم انتقلوا لتمزگران غربى مستغاثهم واستقروا بها امدا مديدا ثم انتقلوا لهم البحر بسيرات ثم جاءوا الى ارض متوعة بسيف البحر بالجوا بها بنى ريان وهم جرفرة من البربر من صنهاجة على الصحيح قد ضعف حالهم وزالت شوكتهم وخدت ناهم بالدولة الزيانية فاجلوه منها وسكنوا بها في السنة الثامنة من الهجرة وبنوا بها مدشرا محصنا بالجبال من البر لا طريق له لا من جهة موعرة وكانت بتلك لارض عيون غدبة منهمرة جاستفروا بها للان وكان شأنهم مع الاسبانيين جلب الاخبار لهم وتغطيس الناس بهم المغاطيس ويقال لهم المغطسون بهذا الاسم هولهم على الكفيفة ولغيرهم على المجاز لعملهم عملهم اقتداء بهم ويعكى انهم غطسوا امامهم الذى يصلي بهم بأن باعوه للاسبانيين غيلة منه وكيفية التغطيس انهم ياتون بدوايهم للدواوير على صبة اخضر المدوسين بالدواوير البايعين للعطرية ومعهم مناطق من الجلود الجلالية فاذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى واذا رأوا فرص في الصغير او الكبير اخذوه وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم وجلوه على دوايهم ومشوا به ليلا لوهران فيبيعونه للاسبانيين وينتفعون بثمنه وهذا دأبهم

CS Scanné avec CamScanner

الملحق رقم 12: وثيقة تبرز تجنيد الإسبان لأحد القبائل الأصلية لوهران، مع ذكر نسبها إلى مؤسس مدينة وهران حسب الكثير من المؤرخين خزر بن حفظ بن صولات المغراوي الزناتي، أنظر: عبد القادر المشرفي، ص 3.

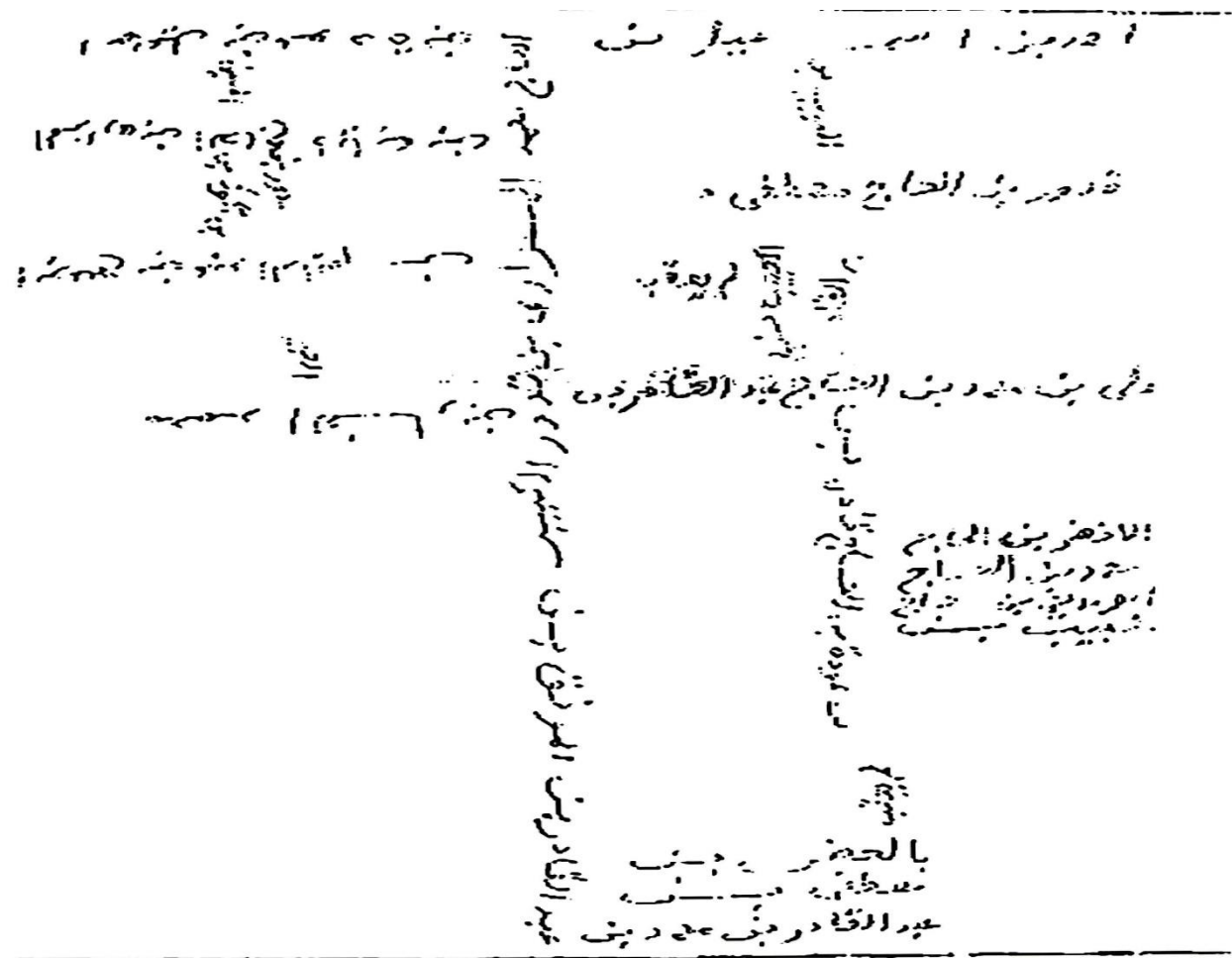


الملحق رقم 13: وثيقة تبرز فاتورة شراء حصان من أحد أسواق بابلك الغرب، وشحنه من ميناء أريزو متوجها نحو مرسيليا بتاريخ 27 مارس 1795م، أنظر: كمال بن صحرابي، المرجع السابق، ص 347.



الملحق رقم 14: وثيقة بتاريخ 23 مارس 1795م، تخص حمولة من القمح وزنها 10740
 ميزورة، تم شحنها من ميناء أرزيو نحو ميناء مرسيليا، لصالح الوكالة الإفريقية، أنظر: كمال
 بن صحراوي، المرجع السابق، ص 346.

الملحق رقم 15: وثيقة تبرز شجرة نسب قبيلة البحايشية أكبر قبائل الدواير في بايلك الغرب خلال العهد العثماني، أنظر: بن عودة المزاري، المصدر السابق، ج 2، ص 281.



الملحق رقم 16: وثيقة تبرز شجرة عائلة المزارى، التي تسلمت العديد من المناصب المهمة خاصة قيادة قبائل شرق البايك، أنظر، بن عودة المزارى، المصدر السابق، ج2، ص296.



ببليوغرافية البحث

القرآن الكريم

المصادر العربية:

- أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان 1830-1855، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
- التلمساني أحمد بن هطال، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الجزائري، تح و تق محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 1969.
- الحاج مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر و جهاده، تح و تق يحيى بوعزيز، دار الغرب الاسلامي، ط1، بيروت، 1995.
- الراشدي ابن سحنون، الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني، تح و تق المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2012.
- الزهار أحمد الشريف، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب اشراف الجزائر، تح و تق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
- الزيان محمد بن يوسف، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق و تع المهدي البوعبدلي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط2، الجزائر، 2007.
- الغريسي الطيب بن مختار، القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، المطبعة الخلدونية التلمسانية، ط1، د ت.
- آف شوبيرغ، الطب الشعبي الجزائري في بداية الإحتلال، تر أبو العيد دودو، مج الأول، دار الأمة، طبعة خاصة، 2009.
- المجاجي عبد الرحمن الفاسي، التيسير والتسهيل في ذكر ما اغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتلويع والتوليع والتصبير، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، الورقة 60.

- المزاري الآغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا إلى
آواخر القرن التاسع عشر، تح يحيى بوعزيز، ج1، دار البصائر للنشر و التوزيع، طبعة
خاصة، الجزائر، 2009.
- المشرفي عبد القادر، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من
الأعراب كبني عامر، تح و تق محمد بن عبد الكريم، دار مكتبة الحياة، دط، د ت.
- المشير دوك دي دumas، الصحراء الجزائرية، تر قندوز عباد فوزية، غرناطة للنشر و
التوزيع، الجزائر، 2013.
- النابلسي عبد الغني، علم الملاحة في علم الفلاحة، مطبعة نهج الصواب، دمشق
1299هـ/1881م،
- الناصرى أبو راس، فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته، تح و تق محمد بن
عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1980.
- الوزان حسن، وصف إفريقيا، ج2، تر محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي،
بيروت، 1983.
- الوهراني مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب و المسافر، تح و تق رابح بونار، الشركة
الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1974.
- أندري برنيان، الجزائر بين الماضي و الحاضر، تر إسطنبولي رابح و منصف عاشور، ديوان
المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- بن زرفة مصطفى، الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية، المكتبة الوطنية، الحامة الجزائر،
المخطوط رقم 2597، ورقة 95.
- حمدان خوجة، المرأة، تق و تعريب و تح محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر و

- التوزيع، ط2، الجزائر، 1982.
- شاوش الحاج محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، إشراف و مراجعة و تح الحاج الغوثي بن احمدان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011.
- عزيز سامح أتر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر محمود علي عامر، ج1، دار النهضة العربية، ط1، لبنان، 1989.
- مارمول كاربخال، إفريقيا، ج2، تر محمد حجي و آخرون، الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1989.
- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح و تق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط2، الجزائر، 1981.
- هاينرش فون مالتيسان، ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، تر أبو العيد دودو، ج2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979.
- وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب و تح و تق إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982.

المصادر باللغة الأجنبية:

- Desfontaines, IR, fragemens d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger fait de 1783 à 1786, Publié par :M.Dureau de la Malle,T2,Paris,1838.
- Derrien.I, Les français à oran depuis 1830 jusqu'à Nos jours,Imp T Nicot,AIX,1886.
- Duval Jules,L'Algérie tableau historique,descriptif et statique,Libraire de I.Hachette et cmie,Imp :De ch Lahure,Paris,1859.
- Enfantin,Colnisation de l'Algérie,Bertrand libraire,Paris,1843.

- Ernest Carette, Du commerce de l'Algérie avec l'Afrique central et les états barbaresques, Imp Du Roi, Paris, 1844.
- Fey Henri Leon, Histoire d'Oran avant, Pendant et après la domination espagnole, Typographie Adolphe Perrie éditeur, Oran, 1858.
- Houdas, Ethnographie de l'Algérie, Maisonneuve frères etch, Leclerc éditeurs, Paris, 1886.
- F. Elie De la primaudaie, Le commerce et la navigation de l'Algérie, Chalhure, Paris, 1861.
- F. Elie De la primaudaie, Le commerce et la navigation de l'Algérie, Chalhure, Paris, 1861.
- Lapène Edouard, Tableau historique de la province d'Oran de puis le départ des Espagnols en 1792 jusqu' à l'élévation D'ABDEL KADER, 1831.
- Larfeul. M, Guide du colon en Algérie, et description des productions de ce beau, Paris, 1848.
- Louis De Baudicour, La colonisation l'Algérie ses Eléments, Chammel aimé, libraire éditeur, Paris, 1856.
- Louis Rinn, Morabuts et khounes, Etude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan libraire éditeur, Alger, 1884.
- Mauroy. M, Précis de l'histoire et du commerce de l'Afrique depuis les temps anciens jusqu' aux temps modernes, 4 édition, imp de Dureegee, Paris, 1852.
- Mercier Ernest, La propriété foncière chez les musulmans d'Algérie Leroux, Paris, 1881.
- Octave Tessier, Algérie, géographie, Histoire, statique, descriptives des villages et hameaux, organisation du tribus, nomenclature des khalifaliks, aghlis et kaidats, Paris, 1864.

-Paradis De Vonture, Alger au 18 siècle, Adolphe Jourdan libraire éditeur, Alger, 1898.

-Rozet.M, Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupé par l'armée française en Afrique, T3, Bertrand libraire, Paris, 1833.

-Tinthoin Robert, L'Oranie segraphie, son histoire, ses centers vitaux ed : Robert, Oran, 1952.

-Tomas Show , Voyage dans la regence d'Alger, traad : Mac carthg, Paris, 1830.

-Walsin Esterhazy, De la domination turque dans l'ancienne regence D'Alger, Librairie de charles Galsslin, Paris, 1840.

المراجع باللغة العربية:

-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري (16م-20م)، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982

-أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، ط3، الجزائر، 1982

-أشنهو عبد اللطيف، تكون التخلف في الجزائر: محاولة لدراسة حدود التنمية الرأس مالية في الجزائر بين عامي 1830-1962، تر نخبه من الأساتذة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 1979

-الأزرق مغنية، نشوء الطبقات في الجزائر، تر سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1980

الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ج3، الجزائر، 1994

- الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها بالمغرب والأندلس، دار القلم للنشر والتوزيع، ط3، الكويت، 1987
- الحربي علي، العصبية القبلية سلوك فردي أم ظاهرة اجتماعية سياسية، أكاديمية الدراسات الإسلامية، ماليزيا
- الحساني مختار، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، 2007
- الزوكة محمد خميس، جغرافية المياه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998
- الزبييري محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984
- سعيدوني ناصر الدين، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ميلادي)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، 2010
- سعيدوني ناصر الدين، الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان أواخر العهد العثماني 1791-1830، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013
- سعيدوني ناصر الدين، دراسات أندلسية: مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي في الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2003
- سعيدوني ناصر الدين، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية الفترة الحديثة، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2003
- سعيدوني ناصر الدين، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984

- سعيدوني ناصر الدين، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014
- سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر الفترة العثمانية 1800-1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979
- سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، ط2، الجزائر، 2009
- العسلي بسام، سلسلة جهاد شعب الجزائر، ج1، دار النفائس، ط3، 1986
- العليوي فايد، القبيلة التكوين في سياق سياسي، المركز الثقافي للكتاب، ط1، المغرب الأقصى، 2018
- العمري عبد الله بن محمد، الزلازل والتفجيرات، موسوعة العمري في علوم الأرض، ط1، الرياض، السعودية، 2022
- عُطاس عائشة، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007
- الميلي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة، بيروت، 1964
- الناقلي عبد العزيز، علم الملاحة في علم الفلاحة، مطبعة نهج الصواب، دمشق، 1881
- باشا محمد، التعاون المغاربي في مجال الموارد المائية وترشيد استغلالها، الجمعية الجغرافية الكويتية، المجلد الثاني، الكويت، 1995
- بزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992

-بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحالة المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981

بن داهة عدة، معسكر عبر التاريخ، دار الخلدونية، ط1، الجزائر، 2005

-بن رقية بن يوسف، شرح قانون المستثمرات الفلاحية، الديوان الوطني للأشغال التربوية، ط1، الجزائر، 2001

-بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1997

-بوحوش القادري إبراهيم، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1997

بورويبة رشيد، وهران فن وثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983

-بوعزيز يحيى، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

بوعزيز يحيى، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، عالم المعرفة للنشر، الجزائر، 2009

بوعزيز يحيى، موضوعات من تاريخ الجزائر، ج1، دار الهدى، الجزائر، 2009

-بوعزيز يحيى، مع تاريخ الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999

-بوعزيز يحيى، مدينة وهران عبر التاريخ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 2009

شارل موريس شربل، الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، ط1، دار الجبل، بيروت، 1998

- جبلي علي، القبيلة والمجتمع، مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات، السعودية
- جغلول عبد القادر، تاريخ الجزائر الحديث: دراسة سوسيولوجية، تر فيصل عباس، دار
الحدثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، بيروت، 1983
- حليمي عبد القادر، جغرافية الجزائر (طبيعية، بشرية، اقتصادية)، المطبعة العربية، ط1،
1968
- حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، ط1، الجزائر،
2008
- شارل روبير أجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، ج1، تر حاج مسعود، دار الرائد للكتاب،
الجزائر، 2007
- شامة سماعيل، النظام القانوني الجزائري للتوجيه العقاري: دراسة وصفية وتحليلية، دار هومه،
الجزائر، 2004
- شرف عبد الحق، العربي بن عبد القادر المشرفي: حياته وآثاره 1895، المؤسسة الوطنية
للفنون المطبعية، ط1، الجزائر، 2011
- صبح محمد، مفهوم القبيلة في النظرية العالمية الثالثة، المركز العالمي للدراسات وأبحاث
الكتاب الأخضر، ط1، طرابلس، ليبيا، 1989
- سويدي محمد، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري: تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغير
في المجتمع الجزائري المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د.ت
- سماتي محفوظ، الأمة الجزائرية: نشأتها وتطورها، تر محمد الصغير بناني وعبد العزيز
بوشعيب، منشورات دار حلب، د.ط، 2007

- صادوق محمد الحاج، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1964
- طريح عبد العزيز شرف، الجغرافيا المناخية والنباتية، دار المعرفة الجامعية، السعودية، 2000
- طالب محمد نجيب، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2002
- علوان محمد، النفحة القدسية في السيرة الأحمدية التيجانية، مطبعة كردستان، ط1، مصر، 1910
- علي أحمد هارون، جغرافية الزراعة، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 2000
- عمري الطاهر، تأثر بنية المجتمع الجزائري بالتهجير والهجرة مع بداية الاحتلال، سلسلة أعمال ملتقيات مخبر الدراسات حول الرحلة والهجرة، قسنطينة، 2010
- فكاير عبد القادر، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره 1505-1792، دار هوم، ط1، الجزائر، 2012
- محمد علي عامر ومحمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى وليبيا)، ج2، منشورات جامعة دمشق، دمشق
- الطاهر جنان، مازونة عاصمة الظهرة: ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، جمعية الظهرة للفن والسياحة والآثار، الجزائر
- المدني أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791: سيرته، حروبه، أعماله، نظام الحياة، الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986

-المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الشركة

الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

-المدني أحمد توفيق، هذه هي الجزائر، مكتبة دار النهضة المصرية، القاهرة، 1956.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Andri Noshi, Enquete sur le niveau de la population rurales constinoises de la concuete jusqu'en 1919, D'histoire economique et social, P, U, f, Paris, 1961.

-Aramburu Den-Josephe, De oran et l'ouest Algérien au 18siécle, Présentation et traduction de korso et eplaza, Alger, 1978.

-Belhamissi Molay, Histoire de Mostaganem (des origines à l'occpation français), S, N, F, D. Alger, 1976.

-Bodin Marcel, Tradition indigenes de Mostaganem itineraire historique et legendaire de Mostaganement de sa région, Oran, 1937.

-Dervin. G, L'Algérie son agriculture, son commerce son industrie, sa colonisation, son avenir, Epernay, Imp Du Nord-Est, 1902.

-Djilali sari, Les villes précoloniales de l'Algérie accidentale (Nedroma-Mazouna-Kalaa), S. N. E. D, Alger, 1978.

-Emile Larcher, Traité élémentaire de légistion Algérienne, T3, Adolphe Jourdan, Alger, 1911.

-Garett. E, Origine et migration des principales tribus de l'Algérie, Paris, sons date.

-F. Elie De la primaudaie, Le commerce et la navigation de l'Algérie, chalhure, Paris, 1861. -Jules Varlet, Les céréales d'Algérie De Giralt (Alger-Mustapha), 1900.

-Laugier De Tassy, Histoire du Royaume d'Alger, Amsterdam, Hanri du sauzet, sans date.

-Youcef Loukil, Mazouna ancienne capitale du dahra, Imp Algérienne, alger.

المقالات باللغة العربية:

- أحمد قاسم، الكتاتيب في البلاد التونسية، المجلة التاريخية المغاربية، ع89-90، منشورات التميمي للبحث العلمي و المعلومات، تونس، 1998.
- البوعبدلي المهدي، الرباط و الفدا في وهران و القبائل الكبرى، مجلة محكمة نصف سنوية تصدر عن وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، ع6، 2021.
- العيادة آمنة فاطمة الزهراء وبوحمشوش نعيمة، الاحتلال الإسباني لمدينة وهران من خلال وثائق الأرشيف الإسباني-مرسوم الملك فليب الخامس حول الحملة على مدينة وهران 1732م أنموذجا، مجلة المعيار، مج29، ع1، 2024.
- العيادة آمنة فاطمة الزهراء و بوحمشوش نعيمة، المشروع الجهادي لبايات بايلك الغرب في تحرير وهران -الباي مصطفى بوشلاغم أنموذجا-، مجلة البحوث التاريخية، مج8، ع1، 2024.
- العبد فارس، الأوضاع الاقتصادية في بايلك الغرب الجزائري آواخر العهد العثماني، مجلة الساورة للدراسات الانسانية و الاجتماعية، ع5، 2017.
- بكري عبد القادر، الإسهامات الثقافية و الكتابات التاريخية لعلماء الجزائر العثمانية، أبو راس الناصري أنموذجا، المجلة الخلدونية للعلوم الانسانية و الاجتماعية، ع6، 2013.
- بلجوزي بوعبدالله، المراحل التاريخية لمدينة مستغانم من الفتح الإسلامي إلى القرن 9هـ /15م، مجلة منبر التراث الأثري، مج1، ع1، 2012.
- بلجوزي بوعبد الله، ضريح الباي مصطفى لحمر بمستغانم، مجلة منبر التراث الأثري، مج3، ع1، 2014.

- بلعربي خالد، الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مجلة كان التاريخية، ع6، 2009.
- بلعقون محمد الصالح، نظام الأراضي الفلاحية في عهد الدولة العثمانية بالجزائر (1519-1830)، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية و القانونية، مج 6، ع3، 2022.
- بن إبراهيم هاشمي، القبائل المتعاونة مع الاحتلال الإسباني، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية و التاريخية، مج8، ع1، الجزائر، 2017.
- بن جدو عبد الفتاح، نظرة على الصناعة و الحرف بالجزائر خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية الجزائرية، مج 6، ع1، 2022.
- بن حليلة حدي، العمارة الدفاعية بمدينة وهران خلال الحكم الإسباني و العثماني، مجلة العلوم الانسانية، مج 21، ع2، 2021.
- بن حمو محمد، تاريخ مدينة مليانة و حمامها العثماني، مجلة منبر التراث الأثري، مج 10، ع1، 2021.
- بن عتو بلبروات، الباي محمد الكبير باي وهران 1779-1797 حياته و سيرته، مجلة عصور، ع3، 2003.
- بن عتو بلبروات، التحرير الثاني لوهران و المرسى الكبير عام 1792، مجلة عصور، ع4 و 5، 2003.
- بن عراج رياض، المشروع الثقافي والديني للباي محمد بن عثمان الكبير في ضوء الكتابات المحلية (1779-1797)، مجلة أنثربولوجية الأديان، مج19، ع2، 2023.
- بن قاصير عبد الرؤوف، الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر و نتائجها (1775-1792)، مجلة المعيار، مج 27، ع4، 2023.

-بوتشيشة علي، المنشآت المعمارية المدنية للباي مصطفى بوشلاغم المسراتي بمدينة وهران،
مجلة الدراسات الأثرية، مج 20، ع1، 2022.

-بوحوص شهناز، مدينة ندرومة الجزائرية، دراسة تاريخية، المجلة الجزائرية للبحوث و
الدراسات التاريخية المتوسطة، مج 9، ع1، 2023.

-بوحميده عبد الكريم، نشأة و تطور نظام إدارة الأوقاف في الجزائر أثناء الحكم العثماني، د
مج، د ع، د ت.

-بونقاب مختار، انتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري 1802-1816، مجلة المواقف،
مج 3، ع1، 2008.

-بوغفالة ودان، الأوقاف بالناحية الوهرانية أوقاف مليانة نموذجا، دراسات إنسانية، عدد خاص،
ماي 2001.

-بوغفالة ودان و جميلة مشرفي، الأسواق في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني
(1519-1830)، مجلة الناصرية، مج 8، ع 1، 2017.

-حاروش نور الدين، إستراتيجية إدارة المياه في الجزائر، دفاتر السياسة و القانون، ع7.
-حمدادو بن عمر، واقع الحياة الثقافية و الفكرية في أواخر العهد العثماني ببائلك الغرب،
حوليات التاريخ و الجغرافيا، مج 4، ع7، 2013.

-خضير عقبة، النشاط الاقتصادي بالجزائر في العهد العثماني ما بين القرنين 17-19م،
دراسة تاريخية، مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية، ع6، د ت.

-خلف الله زكرياء و محمد بن جبور، التجارة الداخلية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد
العثماني (1563-1830)، مجلة عصور، مج 1، ع 2، 2022.

- دباب بومدين، الأوضاع الإدارية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18، مجلة النص، طبعة خاصة، 2016.
- دباب بومدين، أضواء على النشاط التجاري في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18، مجلة حقول معرفية للعلوم الاجتماعية و الانسانية، ع2، 2020.
- دحمانى توفيق، دراسة اجتماعية لتيهت في آواخر العهد العثماني، مجلة الخلدونية، عدد خاص، 2009.
- دين قادة، الحدود الجزائرية المغربية عبر التاريخ، مجلة عصور جديدة، مج 7، ع27، 2018.
- رفاف شهرزاد، القبيلة خلال العهد العثماني "ديناميكية الخضوع و التمرد، نموذج قبائل بايلك الغرب"، مجلة المعيار، مج 25، ع53، 2021.
- رقاد سعدية، المؤسسات العلمية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني (1700-1830)، مجلة عصور جديدة، مج 8، ع2، 2018.
- زيرار رضوان و بن داود نصر الدين، الدور الاقتصادي لمدينة هنين خلال العهد الزياني، المجلة الجزائرية للبحوث و الدراسات التاريخية المتوسطة، مج 8، ع3، 2022.
- زيوش إسماعيل، جوانب من السياسة الدينية للباي محمد الكبير (1779-1797)، مجلة دراسات و أبحاث، مج12، ع1، 2020.
- سعيدوني ناصر الدين، دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالجزائر، مجلة الأصالة، ع32، الجزائر، 1976.
- سيدهم فاطمة الزهراء، موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر، دورية كان التاريخية، ع13، 2011.

- شباح محمد، امتيازات العلماء و الأولياء في بايلك الغرب الجزائري خلال عهد الدايات 1671-1830، مجلة الفكر المتوسطي، مج 12، ع1، 2023.
- صادوق الحاج، الزعامات القبلية في منطقة تيارت و فعاليتها مع الوجود العثماني، مجلة العبر للدراسات التاريخية و الأثرية في شمال إفريقيا، ع2.
- طيان ساحن شريفة، نحاسيات تلمسان في العهد العثماني (القرنان 18-19) من خلال مجموعة المتحف الوطني للفنون و التقاليد الشعبية، دراسات تراثية، مج 6، ع1، 2012.
- طاعة سعد، الدور العلمي لزوايا و مدارس و مساجد معسكر خلال الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، المجلة الجزائرية للبحوث و الدراسات التاريخية، مج5، ع10.
- عقيب محمد السعيد و عمر مقدم، قبائل المخزن و دورها في علاقة السلطة العثمانية بالسكان، إيالة الجزائر، مجلة الباحث، مج 9، ع2، 2018.
- عليوان أسعيد، أوقاف الجزائر في العهد العثماني و مساهمتها الاجتماعية و الثقافية، مجلة الإحياء، ع12، د ت.
- غطاس عائشة، أوضاع الجزائر المعاشية و الصحية آواخر العهد العثماني المجاعات و الأوبئة 1787-1830، المجلة التاريخية للدراسات العثمانية، ع17 و 18، 1998.
- كعوان فارس، المصطلحات الإدارية العثمانية: مصطلحات الباشا، الدنوش، البايك، كنماذج، مدارات تاريخية، مج 1، 2019.
- كرطالي أمين، زلزال وهران سنة 1205هـ / 1790م و مدى تأثيره في تحرير مدينة وهران، مجلة المقدمة للدراسات الانسانية و الاجتماعية، مج 7، ع1، 2022.
- لعباسي محمد، تعيينات آل الكتروسي في المناصب الدينية بمدينة مازونة على العهد العثماني من خلال الوثائق التاريخية، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع13، 2018.

- لعرج محمود عبد العزيز، مدينة هنين تاريخها وآثارها، الملتقى الدولي السادس حول التراث العلمي و الثقافي لمدينة ندرومة و ضواحيها، 2006.
- مجدوب صافي و مواسيم يونس، دراسة لرسالة الباي حسن لقائد قلعة بني راشد 1823، مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية و الانسانية، مج 10، ع1، 2024.
- مخفي مختار، السلطات المركزية بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، المجلة الجزائرية للبحوث و الدراسات التاريخية المتوسطية، مج 8، ع3، 2022.
- موسى هواري، استخدام الحيوانات في الزراعة ببلاد المغرب خلال الفترة الإسلامية، مجلة الدراسات التاريخية، مج 13، ع1، 2012.
- موسى هواري، بلدان المغرب العربي، دراسة جغرافية، مجلة رؤى للأبحاث التاريخية و الدراسات المتوسطية، مج 1، ع 3، 2021.
- يعقوب خديجة، مدينة وهران في القرن الثامن عشر من خلال كتابات المؤرخ التونسي محمد الصغير بن يوسف، مجلة عصور جديدة، مج8، ع2، 2018.

المقالات باللغة الأجنبية:

- Arthur Girault, Principes de colonisation et de legalisation colonial, Librairie de la société du Rcueil Général de Arrètes,T2, Paris,1904.
- Auguste Moulieras, Txe arabe et traduction français d'une lettre écrite par HASEN 33^{eme} et dernier bey d'oran à Ali caid de Miliana, Bulletin de la société des geographie et d'archeologie de la province d'oran,1983.
- Bache P.E, Origine et constitution de la propriété arabe en Algérie avant 1830, In R.A.C, N°3,Paris,1860.
- Bensaid Sahraoui,Aida Gasmi,Imene Ben Hafeid, Les forts d'Algérie de sésarée la romaine à ce jour,Forets Méditerranée,N°3, 2006.

- Bouyer Pierre, La conquête de l'Algérie, Paris, 1957.
- Ernest Mercier, « La propriété en Maghreb selon la doctrine de Malek », Journal Asiatique, Juillet-Aout, 1894.
- Feraud Charles, Ephémérides d'un secrétaire officiel sous la domination turque à Alger de 1775 à 1805, In Revue Africaine, 1874.
- Feraud Charles, L'exploitation de la Kabylie, R.A, N°12, Alger, 1886.
- George Marcais, Recherche d'archéologie musulmane en Algérie, Arnolet Imp librairie, Vol 69, Constantine Algérie, 1928.
- Goguos.M, Notice sur le bey d'Mohammed Elkebir, In R.A, vol N°1, Alger, 1856.
- Guy Dusigneau, L'évolution de la sédentarisation dans les hautes plaines de l'ouest Algérien, Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée, N°45, 1987.
- Jean Depois, « La répartition de la population en Algérie », Annales sociétés, Civilisation 15^e année, N°5, 1960.
- Julienne.M, « La RIR'A de la subdivision de Miliana », Revue Africaine, Vol 1, 1856.
- Lepinasse, Notice sur le Hachem de Mascara, In R.A, T 21, Alger, 1877.
- Louis Rinn, Le Royaume d'Alger sous le dernier dey, Revue africaine, N°3, 1899.

- Marcel Emérit, La situation économique de la régence d’Alger, In IH, N°2, Paris, 1952.
- Marcel Emérit, « Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié XIX siècle », Annales economies sociétés civilisation 21^e année, N°1, 1966.
- Richard Lawaless, L’évolution du peuplement, de l’habitat et des paysages agraires du Maghreb, Annales de géographie, N°446, T81, 1972.
- Robert Estoublon et Adolphe Lefébure, Code de l’Algérie annoté, (1830–1895), Adolphe Jourdan Librairie, T1, Alger, 1896.
- Sandoval, Les inscriptions d’Oran et de Mers–Elkbir, Revue Africaine, N°16, 1872.
- Stephane Gsell, Atlas, Archeologique de l’Algérie, T1, 2^e édition, Alger, 1997.
- Teyeb Chantouf, « Cultures, technique et sociétés en Algérie (XIX^e – XX^e siècles), Analyse du changement historique », Tiers–Monde, T21, N°83, 1980.
- Thedenat, Coup d’œil sur la régence d’Alger, In A.M.A.E, Mémoires et Documents, Algérie, Vol10, Alger.

- Tinthoin.R, La plaine de Relizzane avant l'irrigation,In B.S.G.A.O, N°773, Oran,1950.
- Tinthoin.R,Le tapis vegetal du tell Oranais sa modification par l'homme,Revue Africaine,N°79, 1936.
- Warnier et Carette, Description et division de l'Algérie,Librairie De L.Hachette,Paris,1847.
- Yacono Xavier, « La Régence d'Alger en1830 d'après des commission de1833-1834 »,Revue de l'occident musulman et de la méditerranée,N°2, 1966.

الأطاريح والرسائل الأكاديمية:

- التومي طاهر، علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520-1792، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس،2019.
- الزين محمد،العمارة الدينية الإسلامية في منطقة ندرومة من خلال نموذجين، الجامع الكبير وزاوية سيدي محمد بن عمر،مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة تلمسان،2003.
- الواليش فتيحة،الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر،2010.
- إبراهيمي نادية، الوقف وعلاقته بنظام الأموال في القانون الجزائري،رسالة ماجستير في الحقوق، جامعة الجزائر،1996.

- بحري أحمد، حاضرة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث1500-
1900، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2013.
- بركات إسماعيل، دراسة وتحقيق الدرر المكنونة في نوازل مازونة من مسائل الطهارة إلى
مسألة النزاع بين طلبة غرناطة، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، 2010.
- بن صحراوي كمال، الأوضاع في الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني،
أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2013.
- بن عبد المؤمن بهية، الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع
عشر (18م-19م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2012.
- بن علي أبو بكر، الثورة التحريرية في منطقة الساوره 1954-1962، مذكرة ماجستير،
المركز الجامعي بشار، 2007.
- بوجلال قدور، العلم والعلماء في بايلك الغرب، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،
جامعة وهران، 2009.
- بوجلال قدور، مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بايلك الغرب فترة
الدايات 1671-1830.
- بوسعيد عبد الرحمن، الأوقاف والتنمية الاقتصادية والاجتماعية بالجزائر، مذكرة ماجستير
تخصص الدين والمجتمع، جامعة وهران، 2012.
- بوسليم صالح، المؤسسات الثقافية بإقليم توات دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية (أثناء
القرنين 12و13هـ/18و19م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي
بلعباس، 2008.

- بوضيف عبد الرزاق، إدارة أموال الوقف وسبل إستثماره في الفقه الإسلامي والقانون الجزائري- دراسة مقارنة-، أطروحة دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2006.
- بومعزة سهام، الزراعة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني (924هـ-1246هـ/1518م-1830م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2019-2020.
- حيمر صالح، السياسة العقارية الفرنسية في الجزائر (1830-1930)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2014.
- دحدوح عبد القادر، مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني دراسة عمرانية أثرية، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الجزائر، 2010.
- دحماني توفيق، الضرائب في الجزائر (1206هـ-1282هـ/1792م-1865م) دراسة تاريخية مقارنة، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2008.
- دحماني توفيق، النظام الضريبي ببإيلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2004.
- دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي، قسم الآداب، جامعة بسكرة، 2015.
- دغموش كاميلية، السلطة والمجتمع في بإيلك الغرب أواخر العهد العثماني (1792م-1830)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2020.
- دغموش كاميلية، قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الإسباني والسلطة العثمانية (1509-1792)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2014.

- رحيم فتيحة، النافورات بالعمائر الدينية والمدنية بالجزائر خلال العهد العثماني-دراسة أثرية فنية-، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2، 2011.
- رواحنة عبد الحكيم، السياسة الاقتصادية الفرنسية في الجزائر 1870-1930، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2014.
- سعودي يمين، الحياة الأدبية بقسنطينة خلال الفترة العثمانية، رسالة ماجستير في الأدب العربي، جامعة قسنطينة، 2006.
- شكري معمر رشيدة، العلماء و السلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات 1671-1830، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2006.
- شويتم أرزقي، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2007.
- صغيري سفيان، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر (1671-1830)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة باتنة، 2012.
- طالي معمر سميرة، القوى المحلية في بايلك الغرب الجزائري (1206هـ-1246هـ/1792م-1831م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2010.
- عطاشي عيسى، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيق في الجزائر لفرومنتين" نموذجاً، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2006.
- عليو محمد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة معسكر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر 1701-1830، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2009.

- فلاح سفيان، الأوبئة والأمراض في بايلك الغرب الجزائري من خلال المصادر المحلية والأوروبية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2022.
- قراوي نادية، دور الريف في الغرب الجزائري في مسار الثورة التحريرية 1954-1958، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2011.
- قشاعي فلة موساوي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2004.
- لزغم فوزية، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2014.
- مسعودي فتحة، الكوارث الطبيعية خلال القرنين 18م و 19م بين التأثيرات السياسية والاجتماعية، أطروحة دكتوراه، جامعة الشلف، 2024.
- مشرفي جميلة، الأسواق في بايلك الغرب خلال عهد الدايات (1671-1830)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2018.
- منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في الجزائر، بحث أنثروبولوجي في المجال السياسي التيهرتي، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2010.
- موسى هوارى، تقنيات الزراعة ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين (من القرن 1هـ -7م إلى القرن 7هـ -13م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر 2، 2016.
- ميسوم ميلود، مدرسة مازونة-دراسة تاريخية فنية-، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2003.



فهرس المحتويات

الصفحة	عنوان البحث: القبيلة والسلطة في بايلك الغرب خلال عهد الدايات (1671-1831م)
	إهداء
	شكر وتقدير
	قائمة المختصرات
12-1	مقدمة
13-72	❖ الفصل الأول: بايلك الغرب خلال عهد الدايات 1671-1830م "المجال وتنظيمه"
14	تمهيد
15	➤ المبحث الأول: الإطار التاريخي والجغرافي لبايلك الغرب
15	أولاً - الإطار التاريخي لبايلك الغرب
19	ثانياً - الإطار الجغرافي لبايلك الغرب
24	أ - الإقليم الساحلي
25	ب - إقليم الهضاب العليا
25	ج - الإقليم الجنوبي

26	➤ المبحث الثاني: التنظيم الإداري في بابك الغرب خلال عهد الدايات
29	أولاً- البابي
32	ثانياً- ديوان البابك
32	1- خليفة الشرق
33	2- خليفة الكرسي
33	3- خوجة الخيل
34	4- الخزندار(الباش خزناسي)
34	5- شيخ البلد
35	6- الباش كاتب
35	7- آغا الزمالة
35	8- رئيس حرس البابي الخاص
36	9- قائد المدينة
36	ثالثاً- التنظيم الإداري في الأرياف
37	1- قائد آغا
37	2- قائد كبير
37	3- القائد
38	4- شيخ القبيلة.

39	➤ المبحث الثالث: الحواضر الكبرى في بايلك الغرب.
39	1- مازونة
40	2_ معسكر
41	3- وهران
43	4- تلمسان
44	5_ مستغانم
46	6- تيهرت
47	7- ندرومة
48	8- هنين
50	9- مليانة
52	➤ المبحث الرابع: بايات بايلك الغرب خلال عهد الدايات.
52	1-الباي محمد بن عيسى.
53	2-الباي شعبان الزناقي.
54	3-الباي مصطفى بوشلاغم المسراتي.
55	4-الباي يوسف بن مصطفى المسراتي.
56	5-الباي مصطفى الأحمر المسراتي.
56	6-الباي محمد بوطالب المحاجي المسراتي.
57	7-الباي مصطفى الملقب بقائد الذهب المسراتي.
57	8-الباي محمد العجمي.
57	9-الباي عثمان بن إبراهيم "عصمان".
58	10- الباي حسن.

59	11- الباي إبراهيم الملياني.
59	12- الباي الحاج خليل.
60	13- الباي محمد بن عثمان الكبير (الكحل).
63	14- الباي عثمان بن محمد الكبير.
64	15- الباي مصطفى المنزالي.
65	16- الباي محمد المقلش.
67	17- الباي مصطفى المنزالي (ولاية ثانية).
67	18- الباي بوكابوس.
69	19- الباي على قارة باغلي.
70	20- الباي حسن بن موسى الباهي.
72	خلاصة الفصل
-73	❖ الفصل الثاني: قبائل بايلك الغرب وعلاقتها بالسلطة خلال
113	عهد الدايات.
74	تمهيد
75	➤ المبحث الأول: التشكيلات القبلية في بايلك الغرب
75	أولاً- مفهوم القبيلة
78	ثانياً- نظرة عامة حول قبائل بايلك الغرب
82	➤ المبحث الثاني: قبائل المخزن ومناطق انتشارها
82	أولاً: مفهوم القبيلة المخزنية
85	ثانياً: أبرز القبائل المخزنية في بايلك الغرب.

85	1- قبيلة الدواير
87	2- قبيلة الزمالة
89	3- قبيلة الغرابية
90	4- قبيلة الحشم
92	5- قبيلة البرجية
93	6- قبيلة المكاحلية
93	7- قبيلة أولاد خليف
94	8- قبيلة مجاهر
94	ثالثا- مناطق انتشار قبائل المخزن في بايلك الغرب.
101	➤ المبحث الثالث: قبائل الرعية في بايلك الغرب وتقسيمها الإداري.
101	أولا: قبائل الرعية في بايلك الغرب ومناطق انتشارها
103	ثانيا: التقسيم الإداري لقبائل الرعية
103	1- رعية الباي
104	2- رعية الخليفة
105	3- رعية قائد الجندل
105	4- رعية فليقة
106	5- رعية نواحي تلمسان

106	6- رعية اليعقوبية
108	➤ المبحث الرابع: القبائل الحليفة والقبائل المستقلة ومناطق انتشارها في بايلك الغرب.
108	أولا- القبائل الحليفة.
109	ثانيا- القبائل المستقلة.
112	- خلاصة الفصل.
114 - 192	❖ الفصل الثالث: النشاط الاقتصادي لقبائل بايلك الغرب وأثره في تحديد العلاقة مع السلطة.
115	تمهيد
116	➤ المبحث الأول: ملكية القبائل للأرض وموقف السلطة منها.
119	أولا- الملكيات الجماعية.
119	1-أراضي البايك.
128	2-أراضي العرش.
130	3-أراضي الوقف.
133	4-أراضي الموات.
134	ثانيا - الأراضي ذات الملكيات الفردية (الخاصة).
137	➤ المبحث الثاني: النشاط الزراعي لقبائل بايلك الغرب.

141	أولاً - الأنظمة الفلاحية السائدة
142	ثانياً - الأدوات والوسائل المستخدمة في الزراعة
143	1- المحراث
144	2- المنجل
144	3- الفأس
145	4- الأسمدة
146	5- المطامير
146	6- الحيوانات المستخدمة.
147	7- السقاية.
150	ثالثاً - المنتجات الزراعية.
151	1- إنتاج الحبوب.
157	2- منتجات الخضر والبقول.
159	3- الأشجار المثمرة والثروة الغابية.
167	رابعاً - الثروة الحيوانية والنشاط الرعوي للقبائل في بايلك الغرب.
171	➤ المبحث الثالث: النشاط الصناعي والحرفي للقبائل بايلك الغرب.
178	➤ المبحث الرابع: النشاط التجاري للقبائل بايلك الغرب.
179	أولاً - شبكة الطرق في بايلك الغرب.

182	ثانيا - المبادلات التجارية.
192	- خلاصة الفصل.
193 - 248	❖ الفصل الرابع: الأوضاع الاجتماعية والثقافية لقبائل بايلك الغرب وموقف السلطة منها.
194	تمهيد
195	➤ المبحث الأول: الأوضاع الاجتماعية لقبائل بايلك الغرب.
195	أولا- الكوارث الطبيعية.
195	1- القحط والمجاعات.
202	2- الفيضانات.
204	3- الجراد.
206	4- الزلازل.
208	ثانيا - الأوبئة والأمراض.
216	➤ المبحث الثاني: الأوضاع الثقافية لقبائل بايلك الغرب.
216	أولا- المؤسسات التعليمية.
217	1- المساجد.
220	2- الزوايا.

226	3- الرباطات.
228	4- المدارس.
232	5- الكتاتيب.
234	5- المكتبات
239	ثانيا- العلماء في بايلك الغرب وعلاقتهم بالسلطة.
246	- خلاصة الفصل.
249	❖ الفصل الخامس: دور القبائل في توجيه السياسة العامة في بايلك
-	الغرب خلال عهد الدايات.
310	
250	تمهيد
251	➤المبحث الأول: دور قبائل المخزن في الجباية
262	➤المبحث الثاني: دور القبائل في تحرير وهران الأول والثاني
262	أولا- تحرير وهران الأول 1708م
270	ثانيا- تحرير وهران الثاني 1792م
281	➤ المبحث الثالث: الثورات الصوفية(الدرقاوية والتيجانية) وموقف القبائل منها
281	أولا- الثورة الدرقاوية.

291	ثانيا - الثورة التجانية.
298	➤ المبحث الرابع: القبائل المتعاونة مع الاحتلال الأسباني وعلاقتها بالسلطة والقبائل في بايلك الغرب.
309	- خلاصة الفصل:
311	❖ خاتمة.
-	
315	
316	❖ الملاحق.
-	
332	
333	❖ بيبليوغرافية البحث.
-	
358	
359	➤ فهرس المحتويات.
-	
369	



ملخص الأطروحة

الملخص:

تتناول هذه الأطروحة بالدراسة العلاقة بين القبيلة والسلطة الحاكمة في بايلك الغرب خلال عهد البايات (1671-1831)، عبر تحليل أوجه التفاعل السياسي والاجتماعي والاقتصادي بين الطرفين. وتركز على دور القبائل في دعم أو معارضة الحكم العثماني المحلي، مع إبراز الآليات التي اعتمدها البايات لإخضاع القبائل أو كسب ولائها لضمان استقرار الحكم. كما تستعرض الأطروحة مظاهر التعاون والصراع، وتبحث في تأثير التحولات الإقليمية والدولية على هذه العلاقة. وتعتمد الدراسة على تحليل دقيق لمصادر ومراجع متنوعة، بما يساهم في تقديم فهم أعمق لبنية السلطة والعلاقات الاجتماعية والسياسية في الجزائر خلال العهد العثماني.

الكلمات المفتاحية

القبائل ، بايلك الغرب، قبائل المخزن ، البايات ، السلطة العثمانية ، قبائل الرعية، الضرائب.

Thesis Abstract in English:

This thesis studies the relationship between the tribe and the ruling authority in the Beylik of the West during the era of the Beys (1671–1831), by analyzing the political, social, and economic interactions between the two parties. It focuses on the role of the tribes in supporting or opposing the local Ottoman rule, highlighting the mechanisms used by the Beys to subjugate or gain the loyalty of the tribes to ensure political stability.

The thesis also examines aspects of cooperation and conflict, and explores the impact of regional and international shifts on these relations. The study relies on a comprehensive analysis of various sources and references, providing a deeper understanding of the political and social structures in Ottoman Algeria during this period.

Keywords:

Tribes, Beylik of the West, Tribes of the Makhzen, The Beys, Ottoman Authority, Tribes of the Subjects, Taxes.

